منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات آدمي

إلى حرّة، هناء، هالة، آمنة

وكل الأطفال المشاغبين

دَقّقَ هذا النصَّ

مِن موريتانيا، بَلدِ المليون شاعر، الأساتذة الأفاضل: إسلمُ دلّاهي المعلوم، فاطمة المصطفى، زينب أحمد قاسم، خديجة المعلوم.

لهم مني كل الشكر والامتنان.

صورة الغلاف: الرجل الماشي – نحت الفنان السويسري جاكومتي 1960

صدَر للمؤلف

الكتابات الطبية

المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-للأطباء والطلبة
دليل المرَبّي في التثقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986
سلسلة كتب التثقيف الصحي –الدار العربية– تونس 1984
تاريخ الطب للأطفال –دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المرّيخ: دار الرأي -تونس 1982
دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي -تونس سنة 1986
الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001
من الخراب إلى التأسيس –المركز المغاربي –لندن 2003
عن أية ديمقراطية تتحدثون؟ - *دار الأهالي –دمشق* 2004
حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان – *دار الأهالي دمشق* -2006
إنها الثورة يا مولاي – الدار المتوسطية – تونس 2011
اختراع الديمقراطية – التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
ننتصر أو ننتصر –من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية – تونس 2014

الكتابات الفكرية والأدبية

في سجن العقل -أقواس – تونس 1990
حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان – القاهرة 1996
الإنسان الحرام – قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان--دمشق 2003
الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
الرحلة-طبعة دار الأهالي –دمشق 2002-، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018

بالفرنسية

- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Edit alternatives. Paris 1979,
Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir** ? Éd paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت
www.Moncefmarzouki.com

الفهرس

تقديم الطبعة الرابعة لكتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام والوصول

الكتاب الثاني: عالَم الرّحلة

الكتاب الثالث: ملفّات الاستكشاف

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الملحمة

الكتاب السادس: البحث عن الذ ات

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم الطبعة الرابعة لكتاب الرحلة

صيف 1994 خرجتُ من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر، ممنوعا من مباشرة عملي كطبيب أعصاب في مصحات الضمان الاجتماعي (بانتظار عزلي نهائيا سنة 2000 من وظيفتي كأستاذ للطب الجماعي بكلية الطب بِسوسة.)

قلتُ في نفسي، رُبّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة في مواضيع طبية؟ لكن بأي معطيات وقد حُرمت من التواصل مع فريق البحث الذي كنتُ أشرف عليه في الكلية؟

الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ وضع العرب؟ مشاكلُ أرهقَتني كثيرا وآن الأوان لنسيانها مؤقتا والترويح عن النفس بمواضيع أقل توتيرا للأعصاب.

لم يبق إلا الكتابة الأدبية، فهي ليست بحاجة لمعطيات وستُنسيني لحظةً هموم السياسة.

لِمَ لا أكتب... رواية من الخيال العلمي؟

يا للفكرة الغريبة! يقال ''إذا عرف السبب بطل العجب.''

السبب نَهَم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنتُه وأنا مراهق. بمرور السنين اكتسبتُ معرفة واسعة بأعمالِ أشهرِ كتّابه مثل إسحاق أزيموف وأرثور كلارك وفرانك هربرت وفيليب ديك وغيرهم.

وبالمناسبة، ليس صدفة أنّ جلّ كتب هذا الأدب بالإنجليزية وجلّ الكتاب من الأمريكيين. مثلما ليس صدفة أن دخول الصين العشرية الأخيرة هذا الميدان علامةٌ إضافية على دخولها المستقبل من أوسع أبوابه. كذلك ليس صدفة ندرة روايات الخيال العلمي بالعربية ونحن في الوضع المأساوي الذي نعرف، وبالتخلف التكنولوجي الذي عجزنا لحد الآن عن تجاوزه.

إذن عزمتُ وتوكلتُ لإنقاذ شرف الأدب العربي الغارق في قصص فرسان وتجّار وفلاحين وثوّار، أستبقُ نهوضَ أمة ما زالت عالةً على صنّاع المعرفة وكلُّ أملي أن يأتي يومٌ تتدارك فيه تخلُّفها في كل الميادين ومنه أدب الخيال العلمي.

ماذا عن عقدة الرواية؟

لم لا تكون عن نزول بعثة كائنات متقدمة جاءت من مجرة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمّرها البشر وانقرضوا؟

فكرة مبتدئين رُويت ألف مرة.

قلتُ سأجعل المستكشفين يسقطون بالصدفة على وثيقة لراوٍ مجهول تعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وتشبع فضولهم بخصوص أسباب انقراضهم.

تطوّرٌ ملحوظ لكن غير كافٍ، وعلى كل حال استُعملت الفكرة في أكثر من كتاب وفيلم.

إذن سأجعلهم يفكّون رموز الوثيقة لتحقيق مهمّة لم يتجاسر أيّ كاتب خيال علمي حتى على مجرّد تصورها: إعادة بعث العالم المجهول والراوي نفسه.

إنها فكرة تبدو مجنونة وربما هي مجنونة فعلا، لكن انظر صنّاع ألعاب الفيديو وهم يبرمجون عبر ما تسمح به شطحات المخيّلة وقدرات الحواسيب عوالم افتراضية، حتى وإن كانت بالغة البدائية. ما الذي يمنع من تخيّل كائنات تسبقنا بسنوات ضوئية في ميدان التطور العلمي والتكنولوجي، تكون قادرة انطلاقا من معطيات دقيقةٍ على صنع عوالم لا يمكن التفريق بينها وبين العوالم الحقيقية، وحتى على إعادة بعث التي اندثرت؟

استهوتني الفكرة فانطلقَت الكتابة في هذا الاتجاه لترتطم سريعا بأولى الصعوبات.

حتى لا أكون مسؤولا عن ولادة عالم مشوّه، وحتى ينجح المبرمجون الأشاوس في أداء مهمتهم، لابدّ من مدّهم بكمّ هائل من المعطيات بالغة الدقة: ما هيكلية العالم المندثر؟ ما طبيعة الجنس الذي عاش فيه ردحا من الزمن والذي تسميه الوثيقة "الآدمية"؟ من أين خرجَت هذه الآدمية وكيف عاشت في هذا العالم ولماذا انقرضت؟ ثم من هو هذا الراوي؟ هل القصة التي يروي صادقة أم مضلّلة؟ إلى أي مدى يمكن –انطلاقا منها–التعميمُ واستنتاج بعض الثوابت لأدق معرفة ببني جنسه؟

باستعراض هذه الأسئلة اتضحت استحالة الردّ عليها بالحدّ الأدنى من المصداقية.

الأخطر هو انتباهي أنني لم أفكّر فيها يوما بصفة جدية.

طبعا، كنت ككل البشر أمرّ بفترات تداهمني فيها بقوة الأسئلة التي سماها دستويفسكي بالأسئلة اللعينة، والتي وضعها إيليا أبو ماضي في أجمل الأبيات. لكنها كانت تعود بسرعة إلى مناطق الظلّ من الوعي ومشاغلُ الصراع من أجل البقاء تفرض أسئلة أكثر إلحاحا من نوع: من أين سأدفع أقساط القرض المنزلي؟ كيف التعامل مع بنتٍ تدخل مراهقة صعبة؟ ما مصير معركة غير متكافئة مع دولة عصابات حاولَت اغتيالي مرتين؟

نعم، كانت لي بعض الردود على أسئلة إيليا أبي ماضي أخذتُها من هذه الفلسفة ومن تلك، من هذا الشاعر ومن ذاك، وكان عليّ إظهار الكثير من الصبر والتأدب مع أصحاب القناعات المطلقة المفروضة بمختلف أنواع الإرهاب الفكري.

إلا أن هذه الردود كانت موَزعة داخل ذاكرتي في ملفات متفرقة لا يربط بينها رابط، شأنُها في هذا شأن المعطيات المتضاربة عن العالم الذي عرفتُ، بروائعه وفظاعاته، ببشره الذين عايشتُ أحسن ما فيهم وأسوأ ما فيهم، وبِذاتي وصراعها من أجل حياة أفضل لي ولكل الناس.

إذن لماذا لا أحاول –وقد وفّرَت لي الوضعية الجديدة فرصة ذهبية من السكون والتفرغ–ترتيب كل هذه الملفات المتراكمة عقدا بعد عقد؟ لماذا لا أعود إلى الأسئلة اللعينة لا لإرضاء حاجيات المبرمجين الخياليين وإنما للبحث لها عن أجوبة يَطمئن لها القلب ويرضى بها العقل؟

شيئا فشيئا تلاشت ملامح المشروع الأول ولم يبق منه إلا بعض الآثار حافظتُ عليها في هذه الطبعة لمجرّد الذكرى وحتى التندّر.

هكذا، من مشروع رواية خيال علمي تحوّل النص تدريجيا إلى رحلة داخل الذات تستجمع كل ما تراكم داخل الذاكرة من أحداث ومشاعر وأفكار، بحثا عن تصوّر يفنّد مقولة المسعدي الرهيب عن الحياة وأنها: ‘‘عبث شرّ ما فيها أنها تجهل أنها عبث. ‘‘

هل النصّ إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي أن أنكر أن أغلب المعطيات فيه مستمدة من تجربتي الشخصية حتى ولو غرفت من الكمّ الهائل من القصص التي عايشتُها عن كثب لبناء شخصيات الطفل والأب والأم والحبيبة والصديق والعدو، بحثا عن الثابت والأزلي في أدوار قارة تتتابع عليها الأجيال؟ لكن للسيرة الذاتية قواعدها ومنها –كما فعل ميخائيل نعيمة في كتابه سبعون–السرد وفق الترتيب الزمني لأحداث موثّقة يريد الكاتب عبرها تقديم أجمل الصور عن مساره. قد يضمّن كاتب السيرة الذاتية نصَّه بعضَ العبر لكن الطاغي هو سرد الأحداث وهي أغلبَ الوقت محلّ اهتمام القارئ، خاصة إذا كان المؤلف شخصية مشهورة.

من هذا المنطلق يمكن القول إن النص ليس سيرة ذاتية[1] لأن الأفكار فيه أهم من الأحداث، ولأن سرد هذه الأخيرة لم يعبأ بالتسلسل الزمني، ومزَجَ باستمرار الماضي والحاضر والمستقبل.

إذن هل النص رواية؟ طبعا لا إذ لا تتوفر فيه أي من العناصر الكلاسيكية للرواية.

---

[1] السيرة الذاتية موجودة على الموقع moncefmarzouki.com

أخيرا وليس آخرا هو ليس أطروحة فلسفية تُحمل على محمل الجدّ لكثرة الاستشهاد بكبار المفكّرين وطول قائمة المراجع.

لنَقُل إنه نوع من التأمل في قصة الإنسان لفيلسوف عصامي تعلّم ومارس الفلسفة في جامعة الحياة واختار –للتعامل مع أهم إشكالياتها–الكتابة الأدبية، لأن همّها الصدق وليس الحقيقة، ولا تضع حدودا فاصلة أو مصطنعة بين الواقع والخيال.

خاصية أخرى لهذا النصّ الذي لن يجد له مكانا في التصنيفات الأكاديمية: هو نص متواصل الكتابة منذ أكثر من عشرين سنة ولن يكفّ عن التغيّر إلا برحيل كاتبه.

لقد انطلقت كتابة الرحلة سنة 1995 وكنتُ أغتنم كل الفرص –بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين–للاختلاء بنفسي وبالنص، أحيانا للرابعة صباحا، ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ. وفي سنة 2002 نشرت دار الأهالي الدمشقية أول طبعة ثم ثانية منقحة سنة 2010. بعد الثورة المباركة أمكنني نشر كتبي في تونس فصدرت سنة 2016 طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة هي الأخرى. وهذه هي الطبعة الرابعة للنص بتغييرات جذرية.

لماذا حكم على النصّ أن يتطور باستمرار؟

لأن الرحلة بحث في أخطر سؤال: ما معنى أن تكون إنسانا؟

وكما يعرف كل الباحثون في كل الميادين، لا نهاية للبحث إلا بنهاية حياة الباحث، وبعدها يتسلم المشعلَ باحث آخر، وهكذا إلى نهاية البحث بنهاية كل الباحثين، أي نهاية كل الآدميين.

ثم أليس من الطبيعي أن تتغير الأفكار وأن تُستبدل وأن تنضج في فترة زمنية امتدت أكثر من عشرين سنة؟

لهذا سيتواصل التفكير والتغيير طالما بقيتُ قادرا على التفكير والكتابة، والموضوعُ بئرٌ بلا قاع.

سوسة، 17-12 -2020

الكتاب الأول: الإحرام والوصول

جئتُ، لا أعلم من أين، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقا فمشيتُ
وسأبقى ماشيا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
إيليا أبو ماضي

أغرب ما في هذا النصّ ليس أنه وصلَنا بتظافر صُدَف تكاد تكون من قَبيل المعجزة، وإنما إصرار البعض على أنه مزحة بعض الشباب، والحال أن كل الدلائل تثبت صحّته.

نعم علينا اعتبار حجج من ينبّهون لصعوبات فهمه ومعالجته، فما بالك بتحقيق المهمّة التي كُلفنا بها انطلاقا منه.

لكن أليس من واجبنا رفع هذا التحدي لا لشيء إلا لأنه أضخم ما عرفَته مهنتُنا؟

المعلّق

المقدّمة

"اللّهم أتمم هذه الرّحلة على خير".

همَس الرجل بالجملة ساهماً كأنه يواسي نفسه ثمّ تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهَل. كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي ولا له أدنى أمل في الشفاء. أذكر أنّني توقّفتُ عن كتابة الوصفة، ونظرت إليه بانتباه، فإذا بكلمات تتدافع من أعماق الذاكرة لشاعر قرأتُ له أكثر من بيت في نفس المعنى، كقَوله:

غدَوتُ مع الأحياء مذ حان مَولدي إلى اليوم ما ننفكّ في دأب سفرا

إلى قوله:

وردنا بلا وفر ديار حياتنا ونترك فيها يوم نرتحل الوَفرا

وقوله:

أنا باللّيالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر

أو قوله

وهوّنَ ما نلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر

الحياة رحلة، "سفر يجدّ بنا" ونحن في هذا العالم "بنو سفر عابرون على جسر"!

صورة ضاربة في القدم تشارَك فيها الأمّيون والفلاسفة وأكثر مِن شاعر. صورة واجهتُها دَوما بشيء من التحفّظ وهي تشبّه الحياة بسياحة أو مغامرة في الفضاء الحسّي، والحال أني قضيتُ جلّ حياتي في استكشاف ما كدّسه البشر من فنّ وشعر وعِلم وأدب، وفي السفر داخل ذاتي أستكشف أعماقها المجهولة.

من أين لي مقاومة إغراءها وقد شاءت الأقدار أن أدخل العالم والآدميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحُب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون العالم في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة ولِنفس الحاجيات القاهرة!

منذ القِدم وإلى اليوم والآدميون يضربون في الأرض عرضا وطولا، جريا وراء طريدة أو هروبا من صياد، طمعا في أكل لم يوفّره لهم عين المكان أو خوفا أن يؤكلوا، وكل ما تغيّر أشكال الصيادين والطرائد.

منذ القدم وإلى اليوم والآدميون يركضون في كل اتجاه، يقودهم الفضول، يريدون التأكد من وجود جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أيّ آلهة علّمتهم صنع الجبال. ألا يُقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتدّ آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحّش والتحضّر؟ هل صحيح أن هناك وراء تلك الجبال التي تُلامس قممُها السحاب بحر لا ساحل له؟ أحقيقة أم خيال أن هناك غابات لا ترى نور الشمس تعجّ بكائنات أغرب من كل ما ينسجه الخيال؟ ماذا لو كان هناك وراء المحيط المرعب بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا، وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب؟

منذ القدم وإلى اليوم والآدميون يتحركون، فُرادى وقوافل نحو أماكن أعطَوها مكانة خاصة، والألسن المتهيّبة تقول إنها التي يوجد بها أو بقربها الذي رمانا في هذا العالم ليبلوَنا، وأنه هناك ينتظر قدومنا.

على كل حال، لا بدّ من الحركة والشاعر أدرَى العارفين بالأسباب.

سافر تجد عوضا عمّن تفارقه وانصِب فإن لذيذ العيش في النصَب (الشافعي)

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يَطِب

*والأُسد لولا فراق الغاب ما افترست		والسّهم لولا فراق القوس لم يُصِب*

*والشمس لو وقفت في الفُلك دائمة		لملّها الناس من عُجْم ومن عَرب*

*والتبر كالترب ملقًى في أماكنه		والعود في أرضه نوع من الحطب*

هل تتحرك الكائنات –التي تُقاسمنا الكوكب والتي تُسمّيها اللغة حيوانات–لنفس الأسباب؟ من يعلم؟ من المؤكّد أنها هي الأخرى لا تعرف معنى للاستقرار. تعقدُ لسانَك الدهشةُ وأنت تتخيّل بما وصلَك من معطيات ثابتة هِجرات جماعية حملت قبل آلاف السنين الخيل والجمال من سهول أمريكا إلى صحاري آسيا، ودفعت بأسود آسيا نحو إفريقيا، وأخرجَت منها جحافل الفيَلة تبحث في آسيا عن فضاءات بكر.

تعقد لسانك الدهشة وأنت ترى بأم عينك جحافل الغزلان البرية تركض في الفيافي الصهباء نحو خضر المراعي وفي السماء أسرابُ شتى أنواع الطيور تطير بحثا عن الأمان والدفء، ولو كان في الطرف الآخر من الكوكب. تأتيك صوَر لأعماق محيط تتحرك داخله الحيتان بحثا عن أماكن مقدسة لها هي الأخرى تضع فيها حملها وتجدد الأجيال. بعيدا عن الأنظار تخرج من قيعان البحار عند غروب الشمس أغرب المخلوقات أشكالا وألوانا متجهة إلى السطح لتقتات بما تجد. وما أن تشرق الشمس حتى تهرع إلى القاع وطلوعها نحو السطح مثل هبوطها مغامرة قد لا تحمد عقباها، لأن قدَر كل الكائنات ألا تتحرك على الطريق إلا والخطر يحيط بها، والحياة في كل لحظة صراع مرير من أجل البقاء.

حتى الأشجار التي نخالها ساكنة تذرع الفضاء الرحب، الريح مركب لقاحها والعصافير رسل أشواقها إلى ما وراء الأفق.

من أين لي في مثل هذا الوضع ألا أتدافع مع المتدافعين، بشرا كانوا أم من الكائنات الأخرى سائحا، مستكشفا، فارّا، متشرّدا، حاجّا، طالب علم أشُدّ الرحال لكلّ فجّ عميق أسمع عنه اقتداءً بما أوصى به الشاعر قِدما.

يا للوليمة والعالم عشب بلّله قَطر الندى، شعر الحبيبة، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!

يا للوليمة والعالم روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسل عن عطر النساء!

يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن للجائع والماء الزلال للعطِش!

يا للوليمة والعالَم خرير ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعد، الرقيق للناي، نداء عشق حسّون اعتلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدّة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيَوم جديد!

كل يوم جديد والذات تصرخ صرخة الشيخ الجليل ''لم يزدني الورد إلا عطشا''.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر، والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا، اللامتناهي كبرا، اللامتناهي تعقيدا.

يصبح الحلّ والترحال حاجة ماسّة، والعالم الذي لا يُستنفَذ زاخرٌ بالعطاء، والذات دَوما في جوع وعطش.

عجبي لمن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة، أو يُفاخرون بما يمتلكون منها، والفنان الأعظم يضع في متناولهم، مجانا، في كل لحظة، النماذج التي يقلّدها أنبغ الرسامين: قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجّة الظلام، يختفي في خضمّ البحر، يخرج منه غير مبلّل؛ هضاب متموّجة من الصحاري الصفر والبيض، أمواج متلاطمة توّجت هامتها بالزبد، نهر جبّار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمل، بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور، ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاءتها هي الأخرى شهوة السفر، سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصالها مع الثلج أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام موعدها مع الربيع، وبصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشبق، جبال شاهقة توّجت قممها بالسحاب وبالثلج، أدغال كثيفة تتصبب عرقا تحت سماء بلون الرماد، بدر يرسم على صفحة البحر نهرا برّاقا مَوجه من ساطع النور، سماء تتلألأ بجواهرها ليلا. حدّث ولا تسل عن أجنحة الفَراش فهي بلا شك أو منازع أروعُ أقسام متحف الله.

عاجلا أم آجلا سترتطم بالتحدي الأول: اتساع الفضاء. وبالتحدي الثاني: ضيق الزمان الذي خُصّص لاستكشافه.

عالَم لا تستنفذه رحلة بِطول الأبدية ولا يمنحك للتعرف عليه إلا قبَسا من الزمان يمرّ كلمح البرق! يا للمضيّف بالِغ السخاء بالِغ البخل! تتقدّم القراءة كنوع من الحلّ، كسفر بالوكالة والراوي مَن يحقق لك ما لم تمكّنك الظروف الظالمة من تجربته، لا تدري هل يجب أن تشكره لأنه تكلّف مشاقّ الطريق وأخطاره أو أن تحسده عليها. هي محاولة تعويض علّ المرء ينخرط ولو بالخيال والفكر في هذا المقطع أو ذاك من رحلة الجنس البشري، والقرّاء هم الذين شاءت الأقدار الظالمة الرحيمة أن تبقى أجسادهم على الرصيف لتسافر أحلامهم مع من اصطافهم سوء الحظ وحُسن الطالع ليكونوا فرسان البحر.

هكذا يمكنك أنت أيضا الارتحال على مراكب أشبه بقشور الجوزة مع مغامِرين لا خارطة لديهم ولا أدوات ملاحة يُعتمد عليها، ترعبهم أمواج محيط سيُسمَّى بـ"الهادئ" وما هو بهادئ والبشر في صحاريه السائلة كصغار الأسماك، على مرمى حجر من أنياب القرش.

هكذا يمكنك أن تستكشف مع ابن فضلان أراضٍ بَردُها لا يُحتمل شتاءً ولا يُرى لها ليلٌ عند مجيء الصيف.

هكذا يمكنك أن ترافق ابن بطوطة وابن جبير والشيخ الأكبر والشريف الإدريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وكل من اعتلَوا جزءا بسيطا من الطريق الطويل الذي حَمل على مرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

وفي نصوص أخرى يمكنك أن تسافر مع المجريطي إلى بغداد والبصرة تنقّب عن رسائل إخوان الصفا لتعود بها أثمن غنيمة تنشرها في مجالس قرطبة وغرناطة، أن تصحب فاكسيان إلى الهند بحثا عن تعاليم بوذا وتعود للصين بِدين جديد، أن ترتحل مع ماتيو ريتشي في ربوع الصين تُترجِم علومها للغات الغرب وتترجم علوم الغرب للغة امبراطورٍ يقبل عطائك ويحرمك لقائه لاعبا معك دور الربّ الذي لا يكشف وجهه لعباده.

إن شئت يمكنك مرافقة ابن البيطار في رحلته من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقّبا في أسرار النبات، أو تَقصّي خُطى هانز سلون بحثا في جزيرة جامايكا عن الحشائش التي لم يعرفها حتى ابن البيطار.

يمكنك أن تصحب والاس وهكسلي وداروين لتسترجع تفاصيل بحث الآدمي عن الجذور الأولى للدوحة المقدسة فنحن الغصن المتشوّق لمعرفة الجذور.

وكم من رواية أخرى قد يسَعك السفر فيها مع ماركو بولو بحثا عن أقصر طريق للصين وما تزخر به من خيرات وأسرار، مع كريستوف كولومب بحثا عن طريق مختصر للهند شعارك شعار كبار المغامرين، أروع السفرات تلك التي لا نعرف إلى أين ستقودنا، مع فسبوشي وماجلان وإلكانو وبارتولوميو دياس والقرصان فرانسيس دراك وجون سميث وكوك وبانكس وبوغانفيل ولابيروس وكل من قادهم الجشع بحثا عن الذهب والتوابل أو درّة صفراء اسمها العنبر سمّاها الأوائل دمعة الآلهة، مع بيرتون وسبيك بحثا عن منابع النيل، مع بيلزوني وكارتر بحثا عن آثار بني فرعون، مع قودان وبوجي ولا كوندامين بحثا عن معطيات تمكن من قياس قطر الكوكب الذي نتزاحم فوق سطحه كالنمل وبقية الكائنات، مع بيري وأموندسن ونوبلي وشاكلتون للربط بين أبعد نقطتين في الفضاء الحسي الذي ندرع فيه في كل الاتجاهات، مع ثور هايردال ورفاقه الخمسة، في محاولة إثبات نظريَة خاطئة حول الطريق الذي حمل الأوائل من أرض لأخرى.

قد تكون سافرتَ مثلي في نصوص ملفيل مع بحّارة نانتوكيت بحثا عن حوت خرافي أبيض اسمه موبي ديك في أخطر وأبعد وأصعب فرق الصيد، نجري وراء الحوت المسكين، نخرجه داميا من الأمواج نقطع أطنانا من لحمه، نَغلي شحمه في قدور شيطانية، ونعود ببقاياه، لنتقاسم أقذر الأرباح.

لا شيء يثير فضول الآدمي قدر سماعه أن وراء الأفق بشر يشبهونه في كل شيء ولا يشبهونه في شيء. ها أنت تشدّ الرحال مع البيروني تبحث معه في ربوع الهند عن معتقدات سكانها، المقبولة منها و''المرذولة''. ها أنت برفقة ماهلر وتومسون وهما يتخاصمان حول أول من اكتشف معابد شعب المايا في غابات أمريكا الوسطى. لماذا لا ترافق هيرام بينغهام وهو يبحث في جبال البيرو عن آثار ''ماشو بيشو'' وشعب ''الإنكا'' العجيب الذي شيّد مثل ذلك الصرح في مثل تلك الجبال المبهرة المرعبة؟

يتزايد الفضول رحلة بعد رحلة وأنت تصاحب مارجريت ميد وجامس فراز وكلود ليفي شتراوس للإجابة على سؤال وهاجس في آن واحد: هل عادات ومعتقدات ''البدائيين'' و ''المتوحشين'' هي حقا طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بعد؟ ما يعود به الرحّالة من كل هذه الأسفار روايات لا تكاد تصدّق، وكم هو باهظ ثمن استكشاف عالَم يتمنّع عليهم تمنّع الحبيب المفرط الدلال الواثق أنّ أسير حُبه لن ينفكّ يطلبه مهما قسا عليه وتجبّر.

يا لطول شهور خمسة اختفت فيها الشمس وأنت مع نانسن تواصلان على الأقدام البحث عن طريق مختصر للقطب الشمالي بعد اضطراركما لترك السفينة ''فرام'' حبيسة جليد أقاصي الشمال! كم قاوَم الجسد ما لا يُحتمل من البرد وأنتما تائهان في شساعات الصحاري البيض وسط الفراغ والصمت! يا لطول السنين الثلاث من العذاب الصرف والطريق ألواح من الجليد فوق محيط متجهّم يراوغ تارة نحو الخلف وتارة نحو الأمام كأنه أقسم ألا يرسوَ بكما يوما على برٍّ تلتقطان فيه الأنفاس!

ومع ذلك لا شيء من هذه المعاناة أوقف يَومًا سَير الرواد في كل اتّجاه.

تكاد تُحسَب المغامرة فرصة لا تعوّض، وسيلة لا غنى عنها لكي تغوص الذات في أعماقها تستكشف عبر مواجهتها القاسية مع العالم ما تزخر به من طاقة المتعة والألم، تلتمس حدود ما يمكن أن تتحمّله من خوف وما تأتيه من جسارة، تجرّب كل إمكانيات الفكر في فكّ طلاسم عالم يفيض بما لا يُحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من ألغاز، وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: لا خشية عليك معي من الملل.

بداهة الرحلة –حتى التي تستكشف مقطعا صغيرا من الطريق فما بالك بالتي تتحرك على طوله من المهد إلى اللحد–أكثر من استكشاف فضاء حسّي نخترقه زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد... ونغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش.

هي تجربة يتيمة ثمينة تمرّ بها الذات وأوفرُنا حظا من ينهيها وقد ملأ جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس والأفكار والصوَر، عائدا إلى المجهول الذي خرج منه، لا بمعنويات السائح الذي لم تنصَب عليه وكالة الأسفار وإنما كالنحلة المنهكة المتسارعة إلى خليّتها راضية بما جمعت من رحيق الأزهار.

*

تأتي يوما رغبة التدوين للرحلة، بمفهوم المعرّي طبعا، لا بمفهوم ابن بطوطة.

يتّضح لي من البداية ما الذي سيكون مطلوبا من عمل كهذا.

يجب أن أتفحّص كل ما تراكم في الذاكرة طيلة هذه العقود التي لم انتبه لمرورها السريع.

يجب تنظيم هذه المعطيات التي تشكل عصارة تجربتي في ملفات كبرى، التي تتعلق بأهمّ الأحداث التي حدّدت مساري، التي تتعلق بالمواضيع التي شغلت العقل ولا تزال.

يجب أن أتمعّن في المتغيّرات التي تُميّز قصتي عن كل القصص، وأن اكتشف وراءها الثوابت التي تجعلها تنويعة على نغم قارّ.

كل هذا لِفصل الزبد عن الزبدة لعلّ المعنى ينبثق من كل الحيرة التي صاحبتني طوال الحياة.

ولأنني لست الوحيد الذي واجه هذه الإشكالية الضخمة فلا بدّ لي من تفحّص أراء وتجارب الآخرين لأكتشف التقاطعات والتباينات.

فوق المكتب على ورقة امتلأت خربشة رؤوس الأقلام هذه،

أتمعّن فيها باهتمام ينقلب بسرعة إلى سخرية.

أهزّ الكتفين، مستخفّا بنفسي مشفقا عليها، أُحبط الفكر لمجرّد، تخيّل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يتجدّد في رواية قِصةٍ كُتبَت قبلي بألف لغة وألف أسلوب؟

من أين للوصف أن يصف المستعصي على أدقّ وصف؟

من أين للتعليق أن يأتي بكلام ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من آراء؟

تفتعل الفكرة المغرية الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنين ثم تعود إلى السطح مدجّجة بحجج تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

أليس الهدف الأول لكل رحلة أن تعاش والثاني أن تسير بذكرها الركبان وتتوارثها الأجيال؟

أليست أفشل الرحلات رحلة البحّار الذي غرق لا لأنه أخفق في الحفاظ على حياته وإنما لأنه لم يعُد ليرويَ كيف هو البحر؟

أليس من واجب كل من ارتحل في هذا العالم أن يترك لمن سيأتون بعده بعض العلامات على الطريق علها ترشد تائها؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحّالة الماضي معطيات أعانتني أكثر من مرة على أهوال هذا الطريق؟

على الأقل، لمَ لا المحافظة لأحفادي على قصة قد يجِدون فيها الخيط الرفيع الذي يربط حاضرهم بماضيهم؟

يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرهبة.

ألم يحِن الوقت للتوقف عن محاولة تغيير عالم لا يكره شيئا قدر محاولة تغييره؟

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للقطيعة مع خصومات تافهة لا تنضب، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن فيما أبصرتُه دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لزيارة الوداع قبل آخر منعرجات الطريق، لتصالح الذات مع ذاتها... للتطهُّر؟

ثم ما العَيب في الاعتراف بتجدّد أمل الانتصار على الفناء بالحرف؟

يصمت النقاش سنوات وكل الحجج مرفوضة الواحدة تلوَ الأخرى.

يوم لا أتوقع، يؤخذ القرار، والسبب مدفون عميقا داخل اللاوَعي، وفي كل الحالات متى كنا بحاجة إلى أسباب، والفعل هو الذي يوجِد لنفسه ألف تبرير!

ينطلق التدوين يستعرض ويتفحّص ملفات الأحداث والمواضيع والأفكار التي تفيض بها الذاكرة غير آبه بتسلسلها الزمني، علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حدب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.**

اليوم 600 14 من الرحلة

عالم... عالمان؟

تدوين الرحلة، نعَم! لكن أيّ رِحلة؟ رحلة اليقظة أم رحلة المنام؟

كم هو غريب فقر أدب الرحَلات من رواياتٍ كالتي تركها لنا مغاوير استكشاف عالم اليقظة.

حقيقة، ليس لديّ الكثير مما أستطيع كتابته بخصوص أين نذهب وماذا يحدث لنا بالضبط في فضاء لا نعرف عنه الكثير ولا نتعلم منه شيئا، رغم أننا نقضي فيه نصف الزمن الذي مَنحَتنا إياه القوى المبهَمة التي فرضت علينا تجربة الحياة.

كل ما يسَعني قوله إنه لا مناص كل ليلة من الرحيل إلى الأصقاع المجهولة، مهما كان عدم التشوّق لدخولها.

في أقدم الملفات التي تحفظها ذاكرتي، يُنذِرني شيء ما بداخلي بضرورة إغلاق العينين. أفتعل تجاهل نفاد صبر الآمر المجهول فتحافظ يداي على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتُؤْدة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومنّي المشاكسة. أشعر به، –من هو؟ – قد غيّر اللّهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام. يسقط الرأس –المرة تلوَ الأخرى–على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنّني أرفع صخرة إلى عَنان السماء. إنها بداية نَزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلّف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غيرُ المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالمٍ له القدرة على كسر شوكة كل متكبّر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرّأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النّور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيّا الأمّ ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حَجرة هيهات أن تنفع في صدّ الكوابيس.

وفي بعض الملفات المتعلقة بنفس الهواجس، يتابع الطفل بصمتٍ قلِقٍ التنفس البطيء لشقيق يرقد بجانبه يرفض الردّ على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب ولا أحد يجيب على سؤاله الصامت: تُرى إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟

ماذا لو تاهت هذه النفس التي يتحدّث عنها الكبار في الأماكن المجهولة التي ترتحل إليها كل ليلة؟

ماذا لو ضلّت الطريقَ وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فِراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير أمه؟

يداوي الطفل قَلقه بتصوّر حَبلٍ شفّاف متين تربط ''ما'' طَرفه كل ليلة في وَتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغِه.

ماذا لو قُطع الحبل وبقيَت النفس سجينة العالم العجيب؟

ما يتّضح سريعا لكل آدمي أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى ''الفضاء'' الغريب، وإن مُنعَت أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا –إن طال الأمر–إلى نهاية الرحلة نفسها.

قُدِّر علينا شئنا أم أبينا، أن نغادر ديارا معروفة نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تماما؛ أن نعود منها لنَرجِع إليها مجددا والمرءُ كمَن يقذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، ثم من الشاطئ إلى عمق المحيط وهكذا... إلى آخر منعطفات الطريق.

بعض المعطيات الثابتة بخصوص التجربة الغريبة.

أنت لا تَمتَثل لأمر الرحيل في أي مكان عليه أن يكون مخبأ آمنا تستودعه بكل ثقة جسدا فَقدَ تأهُّبه للكرِّ والفرِّ دفاعا عن وجودٍ مُهدَّد على الدوام.

عليك أيضا التخلّص من لباس رحلة النهار، إذ لم يُعرف عن ''الفضاء'' الغريب أنه يَتطلب شمسية أو معطفَ فَروٍ ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى دِرعا وسيفا. حتما، هناك من ينامون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن، مِن فَرط الخوف أن يفاجئهم الصيّادون في ''الواقع'' لا تحسّبا لما قد يواجهون من أعداء على الضفة الأخرى.

ثَمة أيضا ضرورة التخفيف من صَدى هموم ''الواقع'' والأمر ليس دوما بالسهولة التي نأمل.

يتصاعد من الشارع المظلِم عَويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر الهَزِيعِ من اللَّيل، تذرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات مُغلَقة على خَوف صامت. أَضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهةِ الآدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

تَعطّل المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة. مصعد؟ تَستَحضرني صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مُراقب بصَدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية، وراكبِ صاروخٍ نافدَ الصّبر يريد الإفلات بأيّ ثمن من صراخ لم يتطوّع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رَحمة بالمرأة وبالجيران.

يتواصل هَمس غير مَعروف المصدر والهوية بين مجهولين:

– استحضروا صوَر الطفلة.

تتسلل تفاحة أو تفيحه من فراشها نِصفُ نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى صدرها. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدَفع لطيف. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المتشنّج. تتحرّك شفتاه بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتُطفئ بقية الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجلَ المتزايدَ الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيُحكِم حوله الغِطاء.

– التقرير.

– تَواصُل بعض بُؤر التوتّر لكن مع انطفاء أغلب المؤشّرات الحمراء.

– استحضار آخر الوسائل.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.

تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية ''إيتي'' تتوسّط الأجساد الحيّة، تبعث فيها وتمتصُّ منها ببالغ الحذر شيئا ليس للّغة مصطلح يَصِفه ولا للقصّة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أمره شيء.

– الآن كل شيء على ما يُرام.

– إقلاع.

أي ''فضاء'' ترسو عليه الذات بعد أن تركت جسدها قاطنا في الفضاء الحسي؟ كأنّ هذا الذي ترحَل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحاب خفيف، من دخان السجائر. كيف تنقل لقارئك خصائص هذا الذي تتوغل داخله، والحال أن كل أشكاله تبدو كرسم لبيكاسو وشاجال وماغريت؟ الأعجب من هذا أنك لا تجده على نفس الحالة من ليلة لأخرى. تصوّر أنك تستيقظ كل صباح لتَجِد الفضاء الحسّي تارة بلا شمس وتارة أخرى بأربعة شموس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسبح في سماء بِلَون الورد.

يتضح لك لماذا تجنّب كبار الرحالة التدوين لرحلة المنام.

حتى تكون هناك رواية لا بدّ من مُستمع ومن راوٍ واعٍ يتحمل مسؤولية قَوله وفِعله. لا شيء من هذا القَبيل موجود في رحلة المنام والحالِم شكل لا يتجسد، أو قُل شكل تجرّد من خصائصه ليصبح فكرة مُبهَمة لا تتذكّر أنّها عَرفت حالا غير الذي هي عليه الآن، ويا لغَرابة الحلّة الجديدة التي تلبس.

قال لاو تسو: ''حَلُمت ذات مرة بأنني فَراشة، فمن أنا؟ لاو تسو يَحلُم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاو تسو''؟

ماذا لو كان الحالِم -لاو تسو كان أم الفراشة-هو نفسه حُلما يَحلمه حالِمٌ قد يكون الذي تُسَمّيه بعض الرؤى الله. حالم يحلمنا نحن جميعا، مما يجعل منا مخلوقات حُلُم تحلُم بدورها مخلوقاتها؟

أخيرا، أي قصة يمكن أن تعود بها للسامع المتشوق؟ لا شيء في جُعبتك غير أشلاء قصص لا يربطها شيء.

الذات الآن وَسَط بعض المتاجر الضّخمة، وسط حُشود من الدمى. تحدّق بي دمية تلبس حلّة العرس. تغمزني وهي تبتسم. تصرخ بداخلي دمية أخرى مُحمرّة الشفتين أن أغتنم فرصة مَوسِم التخفيضات. أي تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدّمى؟ فجأة، تتطاير حولي بالونات صغيرة شبيهة بقَطرات الندى أو بفقاقيع الصابون، وداخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة يتسلّق جدارها اللزج يَضرِب بقبضتيه كأنه يبحث عن مَنفذ وصراخه الصامت يدَوّي في أرجاء العدم.

الديكور نُزل نتن في قرية نائية. أُعاتِب صاحب الفندق على تعطّل المرحاض فيعتذر لي ويَعِد بأنه سيُصلحه فورا. ما يهمني أيها الغبي ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق يا سيّدي ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف الوُجهة، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم، الذي تعرفه وتثق فيه. جريدة اليوم وجريدة البارحة وقبل البارحة ومُتصفِّحها يركب قطارا يتوقف دوما عند نفس المحطّة، ليحيّيه نفسُ المجهول على نفسِ الرّصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار. وجه مُعوَجّ لآدمي مسك بصِدغَيه يُصدِر صرخة مُحمّلة بكل ما في العالم من رُعب ثم يَغرَق في بحر من الدم. تتعالى من اللّامحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رَأسُ آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على الزّرّ الكهربائي العالِق في أشداق الحوت. يصرخ في وجهي البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعبني قهقهة تتصاعد من حنجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعَت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العشّ. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتَنفجر بالضحك. تُدرك الذات مجدّدا أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث مُمتحِن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ أرفض، أرفض، أرفض، كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الردّ صمتا ساخرا ومهدِّدا، من مصدر قريب بعيد، معروف مجهول: ما تتطلّبه المهمّة من مرّات. المهمّة! أي مهمّة؟ لتذهب المهمّة إلى ألف جحيم.

يحرّك الرجل الماشي رجلين من حجر ثبّتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يُجلّ وجهه الجميل شَعر بِلون الكفن. ترتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلّقَين في الفراغ. يتّجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أواصل الطواف حول البِركة. يعوي كلب مُطلّ على حافَة البئر. يشعر الطفل أن لا مهرب له من براثنه. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. يتصاعد من المسجى على الفراش أنينُ من يرفع أثقالا لا قِبل لإنسان بحملها. تَنتصِب العمارة البيضاء التي تلامس النجوم، أمشي على سقفها متّجها للهاوية. فجأة تبرز شجرة سَنط شاهرة أشواكها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزِعا طالبا النّجدة. تَصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيضِ أن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القتيل.

ربما دخلت ''ح'' حُلمي تلك الليلة صُدفة، أو أنني الذي فتحت الباب الخطأ لأدخل حُلمها. هل تَواعَدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ بمَ أفسّر خروجها من بين جحافل الأغراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أَرتاد؟ هل من باب الصدفة عَرفتُها لأول وَهلة والحال أنني لم أقابلها من قَبلُ؟! لماذا نظرَت إليّ باستغراب وأنا متجه إليها باسط اليدين لأتابع طريقي مكسوفا ومُعتذرا وهي لا ترتمي بين ذراعيّ؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها تَرمُقني بحَيرة كأنها تَعصُر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن أيضا من الأماكن التي ترتاد؟

يتعالى الصُّراخ من مصدر مجهول. تتلاشى صرخته الصامتة في فضاء مبهم. يتّسع رُبع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: يا إلهي، كم أنت موجوع يا طِفلي الصغير. يُقطِّب الشبح المشيب جبينه مستنكرا ضعفا مُشينا. ينزاح الثقل من الرجلين. يشعر الطفل أن القيد

انكسر، أنه يمشي طليقا، يركض خَبَبا، يقفز عاليا. كم يبدو الطريقُ سهلا والهدف قريبا! يتراجع الوالدان بعد أن أنجبا مولودهما ثانيةً. تتعطّل محرّكات الطائرة وتبدأ في السقوط نحو البحر. أيّ ملاذ وقد حانت الساعة؟

كم من آدمي نهض من فراشه مبلّلا بالعرق وهو بين المنام واليقظة كالمستجير من النار بالرمضاء، ومن الرمضاء بالنار!

كل ما نؤوب به من رحلة الليل تَحرّك شَبحٍ للذات في أغرب حالاتها وسط عالم مصنوع من أشلاء مناظرٍ تعاني من اضطراب مشاعرٍ، تعيش أشباه قصصٍ لتعود لقاعدتها الصلبة منبهرة أو مُرتعبة، يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها.

هل ثمة نظرية طريفة بخصوص طبيعة هذا "الفضاء" وماذا نفعل فيه؟ لا تُحدثني رجاءً عن مخاوف وشهوات تفوح منها روائح كريهة، ولا عن رسائل مُشفّرة ترسلها الآلهة كما تَزعُم بعض الرُّؤى قليلة الإتقان ضيّقة الأفق.

تخيّل معي، بما أنه يَستَحيل مواصلة استكشاف عالَمَ اليقظة دون الارتحال كل ليلة إلى ''الفضاء'' الغريب، ماذا لو كان ''مكان'' صيانة ذاتٍ يُنهكها صراع الوجود وتحتاج إلى العودة إليه باستمرار لتستريح وتستعيد نشاطها؟ تصوّر أيادٍ خفية تستلم الذات حال دخولنا الغيبوبة، لتغسل هنا أوساخ الذهن وتداوي هناك أوجاع الروح، ثم يأتي أمر الرحيل والعودة إلى حلبة الصراع.

ماذا لو قلنا إن ''الفضاء'' الغريب ورشة إصلاح للعالَم نفسه، يتمُّ فيها كل ليلة صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الظواهر والكائنات، لنجد كل صباح عالما جديدا معافىً من تجدُّد العطب جاهزا لأحسن استعمال؟

ماذا لو أن قاعة الانتظار وغرفة النوم هي العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية ونحقق فيه هدفها الخفيّ؟

آخر الفرضيات وبعدها نغلق ملفّا يتجاوز بداهةً قُدرات الفكر والخيال؛ ماذا لو كنّا نعيش جزءا من الرحلة ككائنات حسّية في فضاء الوضوح والنور وككائنات جدُّ مختلفة تعيش أحداثا وقصصا من طبيعة أخرى في فضاء الإبهام؟

يصبح السؤال، هل نرتحل في عالم واحد بوجهَين مختلفَين أم في عالمين مختلفين. من يدري؟ ربما في أكثر من عالم ونحن لا نعي ولا ندرك. أضف إن شئت للحيرة حَيرة أخرى. ألسنا نحن أنفسنا عوالم تُمضي الكائنات المبهمة التي تعيش في جوفنا وعلى جلدنا عمرها في استكشافنا ومحاولة فهم سبب وجودها بداخلنا؟

ولأن الآدمي المسكين مواجَه بكمّ هائل من الأسئلة وبعدد قليل من الأجوبة أغلبها من نسج خياله، فإنني إغلاقا للملف الشائك سأعتبر –دون أدنى حُجّة مقنعة أو برهان متين–أن ما نسمّيه ''العالم'' هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسّر لي إدراكه خلال ما عِشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلّص من عِبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلٍّ لي أتصوره –بشيء من الشماتة–مُنهمِكا في كتابة رحلته لقرّاء من الأشباح، شاكيا مثلي من صعوبة مَهمّة عبثية لم يكلّفه بها أحد.

**

عالم... عوالم؟

يتعالى صراخ الممرضة في عنبر الرضّع:

– النجدة، النجدة!

تتدافع زميلاتها لتتسمّرن مذهولات أمام المشهد المرعب.

– يا إلهي! حتّى الرضّع ليسوا في مأمن! كل هذا الدم! أيّ وحش يُذبح مثل هذا الملاك!

– انظروا، المجرم يتسلق الحائط لائذا بالفرار!

يدوّي عويل يصمُّ الآذان من الممرضة المسؤولة عن الملاك المذبوح.

يصرخ عليها المدير:

– كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم هذا الرضيع المسكين لأخبر الشرطة؟

– آه يا صغيري أديلفة! اسمه أدولف هتلر يا سيّدي.

تتقيّأ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها قبل أن يُغمى عليها. كان الرضيع الضحوك المفضّل لديها في كلّ الحضانة، بل كانت تَنوي تبنّي اللقيط.

كم من حياة كانت ستنقذ وكم من قصة كانت ستعاد كتابتها من أول حرف إلى آخر كلمة لو نجح الثوار في ذبح الرضيع، وقد علموا باكرا من تداخل مفاجئ لمستويات العالم ربما حدث عَرَضا أو عن قصد، ما سيتسبب فيه هذا الملاك من فظائع يَندى لها جبين إبليس نفسه.

في المقابل، أيّ مسار كانت ستأخذه ملايين القصص ومنها قصتي لو انتصر أكبر مجرم في التاريخ، في الحرب العالمية الأخيرة؟

عودة لفضاء الخيال أو لعالم موضوعي انزلقت فيه القصص في غير الاتجاه الذي أعطى عالمنا الذي نعيش فيه.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس، تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستتحوّل ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائيةِ من لا يعرفون الخبث والعدوانية. تفتح عينيها جيدا، تحدّق باندهاش في النادل الأسمر المقترب منها بكل حذر. يلاحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع إليها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم المورَدين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا وافرا من السوط وهو –لسبب يجهله–المتّهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرّد وحتى بالإعداد له. يأتيها بما طلبَت، والمرأة لا تكفّ عن التحديق به بدهشة لا تُخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعوّد عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حنينا غريزيا لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق مُدركا –وقد داهمه الهلع–عواقب ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة، يتوجّه إليها بأدب المهنيّين:

– عفوا يا دكتورة، هل ضايقك هذا العبد السامي في شيء؟

– لا أبدا، أبدا.

– أعجبك "الجيلاتي"؟ مرطّباتنا من أحسن ما في فينيسيا، لكنك لم تأكلي منها شيئا!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفتيها. تجَمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينيها غزيرُ الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولا تنسى أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه فيفالدي، وآثار رسامين يُدعَون بليني وكانالتو وفيروناز.

يتبعها العبد السامي المزداد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو ركضا نحو القناة الكبيرة إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر. يستفيق الرجل على صراخ سيده وهو يركله: أطعمك لتتفرّج على الحُجاج يطوفون بتمثال سيدنا عليه صلوات الربّ ووطان وبركات الربة فريكا؟ هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما دون الإنسان.

فكرة أخرى مثيرة لقلق مبهَم. ألم يخطر ببالك يوما أنك قد ترتحل في أكثر من عالم وأن لك ألف ''أنا'' في ألف عالم مُوازٍ وكل ''أنا'' عاكف هذه اللحظة على نسج قصة غير التي تنسج أنت في هذا العالم؟

إنها إمكانية مثيرة لم يتعرّض لها إلا أدباء الخيال العلمي انطلاقا من أخصب نظريات الفيزياء المعاصرة، وهي تتفطن لكون العالم الذي تستكشف أغرب من كل ما يجود به الخيال.

لم لا؟ لو قيل لآبائنا وأجدادنا ستطيرون في الفضاء، ستتواصلون بالصوت والصورة مع أطفالكم وهم في أقاصي الأرض وأنتم في بيوتكم، ستسمعون أغاني الموتى وكأنهم بجواركم، لما صدّقوا.

سنغلق هذا الملفّ كما أغلقنا ملفّ رواية الرحلة في عالم المنام ولنفس السبب. ما على كل ''أنا'' إلا تدبّر أمره ورواية رحلته في العالم الذي تبلور فيه، تكفيني صعوبات رواية رحلتي ورحلتك في عالمنا هذا.

إشكالية أخيرة لا يمكن القفز عليها.

هل كان من الحتمي أن أنزل في المكان الذي نزلتَ فيه، في الزمان الذي كان زماني، أن أسير على الطريق الذي سرتَ فيه، أن أعرف الناس الذين عرفتهم، أن أكون أنا ورحلتي في تفاصيلها هذه التي أحاول التدوين لها؟

كانت "ما" تتحرّك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلّا ما أراده كائن لا مردّ لإرادته أملَى نصي ونصك وكل النصوص، بل كل سطر وحرف وكل فاصلة. كانت تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا ''مكتوب'' مسطّر من الأزل في دفتر الأقدار، لم يكن من خيار لنا ونحن ننزل العالم غير اتّباع الطريق الذي اتبعنا والمرور بالأزمات التي مررنا بها ولعب الأدوار التي لعبنا والانتهاء كما قُدّر لنا منذ الأزل.

في رؤيايَ الأمر العكس تماما. لم يكن هناك أيّ حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجَد يوما.

ألم يكن بوسع الخليفة الفاطمي أن يطمع أجدادي البدو الغزاة بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب؟ ألم يكن بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقية؟ ألم يكن بوسع تلك الجدّة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، تجار البشر الصحراء في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا؟

رحلتي إذن كرحلة كل الآدميين وليدة سلسلة أحداث لم تكن لا مبرمجة ولا ضرورية ولا قابلة للتوقّع، منها ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة، فجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى، تردُّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وجملة من الأحداث الأخرى ربما كانت تثير فيّ موجة عارمة من الضحك العارم أو موجة من الاستنكار الساخط لو عرفتُ دورها في بلورة قصتي.

كل القصص مثل كُرات البلياردو في حمى اللعب –مع أن اللاعب في قضية الحال مَخفي عن الأنظار مجهول الهوية–محكوم عليها أن ترتطم ببعضها البعض فإذا بمسار كل كرة يتغير في اتجاه لم يقرره إلا حسن الحظ لهذه وسوء الطالع لتلك. حتى قصة العالم ارتطامُ الصدف بالصدف ولا شيء مقدّر أو مكتوب إلا غير المقدر والمكتوب. لم يبقَ لنا إذن، إلا التدوين للرحلة الوحيدة التي نحن

متأكدون من وقوعها في العالم الوحيد الذي نحن متأكدون من وجوده، حتى وإن لم يكن لدينا إلا بعض الإشاعات عن سبب وجوده ووجودنا فيه.

**

البدايات الغامضة

أين نضع نقطة انطلاق للرحلة؟

لحظةَ وقوعِك صارخا بين يدَي القابلة؟

ماذا عن الأحداث التي سَبقت ومهّدت لهذه اللحظة ولولاها لما وُجدت؟

هل نبدأ من التشكيل في الرحم بعد التقاء الذكر والأنثى؟

لكن كم من أحداث سبقت حتى هذا المقطع من الطريق!

توغّلْ بالخيال وبكل ما جمعتَ طوال رحلتك من معطيات عن الماضي البعيد لتكتشف دوما أنه لا بد من بداية لكل بداية، وهكذا إلى أن ترتطم بضباب كثيف تنتهي فيه المحاولة العبثية.

أتراني قبلما أصبحتُ إنسانا سويّا (إيليا أبو ماضي)

أتراني كنت محوا أم تراني كنت شيّاً.

لا خيار غير اعتماد نقطة نختارها متجاهلين كل ما سبقها على الخطّ من نقاط.

أهمّ المعطيات عن وصولك هي التي توفرها لك ملاحظة وصول الآخرين خاصة الذين شاءت الأقدار أن تكون لهم الدليل.

لذلك أجزم أن من ثوابت كل القصص أن تنطلق رحلتك برجّة صامتة يُحدِثها نبأ.

تبتسم الممرّضة وهي تناولني نتيجة الفحص وتتسع ابتسامة المرأة التي ستصبح من الآن ''ما'' وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيّا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متثاقلة الخُطى ترصد نظرات الإعجاب. يا له من عالم متجدّد على الدوام كأن همّه الأول الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

فيما حدث قبل إشعارك بالوصول لا شيء غير الكثير من القيل والقال، ولا أحد يعرف اليقين.

''ألهذا اللغز حلّ؟ أم سيبقى أبديّا (إيليا أبو ماضي)

لست أدري... ولماذا لست أدري؟

لست أدري.''

وهل أدري أنا؟ تُقسم ''ما'' أنها ليست بأعلَم مني هي الأخرى. ربما تستفرد بك، ربما تفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهوّرة! قد تنكص على الأعقاب وأنت ترى ما تكدّس فيها. أصحيح أنّك داخل البطن المنتفخ يقِظ تتابع كل ما يجري، أن أول إشارة تتعرّف عليها هي الصوت، أن انتباهك عليه يتزايد يوما بعد يوم، أنّه هو الذي يقودك من حلم الأجنة إلى يقظتها، أنك لا تخطئ فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنّك تمسك بلِجام مَن تسكن، توجّهها إلى حيث تريد وهي واعية غير واعية، متبرّمة سعيدة بسيّدها الجديد؟ تعالَ، كن مولودا طيّبا، لا تتركني بهذه الحَيرة. كلي آذان صاغية، تكلّم لأسجّل لقرّائي كيف بدأ الطريق.

أمام صمتك، لا مُنجِد إلا خيال الفكر وفكر الخيال.

أهذا أنت! أنت هذه السوائل اللّزجة! أنت هذه الكرة التي تشبه كرة التنّس! أنت هذه السمكة! أنت هذه الضفدعة! آه، أخيرا بدأتَ تأخذ شكلا معقولا.

هلّا تكرّمت ببعض الإجابات. كيف هي أحاسيس ما قبل الأحاسيس، مشاعر ما قبل المشاعر، أفكار ما قبل الأفكار؟ أهذا كل ما لديك من جواب؟

ما الذي نستطيع استخراجه من ذاكرتنا ومن ذاكرة الآخرين ونحن كَمَن يُنير مَغارة مترامية الأطراف بضوء شمعة.

يواصل الخيال ملء الفراغات البيضاء.

كأنّي بك داخل الكهف السحري مُنهمك في جَمع شتات قِواك قبل الوثوب إلى عالم ينتظرك بفارغ الصبر.

من الواضح أن له نية عنيدة لإعدادك أحسن إعداد. كأنك أمام مهندس عبقري طرح على نفسِه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة، بخصوص ما تحتاجه من مستلزمات وكيف يتم صنعها ومتى يجب تركيبها. أتخيّله يعطي ما يلزم من أوامر: اصنعوا، قيسوا، اشذبوا، لا تغفلوا، واصلوا هنا، جدّدوا، ضعوا آخر اللمسات هناك.

ليس هنالك أخطر من خطأ الأيادي الماهرة في عزف نوتة يتيمة أو رسم حرف وحيد، فما بالك إن نَسيت أو أخطأت قراءة جزء كامل من وصفة الصنع. يبثّ الشبح في فكري أنه لا خوفَ، فالصانع مختصّ أخذ وقته لتعلّم صَنعته.

اكتمل التمثال. استقامت السيمفونية والقصيدة. وقّع الفنان الأعظم على اللوحة.

لم يبق عليك إلا دفع الباب للدخول.

أماه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوا)

امنحيني حقّ أنْ أولد

وأنتَ يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحيا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكُما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تعال، تعال، إنه حقّ مَنحك إياه مِن قَبلُ الذي قرّر أنْ توجَد مهما كان الثمن، أيًّا كانت الأخطار.

تَسترق آلة وُضعت على البطن المكوّر سماع دقّات قلبِك. أراها تُسجّل على ورقٍ، تخبِط خبط عشواء. تتعثّر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق الأبيض وأعضّ على نواجذي لأمنع الصّراخ الذي بداخلي، فتَهتزّ لصداه الصامت كل أصقاع الروح.

تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمّة الأيادي الخفيّة. ما زلتَ مصرّا على أخذ وقتك، هل لتكون جاهزا أمْ أنّ بك خَشية مُبهَمة تزداد كلما اقتربت الساعة؟ هل تتلكّأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه وشكل التجسّد؟ هل هالَكَ ما اكتشفت في أعماق ذاكرة ''ما''؟ ربما معك حق، ربما من واجبي أنا الدليل الذي خبِرَ مسامير وأشواك الطريق أن أقول: قف، لا تَخطُ خطوة أخرى، لا شيء هنا يستحق الضريبة التي ستُدفَع.

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكا. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخا مشوّها.

آه، وازنتَ بين الربح والخسارة وقرّرت أن تعود من حيث أتيت! يا مغفّل، هل صدقتني بهذه السهولة؟ مهما غلتْ الضريبة هي لا شيء بالمقارنة مع ما ستجني من عالمٍ خُلق للجميع وخُلق لك وحدك، عالم سحري فيه كل ما لا تجرؤ على تخيّله من فُرَص، عالم هائل التعقيد والاتساع، ليترك لك كل المجال للمغامرة والاستكشاف، عالم ملتحف بالأسرار ليستفزّ فيك الفضول والشوق لهتك الأسرار، عالم باهر الجمال كأنه خُلق لتُفتَن به، عالم مليء بالصعوبات يُنمّي فيك الصمود وحبّ التحدّي، عالم صارم لكنه صبور على كل مبتدئ، عالم وإن بدا بالغ القسوة بالغ الحنان والرفق، عالم بخيل لا أَكرَم منه حين يجود بالعطاء. أتتلكأ وهديّة ميلادك عالم بأسره؟

لا زلتَ غير واع بما في طول انتظارك من عبث غير مسؤول بأعصاب مَن حولك من مساكين.
تتعالى أصوات نافدة الصبر.
– ادفعي، ادفعي!
تتصبّب ‘‘ما’’ عرقا. تصرخ والألم يعصر أحشاءها: إنني لميّتة.
ألم يكن بوسعك أن تتفتّح كوردة الربيع، أن تأتينا دون كلّ هذا العناء. لكنّك ثمين والثمين دوما باهظ الكلفة. آه، التكاليف! ماذا سنفعل بالملابس –التي انتقتها لك ‘‘ما’’ وهي كمن يُعدّ لمعرض أزياء–لو تغلّب عليك الجُبن ووَلّيت الأدبار هاربا؟
هل بمثل هذه الحجج أَقنعتُك بالمواصلة؟ أهكذا زال آخِر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقّات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود إلى شفتَيّ القابلة. تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوَم ومجذوبا بأخرى لا تقهر.
يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين العوالم. تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويُفتَح أمامك –في نفس اللّحظة–باب الزمان على مِصراعيه. تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيذة، قُطفت من غُصن أقدس شجرة.
ثم تُطلِق صرختك الأولى.
يقولون إنها مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية لأول مرة. ليدّعوا ما يشاؤون، ما يهمّني هو رأيك أنت. أهي ألم النزع من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه الندم؟
أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصِد وراء ظهرك إلى الأبد؟
هل أرعبك أنّك مُلقًى بلا سلاح وسط ساحة معركة تَشعُر كم ستكون رهيبة؟
ربّما رفعت بعقيرتك لتُنذِر وتُرهِب. كم هو مضحك أن تقوم بتهديد عالم مدجّج بالسلاح، وأنت الأعزَل!
أَداهمَك الوعي أنك لن تكون مُخلِّصا وإنما أغلب الظن قربانا؟
هل هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبدا؟
ربما الأمر مجرّد لفت انتباه، تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا ذا.
أيًّا كان معناها، محكوم على صرختك الأولى هذه أن تضيع وسط كمٍّ من الصرخات وفي نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور، تواصل القابلة الأزلية استقبال أفواج الرّحّالة الجدد. ثم من أين للعالم على شدّة انتباهه لكل أشكاله القدسية أن ينتبه لاستغاثتك أو لتهديدك وسط ضوضاء تصمّ الآذان لكائنات لا تُحصى والكل يسجّل حضوره، أو يحتج، أو يلعن، أو يئن من المتعة أو من الألم. وسط هذا الصخب المقدّس لم يبق لي سوى أن أهمس في أذنك: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب وكن شديد الحذر.

*

رحلة أخرى، مغامرة أخرى، مقامرة أخرى، قصة أخرى كأن العالم لم يشبع مما عاش على مرّ العصور من القصص. مسافر آخر في عالم مكتظ ولا يضيق ذرعا أبدا بالزائرين. القادم الجديد الآن بين ذراعيّ. اليوم تفاحة وبعد سنين معدودات تفيحه.
أول نظرة ألقيتُها عليه كانت نظرة المهَني المتخوّف من قائمة المصائب التي يُبتلى بها بعض المسافرين لأن الأيادي الخفيّة أخطأت الإعداد في شيء ما. آه، لم تُبدِ قصورا في شيء، لم تنسَ في قعر الكهف لا عينا ولا قدما، لها كل الشكر والامتنان.
آه يا بنيتي، كان وجهُك وجه عجوز دار بها البِساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبيّة قبل أن ترمي به في سلّة المهملات، ولم يكن هناك أيّ هالة من

نور حول رأسك الأصلع. لم أكن أعلم آنذاك أنّني سأراكِ، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفِرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر. قرد، إله، أم ملاك، المهمّ ألا تكون شيطانا، يكفي ما في هذا العالم من شياطين. كن الرهان الرابح لهذا الذي يرمي –منذ بداية الملحمة العظمى–بكل رضيع، كالمقامر اليائس يرمي آخر ما يملك على طاولة القمار.

طاولة القمار! أليست هي –ولا أحد يعرف لماذا–التي تحدّد لك مكان الوصول وزمانه، التي تجعلك تدخل العالم بكل قواك أو بما لا يحصى من العاهات وكأنها قررت أن تجعل من رحلتك كابوسا؟ أليست هي –ولا أحد يَقدر عليها–التي تضع على ذمتك أحسن الأدلّاء أو أسوأها؟ أليست هي –ولا أحد يثنيها عن قرار–التي تأخذك على أضمَن مفترقات الطريق، أو تدفع بك من نفَق مسدود إلى حافة الهاوية؟

أُفاجأ بعينَين متّسعتَين تُحدِّقان فيَ. كأنّ القادم الجديد يراني ولا يراني، كأنّه ينظر إليّ وينظر من خلالي. يا له من حاضر غائب، وقريب بالغ البعد ملتصق بي وبيننا هوَة لا جسر فوقها! إنه في مرحلة التكيّف البطيء مع الوضع الجديد، لأتركه يلتقط أنفاسه قبل ملاحقته بأسئلتي المزعجة، قد يكون غير قادر على الردّ عليها في الوقت الحالي. تَعبُر فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة، لكن هل الرفوف فارغة حقا أم تفيض بملفات تجربة الحياة على مرّ ملايين السنين؟

يتواصل النقاش الخيالي بيني وبين القادم الجديد.

– مرحبا.

لا أحظى بردّ وأكاد أغضب لعدم اكتراثه.

– قلت: مرحبا.

كأني به يجيبني بصمتٍ مصحوب بشيء من التقريع والتهكم.

– حقا، هل أنت فعلا مولود جديد؟ هل حقا هذا أول أيام رحلتك أم إنه ليس للرحلة بداية ولا نهاية؟ هل هذا أوّل لقاء لنا أم إنك تعرفني منذ الأزل؟ هل كنتُ طفلك وكنتَ لي أبا في حلم آخر؟ هل تِهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تَعاهدنا على تجديد اللّقاء الآن وهنا؟

كل الأجوبة تَكمُن في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز المؤلم. وهذا الآدمي الذي سأقوده في هذا العالم لا يشذُّ عن القاعدة لكنه لا يتكلم مثل الآخرين. لم أعرف منهم من تحدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهرّبة من عوالم ما قبل العالم، يقايض بها شيئا ثمينا.

أُواصل العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

– عفوا، أعد ما قلت، شردت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمجِ. أنا ألحُّ! أدردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديدا. مَرحى، من شابهَ أباه فما ظَلَم.

مؤكّدٌ أن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون عُرف في عالم آخر.

هكذا يدخل كل قادم جديد هذا العالم غير محمّل بآلام قديمة وعادات لا فائدة منها، يأتيه خالي الذاكرة، مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تُسجّل عليه نغمة، مثل كتاب لم يُكتب فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بدايةً والتجديدَ تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتجدد قصة القصص.

**

الإفاقَة

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟

كأنك الآن بحّار في عَرض المحيط يستيقظ لأول مرة على أصوات صرير الشراع وهدير الموج وخرير الريح، لكن لا مَعالم حدودٍ واضحة بينه وبين الزّورق والسماء والبحر.

كأنك مسافر يستيقظ لأول مرة على جحافل من الأغراب وسط مطار مجهول لرحلة مجهولة وأنت بلا ذاكرة ولا أوراق.

ككل الصور صورتي هذه لها حدود. بالمعنى المتداول لها، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة.

لكن، ممَّ نفيق عندما نفيق للحياة؟ ثم إنك لا تستيقظ من النوم لتُواجَه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة، ولا حتى لذاتك، تتساءل ما هذا الكيان الذي أتخبط داخله أو يتخبط داخلي.

كل الصوَر عاجزة عن وصف اللحظة المفصليّة. المهمّ التجربة وليكن لها من الأسماء ما تشاء.

إبّان الإفاقة، ينشأ الموجود كمُعطًى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة وإكراهاتها، كجُملة من المظاهر الموضوعة حولنا وأمامنا، تَكتشِفها الحواسّ وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوما بالغة الجدّة.

تُفاجأ بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادّة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم مرحٍ، يداهمك بكلِّ حيَويته، من كلِّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.

تعود للصراخ في أوَج تجدد أول إحساس: المغص. آه، أيها المسكين، قُدر لك أن تأتي الوجودَ جائعا، أن تجرِّب فيه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على حالكَ الأوّل.

يُدرِك العالَمَ المنكبُّ فوقك أنّك ما زلت هشّا غضّا قابلا لكل أنواع العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلا. يتجدّد مغص الفراغ وكأن لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرّواء والشّبع. تشعر أنّه لم يعد لك من طاقة على تحمُّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبتَ منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. عندها تلجأ إلى مغارة النوم لتشفى من صدمة الوصول.

أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا مُؤخرا العالم، لا يدخلونه على أطراف الأصابع إلا ليسارعوا إلى المخبأ الذي فارقوه كأنّهم يتمرنون على عالم لا يواجَه دفعة واحدة. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجِل الذي يقتله الفضول، ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا ويعود إليها وقد أذهله البرق والرعد.

عادةٌ لن تغادرك، إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا ويشدّك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئنّ إلى حيث أتَيتَ إلا إذا كنتَ واثقا أنّ ما غادرت مُتاح لك تؤوب إليه متى تشاء.

شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض ويتضح لك تدريجيا أنك شيء قائم بذاته يواجِه كائنات تفعل به ما تشاء.

أول من يستأثر بانتباهك المتحفز، الكائن، الحارس، الخادم، المرآة التي تعكس لك أوّل صوَرك، والذي له في كل لغات البشر نفس الاسم.

تَفهم تلقائيا منه كل الرسائل، أنت الذي لم تدخل بعدُ أيّة لغة. تتضح ملامحه أكثر فأكثر وهي دوما على نفس الشكل لتنقش أولى صوَر كائن عجيب، يتحرّك ببطء بالغ، له وجه هادئ يحرّك يدَين لا تمسكان بالأشياء إلّا برفق بالِغ، كأنه مسكون بخشية الإيذاء. تبعث فيك ابتسامتُه الدائمة وهو منكبّ عليك طمأنينة عابرة.

تتعلّم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دَوما لهيب المغص المتجدِّد. تكتشف أيضا أنك تستطيع أن تصرخ إلى أن تُخورَ قِواك، والشيء المنقِذ من الورطة التي تتخبّط فيها مُصِر على غيابه المرعب.

قد يكون أهمُّ انطباع للقادم الجديد وأرسخ ما في ذاكرته أنه مُحاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة هي التي تمنحه ما هو بأمسّ الحاجة إليه، أو تمنعه الوجود إن لم يُرضِها أو أثار فيها استياءً غير مفهوم. آنذاك لا بدّ من التملّق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكّل باكرا في أعمَق أعماق الذات، في أحاسيسها وصوَرها الأولى، دعامة الأساطير والأديان وما تفرّع منها واختلف عنها من فلسفات. ما أعجب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا عن العالم لرضّع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

يجب الآن إخراج هذا الرضيع من وضع متلقّي المعلومات السلبي إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وعلى كل المستويات. ويجب أن نقوم بذلك سريعا لكثرة ما يحتاجه ولأن كل لحظة من الزمن هدية مَلكية لا تُضيَّع عبثا.

إنما المرحلة التي يضع فيها القادم الجديد الحَجَر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكّد ألّا رائحة له، يرميه لأعلى ليشعر بمقاومته لذلك، المرحلة التي يَضرب فيها بكل ما تُمسِك يده على الطاولة ليتأكد أنه هو خالق هذا الضجيج، التي يتحسّس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تثيره من أحاسيس، لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب نارا، التي يجرِّب فيها الكتابة بالفرشاة والأكل بالقلم ليثبت أن للأشياء استعمالا واحدا لا غير.

إجمالا كل قادم جديد في حالة دائمة من الفضول الجارف لكل ما يحفّ به من مظاهر وكائنات وأشياء وأماكن.

يتطلب الأمر أن يكتسب الآدمي خاصية جديدة لتوسيع رقعة استكشافه.

تتنهد ''ما'' والبصر شاخص نحو الأفق:

– يوم وقفتَ على رجلَيك لم تتجاوز سَنتك الأولى إلا بأشهر قليلة زغردتُ، ثم قلتُ: يا ويلي من هذا الفأر.

يوم نقف على رجلينا! إنه حقا يوم أغرّ، فلماذا لا يُؤرّخ له كل مسافر، وتُضربُ له الدفوف وتُطلق الزغاريد وتُنصبُ الموائد وقد رأيتُ احتفالاتٍ لأحداث أقل أهمية بكثير؟

كأني بالعالم يَهمِس في أذن كل رضيع بصدد التحوّل طفلا، مشجّعا له ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخَف أن تُخسف بك أرضي، إنّها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل ولا ضَيرَ إن كنتَ أنت بالذات القشّة التي تقصم ظهر البعير.

ها أنت تحرّك رِجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القِدم على أنهار من نار. تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلوَ العثرة تُنبئك أن الطريق ليس ولن يكون سهلا.

يزول عنك الخوف تدريجيا وقد أدركت أن المشيَ فقدان التوازن ثم تداركه.

يوم تتأكد من الأمر، يُرفع الحاجز في وجهك كما ينهار السد أمام زخم السيل.

**

الدّليلان

الطفل الآن في الخامسة من عمره، تَعلّم ما يكفي من الكلمات والأفكار ليصبح مصدر فخر صامت وإزعاج متواصل.

يظل هاجس البحث عن المعلومات قائما حتى آخر لحظة قبل أن يغلب النعاس كل عناد.

– "ما"، حدّثيني عنه، متى رأيتِه أوّل مرّة، كيف أصبحتُ له ابنا وبات لي أبا؟

كيف لا يسعى الطفل الأزلي لاستكشاف ما في ذاكرة الأم وكل طفل يدرك باكرا أنه يواصل قصةً ما، أنه ليس إلا فصلا في كتاب سطّره الذين ارتحلوا قبله؟ من أين له تفادي ضرورة استكشاف طبيعة الذين سبقوه للوجود، وهم أهم مكونات ذاتٍ لا مجال لمعرفة ذاتها إلا بمعرفة الذوات التي شكّلتها. هو لا يبحث في القَصص عن التسلية وإنما عن الأصول.

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش على الدوام.

– ذهب شيخ قريتنا إلى الجامع الأعظم يطلُب مربيا للأطفال ثمّ... لكنني حَكيتُ لك القصة أكثر من مرّة!

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمّي إبراهيم بحثا عن "با"؟

يتحرّك الشيخ ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكّانها. يصل إلى الجامع الأعظم فيسأل الكثيرين ولا يعجبه هذا أو ذاك لعِلمه بمواصفات حاجته. العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با". الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. كأنّ الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحقّ في نسيانه على شدّة استخفافه بالمواعيد. لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتّى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا، ولم يكن يتمرّن على السلاح أو بصدد نقله من مخبأٍ إلى آخر، ولا على الطريق هاربا. نعم، كان الرّجل الذي أرادته لي القصة كدليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل كيانه وكامل ذاته وصفاته حاضرا بين يدَي القدَر. ومع ذلك تُرى هل تردّد الشيخ في أخذه هو لا غير؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات وجه الشاب الغريب. هل أرهبَته جرأة كانت تَطبَع حَركات الطّالب الطموح وسَكناته؟ أم شَدّه ذكاء حادّ كان يستهوي حتى ألدّ أعدائه؟ ربما اختاره رغم حدّة طبعه لأنّه كان وسيما.

يأخذ العم إبراهيم قراره.

تواصل الأم القصة ويواصل النص التفكير في منعرجات الطريق العديدة التي واجهَت القصة.

كأن الرجل الذي سأسميه "با" يتردّد أم أتوهّم! وإنني الآن كالطفل الذي يلعب بإخافة نفسه وهو واثق أنّه لا خشيَة عليه من اللعب. يَحتدِم أول نقاش بيننا من وراء حُجبِ زمن تداخلت مستوياته واتجاهاته.

– ستذهب مع الشيخ حالا وبسرعة.

– أنا أعيش مع الفلّاحين! أنا أذهب إلى قرية غارِقة في الوحل شتاءً وفي الغبار صيفا! أنا الذي أشرِّف الاسم الذي أحملُ، أنا الذي...

– قلنا: كفى.

– رجاء، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنا أؤدّب أطفالا في أكواخ من طين وقش!

– حتى الآن لم يقرأ لك أعمَى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

– ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستتشرف بانتسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يصمّم الرجل على عناده؟ وهو يغالب تلك العَنجهية البدَوية الغريزية وذلك الاحتقار التاريخي لأهله، ركّاب الخيل والإبل، تجاه الماشين وراء أذناب البقر.

– يا رجل، خذ بِيَد الشيخ واصحبه لتأكل، واترك الشّعارات الجميلة لخُطبِك الجوفاء.

من حسن حظي أو من سوئه أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لآدمي مثل ''با''.

ها هو الرجل الذي سيشغل حَيّزا كبيرا من قصتي أخيرا مربّيا لأطفال الفقراء، يدرّسهم بعضَ ما تعلّم في الجامع الأعظم وكلّه سخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكّت تسخر منه، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالَم يستهزئ بنا جميعا.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب. لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللّا–ممكن ممكنا. أيَرضى الشاب المتعجرف بفلّاحة أمّيَة لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنّوبيا أنّها أتت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنّها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنّها لو عرفته لقالت فيه وحده الشعر ولو كان الرثاء، هو الذي كان يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يُعرَف لها مثيل: المغنّية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية لأمير الشعراء، والمستمع عبدكم المتواضع. ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، فأين أنتم من نرجسية رجُل حفّظني باكرا قصيدة تفوح بكبرياء سخيف:

قوميَ استَولَوا على الدهر فتًى ومشَوا فوق رؤوس الحِقَب (مهيار الديلمي)

وأبي كسرى على إيوانِهِ أين في الناس أبٌ مثلُ أبي؟

هكذا لم أذكر ''با'' في حديث إلا وقلتُ: قال ''أين في الناس''، فيضحك الإخوة وتُقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع. يُضيّع أغلبهم وقتك وجهدك لتكتشف من يختبئ وراء القناع، وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرّد وباقي فضائلهم التعيسة. كان ''با'' من النوع الذي يحمل خِصالَه وعيوبه واضحة لا لُبس فيها ولا غشّ، تماما كما يضع العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم. كان مُبالِغا في عيوبه وخصالِه إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان، صراحته سلاطة لسان، احتقاره نارا حارقة، وعنفه لا يطاق. كان غُروره، كذكائه، كوَسامته، كأناقته، كجرأته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المألوف. كان أكثر شيء يحبه تكديس الأصدقاء وزيادة عدد الأعداء، شِعاره قول الشاعر الأندلسي:

عُداتي لهم فضل عليّ ومِنّة فلا أذهبَ الرحمن عنّي الأعاديا

همُ بحثوا عن زلّتي فاجتنبْتُها وهمْ نافسوني فاكتسبتُ المعاليا.

لنترُك المسكين وشأنَه، فسنعود إليه أكثر من مرّة في النص، ولنلتفت للطرف الثاني الذي لا بدّ منه في هذه البداية الصعبة.

هل تردّدَت للَحظة وهم يواجهونها بضرورة الانتقال إلى كوخ الغريب، برخصة من سُلطات السماء والأرض لتكون له خادمة بلا أُجرة وتوفّر له مع بقية الخدمات متعة عابرة؟

يراودني قلق فيه هزل وجِدٌّ لما أعرف فيها من حسّ فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رَمته الأقدار تحت قدميها؟ هل أذاب أخيرا ربعَ ابتسامتها، بما تعكس من رقّة وحياء، بغلظة البدوِ فيه؟ أم هل اكتشفَ وراء عينَي هذا المها ذكاءً حادًّا بَهرَه ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن الذّكاء لدى النّساء؟

ماذا لو لَعِب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يُسرّ في أذنها بما يخبّئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل، الأنيق، المتعلّم؟ ربما فعل ورفضت تصديقه. الأرجح أنها صدّقت، وقررت أن على القصة أن تأخذ مجراها أيّا كانت الأخطار.

ما من شكّ أن هذا ما حدث فعلا وإلا كيف يكون موجودا؟

سَبق أن قلتُ إن تشبيه الحياة بالرّحلة يثير لديّ بعض التحفظات، إليكَ أهمّها.

إن قررتَ التأكد من وجود كائن اسمه الغوريلا، والبحث عنه في الغابات التي يسكنها، فلا بد لك من دليل. ستُنصت له بكل اهتمام كل مرة يفتح فيها فمه لكنك لن تعيره أدنى انتباه بعد ذلك، إذ لا يهمّك من أمره شيء؛ تنساه لحظة استلامه أجره. في رحلة

الحياة، الدليل هو أهمّ ما في الطريق. كيف لا وهو الكائن الذي يفتح لك باب العالم، الذي يقود أولى خُطاك فيه، الذي ستنظر للعالم بعينَيه وستتعامل معه وفق ما أمر به وأرشَد.

كأنّ هذا العالم الذي لا يبخل بشيء على زائريه —أو هكذا يوهمهم— قرّر لنا دليلَين ثابتَين لمزيد من الحيطة، وقرّر أن يكونا على أُهبة الاستعداد حالَما تصل وتدفع الباب. المشكلة أن بوُسع هذين الدليلَين أو أحدهما أن يكون أكبر عقَبة يرتطم بها القادم الجديد.

يعود الطفل لمشاكسة أمه:

– نعم، أعرف كل هذه القصة، رَويتِها لي أكثر من مرة، لكن لماذا لا يزورنا ''با'' أبدا؟

ثم يُفصِح عن أعمق مخاوِفه وقد راوَدته الفكرة الرهيبة أنّ أمه تخفي عنه شيئا مُريعا:

– هل... هل مات أبي؟

– يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

– لماذا يتركنا في الصحراء عند جدّي ولا نراه؟ لماذا يتركنا وحدنا دَوما هنا وهناك؟

– يا بُنيّ إنه مطارَد... وله الكثير... ممن يريدون به وبنا الشرّ.

ينمو لدى الطفل خوف من أخطار لا تُفصِح عن نواياها وعن أسبابها.

– هل تعلم أنه وضع يده على بطني وأنا حُبلى بك ليباركك، وكاد يطير فرحا عند قدومك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم انصرف مباشرة لأموره الأهمّ. لا شكّ أنّه وصل آخر لحظة عند أوّل موعد لنا، أنه دخل الفصل الأوّل من القصة لاهثا، متقطّع الأنفاس، آخذا القادم الجديد بين ذراعيه وكُلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كأنّني به يتنفّس الصّعداء وهو يتأكّد أنّ القادم الجديد ذَكر، هو الذي كان يقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعيس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صُلبه. قد أكون أطلقتُ عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول عيوب الرجل وقلة أهليّته للمهمة. ربما بلغَت الصرخة برج القيادة العامّة وأنّ حديثا بشفرة ''المورس'' أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل لاستراق السمع على المكالمات السرّية.

– ما هذا الدليل الذي اخترتموه لي؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادةِ مَن شابَ على صُراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

– نأسَف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني أغلب الوقت وحيدا، ويوم يَرجِع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالِما يفاخر بي لدى رفاق يستهزئون بكِلَينا.

– نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– النجدة!

– نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

– الرحمة!

لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفَت طاولةُ القِمار التي لا مردّ لحكمها مَن سيكون دليلك الثاني.

أتخيّله، وأنا ما زلتُ أتفنّن في إطلاق صرختي الأولى، آخذا بزمام الحديث عَجولا، نافد الصبر، متوتّر الأعصاب، مستنفر الحواسّ، كأنه داخلٌ أو خارجٌ لتوّه من صراع مع ما حَملَت الأرض من كَواسِر.

– أُنظر، هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخَف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه، فدليلك به أحسن العارفين، إنه خطير، مرعِب، غدّار، لا طريقَ آمنَ فيه، لكن لا تخَف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع، فدليلك بالحرب أحسنُ خبير. هيّا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! لك أنْ تَفخر بأبيك وأن تتغنّى بأبيات ذلك المجوسي اللّعين.

– ''با'': لو تَنحّى جَنابُكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلّا ظَهرَكم الموقّر.

– وفي هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سِلاحُك دوما مشهورا باليد اليمنى في وجه من يعضّ وباليد اليسرى سَوطُك في وجه من ينبح. وفي هذا العالم اللعين، يجب أن تحْذَر مَنْ أمامك ومَن خلفك، أن تحميَ ظهرك وجَنبَك. لا تخَف، سأعلّمك ما يجب أن تتعلّم من فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعَفهُ الحظّ أن أكون له أبا. لا أسمعك تُنشِد: ''أين في الناس أب مثل أبي''!

– اسمعني أنت ولو مرّة.

– وفي هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيّادا حتّى لا تكون فريسة. أصعَبُ ما تصطاد ذكورَ الآدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصيد، فدليلك أحسن مَن اصطاد ذكورهم والإناث. وفي هذا العالم اللعين، حَذارِ من الدليل المزيّف، يقودك إلى صَحارٍ بلا واحات وأنهارٍ بلا ماء وبرارٍ بلا عُشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقُطّاع الطُّرق. أَقسِم أنك لن تسمع أبدا لهذه الأنثى ولو أنها مَن حملتك في أحشائها. فلا أخطر مِن تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بُنَي، أيُّ حظّ أصابك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء، خبير بخبث الرجال، والآن تَدبّر أمرَك وكُن جديرا بي. آه، يا طفلي الحبيب حقّا، أين في الناس أب مثل أبيك!

– رحماك، اسمعني لحظة! توقّف، توقّف!

لهذا ولأمور أخرى ستبقى مجهولة إلى الأبد، حُكمَ على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطةٍ راكبا لا يَنزِل أبدا من أيّ قطار، وأن يعتصم بالشارع جالسا هو وأمه على عتبة الباب، يأمر اللهُ و''العبّيثة'' والجن والعفاريت وكل من لا يهمهم الأمر، بتحمّل مسؤولياتهم في تمكينه –ككل الأطفال– من حقه في دليل يفتح له الطريق.

ثمة أساطير عن قتل الأب، ولا واحدة تجاسَرت على تخيّل قتل الأم. طبعا الأمر ليس صُدفة.

كم من نصوص كُتبت في الدليل الأول! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبّدا له وتبرّكا! على مرّ العصور لبس قناع أوما أمّ الكون، سدنا أمّ الحيوانات، قايا أمّ الحياة، عشتار أمّ الحبّ، ارشكيجال أمّ الموتى، إيزيس أم الربيع، العذراء أم المخلّص! كيف لا تعترف أنت الآدمي، أكثر الكائنات نكرانا للجميل، بكل الجميل لكائن هو المغارة السحرية التي اختبأتَ داخلها تستعد وتتأهّب للموعد المثير، الجسر الذي حمَلَك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود، السفينة، وأوّل مرفأ تنزل به، مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات، متعهّد الخدمات اليومية، وأول مرآة تكتشف فيها ذاتك. أيّ وكالة أسفار قادرة على أن تقدم لك دليلا كهذا لا يستقيل أبدا ولا يطالبك يوما بدفع الساعات الإضافية التي لا تُحصى والتي يحرّمها قانون الشغل!

أعود إلى صُوَر ''ما'' في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا. هل من المعقول أن...؟ كلّا ثم كلّا. تستوقفني سرعة الرفض وعُنفُه. تُقرَع داخل ذِهني أجراس الخطر. تُرى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما ''الطابو''؟ هل ثمّة شوائبَ لا يخلو منها كائن؟ كثيرا ما سمعت عن الآدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم، إذ يظهرون كنبلاء وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صُورٍ يعرفون وحدهم أنها كاذبة.

تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد والغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرج مُتوارٍ وإنكار ساذَج أن يكون هذا الآدمي ضالِعا في أمور فيها سوائل لزجة ودماء متدفّقة وجلد ولحم وأنّات لذّة وأنّات ألم، وأن تكون الذات نتيجة لكلّ هذا. ماذا عن أحداث أخرى صغيرة لا تتماشى مع صورة القدسية؟ لا شيء أبغض عندي من أن أكون مُستعبَدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان ذلك الصنم ''ما''.

تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعزّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني، تنصاع مكرهة للأمر الجافّ.

– كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضربني.

ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتزّ إناء الخَزَفِ الجميل، يوشِك على السقوط من عَلياهُ والتهشّم إلى ألف قطعة. ليتني ما سألت. لكن، أليس من الأفضل أن أحبّ كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم طُليَ بَريقه بالذهب المزيّف؟ قاعدة يُستحسن عدَم تجاهلها إذا أردت فهم الآدمي: إن أعطاك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بسحنته العابِسة ابحث عن النور المطمور داخله. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سَطوة القاعدة.

ثمة تماثيل تُبدي فهما لطبيعة دليلك الأول. تتأملها من جهة فترَى وجه كومار ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو دُرتَ حولها شاهدت كالي تنظر في وجهك مكشّرة مهدِّدة، تتلوّى راقصة على جسد طفلها المرميّ تحت قدمَيها وقلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها الأخطبوطية تتدلّى رؤوس تقطُر دَما.

لا يفهم الطفل إلا وهو كهل أن كالي بقيَت طوال الحياة مخفيَة في أعماق "ما" لأن كماري كانت أقوى منها. تعبره لحظةً قشعريرة الرعب وهو يتصوّر ما الذي كان ينتظره، لو كان العكس ما شاءته طاولة القمار لأكثر من مسافر تعس.

هذا الكائن العجيب، أكثر ما يَعيبُه أنه لا يوجد منه إلا نسخة واحدة. لا أجد مَن أستكين إليه وأضع عندَ رِجليه سلاحي إلّا وأسمع صوتا يصرخ: هل تَحسَبني أمّك؟ لا صَدرَ حنونا أضع عليه رأسي المثقَل بهموم السنين إلّا ويقول لي صوت جَرَسيّ نافدُ الصبر: وهل تعتقد أنني أمّك؟ لا أطلبُ بعض ما كانت تجود به الأمّ دون حِساب إلا ويعوي نفس الصوت: اذهب، ابحث عن أمّك لدى غيري.

آخر ما سخِروا منّي به لافتة قاعة الاجتماع: ''اغسل فنجان قهوتك يا هذا، فأمّك لم تعد تسكن هنا منذ أمد بعيد''.

**

مأدُبة الله

تصرخ الأم في وجه الطفل بشدّة غير معهودة:

– ألم أقل لك مرارا لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح! ألا ترى أن هذا الرمل الخبيث يريد بنا الشرّ؟ ادخل الغرفة بسرعة، ولا تخرج إلى أن أسمح لك.

كيف يمكن للطفل الأزلي أن يستكشف العالم والأوامرُ تَتتابع عليه طوال الوقت: لا تلمس، لا تتذوّق، لا تركض، لا تتسلّق، لا تقترب، لا تبتعد، لا ترمِ، لا تكسر، كفّ عن الحراك؟

يفلِت الطفل هاربا إلى الخارج، راقصا، صارخا في وجه الريح، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده أبدا. ثمّ كيف يضيّع فرصة تأمُّل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة يُجيلُ النظر مبهورا في اكفِهرار وجه السّماء وموجات الضياء الخاطفة التي تتتالى بعصبيَة متزايدة كأن إلها يقدح ولّاعة تستعصي عليه، أو أنّ عفريتا أشعل في كبِد السماء مصباحا من ''النيون'' يرفض الإضاءة.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفيّ وراء جبال قاتمة بالغة البُعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا تُحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج إلى الغوط في مثل هذه العاصفة.

تركض الأم وراء طفلها وقد وجدته وراء النخلة يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوّة داخل الغرفة، تحميه من نوبة جنون الريح.

– هل تشعر بحرقة في عينيك؟

– اتركيني، أريد أن أذهب إلى الغوط. جدّي هناك ينتظرني.

– ألم تسمع كم طفلا تاهَ في الرمال، خطفَته العاصفة من أمّه وأبيه؟

– جدّي سيجدني. هو أحسن من يقتفي الآثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صَفير الريح: كفى الآن.

لثَني الطفل عن مواصلة العناد تحكي له آخر قصص عواصف الربيع وعدد من ضلّوا فيها الطريق وأحيانا فقدوا الحياة.

– خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة كهذه لقضاء بعض حوائجها، ووُجدت بعد أيّام ميّتة على بُعدِ بِضعة أمتار من الخيمة وقد حَجب عنها الرمل مَعالم الطريق. وهل حدثتُك عن ''با'' لما كاد يهلك وقد ضاع بين كثبان الرمل!

وفي ملفّ آخر حافظَت عليه الذاكرة بكل حرص يؤكد ''با'' ما رَوته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تُبرز أنيابها: لما هبّت الريح، فقدتُ كل أثر لرفاق خرجتُ معهم نصطاد الغزال الشارد. ركضتُ وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولما بدأَت الشمس ترميني بأشعتها كالصيّاد يرمي صيدَه بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلّني عليه إنس أو جنّ، أيقنتُ أنني هالك. ثم تذكّرت كيف يكون المشيُ عندما يضيع الطريق. حفرتُ لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجتُ منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيتُ تائها أياما بطول أشهر أحفر حُفرا أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت واحة واصَلتُ بوصولها الحياة. لا يغرنّك يا بني من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يأخذ على محمل الجدّ تجهّمها لحظة تقطّب الجبين... ويل أيضا لمن لا يرفع تحدّيها.

تختبئ الأم وطفلها من غضب الريح في الغرفة الصغيرة المطلة على ساحة الحوش، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد محاصر.

تواصِل الأم قلقة حديثها همسا:

– أقسِم برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا في وجه العاصفة، لن تبتعد عني. من سيضحكني ويخفّف من أحزاني بعدك؟
الطفل مشغول بوجود مبهم وراء حيطان المكان الأول ولا بد من معرفة المجهول المختبئ وراءها، خاصة الغوط الذي يقصده الجدّ كل صباح بمسحاته القصيرة. نعم، يجب أن يخرج في أسرع وقت ليلحق به. لكن، عبر أي طريق وكيف و"ما" تصرُّ على حبسه بدعوى أنه ما يزال صغيرا وقد يضلّ طريق العودة؟
كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إنْ لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ وهل جئنا أصلا لغير متعة الضياع! وهل هناك خيار آخر؟
ندخل العالم من مكان محدّد تبقى له –إلى أن نعبر الجسر–مكانة خاصة في قلوبنا تجعلنا نعود إليه دوما، إن لم يكن بجسدنا فبذاكرة الخيال أو بخيال الذاكرة. كيف لا، وهو آمن وبه خدمات مضمونة وخادمة مطيعة تحت الذمّة يمكننا إرهاقها بكل أصناف الدلال.
هذا المكان الأول الذي ننزل فيه، قصرا كان أم خيمة، مجرّد امتداد للرحم يقبل بنا زمنا ثم تتقلّص عضلاته لتلفظنا خارجا. الويل، كل الويل للمتمسك به خوفا مما ينتظره خارج جدرانه، مآله الذي كان ينتظرك لو تشبثت بجدران الكهف السحري: الموت تعفُّنا.
قَدَرُنا أن نغادر نقطة النزول هذه مدفوعين بأقوى الغرائز، وكل الأماكن الكثيرة التي تتلقفنا بعد طردنا من المكان الأول، تلعب نفس الوظيفة: الحماية المؤقتة والإعداد للجزء القادم من أخطار الطريق.
تعود الأم إلى وظيفتها تُحذّر من أخطار عالم تعرف كم هو صياد ونحن له طرائد.
– يا بنَي، لا تضيّع فرصة القيلولة في اللّعب، يجب أن تقدّر خطورة الحرّ الشديد عليك في عزّ الظهيرة. فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها حقا بوابة جهنّم، عفا الله عن والدك الذي رمانا فيها ونسيَنا.
بوابة جهنّم! لكنها أروع لوحات الله، خاصة والليل يرخي على الصحراء سدوله يلفّها بالمهابة والجلال. نقطة الخلاف الوحيدة مع "ما" إلى يوم مماتها.
يفتعل الطفل الانتباه وهو يحلم مفتوح العينَين.
سيغافل أمه أول فرصة لاستتباب السلام الحذِر، ليجد مكان الغوط وبعدها سيعود إلى موقع مشاهدةٍ أخذَه إليه جده وهو يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. سيتسلّق قمة الهضبة التي تسمّيها لغة أهله "العِرق". سيجلس على رملها الناعم يتأمل تموّج التلال الشقر عند ارتطامها بالأفق. أليس له موعد مع أبيه هناك، وأمه تَعده أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟
يُغمض الطفل عينيه، يتخيل أجداده الذين حدّثه جدّه عنهم وفي صوته معانٍ من وراء كلماتٍ لم يلتقطها كلها. إنهم الأوائلُ، الغزاةُ الفاتحون للطريق، بكل صبر على ما لا يُطاق من الأوجاع. يتخيّلهم وهم يتقدّمون إبلهم، قافلة طويلة من البشر والحيوان يستكشفون منبهرين لأول مرة فضاءً بلا حدود.
الملاعين، ونصيبنا نحن الأحفاد طرق معبدة، وسيارات مكيّفة، والانزعاج من الوصول متأخرين لاجتماع تافه!
كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة، تبثّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عِشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء، لا نعرف لها بداية من نهاية، نكاد نَهلَك فيها هلعا وجوعا وعطشا وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
تعود الأم الأزلية إلى دَورها الأزلي، تنبّه لضرورة البقاء في عالمٍ الموتُ يترصد فيه القادمين الجدد، وكأن لحمهم الطري هو ما تشتهيه نواجذه.
– يا بنيّ، لا تخرج حاسِر الرأس أبدا، ثمة من مات بضربة شمس.
يعود الطفل لأسئلته الغريبة:
– "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط على رؤوسنا؟

لا يَنتظر جوابا، وقد اختار ردّه وبدأت الصوَر تتسارع داخله. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوّها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سَهما استقرّ في كبدها فهَوت كالطّير الجريح. يمدُّ يده بحذر نحو صَيده ليسحبها بسرعة وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يُريق على الجمرة الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ينتبه لخطورة فعله والظلام يزحف من كل الآفاق.

– اسم الله على ابني. كلّمني. ما بك؟

– لا شيء، لا شيء، قلت لك: لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحَصاته الشمس، لاعنا ما سبّبت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طُلي بالقَطران. قد يكون جرّب يومها أعمق مخاوف الآدمي، وقبله داوى أطفالٌ كبروا خوفهم من ذهاب الشمس إلى غير رجعة بكمّ هائل من قرابين وصلواتٍ تبتهل لعودة واهبة النور كل فجر واعد.

زأرت العاصفة أم لم تزأر، رَمت الشمس المساكين بنبالها أم لم ترم، يجب أن يخرج الطفل ليواصل استكشافه لما يزخر به العالم من غرائب وعجائب.

– هدأت الريح، أريد أن أذهب إلى العين حالا. حالا. الآن.

– حاضر، سآخذك للعين بعد سكون الريح تماما، بشرط أن تعِدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القُلّة. إنه شرابنا ليوم كامل.

– وهل يجب أن أقبّل الماء كما تفعلين عندما تلثمين الخبز قبل أكله؟

– أُكرمه فقط بعدم تبذيره. انظر إلى ما يتكلّف جدُّك حمد وحماره عنتر من عنت ليكون هناك دوما في القربة والجرة ماء للشرب.

تهمس "ح" في أذن حبيب قادم من صحاري ما وراء البحار، وضعته الصدف على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

– كفاك تأمُّلا لهذا الشلّال.

ترفع صوتها، تهزُّ الحالم اليقظان من كتفيه:

– تعال، داهَمنا الليل.

– لن أتحرّك من هنا حتى...

– حتى ماذا؟

– حتى ينتهي تدفُّق هذا الماء. لا أصدِّق أنه سيسيل دون توقّف. اللهمّ إلا إذا كان ماءً من نوع لا أعرفه.

تضحك "ح" إلى أن ينهمر الماء من عينين بلَون البحيرات الجبلية التي وُلدت على ضفافها.

– لن تموت من العطش فترة الانتظار، بل جوعا بالتأكيد. تعال الآن.

– بالمناسبة، رجاءً لا تنسَي كل صباح رشّ ظهري بشيء من الماء حتى أجد الشجاعة للخروج لهؤلاء الأوغاد الذين يسدّون عليّ الطريق.

هل أحدّثها عن طقس مارسته "ما" دون علمي سنين إلى أن كشفَت السرّ أخت بكل طيبتها: كانت تأخذ القدح وأنت تنهض كعادتك راكضا نحو الباب لتنثر الماء في ظهرك قبل أن تختفي. كم كانت تخشى أن تنتبه لما تفعل فتسخر منها. لحسن الحظ، لست من النوع الذي ينظر وراءه.

كم من مُشادّة مضحكة والخلاف بين من يعرف قيمة الماء النادر المكلّف، الهاجس اليومي، ومن لم يُحرم منه يوما!

– لا تتركي الحنفية تسيل هكذا. هل تتصورين ما تتحمّله حمير المدينة لملْء صِهريج هذه العمارة؟

كيف لا تتشنّج أعصاب الرجل، وهو الذي استبطن من نظرات أمه أنّ تبذير الماء كتبذير الخبز الذي تسمّيه "النعمة" حرام.

– هل أخرج إلى الشرفة لأنظّف الصحون بالمطر؟

– بل نلعقها ونوفّر ماء المطر للشجر وللحمام.

تتنهد ""ح"":

– آه، لو أفهم يوما العلاقة الغريبة التي تربطك بالماء!

وهل ثمة شيء في هذا العالم أغرب من الماء أو أعجب منه، وهو الذي خُلق منه كلّ شيء حيّ؟

يقولون إنه بلا شكل وهو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء. يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشمّ. يقولون إنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أَوج عذاب العطش. يقولون إنه بلا لَون وهو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان. أليس مصدر الأحاسيس الأشدّ عمقا، الأبقى في الذاكرة منذ بدأت تسبح فيه داخل الرحم؟ أليست النوتات التي تنطلق من البيانو والقيثارة سوى محاولة لتقليد موسيقاه وهو صاحب أروع الأصوات: زمجرة الشلال، رقرقة الجدوَل الشادي، خرير نافورة وسط الدار، صرير الثلج تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم. أليس هو رمزنا للقداسة وهو الذي يستحمّ فيه الحُجاج وبه يُعمّد الأطفال؟ هل ثمة أحسن منه معلما لمفهوم تدفق الزمان وهو النبع والنهر والبحر؟ ألم يجعل منه الشعر نموذجا لكل مكارم الأخلاق؟

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه ... فلا يبتغي شكرا ولا يدّعي فضلا (إيليا أبو ماضي)

وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا ... وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا

تجيء إليه الطير عطشى فترتوي ... وإن وردته الإبل لم يزجر الإبلا

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه ... فلا إثم ذا يمحى ولا طهر ذا يبلى

أنظر إلى الماء إن البذل شيمته ... يأتي الحقول فيرويها ويحييها

فما تعكّر إلا وهو منحبس ... والنفس كالماء تحكيه ويحكيها

ينتهي يوم حافل والطفل يملأ ذاكرة كأنها بئر بلا قاع، بكل ما جَمع من أحاسيس ومشاعر وصوَر وأفكار.

ها هو يماطل لتأخير رحيله إلى عالم المنام، تَشدّه كثرة مشاغله بعالم ما زال في أولى مراحلِ التعرف عليه:

– ""ما""، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تُجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

– يا بني، ألا يكفينا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوق رؤوسنا ليلا.

– أعرف أنك لا تحبّين الشمس.

– لا أحبها! أنا أبغضها. أقصد شمس هذه الربوع.

يشرد بصرها، تحلم بالأرض الخضراء على الدوام هناك بعيدا في اتجاه الشمال والزوج مصرّ على ألا تنتظر عودته إلا تحت مراقبة الأهل ولو سكنوا على مشارف الجحيم.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار: بُغض أمه للصحراء وهُيام أبيه بها. يختار باكرا صفّه إلى جانب أبيه ضدّ أمه للمرّة الأولى والأخيرة.

تستدرك ""ما"" الأمرَ وقد فهمت أن طفلها لا يحبّذ قدحها في شمس الأب والجد:

– لا أجمل من غروبها وشروقها حتى هنا. آه، وهي على وشك البروز! لكن لماذا تنقلب فيما بعد إلى...

– ""ما"" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

– لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وُجدوا.
تَصمت ''ما'' لحظة، تُصيخ السّمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخيل. تبتسم وهي تسمع ثُغاء الجدْي حديثِ الولادة. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق الملتهب بحُمرة الدم القاني، تحلم مفتوحة العينين.
هذا طفل قرّر أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتَقل ''ما'' ما تشاء.
– أنا و''با'' وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبّينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.
– قد يأتي متأخرا هذه الليلة.
– لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.
– أمر سيّدي ومولاي، لكن لا تنهر إذا أردت النوم.
يواصل الرحالة الصغير التعرف على مَعالم العالم الغريب، يقلّب بصره من أعجوبة لأخرى ولا تفسير لِكلّ ما يرى.
من مشاكله هذه الليلة القُدسية الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر والهلال.
– ''ما''، حتى يبقى دوما الحوش مُضاءً يأتي القمر، وحين يتعب من العمل يأتي بعده الهلال.
تحاول الأم التصحيح:
– هما شيء واحد يا بني، كل شهر يختفي القمر ثم يولد من جديد، في البداية على شكل هلال وعندما يكتمل نموه يصبح مستديرا ونسميه القمر، ثم ينقص تدريجيا ليختفي مجددا وهكذا...
أكنّا لنخترع مفهوم البَعث لو لم يكن لدينا هذا المعلّم؟ من علّم الآدمي النسَق والإيقاع مع وجوب الاعتراف مُكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، ولكل عودة رحيل؟
– لا يمكن أن يكون الهلال قمرا. لو كان كلامك صحيحا لَوُجد هلال للشمس.
تبتسم ''ما''، تداري حرجا. هل يمكن أن يكون للشمس هلال لم يُدركه إلا طفلها؟
قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يصحب ظهوره من ارتخاء مستحسن، ففي اللّيالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة العابسة التي يتخذها عندما يتسربل بحالكِ الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديقا للأطفال، لا حليفا للّصوص والعشاق فقط؟
وللقمر أيضا صلة وثيقة أدركها الطفل بزمن لا كالأزمان وكأن للزمن هو الآخر ألوانا. الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصِّبيَة ينتظرون علامةً من السماء، وبمجيئها تحلّ أسعد ليالي الأطفال وأشقّ أيام الكبار، والكل فرِحٌ راض بما أمر به الهلال.
– ''ما''، متى يأتي رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.
– لا تقلق يا بنيّ، إنه عائد قريبا.
– أنت متأكدة؟
– رمضان لا يخلف وعده أبدا.
– أنت متأكّدة، متأكدة، متأكدة؟!
– كل التأكّد.
الانبهار والحبّ، لكن، العقل ولو كان صاحبه طفلا في الرابعة أو الخامسة بحاجة ماسة لتفسير الأشياء.

أولى نظريّاته أن القمر نافذة كبيرة قد يتمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالونَ عيدِ الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يُمسك به الكائن العطوف الذي تصلي له أمّه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش تترصّده وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحوّر –بكيفية جذرية–وظيفته في اللوحة الجديدة، بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهَق مُحتشَدا كونيا رُميت على سطحه الكائنات الآثمة لقضاء عقوبةٍ اسمها ''الحياة''، فيصبح مصباح اللّيل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعوّ في قصص قومه ''إبليس''.

معرفة طبيعة القمر كانت منذ القِدم هاجس الأطفال والشعراء على مرّ العصور.

''*كم عمر القمر؟* *(إيسا)*

ثلاث عشرة سنة.

تقريبا.''

وأيضا هاجس العلماء وكل الحالمين، أن يوصِل الطريق يوما إليه. هكذا رصد بنو سفر جيلا بعد جيل حركاته وسكناته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتّبعوه إلى أن حطّوا الرحال على سطحه ليتنفّسوا الصعداء وهم يشاهدون بأمّ أعينهم واحدا يمشي مُرتبِكا على سطحه فلا تزل الأقدام ولا يترنّح البدر.

– ''ما''، مِمّ صنع الله القمر والشمس؟ لا، لا تقولي. أنا أعرف، أنا أعرف. القمر مصنوع من الفضّة كالتي حول معصمك، أما الشمس فهي من ذهب قُرطَيكِ. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

– فكرة مذهلة، لكن صدّقني، يا بني، لا أدري.

– سأقول ل''با'' عندما يرجع أنني اكتشفت ممّ صُنعت الشمس والقمر. سيكون متّفقا معي فيما أقول.

– أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقول هو.

يعود الطفل إلى الصراخ ليغالب تثاؤب المشرف على الرحيل للضفة الأخرى من العالم.

تضع الأم إصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

– أنصت لماذا؟

– للصمت... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سَيحلم به الكهل وهو على طول الطريق محاصَر، مهدّد، معتدًى عليه بكل ما يُصدره الآدميون من صراخ وتأوّه ونواح وتضرّع وشخير وسبٍّ وهتاف. أنت بين أحضان الصحراء بمأمن أيضا من أشيائهم رغم بشاعة ما تصدر هي الأخرى من أصوات. حتى الكائنات التي تسكنها لا تتجاسر تَهيّبا وحياءً على رفع عقيرتها وقد التَحفت ببرقع الظلام. حتى أرقّ الموسيقى خطأ ذوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا.

في ذلك المكان الذي لا يشبهه مكان، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، يتضوّع الجوّ إيحاءً ووَحيا لمن يعرف التِقاط الإشارات ليتصل أخيرا ما انقطع من تواصل بين السماء والأرض. ولأنه لا الجبل، ولا السهل، ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء ليلا من أعماق الذات حُكِم على الصحراء، وعلى الصحراء وحدها، بإنجاب الأنبياء. هكذا وقف كم من آدميّ في حضرة أبهى صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: نعم، تذكّرتُ الآن من أنا، تذكرت من نحن وماذا نفعل كلنا هنا!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة تتأمل سماءً، هي الأخرى كالصحراء، مغرقة في الصمت أو هكذا تبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوّي انفجار شموس شتّان ما بينه وبين دويّ ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح يعظم على هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور لا كعويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوبٍ سودٍ تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمِن حسن الحظّ أو من سوئه أنّ بُعدا لا يتصوّرُه عقل يَمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج؟

ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان (المعري)

ينتبه الطفل –وهو يغالب موجات النعاس–لبريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت. يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟

– ''ما''، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

– لنفس السبب الذي لا يوجِدُ إلا طفلا واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد من نوعه.

يجلس الطفل فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يعرف الحساب أبعد من عشرة. تأتيه شهوة الإمساك بنجم ما ليضعه في فمه، وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلَم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديَة ل''ما''. يرتعش خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يُرهق به ذهنا مشغولا بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا في آن واحد: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية أتت من أعماق الفضاء تبحث لها –في ظُلمة الليل–عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟ إنها فكرة ستُخيف ''ما'' لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، هي ليست رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح، بل قد تكون ثقوبا في ستار داكن أُسدِل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه ''ما'' الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا من أنه لو وضع عَينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. آه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يميط اللثام عن وجهه أبدا!

كم استفزّ فيه هذا الكائن الحاضر الغائب –الذي تناجيه أمه في السرّ والجهر–فضولا جارفا! كم صوَرًا مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجّه إليه، لا تلتفت إلى شيء أو أحد ولا حتى إليه. ومن صوره في مُخيلة الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل ''ما''، فهي لا تبتهل إلا له، مردّدة أنه لا سند غيره يُرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكّد من الأمر إلا بالرحيل إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصل إليها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلّم، يوضع على سلّم، ليوضع بدوره على سلّم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتّسع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع. الحلّ بالطبع: فانوس الليل عند اكتماله.

تنتهي المقاومة العبثية لطفل عنيد أثقَل النوم مِنه الجُفون. يبدأ تسلّق سلّم سحري وكل درجة يعتليها تزيده خفةً وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يَثِب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مِصطَبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مَهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها عند السحاب. يمدّد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمعّن في ملامح وجهٍ مشرق بالنور.

– ماذا تريد مني يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أبٍ يريده عائدا من الغربة بلا عودة، وعن أمّ يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تُروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد ''ما''،

وعن مسحاة جديدة للجدّ، وعن جحشة جميلة يُزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة إيجاد أجوبة لكللللللّ أسئلته ليتمكّن من فهم كللللللّ شيء.

تتّسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر بيَد على وجهه تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

– ''ما''، لقد رأيت الله...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم لها الطفل سببا.

– إياك، ثم إياك أن تعود إلى مثل هذا الكلام، إيّاك!

تضع ''ما'' يدها على فم ولدكثيرا ما تخشى عليه، أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دَوما ترفض، لسبب مجهول، ولأوّل مرّة، أن تفهمه أو حتى أن تُصغيَ لما أوصاه الله أن يُبلّغها.

– ''ما''، لكنه...

– يا بني قلت لك كفى.

يشعر الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه.

تنحني الأم على طفلٍ نصفِ نائم، تقبّله وتهمس في أذنه:

– الشمس في الموعد.

– اتركيني، أعرف عنهاكل شيء.

– قلت لك: انظر.

يفرك الطفل عينيه. يأخذكل وقته للتثاؤب. يتسمّر أمام حالة يتخذها العالم الطاووس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مأدبة الحياة. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهرنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى في دار ضيافته هذه؟ أم لسبب آخر لا ترقى له أفكارنا وصورنا الصبيانية؟

يجلس الطفل بجانب أمه شاخصا مثلها في المشهد، ألجَم خشوع اللحظة لسانَيهما. شيئا فشيئا يتلوّن ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فَتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلّا، بل هي الشمس. تخرج من السواد بجلال، متخذة لون ذَهبٍ مصفّى لم يتجمّد بَعدُ في سبائكه. تستغرق ''ما'' في صلاتها الصامتة، جاثية على ركبتيها وابنها فاغر الفم من الدهشة يتابع وجه الله المبتسم. تفرغ الأمّ من صلاتها. تتوجه مبتسمة إلى ابنها:

– لِمَ تنظر في الاتجاه المعاكس؟

الطفل الآن أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث، وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النّهار نصف الزمان، ولفانوس اللّيل نصفه الآخر وهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء؟ يُجيل البصر بين الشيئين، لا يكاد يصدّق عينيه. ثم ينفجر صارخا راقصا، داهمته فرحة صاخبة لن يفهم سببها إلا وهوكهل يسترجع وينظم ذكرياته، دامع العينين منقبض الحلق. ورغم أن اللغة تؤنّث الشمس وتذكّر القمر، فإن الطفل كان على أتمّ الثقة أن فانوس النهار لا يكون إلا ذكرا والأنثى هي القمر، وإلا كيف يفسّر ما في بدر الدجى من رقّة وما في الشمس من حدة وعنف؟

ألا تؤنّث لهجة القرية فانوس الليل فتسميه ''القمرة'' (القاف منطوقة على طريقة البَدو). هو نَسج لنفسه قصّة، البدر فيها الزوجة الهادئة والشمس بَعلها الصاخب، وتجافيهما الدّائم فَصلٌ من سرّ لا بدّ أن يَسبُر يوما أغواره. يجنح به خَياله لتصوّر أسباب الجفاء.

أيُّ كارثة دهت سيّدة الليل لكي تصبح بمثل هذه الدّعة الشاحبة والهدوء الحزين؟ هل نور الضحى عرق الشمس، ونور الظلمات دموع "القمرة"؟ هل أعرض عنها بعلها السماوي مفضّلا زوجة أخرى لأنها أغضبته يوما لسبب تافه؟ قد تكون أتت من الآثام ما دعاه لهجرها؟ لا، لا. لا شك أنه هو المخطئ. ها قد عذّبه الندم على فعلته الشنيعة فأتاها هذا الصباح يطلب الصلح والعفوَ.

نعم، كنتُ طفلَ آدميَين افترقا على الأرض، وكان لي في السماء أب وأم بنفس الجفاء لا يلتقيان –هما أيضا– إلا نادرا.

**

النسق والإيقاع

الطفل في فراشه يرتعش والأم ترمي فوقه أثقل ما عندها من الأغطية. أين برد بلدان الجليد من برد الصحراء ليلة شِتاء متجهّم!
– "ما"، لماذا هناك شتاء؟
– إنه فصل من فصول السنة، يا بنيّ.
– ما معنى فصول؟
– إنها... كُبرى التغيّرات التي يعرفها الطقس... أي الجوّ... أي...
– لكن، لماذا على الطقس أن يتغيّر؟
– هكذا هي الأمور كما أرادها الله.
– "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟
– نعم، توجد هناك بعيدا نحو الشمال أرض مباركة فيها ربيع وخريف، ستحبّ الاختفاء داخل أعشابها العالية، يمشي المرء فيها أياما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف في البحر. أنَسيت أنّك وُلدت هناك حتى وإنْ كَبرت هنا؟
تواصل الأم حديثا لا أَحبّ منه وهي تتغنى بأرضِ طفولتها وحريتها: نعم يا حبيبي، هناك في أرض بعيدة فصلان لا تعرفهما هذه الأرض القاحلة. ما أحلى الخريف فيها واللهب يشتعل في دوالي العنب. وما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض.
– "ما"، إذا كان هناك فصلان آخران، لماذا لا يأتيان لزيارتنا؟
– هذه أرض سخَط الله عليها فحرمها الربيع والخريف، مبتليا إياها بلهب جهنّم أغلب الوقت، وبليالي الصقيع ما بقي من الزمان.
في ملفّ من ملفّات مستقبله القريب سنرى الطفل منتبها للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضر رفضه لأرض الأعمام، ووشّحه بما لا يُحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.
سنراه يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا، لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل. ثم سنراه يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين. ثم سنراه منتبها لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكوّرة شفافة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأني يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها، في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. آه، العشب! ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليبصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر. أخيرا سيأتيه ألذّ إرهاق فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم تتسارع فيه الخوارق والمعجزات: سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقاه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض. كالعادة الأسئلة: أين يفرّ السحاب، هل من وسيلة ليجلس فوقه يأمره بحمله إلى حيث يريد، هل ثمة جن وعفاريت تركض وراءه تريد به شرّا؟
شيئا فشيئا سنرى الهدوء يتسلّل إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية امرأتين تتحركان بقلق متزايد بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.
تُطأطئ الأم رأسها، تخفي ما بها من كآبة عابرة. يبادرها الطفل بأول سؤال يخطر بباله، غير مُحتمِلٍ صَمتَها.
– "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

– ممكن، لكنني لا أعرف إلا أربعة على هذه الأرض التي ولدت بها.

– "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

سؤال شرعي كأغلب أسئلة الأطفال. يغيّر الطفل وُجهة الحديث دون انتظار للجواب.

– "ما"، أيهم المفضّل عند الله؟ أيهم الأول بالنسبة له؟

تنخرط الأم في سمر تداعب به طفلها يُنسيها همومها.

– الأجمل طبعا... الربيع.

يتقدّم الطفل إلى أوّل أيام الخلق مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ –نافد الصبر–بعصاه وببعض الريح على بقايا سُحب عابسة بلون الرماد، فتنصرف متأفّفة متوعّدة برجوع قريب. ثم يمرّر خُرقة لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بَريقها. على ذكر الألوان، ليُسمح لي بالتعبير مجدّدا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير، والاحتجاج على قلة انتباه جُلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟

يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتتدافع الكائنات من مخابئها، تَنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحَيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها على أنها ما زالت لا تُحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أوّل عصفور مُرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حُلم جميل. تتتابع بقيّة الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

"هذا الربيع (إيسا)

حتى ظِلّي

مفعم حيوية"

آن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. يُسكرني ما تبثّه الحشائش والأزهار من رَسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاد صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذَرعا بأنفٍ ليس من ورائه نفع. أُسارع لاقتراحٍ يضمن مصالح الطرفين. أبعث إليها –عبر مختلف الفضاءات–بصورة أنف عبّأ فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّغ في أحضان زهرة أخرى، وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض، وتُسارع النحلة لما يلعب لديها دورَ السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتمّمان صفقة لا يريدانني –ظلما–طرَفا فيها.

آه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي، وينطّ، ويطير، ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهَذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لّذة الجِماع.

نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح به العالم ساحة اللعب.

يغيّر الطفل رأيه لا يريد للحديث نهاية.

– لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحّبا بالصيف ومهنئا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج متثاقلا تَعصره المرارة، هو الذي يعتقد أنه وَضع للعالم أجمل وأحدث ديكور. مهلا، إنه راجع ولا أحد يطيق له فراقا.

يطرد القادِم الجديد بفظاظة ما بقيَ متردّدا من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلّا من شمس كأنها قُدّت من سبائك الذهب. تتراجع خُضرة المروج مُفسِحة المكان أمام حُمرة مصفرّة، وقد أصبحت الأرض مرآة لِحِمَم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عادَ مِضيافا بعد طول التمنّع. تتّخذ حركة الكائنات حِدّة غير معهودة، وكأنّه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالآدميين من شَبَق. يعرّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو -لا الربيع- موسم الإغراء والحبّ. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يَصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحّب وتتمنّى له طيب المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت، ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رَصد مكانها.

نعم، ما من شكّ أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح به العالم ساحة اللعب.

يغيّر الطفل رأيه، يريد أن يلاطف أمه:

- ''ما''، أنا متأكّد أن الخريف أول فصل؟

ترفع الأم -ككل أمّ- إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد من الرمل، تأمره بلهجة حازمة:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكدّ.

يجمع الصيف حوائجه متأففا من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل إلى أوّل أيام الخريف مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي، فتمتثل للأمر ببالغ الحَياء وخسارتها ربح للأرض التي تدثّرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدّد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراءً لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخلٍ لا يحني هامتَه لأحد، ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيها دوما حلاوة الصُّلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تبدأ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل إذا أَطلق نحوها الصيّاد رصاصة الموت. تمتلئ السّماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. تتحرّك نباتات بأغصانها المحمّلة بِورود حمراء كأنّها أذرع أخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عُدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل. يشتدّ لغط الأوراق كأنها تشتكي لبعضها البعض ظُلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صفيرا مسترسلا ما بين صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طُليَت قبّة السماء بلون الحِداد. ما أغربَ أن يتكلّم الأبكم، أن يطير مَن لا جناح له!

من كل مكان مرتفع، ومن كل مقطع من مقاطع الطريق، وفي كل جيل تَعاقب على هذا العالم تجد الآدميَ يرمق كل هذه المعجزات من حواليه متسائلا: من أولع البرق، وأين الطبول التي يصمّ قَرعها الآذان؟ من يحرّك هذه الجبال السوداء التي تملأ رِحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح؟ لماذا تصمت الأرض ولا تردّ على تهديد السماء؟

ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح به العالم ساحة اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا ينتهيَ الكلام:

- ''ما''، لمْ تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ مسار الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّبا ومهنّئا بحُسن الوصول.

يصرخ فجأة: "ما"، المطر، المطر، المطر!

حتى يُواصل شدّ انتباهك، اخرجْ إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنّك أنت الذي يدعوه قرعُ الطبول إلى الترحيب بالرعد. افتحْ عينَيك كما لم تفتحهما من قبل لتتأمّل –عبر ومضات البرق الخاطفة–ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تَشكّل نهر من نور يَقسم فجأة سَقف السماء. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق والأخرى على يمينه، ولا من قَنطرة فوق شرخ النور. أَخرِج لسانك ليلتقط نصيبه من مطرٍ يتسلّل بين الثياب والجِلد. تابع وقع قطراته تنصبّ، تتدافع على طول الظهر، تبعث فيك موجاتِ قشعريرةٍ لذيذة. أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشَى. هناك في أعمَق أعماقها، أيقِظ داخلكما كل البراعم. شيئا فشيئا تتباعد الومضات، تضعف الزمجرة، يتباطأ اللّهث والصفير. تستعيد الكائنات الهيفاء وقارها. تنتصب من جديد، ترنو شاخصة إلى الأعالي. تكفّ أذرع الأخطبوط النباتي عن الصراع مع حيّ غير مرئي. يعود حفيف الأوراق همسا لا يكاد يُسمع. تستعيد الملامح العابسة إشراقها المألوف. تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء لتقول إن فانوس النهار لم يعبأ كثيرا بهذا اللّغط. تعود السّماء إلى صمتها على استحياء، كأن الزعيق الذي مُلئَت به الأجواء فاجأها أيضا، هي الغارقة دوما في صمتها المتعالي. تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد. تسترجع الكائنات المتنقّلة رغبتها المحمومة في الحركة. تطلق عقيرتها بالصراخ لتعوّض ما فاتها لما فرض عليها دويّ الطبول أنْ تخرس إجلالا لقُوًى لا مجال للهمس حتى في حضرتها. يتسلّق بسرعة خاطفة الفراغَ الأزرقَ قوسٌ من الألوان سَرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج. إنه قوس النصر مرفوع بلا أعمدة، يمشي تحته الآدمي ظافرا منتصرا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد. ثمّ يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوَه من سبّورة السماء، لا تريده –لسبب مجهول–عَلما ثابتا كالشمس والقمر.

بتقدّم الفصل تزداد تجارب الطفل في عالم كأنه ساحر لا يتوقف عن استعراض ألاعيبه، والمتفرج لا يفيق من دهشة إلا وتداهمه الأخرى.

ها هو الآن يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عالٍ بين أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلكأ حبّات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراشة. تهجم الأم الأزلية على طاقيَته تشدها بقوّة إلى أسفل الأذنين، مُحكِمةً وِشاح الصوف حول عنقه، متفقدة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. أهو فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصولٍ أصابتك بالتخمة لإسرافها في العطاء. أمِن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن مليء بالمشاكل؟

تلتهب النار في المِدفأة تبعث بالدفء والاسترخاء. ينقر المطر على أَسْطُح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة. نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح به العالم ساحة اللعب.

– "ما"، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبُّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستفزّ يوما فُضول مؤرّخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفاديا اتخاذ أي موقف، الأول مكتف بالتعبّد بالموسيقى والثاني بالرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحمّلين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين الفصول وهي الحالات التي يتخذها وهو زمان، فلا بدّ أنه حسمَ الأمر مسرّا في أذن الربيع: أنت الأوّل وثلاثتهم وراءك،

وفي أذن الصيف: اصطفيتُك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أنت أفضلهم وثلاثتهم وراءك.

كذلك فعل مع النهار والليل، مع الحياة والموت، لا يحابي ولا يفاضل، راسما لما يمر به من حالات دائرة قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرّر نفسها بثبات عبثي مملّ، وقد ندور فيها إلى الأبد لأنه عالم ليس له بداية ولا نهاية.

**

رفاق الطريق

يشدّ الطفل طرف أمه ليجذب انتباهها صارخا:
– ''ما''، انظري كم هي سمينة هذه المرأة!
يفهم من ابتسامتها وتقطيبها جبينها والتفاتها يمينا ويسارا أنها محرَجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ لسبب يجهله.
– أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.
– ''ما''، لماذا تلبس النساء البخنوق ولا يلبسه الرجال؟
– قلت لك: هذه مواضيع سنتحدّث حولها لاحقا، ليس الآن.
– ''ما''، تقولين دَوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ ''ما''، متى سأكون طويلا مثل كل الرجال؟
–... ،... ،... ،... ،... ،... ،...
– ''ما''، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى نفسه؟
يفرح الطفل لأن في ضحك أمّه نبرة استحسان.
– أصبتَ يا بنيّ، ولو أن هناك استثناءً سأحدّثك عنه يوما. والآن، توقّف وأمسِك بيَدي حتى نعبر في هذه الزحمة.
يغتنم الطفل الفرصة لمسحٍ شامل لما حوله. يجيل البصر مترصّدا بروز آدميين لهم أجنحة ثابتة على الظهر كالطيور. لا شيء من هذا القبيل باستثناء شحّاذ بلا رِجلين يزحف على البطن، والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه.
كم من وجوه تسترعي الانتباه وهو لا يعرف على أيهم يركّز؟
هذه أنثى بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، وهذا أحدب كسير النفس، وهذا شاب مفتول العضلات، وهذه عجوز تتّكئ على عكّاز، وهذا وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، وهذا وجه آخر كأنّه حُفِرَ في خشب بنّي بِسكّين، وهذا وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، وهذا وجه يحمل خيوطا غائرة عميقة تحت العينين، وهذا رأس شعره بلون القمح، وهذا رأس ثان شعره بلون الليل، وهذا آخرُ اختار لشعره لون اللبن.
ينتبه الطفل إلى أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كرّاسه وأقلامه حال وصوله البيت ليرسم، أو قُل ليحاول رسم كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران يتّسعان في نهايتيهما على شكل عريض ينقسم بدوره إلى خمسة أطراف. على قمة الجذع هذا، يوجد انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون. للانتفاخ جزء أمامي مملوء بالثقوب، به فتحتان مستديرتان في أعلاه وفتحتان ضيّقتان في الوسط وفتحة كبيرة مستطيلة في جزئه السفلي. على الجانبين هناك فتحتان تحيط بهما كتلة من الغضروف والشحم سيتصرف فيها كثيرا المعلّمون و ''با''، بل وحتى ''ما'' أحيانا بالشدّ والفرك، وتعلّق عليهما الإناث أشياء سخيفة يتعلقن بها لأسباب لا يفهمها.
تتضح الحاجة إلى بعض المعلومات الإضافية.
– ''ما'' هل يوجد بشر برأسين؟
– لا يا بني، يكفينا وجع رأس واحد.
– لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى متابعة العمل.
بربّك، أليس هذا عَين الصواب، والكل يعرف قلة مردود الدماغ الواحد وندرة حسن استخدامه.

– من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثاني والثالث؟

يجرّب أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يَفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلّى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.

ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسته، ويكتشف الكهل أمام لوحاتِ أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا بَعدُ عن لعبة إعادة تشكيل الموجود. أليست هذه الوجوه المبعثرة، المفكّكة، الخارجة من خيال شاجال، بنفس الكَيفية التي ركّبت بها الوجوه والأجسام؟

''كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال'' (بيكاسو).

ربما واجه الإله النحّاتُ الرسامُ نفس المعضلة، ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وأناقته وتَبِعاته. أليس أكثر الحلول اقتصادا خَلقُ نفس الكائن بأعداد رهيبة؟ آنذاك، ما الذي يضير المجرّب الأكبر أن يمرض أو يتعطّل هذا الرأس أو ذاك وهو يتوفّر على هذا الكمّ الهائل من الرؤوس!

هو لا يعلم أن أغرب الآدميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: اللواتي تلبسن أغلى أنواع ''الكيمونو'' وكلّ ''جايشا'' لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيقة كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الحُلّق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخْفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكهم... الثابتون على نفس القطعة من السهل أو الجبل، والذين لا يحطّون رحلهم أبدا... غزاة المستقبل والذين يسعَون بكل قِواهم إلى العودة إلى ماضيهم الخيالي... الذين يقدّمون الأضاحي الآدمية لآلهتهم والذين يرفضون ذبح بقرة. كم من إخراجٍ لفكرة واحدة! كم من تقاسيم لا نهاية لها للَحنٍ يتيم!

**

المحنة الأولى

يقول الشيخ لامرأة منهكة بعلاج طفلَين مريضين: يا ابنتي صيف الصحراء والحصباء أصعب مما تتحمّلين، أنتِ وهذان البريئان. عودي لأهلك وعلى مسؤوليتي.

على بعد مئات الكيلومترات شمالا، في قرية غارقة في الغبار صيفا وفي الوحَل شتاءً، تصرخ الجدة في وجه الطفل، وقد نفَد صبرها، على كثرة ما صبرَت عليه.

– إن لم تكفّ هرجك فإنّ "العبّيثة" ستأتيك هذه الليلة.

"العبّيثة"! اسم الغولة في هذه الربوع، تهدّد الخالاتُ بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليخيف الأطفال الأشرار سليطي اللسان.

يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة، لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء التي غادرها.

يغمض الطفل عينيه ينتظر قَلِقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم، مرعِب، يسود الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ فضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يصدر الباب صوتا ويتحرّك شيء في الظلام فيَثِب على قدميه مرتعشا، والحجارة التي حملها معه للفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القانون: نعم، سورة ياسين لمواجهة الكلب، ومع ذلك لتكن حجارتك دوما في الجيب.

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة.

– ماذا تفعل واقفا في الظلام بهذه الحجارة؟ أي عبّيثة؟ آه، "العبّيثة"، إنها لا توجد إلا في الخرافات، نم مطمئنّا، أمّك تسهر على الباب، وسأترك لك النور.

يتنفّس الطفل الصعداء، يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه مثل "با" لا يخاف جنّا ولا إنسا، وأنّه سيشجّ رأس "العبّيثة" بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئا إلى فراش أم تقرّر الليلة استثنائيا إعطاءه حق اللجوء خوفا من "العبّيثة".

في هذه المرحلة من تطور القصة عالَمُ الطفل مختزَل في جدّة وأم وخالات وعمات وجارات، يُرِدن تقبيله واللعب معه أو قُل به.

يسترق سمعُ الطفل أحيانا بعضَ الكلام الذي يبعث فيه قلقا غامضا.

– طفل جميل رغم سمرته، كأنكِ توحمتِ به على عبد... هاهاها!

تسأل امرأة أخرى أُمّا متزايدة الصمت سيتعلم منها الطفل باكرا أن التجاهل هو الردّ الأجدى على الغباء والشرّ.

– مِن أين أتيت له بهذا الاسم؟ لا عادة لنا بمثله.

الاسم!

تخيّل أنهم رفضوه لك عند الوصول، ولا أحد كلّف نفسه عناء تسميتك، لأن حظك العاثر شاء أن تكون ضحية تجربة علمية قرّرت دراسة علاقة الاسم بتكوّن الذات. ها أنت في وضع من مميزاته أنْ لا أحد يناديك، لا أحد يطلب منك أو ينتظر منك شيئا ولا حتى دفع الضرائب بما أنك غير مضمّن في أي دفتر.

من حسن حظّك أن العرف والقانون يحرّمان جريمة أفظع من جريمة القتل. فالاسم حق مطلق ومعطى يسلّمونك إيّاه عند الوصول. تقبَلُه طوعا أو كرها ليضع الحدود بينك وبين بقية الآدميين، ليجعل منك فردا متفردا وفريدا، معرّفا ومعروفا، لنفسك وللآخرين.

ها أنت موثق إليه من المهد إلى اللحد كما أنت موثق إلى الجلد والعظم، والرابط بين التغيّرات التي تمرّ بها الذات، هذا الصوت الذي لا يتغيّر من بلل الرضيع إلى بلل الشيخ. كم من أجزاء من شكلك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كأوّل مرة سمعته من ''ما'' لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا! للاسم أيضا وظيفة أخرى هي إدماجك في مشروع غامض، في أمل مبهم، في مهمّة مسكوت عنها ومع هذا عليك الانتباه لها. أيّ مسار كانت تتخذه الرحلة لو كانت ''ما'' هي التي أطلقت عليّ اسما محمّلا بتعليمات وأمانٍ صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضه ''با'' لمتابعة ملحمة بطل اختاره هو دون تفكير في تكلفة الخيار. لكن من أين لكل منصف أن يغدوَ منصفا، من أين لكل مريم أن تلد مخلّصا وإلها!

يتفرق الجمع. يسود الغرفة صمت ثقيل لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدور وصفير الثعبان يرمي بآخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش. يلقي ليلا بهيما محمّلا بتهديدات غامضة بكلكله على امرأة وطفل سيبيتان هذه الليلة مع كم مِن آدميّين آخرين على الطوى.

لا شيء مأساويا في كل هذا، والكائنان مختبئان ليلا نهارا داخل مغارة دافئة مخفية في أعماق الذات يضيئها نور ساطع، ثابت، دافق اسمه الحب. النوم أنفع ضد مغص الجوع من الماء. تتخلل أحلامَ الطفل صوَر لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينَيها، ورجل يخرج من العدم صارخا يا امرأة أسرعي، ابني جائع.

باكرا، تجلس بصعوبة على الأرض امرأة بدينة، تلبس ثيابا فضفاضة ملوّنة، يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تُعدّ إلّا في أكبر المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنّاء بسرعة، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيها تفاصيل بقية الطريق.

– خفّفي عنك يا عزيزة، ما ثمّة إلا الخير.

تنطلق ''الدقازة'' في خطاب لا يهمّ الطفلَ –مفتوح العينين والأذنين لأقصاها–منه سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.

يعود التجهّم سريعا.

– انتبهي، إنّي أرى عينا شرّيرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تهدّده!

وفي ملفّ عن العيون الشريرة وأولى حادثة كان بوسعها أن تكون نقطة الختام في قصة تلحق بقصص أخرى لم تتجاوز بضعة جُمل، يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل، ترتعش يدا الدليل حول ذراع الطفل، ينطلق صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعَثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدّة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها أن تسلّمكم إيّاه. يتردّد زوّار اللّيل. يتقرّر مِن قِبل إرادة مجهولة أن المرأة الضعيفة لن تنشب تلك الليلة –التي صادفَت لقاءَ أخطر مقاطع الطريق–أظافرَها في عنق ذابحها، أن جثّة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يُدفّع أبرياء ثمن أفعال الآثمين. ينسحب قتلة الليل بخفّي حنين وتسارع الأم إلى إخفاء الطفل أياما عند الجيران.

تتدارك ''الدقازة'' ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

– لا تجزعي يا عزيزة فسيّدي الخافي معه، وكذلك سيّدي محرز وبقية الصالحين، لا تنسَي اصطحابه معك كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيّدي بوريقة، واحتفظي دوما بهذه الورقة، إنّ فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ، ضعيها في كيس صغير واربطيه حول عنقه، لا تتركيه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمّام، إنهم يريدون به وبوالده شرّا عظيما، قبّح الله سعيهم.

– قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصيبة.

– قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء، هذا يا فتى حرزك، إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسمُ الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن هوية المرأة الغريبة، لا يفهم إلّا بعد عقود ردّها الواجم:

– مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما أحتاج وأعطيها ما تنتظر.
عالم الطفل لحدّ الآن أنثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقّة ونعومة وليونة وطراوة. إنه عالم سكّري المذاق، مُشبَع بالألوان الصاخبة، مضمخ بروائح البخور والطيب، يبعث الدفء والاسترخاء واللّذة والشعور بالأمان... ثمّ سريعا الاختناق. تنتاب الطفلَ رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفّ كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرّك البطيء، ليتضح ما هو خافت، ليكتسب المكوّر المستدير أضلعا حادّة.
لا تستعجل يا فتى، يوم تعركك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتدّ الإرهاق والوجع من الجزء المذكّر من العالم، سيتسلّل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه، تُمنّي النفس بفضاء اسمه الجنّة ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة.
مشكلة الطفل الآن ليست العودة إلى الجنّة وإنما الهروب منها. كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به، والفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بدليله الذكر وهو لا يذكر له وجها.
في بعض أقدم الملفّات تطلق "ما" صرخة مدَوية وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذرا بحدث جلل. ترمي كلّ ما بين يدَيها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء تلطمن خدودهن ووسطهن رفيق اللعب مسجّى بلا حراك.
أجيل البصر حائرا في المشهد، ثم أركّزه على امرأة توقّفت عن العويل وكلام ملحّن عن جمال الطفل ولوعة أمّه... لتتثاءب بصوت عال. تُفاجَأ المرأة بالطفل ينظر إليها مستغربا. يلمع شيء كالكره في عينيها. تشيح عنه البصر عائدة إلى التحسّر بأعلى صوت على الروح التي عادت إلى خالقها.
ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يأخذ على محمل الجدّ إعراض رفيق اللعب عنه؟ مؤكّد أنّه سينهض صارخا من مرقده ليقفز معه من فوق كل هاته الإناث جريا نحو أشجار الزيتون واللوز. هذه المرّة هو الذي سيكون الأسرع.
ثم ما هذه الروح التي عادت إلى خالقها وهل خروجها سبب سُكون رفيق كل مقالبه؟ غريب، كيف خرجت منه وهل سيستطيع كل هذا الصراخ إقناعها بالعودة إليه لتنتهي أزمة قد لا تكون إلا مرضا جديدا لا يعرفه؟
يواجه لأوّل مرّة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه هذه المرّة ولا المرّات القادمة، أن الروح الهاربة لن تعود لوكرها. يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمة متزايد الخوف والحيرة والهمّ.
وعند الرجوع إلى البيت تتزاحم أسئلة أخرى: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق أبيض وتأتي خالته لتولول ووجهُها مدفون في صدر أمه؟
لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شبّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.
– ‘‘ما’’، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟
– "بعد الشرّ على وليدي وسبعة ألطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود"، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخنّاس.
حقا الحب تَلطّف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعّنتَ في مكوّناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة مفترقات الطريق.
الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف. هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تتهدد حياة أطفال الفقراء.
–‘‘ما’’، أين ذهبت روح حسين؟
– إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.
– ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتيّ الطفل. يفهم من نظرتها أنّها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- ''ما''، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ربع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

-''ما''، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روحي.

لا تزيد الإجابة الطّين إلا بلّة. وهل يكون للشخص الواحد روحان؟

تصرّ ''ما'' على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصّد ظهور الدليل الآخر. قد يعرف ما تجهله أو تخفيه ''ما''.

*

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع دفعها، ها هو مرابط اليوم بطوله أمام المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كصَوت الريح، ويُخرج من رأسه دخانا أسودَ كثيفا. كم كان يحبّ رائحته الخانقة التي تذكره برائحةٍ عَطِرةٍ لطربوش أحمر بذوائب سوداء! ألم تقل له ''ما'' إن ''با'' سينزل منه فيكون له هو الآخر أبٌ!

يتفحّص الطفل الآدميّين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح، يمرّ الرجال أمامه لا يرَونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا، ضاحكا، ومقبّلا. يعود إلى البيت كلّ مساء كسيرَ النفس دامع العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حُرم منه بغير ذنب.

لا ينفع توسّل ''ما'' ونهيُها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تزيد الطين إلا بلة، والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو ينفّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر، وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

من الطبيعي أن يبقى مشغولا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يولّد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما.

تُرى، هل البحث عن الغائب الأزلي حالة عامة عند الآدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب، وهو مجرّد ممثل لغائب أكبر وأبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا.

لا يزيد ذلك الطفل إلّا غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم، ثم تغلبه حيويته، لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو -هذه المرة-عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد، ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجه من لا صورة له ملامح وعلامات.

ألم نصنع أساطيرنا وعلومنا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصِفة، نتعلم انتقاء الحلول التي تلائمنا، نجد فيها بِقوَة الخيال العزاءَ والسلوى، وآخر ما يهمنا صحتها؟

يعاوده الغمّ، لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أيّ عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصدّ والزجر. ينتهي الطفل بالإقرار بعبث طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أوّل إضراب له (ضدّ مَن؟). يجلس على عتبة باب المنزل المتداعية، مصمّما ألّا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعِب حتّى يعود إليه دليل تستحيل الرحلة دونه.

تقترب الأمّ من طفلها بحذرِ مَن يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو الفرار، يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلّة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الآدمي الذي يتحرك دوما وكأنّه مصنوع من الضباب، ترتفع يد الأمّ ببطء شديد، يخيّل له لحظةً أن اليد بقيَت معلّقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث، تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج، يستعجل الحركة المعلّقة. لا يشعر بالأمان إلّا واليَد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنّه –على صغر سنّه–صُنع من خشب جَفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر ''ما'' راحتها عليه بمنتهى الحنان، يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت.

– ماذا سيظنّ الجيران بنا ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

– ليظنوا ما يشاؤون، أريد ''با'' حالا. لا يحبني، لهذا لا يأتي أبدا، أليس كذلك؟

– تريد الآن بقية قصة البارحة، تعالَ إذن. قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمَنا الأعداءُ فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأنّ...

– لا، لا، عنترة ليس جبانا.

– انتظر البقية...

– لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقُه بالدنيا ومَن فيها أوَجَه، ثم يعود إلى الصراخ.

– أريده أن يأخذني إلى حمّام الرجال، أنتِ دوما تمنّيني بذلك ولا شيء يحصل.

– سيأتي وستذهب معه لحمّام الرجال لأنك كبرتَ فعلا.

– لن أسمع كلاما سمعته كثيرا، ليأتِ الآن.

– تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

– قلت لكِ: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يأتي، اتركيني.

– إذن، سننتظر معا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخانقة.

توقف عند المشهد.

انظر لقصص الآدميين من حولك، انتبه لما يُشاهدون من قصص على الشاشات، على خشبات المسارح ودور الأوبرا. تفحّص أساطيرهم ودياناتهم. ستجد أنها دوما مبنية وفق نفس النموذج: المحنة التي يمرّ بها الآدمي البطل. هي تتخذ ألف شكل وشكل من عذابات الحبّ والحرب والاستعباد والاستغلال والثورة، إلى عذاب الشك في وجود خالق لهذا العالم أو معنًى له. القاسم المشترك أنها دوما أصعب امتحان وكأن العالم يختبر أقصى الجهد الذي يمكن للجسد تقديمه، وأقصى الجلد الذي تتحمله الروح، وأقصى ما يقدر عليه الفكر من الذكاء في حلّ المشاكل والألغاز. ثم... المكافأة أو العقاب.

صحيح أنّ هناك محن تُفرض علينا فرضا، لكن أليست أكثرها من اختيارنا؟ من الذي أجبر هانون وابن فضلان ونانسن على ترك بيوتهم الآمنة لمقارعة أهوال البحر والفيافي اللامتناهية وجليد القطب؟ من الذي فرض على الرسول وعلى موسى وبوذا والمسيح وغاندي تحمل كل ما تحملوا؟ من الذي طلب من قاليلي أن يغامر بحريته وحياته، ومِن فان خوخ أن يصل به الأمر حدّ الجنون؟

قد يكون بيت القصيد، سواء امتحَنَنا العالم أو امتحَنَّا أنفسَنا، أن المحنة –الامتحان–هي الحالة التي تُلهب فينا جذوة الحياة كما لا تفعل ذلك أيّ من تجارب الحياة الأخرى، وهي التي تمكننا من التوغل في أعمَق أعماق ذواتنا وتجربة كل الممكن من طيف وجودنا كآدميين. ألهذا نقول جازى الله الشدائد خيرا؟

تجد المرأة الذكية مخرجا سيحفظ ماء وجه الطفل ويوفّر عليها محنة النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

– لا تَسَلني كيف علمت ذلك. ثق بي، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. يخلد إلى النوم كمَن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالَما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفّر وحش أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطلّة بحنان فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبُر وجهه وشفتان تهتفان بكلمة واحدة. هي تعلَم أنّ اللّقاء حدث وأنّ الطفل جالس على ركبتي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يفرقهما آخر مفترقات الطريق.

**

انقشاع الضباب عن الأفق

يشعر الطفل النائم بوجه جافّ خشن الْتصقَ بوجهه. تداهمه أحاسيس صاخبة تأتيه من تداخل الكلمات والضحكات وروائح العطر والتبغ والعرق. يفتح عينَيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود. قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزِع منها ما تريد شريطة أن تقلّبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم في أذنه:

– ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

– يا مغفّل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدّك.

– ونأخذ ''ما'' معنا.

– أمّك لا تحبّ واحتنا وتكره الصحراء.

– أذهب وأترك أمي؟!

– الخيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل وبتفويت فرصة ذهبية إن لم يرحل.

تهمس ''ما'' في أذن ابنها أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو لا يتحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل حال فالطريق الذي أخذ ''با'' وأرجعه، هو الذي سيأخذه إلى جدّه ويردّه إلى أمّه.

فعلا إنها الخاصية الرئيسية لكل طريق يحترم نفسه ويحترم سالكيه: خدمة المسافر في الاتجاهين وإلا لما تجاسر أحد على اتخاذه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدّئ من روعها ومن روع الطفل، وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق. تهيّئ طفلها للسفر كما لو كانت تهيئه لعرس أو لِعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس، وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي أعتقها من الأسر.

يهمس الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاخب بآخر التوصيات، وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا.

يفتعل ''با'' الانتباه متأففا من طول المراسيم، ثم ينفجر:

– كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيّع وقتك أنت ننفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا فثمين، منه تعلمّت أن أبعث لمن استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بِجدّ، ألَا يفزعكم كل الوقت الذي يبذّره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضّة، تنفتح أخيرا قضبان القفص، يطير العصفور الذي طال به الحبس، وعلى رصيف المحطّة، والفجر في أول وعوده، يبدأ سفر ظلَّ نموذجا لكل ما تبعه من الاسفار.

– ''با''، هل هناك عفاريت في الأماكن التي ذهبت إليها، هل رأيت ''العبّيثة''؟

يتنحنح الرجل مستعدّا لإلقاء الدرس على طفل لا صبر له على انتظار الجواب.

– هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم؟

يجيل "با" البصر حوله بعصبيّة مشيرا إلى الطفل بغلق فمه.

ينقذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غيّر موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل –وهو لأوّل مرّة في جوف الوحش الأسود–ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه. يهرع تلقائيا للمقعد حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أي آلة إلّا وأنفه فوق الزجاج. يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهنّ ضاحكات متأففات.

هناك عادة لن تفارق الطفل إلى نهاية طريقه، هي التفحّص. تتّسع حدقتاه وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبأ أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة، والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

سيسأل "با"، عن السبب لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوا بها أبدا.

كان الحِلّ والترحال عنده حاجة ضرورية قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر، ربما قرأ واستبطن أبياتا، ولو أنه لم يقرأها فإنه عمل بها وكأنها لم تُكتب إلا له:

تغرّب عن الأوطان في طلب العُلا (الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لِهَمّ واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

ربما لم يكن بحاجة لأحد لإقناعه بصحة قول نفس الحكيم:

فإن قيل في الأسفار ذلّ ومحنة

وقطع الفيافي واكتساب الشدائد

فموت الفتى خير له من بقائه

بدار هوان بين واشٍ وحاسد

تلتقط أذن الطفل مقاطع من كلام هامس لوالده حول شيء اسمه "الوطن" ومحنته. ربما كان على شاعرنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟

يعود الطفل إلى التركيز على نافذته متعجّبا من إعراض الناس عمّا يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاهَ العجائب تأتي ضرورة يوما إلى كل المسافرين، أنّه سيجلس يوما مثلهم إلى العالم لا يعيره أدنى اهتمام، مشغول بمشاكل تافهة غير مبالٍ بغروب شمس أو بطلوع قمر.

يستحوذ على لبّه التغيّر البطيء، والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غبراء اللون تميل –كلّما تقدّم الركب–إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئا فشيئا في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمرا بالجلوس أو الأكل. أخيرا يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجريِ اللاهث، ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يشعر الطفل باستياء غير مفهوم. ألم يكن

يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطارَ متثاقل الخطوة، يحرّك رجلين كأنهما من رخام وفي نفس الوقت يقظ، متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.

– "با"، هذه ليست قرية جدّي.

– إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة للقطار، نبيت الليلة وغدا نواصل السفر، هيا الآن إلى النُّزل، أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يَلسع بالسوط ظهرَه رَجلٌ يصرخ فيه بالسبّ والشتم، يقفز الطفل فوق كرسيّه كلّما هوى السوط وكأنّ ظهره الذي يُلسع، يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

– واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض، أليس كذلك؟

– لا يا فتى هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ بوُسع الثعبان الأسود الجري نهارا كاملا لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم في ذهنه أنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، بالضرورة محدود.

يجب التثبّت من الأمر.

– وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدّا جدا؟

– إلى بعضها نعم، فالعالم واسع، يا بنيّ.

– وهل ستسافر إلى كللللللّ أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

– لا، لكنّني أحاول.

– سأحاول أنا أيضا؟

– وهل أمامك خيار آخر؟

يتهالك الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره ليركض ويطير.

ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم بجنبه.

– استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.

– لن نسافر قبل بزوغ الفجر، عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه، ينتظر لدقائق ثم يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم.

– استيقظ، سيفوتنا القطار.

– ألم أقل لك إن الفجر ما زال بعيدا، عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه ينتظر دقائق معدودات.

– استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.

يثب الرجل رافعا كفّه يفهم الطفل أنّه في خطر يسلّط الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثمّ ينفجر ضاحكا، يأخذه بين ذراعيه.

يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.

– اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟

يجرّ الطفل دليله المندهش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.

– هذه هي المحطّة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل، ما زال أمامنا كثير من الوقت.

– لا قطار هنا!

– سنركب آلة أخرى أصغر اسمها ''الحافلة'' وستعجبك هي الأخرى.

– هل فيها نوافذ؟

– نعم.

– هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟

– تماما.

– أريد المقعد الموجود قرب النافذة.

– هكذا سأستطيع رميك منها وأرتاح من أسئلتك.

– سأقول: ل''ما'' إنّك أردت أن ترميني من النافذة.

– وأنا سأقول لها: إنّك أخرجتنا من النزل، الثالثة صباحا. والآن اتركني أنام قليلا عليك اللّعنة.

– وأنا ماذا أفعل؟

– نم.

– لقد نمت.

– لم تنم بما فيه الكفاية.

– بلى.

يشعر الطفل بتجدّد الخطر ثمّ بانحساره السريع، والمحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدَوّية للدليل.

– ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟

– نتجوّل، بما أنه ما زال أمامنا وقت.

– في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!

يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ.

– أريد أن أراها.

يسقط في يد الرجل.

– تعال، عليك اللّعنة.

تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجرّ الدليل.

– لا أحبّ هذه المدينة.

– ألم أقل لك إننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.

– أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.

– إنّه بعيد من هنا.

– البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة، لنذهب إلى البحر.

– إذا ذهبنا إلى البحر ستفوتنا الحافلة.

اختيار صعب جديد.

– هل سنرجع من هنا؟

يتنفّس الرجل الصعداء.

– أعدك أن آخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.

– أريد فطيرة.

– كلّ ما تريد.

– الآن... الآن... الآن!

– نعم الآن. الآن، لكن كفّ عن النطّ والصراخ.

– بالعسل؟

– بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف ''سخطة'' على رأسك من فوق.

أخيرا، حان وقت الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة، وبقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال، خاصة بعد أن أفرد له ''با'' بشيء من الخشونة أول مقعد فيها مطلّ على النافذة الموجودة مباشرة وراء السائق. يحار لبّه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز، يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أَولى بالاهتمام.

– لستَ مطالبا بالوقوف طوال السفر.

– لا أحبّ الجلوس.

– افعل ما تشاء.

– لن ترميني من النافذة، أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

– ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبتُه خلا تلك الرحلة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار للقوة أو اختبار للمحبّة. تصل الحافلة إلى قرية ليست إلا شارعا مغبرًا تتكدس على جانبيه بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف، تلتقط أذناه كلمات ''با'' عن المكان وحماماته الطبيعية العجيبة التي تُبرئ بمائها الفوّار كل الأمراض. ثم تغوص الحافلة مجددا في المبهم الممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

– انتبه يا فتى، لقد دخلنا ''البحاير''.

– هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

– لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

– الصحراء بحار من الرمل بدل الماء وواحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

– يمكن وصف الأمور بهذا الشكل.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركّاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها ''البحاير'' تستحق حقا اسمها، أنها كانت لأربعين مليون سنة خَلت، جزءا من بحر بل من محيط تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان، أن هذا المحيط جفّ واندثر، أن الصحراء التي ورثته لم تكن دوما بحار الرمل التي نعرف، أنه كما للقلب قبض وارتخاء فلهذه الأرض نسَقها: كل عشرين ألف سنة

غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار تسكنها الفيَلة والأسود والكركدن والتماسيح، بعد مئات السنين ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجدب التي لا يعيش فيها إلا الماعز والإبل والبشر من نوع قوم "با".

محكوم علينا أن ندخل العالم كمن يدخل عرضا سينمائيا لا نحضر منه إلا مشهد بضعة ثوانٍ، وكل ما سبق وما سيلحق من مشاهد تتغير كل لحظة حرامٌ علينا.

يجذب الطفل كُمّ "با" وهو في قمة الهيجان.

– لماذا هذا الحصان هكذا؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش، وليس حصانا.

يضجّ الجَمع بالضحك، يرتفع صوت مجهول:

– أيعقل ألّا يعرف بدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو مُعرِض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحيوان التائه مثله في شساعة العالم. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" بل يتذكر جيّدا ناقة جدّه، لكنه لم يتعرف عليه وهو لا يرى أغلب الوقت إلا أشكالا كأنها تسبح في الضباب. على كل حال لا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار، خاصة "با". يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكلللللل غرائبه.

– "با" انظر. انظر!

– إلى ماذا؟

– لساقيك تتدليان في الفراغ، أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.

يضجّ الجَمع مجدّدا بالضحك.

– إنّها حافلة البدوِ يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنّها توصلنا.

يعود الطفل إلى الصراخ:

– انظر، انظر!

– اللّعنة على هذا المغفّل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه مجددا؟

– انظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟

يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

– الحَرّ وضجيج المحرّك وهذا "الفرخ" سيقْضون على ما تبقّى لي من عقل.

يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنّهم رفضوا الانتظار. يفاجِئ الطفلَ خوفٌ مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

– ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

– اسكت يا مغفّل.

يعضّ الأب على شفته السفلى، يعمّ الجمعَ صمتٌ متجهّم. يأتي الطفلَ لأوّل مرّة الوعيُ بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم، تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام، تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس، يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل: إنّها بركة هذا البريء.

– ''با''، أين جدّي؟ قلتَ إنه سينتظرنا عند باب الحافلة.

– أعدك أن هذه القرية آخر محطة قبل الوصول.

يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

– أنت، تعالَ معي.

يتوجّه الأب لابنٍ خالي الذهن:

– انتظرني هنا حتّى أكمِل الإجراءات.

– أي إجراءات؟

– لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريَة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي.

يذهل الطفل، يفتح فمه للاحتجاج.

– أسكت يا مغفّل، وإلّا أرجعونا من حيث أتينا، لا تتحرّك حتّى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه الرجل المشبوه عند حرّاس الطريق، يخرج ''با'' أخيرا، ويده على خدّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه ضابط أجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه ''كسرولة'' وضعت مقلوبة على الرأس، وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم. ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض ''با'' حتى بعد عقود فتحه لفضولي.

– سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

– لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

– لماذا؟

– هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

– هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر ''با'' ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة الاحتقار والتهكم!

– هؤلاء! من بلّغ عنّي واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما عِلموا من أكون، تذكّر دَوما –يا بني– أن البشر صنفَين...

– الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال وال...

– أتحدّث عن الرجال، فالنساء لا يحسب لهن حساب.

– الكبار والصغار، الكبار والصغار!

– لا يا فتى، الرجال، الرجال وأشباه الرجال.

يدخل ''با'' في خطبة طويلة عن الفوارق.

– إياك، وإياك أن تُشْبه يوما رجالا الرجولة عندهم التبوّل وقوفا. هؤلاء أشباه الرجال خاصيتهم الأولى التي يولدون بها ويموتون عليها الجُبن، لا تكن يوما جبانا، وإلا تبرأتُ منك وقلت عنك إنك لقيط أُلحق ظلما بنسَبي، تذكّر دَوما أن الجبن ''خديعة الطبع اللئيم''. إنه أشد ما يتفاداه ''الحرّ الممتحَن بأولاد الزنا''. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم، إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون وكم لهم من أعذار.

تتدافع على لسانه أبيات للشاعر الذي ارتضاه قدوة ونموذجا، ضجّ بالشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم ''كريما تزول به عن القلب هموم'' أو ''صحبة لا يعوزها الصدق في الأخبار والقسم''، أو ''مكانا يسرّ بأهله الجار المقيم''، أو ثغرا مبتسما عن محبّة لا عن

خوف أو طمع.

كم كان "با" قاسيا على قومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمِر أو طاغية حقير. وراء القسوة حب معكوس وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدوِ، إلّا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به المرءُ، وقد أتاهم في عصر تخلّوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمّة أخرجت للناس.

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفرّ من حوله.

– اللّهم لا تقبرني في أرض جبناء! اللّهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور يا فتى جنازتي، وقطعان الخرفان تحرسها كلاب الراعي تواري في الرمل جثة الأسد؟

تتفاقم نوبة الغضب، وهل الغضب إلا جنونا صغيرا؟ لحسن الحظّ أن الناس تشفى منه دون حاجة لطبيب.

– اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر. اللعنة، اللعنة على هذه الأرض وما حمَلَت!

كل قصص الآدميين على نفس الشاكلة وإن اختلفت الظروف والأسباب وطُرق التعبير. تبدأ بصرخة استغاثة، تنتهي بغرغرة الاحتضار.

كل الناس يقولون عنك على طول الطريق الصراخ، والمرتحلون في صراع مرير بينهم على مبتدأ الخبر ومنتهاه.

– ''با''، لكن كل الناس يقولون عنك إنك وطني، تحب الوطن جدّا جدّا!

– الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. إنه مثلهم: صغير. كل شيء فيه صغير، مدُنه، قُراه، جباله، حتى صحراؤه صغيرة، وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. يحقّرون كل عظيم ويعظّمون كل حقير. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم.

اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة، إن لم توفّر لك أرض الكرامة، قل: ليُغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا اهجرها، ذلك أضعف الإيمان. ما قيمة الوطن إذا كان الأرضَ التي نهرب منها لا التي نهرب إليها؟

هذا الرجل هو نفسه الذي وعظ طفله باكرا وسيبقى يردّد له لآخر العمر:

– يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر ''بلادي وإن جارت عليّ عزيزة، وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام''. أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيّا إلا لأرض الآباء والأجداد مهما جافتك وظلمَتك. تدبّر أمرك يا فتى لتفهم تناقضات البشر وأيّ أمر من أوامرهم تطيع.

عاش الرجل جلّ حياته في الغربة ومات فيها، كم سمعتُه سنوات المنفى يتحدّث عن قريته وصحرائها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنّع! كم سمعته يردّد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانيّ أن امدّد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرّة الأخيرة في ''العِرق''، أن أجيل بصري في عمق سماء ليل لم أجد له، كل هذه العقود، في أيّ مكان من الأرض شبيه. كان الرجل الذي خرج من الصحراء، وخرج عليها ناقما ساخطا، لا يحلم –وهو منفيّ عن أخطارها–إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحُفَر، والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة الرجل وصقلت فكره وعاطفته قدر ثنائية الوطن والمنفى.

كيف لم يكتشف وهو الرجل الخارق الذكاء أننا، معشر البشر، دَوما في وطننا وفي منفانا أينما وُجدنا. لأن من طبيعة العالم أن يكون الوطن هو المنفى.

ربما ليس من طبيعة العالَم أن يكون وطنا ولا منفًى، وإنما هي أوصاف نضفيها عليه تُعبّر عن حالات تمرّ بها الذات في رحلتها. حين يأتيها الإرهاق، ترى نفسها منفيَة فتنسج أساطير نفيِ الأفراد والشعوب لتبكي على حالها. حين تطمئن ترى كل مكان لها

وطنا، تسعد به وتتشبث. أجزم أن الوطن هو أيّ مكان في العالم وهو في أحلى حالاته العابرة، وأن المنفى مسقط الرأس وهو مُعرِض عنا بوجهه المتجهّم.

يجرّ الأب الغاضب من بشر لا يغفر لهم ضعفهم، ومن وطن لم يُقَس على مقاسه، طفلا مندهشا. يتوقف في طريقه إلى مربض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

– أسرِع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدوَ حَسن الهندام أمام جدّك.

أحسَنُ ما في الآدميين نزعة التمرّد، إذ لولاها ما وُجد تجديد.

– لا أريده، لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرّد، ربما حتى لا يصبح العالَم فوضى ليس فيه طريق سالك.

– قلت لك: البس. بكم السروال، يا رجل؟

– لا أريده، لا أحبّ لونه وشكله، لن ألبسه، لن ألبسه!

ظاهرة متأصّلة في سلوك الآدميين: سعيُ كل ذات للتحكم في الذات الأخرى، لتحريكها في الاتجاه الذي تريد وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرّد امتداد لها، إنه تصرّف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمّه، المعشوق مع العاشق، والعكس، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سَطوة هذا القانون، والخالقُ يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوقُ يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر والالتجاء لربّ آخر. كلّ الفوارق في وسائل التطويع، وهي لا تخرج بشكل أو آخر عن الترغيب والترهيب، عن الإسراف في العصا أو الإكثار من الجَزَرة.

يعلن البائع للحضور المتزايد انتباها أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل. يصرخ فيه ''با'' بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوّة.

– والآن كفى عنادا، البس بسرعة وإلا فاتتنا الحافلة.

– لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

يفقد الرجل السيطرة على أعصاب متوترة على الدوام فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب بها الآن على الأقلّ. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. ثم تتباطأ سرعته وقد جاءه التردّد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.

– لا أريد أن تقول لجدّك إني ضربتك، وإلا فإنني سأضربك مرّة ثانية.

– بل سأقول له إنك ضربتني بشدّة. سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل''ما''. نعم سأقول لها، سأقول لها كل شيء!

– فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام والدي.

– وسأقول أيضا للإله.

– لا تقحمه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما خلق من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتُليت به؟ والآن كُن ولدا طيّبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟

يتمسّك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك، ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

– بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم وكلللللّ الأماكن التي سافرتَ إليها؟

- موافق.
- كلمة رجال؟
- شريطة ألا تقول لجدّك إنني ضربتك.
- كلمة رجال. قد تفوتنا الحافلة إذا ذهبنا إلى متجر المرطبات!
يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليواجه برفض قاطع.
- لا، لا، جدّي ينتظر منذ الصباح هيا أسرع، أسرع!
يصرخ ''با'' وقد تبخّر منه مجدّدا حسن استعداد عابر:
- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض، أرهقتني، أصبتني بالدوار، كفّ عن الجري، كفّ!!
وهل بوُسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟
تزحف حافلة البدو في وجه الريح المَوَلوِلة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريد إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق. أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:
- ''با''، أين الطريق؟ لا أراه.
تعود للرجُل المتجهّم بشاشته.
- إنّه أمامك، يا مغفّل.
- أين؟
- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.
- ''با''، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.
- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك بأسرع ما تودّ ويومها تذكّرني.
تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنّح. ينتبه الطفل أن ''با'' لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحّها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرّة وأنه صامت يتأمل.
يفيق الأب من ذهوله صارخا: انتهى عذاب الطريق، وصلنا إلى مشارف الواحة، بعد قليل سترى جدّك.
تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري إلى مَن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه، وبأيّ شيء يتشبث، بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. حقّا، لا مُسافر غير الطفل ولا سفر إلا إبّان الطفولة.
ما أجمل العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، وما أجمل الطفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللّحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الآدمي، وتنعكس في الآدميّ أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحقّقت فيها مرامي هذا من ذاك وتحقّقت فيها أهداف ذاك من هذا. تختزل قدرة الأول على مُطلَق العطاء وقدرة الثاني على عميق العرفان.
ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبّر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما حوله.
يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب؛ متزاحمين، نفد صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.
يتلقّف الطفلَ لحظةَ الوصول صدرُ عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين.
لحظة الوداع يبلع الطفل دموعه وأنفُه على النافذة ينظر إلى جدّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يَطغى عليها. نعم، سيأخذه كما وعد إلى ''طينية'' عند رجوعه القريب ليبذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ ‘‘ما’’ طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر، تضمّه بين ذراعيها وهو مُعرِض عنها لا يريد الحديث، ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

– تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

– يا بني إنها ضرورات... عمله.

– أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

– أما أنا فأحبّك كثيرا وأكثرُنا حبّا لك هو ‘‘با’’. يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدّك وأن يعود لتسليم نفسه، كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت ‘‘ما’’ تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامّه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبَر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

حقا، يومها فرّ ‘‘با’’ من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاؤوا لذبحه ليلا. حقا، كان له أعداء يتربصون به في كل مفترق طريق. لكن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعٍ، وهم أحسن الأعذار للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها.

سفر سيطبع الطفل إلى الأبد، تعلّم منه دفعة واحدة أن العالم بالغ الاتساع، أن كل طريق فيه طويل محفوف بالمخاطر، عليه حواجز وحدود وحرسٌ يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنّ استكشافه أهم من الوصول إلى أيّ نقطة فيه، ولو كانت واحة ينتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

يعود الطفل إلى الصراخ في وجه أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا في العودة إلى طريق لا يهمّ إلى أين يذهب به.

– إلى أين يوصل هذا الاتجاه؟

– إلى قرية جدتك.

– وبعد قرية جدتي؟

– إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثلَ والدك يوما لتتعلّم كلام الله.

– وبعدها؟

– أعتقد أنه يصل إلى البحر.

– وإلى أين يصل بعد أن يشقّ البحر؟

تضحك ‘‘ما’’، تداري حرجها:

– تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت إلى أين يصل.

– سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد ‘‘با’’ وأعود به.

تبتسم ‘‘ما’’ برفق فيه نكهة من السخرية ولسان حالها يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض عرضا وطولا، هائما على وجهك مثل كل بني آدم، تبحث عما لا يوجد، لتجد ما لم تبحث عنه قطّ.

توقّف عند قول الأم لطفلها:

‘‘لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض عرضا وطولا، هائما على وجهك مثل كل بني آدم، تبحث عما لا يوجد، لتجد ما لم تبحث عنه قطّ’’.

وضعت المرأة المجربة إصبعها على أهم موضوع في قصة الآدمي. عُد ثانية لقصص الأفراد أو الجماعات، تمعّن فيما قرأت منها في الكتب أو شاهدت على الشاشات. سيتضح لك جليا أن من ثوابت المحنة –الامتحان–البحث عن كائن، عن شيء، عن حالة، عن وضع، أو عن عِلم. كلها قصص البحث عن الحبّ، عن السلطة، عن مصلحة الوطن أو البشرية، عن نظام الحكم المثالي، عن الشهرة، عن الثروة، عن الحِكمة، عن السعادة، عن التخلص من إغراءات الدنيا، عن المدينة الفاضلة، عن سرّ الوجود، عن عُمر الكَون، عن الله، والقائمة أطول مما يحتملها صبر القارئ.

ملاحظة بخصوص هذه القائمة، هي عادة نفس قائمة الانتظار وهذا الأخير ليس إلا الحالة السلبية للبحث وقد أَوكل الآدمي المرهَق للعالَم بأن يأتيه تفضّلا وتكرما بما يبحث عنه ولم يجده.

إذن، تقول الأم الحكيمة لابنها الأغرّ الذي لن يفهم قولها إلا وقد أوشك الطريق على الانتهاء: لن تجد هذا الذي ستقضِي العمر في البحث عنه، وإذا عثرت عليه بالصدفة فستكتشف مذاق خيبة الأمل. أليس من المعروف أن الآدمي لا يجد هذا الذي سعى وراءه سنوات وعقودا إلا وانطلق البحث المحموم مجدّدا عن شيء آخر؟

الأهم في كلام الأم قولها ''وستجد ما لم تبحث عنه قطّ''. ألا يعني هذا أننا نقضي العمر في البحث عن مفقود خارجنا، والحال أنه كان دوما قريبا منا قرب الجلد من اللحم!

راودت هذه الفكرة المنعشة المحبطة أكثر المرتحلين ذكاءً، وأجملُ تعبير عنها الصورة الشهيرة عند البوذيين.

إنها صورة فارس يركض في كل اتجاه بحثا عن فرَسه، والفرس التي يبحث عنها مهموما ومغتمّا هي... التي يركب.

يركب بطلنا الصغير عصا القصب مستعدّا للركض في كل اتجاه علّه يجد هذا الذي يبحث عنه.

قبله ركب الأب في عمره سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كلللللّ ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

تواصل الطفلة المتقطّعة الأنفاس –إن لم يكن في أغرب مستويات العالم ففي النصّ–القفزَ بالحبل بين أشجار الزيتون، تضحك من غباء الطفل الذي سيصبح بعلها والطفل الآخر الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن تتوجّه إليه كل الصلوات: اللّهم أتمم رحلة الثلاثة على خير، إنّك السميع المجيب... أحيانا.

**

الكتاب الثاني: عالَم الرّحلة

ما أن يعود الربيع
إلا وأنا متيّم من جديد بعالم السّراب هذا
في أيّ عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟
إيسا

مفهوم العالم –إن تناولناه من زاوية المُطلَق، كالحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل الكائنات والأحداث–غير قابل للإدراك إلا من قِبل كائن كامل وأزلي، كالذي يشير إليه الراوي تحت اسم الله.

إذا تناولناه من زاوية النسبي –أي كصورة مادة خام يسميها الراوي العتمة، في مرآة ذاتٍ محددة بحواس معينة وفكر وخيال–هو أيضا غير قابل للإدراك بما أنه تجربة خاصة بهذه الذات لا تكون إلا بها وتنتهي بنهايتها.

لِمَ المواصلة إذن؟ لبلورة مفهوم جديد للعالم، بما هو الاسم الآخر للموجود، والمصطلح القديم يحيلنا تلقائيا إلى طريقَين مسدودَين.

المعلّق

مقدمة الكتاب الثاني

حقا إنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهوّر، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبّط المرتحلون في نفس المشاكل المبتذلة التي جرّبوها جيلا بعد جيل.

ومع هذا يثير فيّ رقم هذا اليوم رهبة خاصة وفيه أربع مرات رقم تسعة. تقول لتهدئة روعك وروعي: ما الداعي إلى القلق، فنهاية العالم مبرمجة، حسب البعض، لبداية القرن والألفية، أي بعد أشهُر معدودات؟

المشكلة أن الآدمي أكثر مَن رمى التواريخ جزافا وأن من شأن تكرار هذه الإنذارات الكاذبة عدم الانتباه لوقوع أقصى ما يخشاه البعض وأقصى ما يتمنّاه البعض الآخر. وحيث أنه لا بدّ للعالم من نهاية، فلِم لا يكون هذا اليوم؟

ربّما حصل المحظور وقامت القيامة البارحة مثلا، ممّا قد يعني أن النص حلم يحلمه ميّت!، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟

في الواقع لا قدرة لأحد على التأكيد أن هذا اليوم ليس آخر الأيام. لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة اللصيقة إلى لحظة رحيله وترك تصريف شؤوننا ليوم يليه.

أنظرُ إلى ساعتي بشكّ حذِر بين الفينة والأخرى، فيتأكّد لديّ كل مرّة أن عقاربها لم تتوقف بل تتحرّك إلى الأمام لا إلى الخلف. على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القرّاء والنقّاد، فلو فكّرتُ في جدوى أفعالي لما قُمت بأيّ عمل باستثناء سماع الموسيقى. لا أطيل عليكم. أبشروا جميعا بتواصل العالم. كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكأن الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظّ (أو لسوئه)، فاليوم –بالتأكيد–ليس النهاية، حيث ولّى الأدبارَ منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتي، والعالَم ما زال موجودا.

حتّى لا أُتّهم بترويج الأوهام والآمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقَنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من الأمر. يسَعني الآن –دون أن يسعدني ذلك كثيرا–تأكيد ما كتبتُ سابقا، فقد مشَيتُ على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعَتني نفس الحشرات المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكِرة، ووتّرت أعصابي أعراسُ الجيران، وداهمتني نفس الريح المشبَعة حرارة ورطوبة والقادمة من البحر. كذلك لمستُ كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الآدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلِق.

كلّ هذا يؤكّد انطباعي أنّ العالم ما زال قائما.

المشكلة أن إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في ''التسبيح'' ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجّل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! الذي قرّرتُ عند انطلاق التدوين: أن أستجمع شَتات فكري، أن أتفحّص حصاد الرحلة لتكوين صورة ما عن هذا العالم الذي تبلورتُ فيه وتبلور فيّ، عَلّي أردّ أخيرا على أحد أهمّ أسئلة الطفل: هل قُدّ القمر من فضة خلخال ''ما'' وهل صُنعت الشمس من ذهب قرطَيها؟

في 9–9–99، بالتقويم السائد. اليوم 19710 من الرحلة.

لبِنات الحواس

تهمس ''ما'' في أذن طفل يفرك عينيه.

– أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ ''با'' على المرأة للكفّ عن تنغيص يومه، وعلى طفل فاغر الفم دهشةً، قد انتصب واقفا على السرير.

– يا الله يا فتى، تحرّك ما لك، أسرع، ليس لنا وقت نضيّعه.

تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها ''با'' خروج الجنّي من القمقم.

– ''با'' أين كنت، أين كنت؟

– أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره من الفرح. ثم يعاوده القلق.

– هل ستسافر مجدّدا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

– كأنك تريد إغضابي! هيّا، لا تضيّع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة المدينة الكبرى. ثم لا بد من الحمّام وزيارة الحلّاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. ثم لا بدّ أن أبحث عن كتاب هامّ قبل آخر قطار تعالَ، حثّ الخطى.

يتبع الطفلُ رجُلا وُلد على عجل، وعاش على عجل، ومات لا يلوي على شيء، وكأن له مواعيد هامّة حتى في الآخرة.

تتلقّفنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

– وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

– لا توتّر أعصابي من الآن.

– أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلللللّ شيء.

– تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه وسط جحافل آدميين يتدافعون في الشوارع الضيّقة وكأنهم أمواج نهر على وشك الفيضان، إلى أين والحيطان سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.

تتتابع المناظر وتتغيّر بسرعة مذهلة، وهو ينقل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.

– ''با''، مَن هذا، وماذا يفعل؟

– شيخ ينسج الجبب. سأشترى لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كففت عن الصراخ.

– انظر ''با''، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

– إنه سوق الشوّاشين، لكنه ليس هذا الرجل بالذات من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.

– ''با''، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

– يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

– ''با''، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب''سفساري'' أبيض؟

– عندما تكبر، افرضْ على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء ''سفساري'' أحمر اللون.

- ''با''، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمّونه ''الكنسترو''. يوم نخدعُ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- ''با'' ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

يُداهم الطفلَ قلقٌ مبهَم.

- بخصوص الحمّام والحلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشَّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبٌ يجر ابنا، وابنٌ يجر أبا، لحمّام اسمه ''القشّاشين'' يقول عنه ''با'' إنّه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.

- ''با''، لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضّل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدّى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيع الأشكال والألوان في ضباب تتهادى داخلَه أجسام مترهّلة تحمل حَول الخصر فوطة باهتة اللّون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي ''الطياب'' كالفأر بين مخالب القطّ. يسلم جسمه مكرها ليديْ المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع. إنّها لحصّة تعذيب مستوفاة الشروط، من تسليم الجسم لقوة لا تقاوَم، وتمرّد الجسم على ما يلحق به من أذًى، وصراخ المعذِّب في أذن المعذَّب بالطاعة، والفرق الوحيد أن الجلّاد لا يستحيي أن يطالبك بالبقشيش وبعبارات الامتنان والشكر. ما أغرب حبّ الكبار لهذه الأماكن التي يبغضها كل الصغار، خاصة عندما يهددهم الحلّاق عند مدخلها!

لا يبقى للطفل غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمته الجسدية.

ليس في هذا الحمّام اللّعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل، وقد أعمى البصرَ الماءُ والصابون ورغوة ''الشامبو''.

- عيناي تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقلّ أنشّفك. المرّة المقبلة ستذهب إلى الحمّام مع أمّك ككلّ الصغار.

- أريد الخروج، أريد الخروج.

- أخرج الله روحك. استلقِ على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من ''ما''.

يأخذ الطفل الثمرة، يقرّبها من عينيه يطيل النظر وكأنّه يرى برتقالة لأوّل مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدًى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمّام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنّها جميلة جدّا، خاصّة اللّون. ألا ترى كم هو جميل؟ ''با''، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيتَ برتقالا بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلْ برتقالتك واتركني أغفو لبعض الوقت.

يغرق الأب في غفوة قصيرة معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدّد الصلة. يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكرهها لسبب غير مفهوم.

ومن الملفات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفّ عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يمرِض ''ما'' ممنّيا نفسه بالعودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها. أليست اللعبة الغبية –كما تصفها ''ما'' ظلما–بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟!

هو يتذكّر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

– ''ما''، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

– إنه من المبصّرين يا بني، تلطّف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.

– مبصّر؟

– يجب أن تسمّيه ''مبصّرا'' حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

– هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

– نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون ''مبصرا'' متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو يستنشق روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح، بل ها هو يسمع دبيب النمل على الأرض كأنه ركْض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان. ربما كان ذلك الاكتشاف انطلاق عادة رافقته طوال الرحلة: ألا يسمع الموسيقى أو يستنشق عبير النساء إلا مغلَق العينين.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسّر للضرير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

يحتفظ الكهل بطعم الفشل لينقل حيرته يوما لطلبة يريدون منه وصفات جاهزة وهو لا يريد منهم إلا تجدد الانتباه: الامتحان اليوم، تفسير اللون الأخضر لأعمى من الولادة. لا أكثر من أربعة أسطر. يفتح الطلبة عيونهم على أقصى اتساع، ويمدّ الطفل يديه نحو وجه الشيخ المبتسم يفسّر له بكل ما تسعفه به المصطلحات التي يعرفها كيف أن الحليب لا يكون أسود، وأن الدم ليس أخضر، وأن الألوان جد جميلة، وأنه يعلم أن الشيخ سيصبح قادرا على رؤيتها جميعا إذا صلى كثيرا لله الذي لا يرفض طلبا لعباده الصالحين، والعهدة على ''ما'' التي لا تكذب أبدا.

ثمة مسألة أخرى شغلت باله آنذاك كثيرا.

– إذن، هو لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الآدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تمسحه ولا تبصره، لأنها شاخصة إلى الأفق أو لأنها منعكسة لا اهتمام لها إلا بذاتها. هو أيضا سيبقى يلهث دوما لتتوجّه إليه كل الأعين كأن كثافة رؤية الآخر تكثّف من الوجود. هو أيضا سيكون بين مَن أذلهم الجري وراء الأنظار. هو سيجرّب مراهقا نصيحة آدمي يدعى ''بيكات'' بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة مَن لا وجود له إلا بوجود الناظر.

ينمو قلق داخل الطفل.

- ''ما''، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- ''سبعة ألطاف وبعد الشرّ على ولدي''، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عينيّ.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة الصوت، تنبئ برعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.

كيف لا يأتيها التطيّر وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العَمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟

كم سمعها تهمس في أذن أحد العُميان وهي تظنّ أنه نائم.

- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرّب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه ''ما'' تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

يفتح الطفل عينيه يكتشف والده يراقبه باستغراب ثمّ يهز كتفيه: هيّا إلى بقية يومنا.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج لألا يرى الحلّاق ناصبا له الكمين.

- ''با''، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك: لا تتهرّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلّاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية، أهذا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص وجهه الذي في المرآة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأوّل مرّة.

ترجع له المرآة وجها مستديرا أسمر، بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل وبعد الشرّ داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيّ الوجه الغريب، عابسُ الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.

- ''با''، انظر، هل هذا حقا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتأملك في المرآة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلّاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلاقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- ''با''، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أ-د-ر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحِلاقة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجُّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج. يعود إلى تأمّل أدوات الحلّاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر. ثمّ يشدّه ثانية الوجه العابس في المرآة.

تتواصل حصة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفِت للنظر غير صورته تتأمّله بإلحاح. يغمض عينيه ثم يفتحهما آملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدّق فيه كل مرّة، يستفزّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

– ''با''، هل الذي في المرآة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب:

– هيّا يا رجل، أسرع، نفدَ صبري منك ومن هذا ''الفرخ''.

ينفُض الحلّاق عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها ''با''. يتوجه إليه بلطفِ مَن فتَح الكرم قلبه:

– حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

– جميل، آه، نعم، أمه تدّعي هذا أيضا. كما يقول المثل: ''كل قرد في عين أمه غزال''.

ينطلق السؤال كالرصاصة الطائشة:

– ''با''، هل أنت أيضا قرد وفي عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفعة كهذه. يا إلهي لم يجرّب مثلها على كثرة ما عرف خدّه الغضّ من الصفع! تُرى هل ستترك –كالمرّة الفائتة–آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشنّج طفلا قرّر ألّا يكلّم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجُل، حيث أتاه الهدوء ومعه الندم.

قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعَون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان ''با'' على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعذّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

– آن الأوان لنشرع فيما تحبّ، هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

–...

– شيء نشتريه لأمّك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سآخذك لأحسن خيّاط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنّك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

–... ،... ،... ،... ،... ،... ،... ،

– تصمت عندما أريدك أن تتكلّم، وتصمّ أذنيّ عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج ''ما'' ستكون هذه المرة جدّية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرّات الأخرى العديدة، مجرّد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمّام.

– المطعم! نبدأ به، إنني أتضور جوعا.

– إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا مَعلم أثري من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد. ثمة مَن كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دَوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاع الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفّة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيّق، تحميها من تساقط المطر ومن

نِبال الشمس الأسقفُ المرفوعة فوق شارعٍ حافَظ منذُ قرون على طابعه الشرقي الجميل. يجلس الطفل بجانب أب شارد يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل ''ما''.

يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبة تتوجه إليها الجحافل، لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

– أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمتَ فيه كلللللللّ كلام الله، وحيث سنصلّي معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

– الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقَد كل روح! الدليل الشامخ على قدرة أجدادنا على البناء والتشييد.

قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهمّ هو ما حوله.

– ''با''، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له ''رَبيّ ينوب'' ولم تعطه شيئا؟ هل رأيتَ النادل، إنّه إنسان ظريف حقّا، يهرول بخفّة بين الطاولات، إنّه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

– اترك الرجل وشأنه، كلْ، وقتُ الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟

– قلت لك: كلْ، أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

– ''با''، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية.

– هل ستأكل هذا الطبق اللّعين أم أسكبه على رأسك؟

– أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

– ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيّؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمعن في مناظر أعجبُ ما فيها تجددها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمَي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلّى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاد الصبر أمام زمان يتلكأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.

يتوقّف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

هل ثمة سؤال أخطر من هذا الذي يُلقى بألف صيغة: كيف أنت، كيف الأحوال، ما أخبارك، وهل أمورك ''ماشية''؟

نعَم، إنه أهمّ سؤال يلقيه الآدميون على بعضهم البعض. ما أصعب الردّ وفي كل إجابة فخّ. إن أنت تبحّرت في مصائبك ضايقت السائل وهو متعب من كثرة المصائب. وإن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيّبات أثَرتَ غيرته. وفي الحالتين إن أطَلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيّعتَ كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك آخر نجاحاته أو مصائبه هو. أما إن اختصرت الردّ، أو حتى تجاهلت السؤال –كما سيفعل هذا الطفل المتهوّر عندما يكبر–فسيحسب ذلك على تكبّر فطري وحتى على تخريب مقصود وأنت تمنع السائل من فرصة الشكوى أو المباهاة. أقلّ الأجوبة خطرا وركاكة أن تتنهد وتقول أحوالي كأحوال العالم ''ماشية'' و''غير ماشية''، ''الماشية'' تعوّض ''الغير ماشية'' و ''الغير ماشية'' تنغّص على ''الماشية''.

ينصرف الصديق فيتنفّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لاهثا إلى نفس الطاولة شيخ بدين ببُرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادم الجديد.

– ''با''، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنّه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك ''با'' ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

– إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل ''الكبّوس'' وجبّة ''قمراية'' مثل أبناء المدن.

يهبّ الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

– هيّا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

– لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

– يا مغفّل، لم تنتبه للهجته. الرجل كان يتهكّم علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه المدينة الكلبة: الآفاقيون؟

– ''با'' ما معنى آفاقيون؟

– القادمون من الآفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرّقون بين جنوبي وشمالي، لا يرَون في قدومنا إلّا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهددها... آفاقيون، أفّاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

– من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الآفاق بالنسبة لجدّك ومركزُ العالم واحتُنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه ذروة لا تُحتمل.

– اللعنة! سنحتلّ هذه المدينة، سنستعبد مَن فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سننهب أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد الرقيق الأبيض يفاخرونني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنَّني الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموتَ، وأنا كهل قارب اليأسَ من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثَنا الخدَم لخدَمهم واليوم يورثونا لحرّاس الخَدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثمّ تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصَوت المؤذّن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلَّفة ببثّ وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الآذان الذي يتعالى من المئذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صُنع الآدمي أم من صنع ''الطبيعة'' إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطلّ على مضيقٍ اسمُه ''البوسفور'' والمطلة على نهر اسمه ''النيل''. وكيف يتلوّن في هذه وفي تلك، وكيف هي رنّة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تقرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه ''الراين'' أو نهر يُدعى ''السين''.

آخر التوصيات العقيمة.

– أنبّهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج.

إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطِعني فستكون هذه آخر مرّة آخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنّما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلوّ! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، الماشي، القافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطانا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتونة المباركة التي ورد ذكرها في كتاب ''ما'' الأصفر الرث. ثم أين الزيتونة التي قال له رفاق اللعب إنّها تتوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه –وإلى الأبد–من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطّب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

– انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلّا فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراصة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدرَ الجري للوصول إلى الصفّ الأوّل حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيدَ أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيَلة، لماذا هذا القلق المباغت والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظراتُه تقول: لا تخشَ شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقلّد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثمّ ركوعا وسجودا. فجأة يتسمّر بصرُه على قدمَي الراكع الساجد أمامه. لا أهم الآن من هذين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنّه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ ''با'' من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثمّ ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلّا انتهاء الصلاة من صفعة جديدة بسبب رجُل نسيت امرأته أن ترقع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفلَ رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

– ''با''، هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهّد ''با'':

– بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرآة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكّأ وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنبا لجنب فذلك ما سيأخذ زمنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

– تحرّك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

– سأقول ل ''ما'' إنني صلّيت في أكبر جامع في العالم.

– الجامع الكبير ليس أكبر جامع موجود.

– (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهّد ''با''. ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

– يا بنيّ، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جَدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم ''سيّدي الشيخ الحاج''.

– هيّا نعود إلى المطعم. أنا جائع.

تختفي النبرة الحنون بالسرعة التي ظهرت بها.

– لا تلمس صحنك طوال الغداء، وتريد العودة إلى المطعم الآن! لا مجال لهذا الدلال، تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

– لم أكن جائعا آنذاك، بينما أنا جائع الآن.

– تتصوّر أنني خادم لسيادتك، أن المطعم ينتظر متى تجوع ليفتح أبوابه. ما عليك إلّا أن تأكل جواربك.

– لكن، يجب أن نتوقّف وأنت تركض كالمجنون.

يضحك الدليل إلى أن يسعل.

– هيّا، إلى بائع المرطبات.

آخر ما يهمّ الطفل المرطبات، وكل ما يريد ألّا يتوقّف المشي أبدا في فضاء ساحر كهذا، وأن يتواصل الطريق إلى ما لا نهاية، وقد نسي حتى وجود "ما" وأنها تنتظره بفارغ الصَّبر ليعيد عليها –ما لا يحصى من المرّات–تفاصيل اليوم الأغرّ. لا هاجس له الآن إلا مواصلة الركض لاستكشاف كللللللّ أزقة المدينة العتيقة، كللللللّ جوامعها وحوانيتها ومطاعمها ومقاهيها. أنستَه ألوانُها وروائحُها حتى ألوانَ وروائحَ الصحراء. هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحَت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزا عاهرة تحمل من كل مغتصِب، تلد اللقيط وراء اللقيط، تربّيهم كالقطة التي تتغذّى بفلذات أكبادها... وأنه سيواصل حُبّها رغم كل شيء.

لن يعرف الرجُل الذي سيواصل هذا الطفلَ مكانا على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتها منه أزقّة المدينة العتيقة وهو ابن يجرّ أبا يتلكّأ أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

مدينتنا... *(نزار قباني)*

تظل أثيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتها

أزقتها

أغانيها

مآذنها... كنائسها

سكاراها... مُصلّيها

تسامحها، تعصّبها

عبادتها لماضيها

مدينتنا –بحمد الله–

راضية بما فيها

ومن فيها

بآلاف من الأموات

تعلكهم مقاهيها

لقد صاروا مع الأيام

جزءا من كراسيها

صراصير محنّطة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

يومَ سيجلس –بعد أكثر من نصف قرن–لترتيب ملفّاته عن توغّل الطَّريق في الفضاء الحسّي، سينتبه أنه لم يطلب من هذا الطريق إلا أن يحمله إلى أبعد مكان عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يستطيع، وقد حُكم علينا ألّا نصل إلى المكان الذي نريد إلا وشدّنا الحنين إلى الذي غادرنا، ألّا نعود إلى مسقط الرأس إلا وشدّنا الحنين مجدّدا إلى ما وراء الأفق.

*

على هامش النص

في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه دون حاسة الرؤية التي أعطيَت دون منٍّ وحُرم منها –لعطب غير مقصود–بعض الذين ظلمتهم أيّما ظلمٍ طاولة القمار؟

في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه مصابين بالعمى والصمم؟ في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه بالعمى والصمم والبكم؟ في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه بالعمى والصمم والبكم وبلا حاسة الشمّ؟ أي عالم كنا نعبر وكل ما نملك حاسة اللمس.

حالة لا تعرفها إلا دودة تشق طريقها في دهاليز الأرض نصيبُها من الوجود أحاسيس الخشونة والليونة، الحرارة والبرد، الجفاف والرطوبة، وداخلها الحالم الأكبر بصدد التخطيط لأدوات استكشاف أخرى ماتزال في خياله الخصب براعم مشاريع. ثمة إذن، عالم آدمي لا يعرفه إلا المبصرون! وآخر اختفت فيه الأصوات لا يعرفه إلا "الطرش"! وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفها إلا من فقدوا حاسة الشم!

كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه نظنهم يقاسموننا نفس العالم والحال أنهم سيَقضُون جلّ رحلتهم في محاولة تدارك وفهم هذا الجزء من العالم الذي حُرموا منه.

إذن، عالم رحلة الأغلبية الساحقة بداهةً مصنوع في مستواه الأكثر وضوحا وحضورا وتأثيرا مباشرا، من حواسّ خمسٍ، لكل واحدة منها قدرات واسعة لكنها بالضرورة محدودة. نحن لا نسمع ما تسمعه الخفافيش، لا نشمّ ما تشمّه الكلاب والقطط، لا نرى بالدقة التي ترى بها عين النسر والصقر.

قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل النحل في الأزهار، ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات، ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرّات، ولمَ لا رؤية ما وراء البنفسجي وتحسّس الذبذبات الكهربائية–المغناطيسية–، ناهيك عن إضافة حواس أخرى لا تزال براعم مشاريع في خيال الحالم الأكبر.

لكن ماذا ترانا فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي الإمكانيات التي خُلقنا بها؟

حتى بعدد أكبر وبمجال أوسع سنبقى دوما مرتهنين لها بما هي المداخل الإجبارية أو الأدوات التي لا مهرب منها لإعطاء المبهم الأصلي الذي نتخبط فيه ملامح نطمئن إليها ونستطيع الفعل فيها والتفاعل معها.

هل يعني هذا أننا في آخر المطاف لا نستكشف إلا ما نخلق ولا نخلق إلا ما نستكشف؟

حقا، نحن لا نخلق الكائن المسمّى الحمار. هو موجود بغض النظر عن وجودنا. لكن الصورة التي ترتسم له في أذهاننا غير الصورة التي ترتسم في ذهن الأتان أو السبع. مما يعني أنه هو الآخر وكما نتعامل معه، كائن مخلوق من حواسنا، مثلما هو مخلوق من لغتنا ومن خيالنا الذي يضفي عليه صفات تعكس طبيعتنا أكثر مما تعكس طبيعته.

من أين للعالم أن يكون شيئا مستقلا عن الذات متقدما على وجودها، أوجده إله أعمى لا واعٍ نسميه "الطبيعة"، أو إله واع مبصر له من الأسماء ما للبشر من لغات؟

كيف يوجد قبل الذات وهو دوما معطى من معطيات حواسها ولغتها وخيالها ومزاجها؟

في ماذا نرتحل إذن؟ في عالم خارجنا كما نظنّ، أم كل هذا العالم الشاسع هو داخل ذهننا ولا نعي؟

**

على حدود الفضاءات

تنفجر رفيقة المقطع الجديد من الطريق ضاحكة:

– نعم، أتصوّر كم أتعبتَ الرجل المسكين ذلك اليوم، لم تتغير كثيرا رغم مرور السنين.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهبا بعد خمسة عقود كمن ينفخ على الرماد ليلتهب ما بقي تحته من الجمر.

– تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجِعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلبْ مني تفاصيل أدقّ، لست إلا هاوية.

إنّها هي الأخرى من عشّاق المدينة العتيقة، شَغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية، ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيَت منقوصة نصف قرن.

– هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك؟ هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما؛ إرهابُ دولة ذلك العصر.

– جئت بكِ لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمّام ووظيفتها التي كان ''با'' لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تثِر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون مَن قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟ هذا هو الحمّام، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلّاق ناصبا في بابه كمينا للأطفال.

– حدّثني عما تكتب حاليا؟ برنامجك لإنقاذ هذا البلد التعيس؟

– ملاحظات لا أكثر عن مواضيع لا علاقة لها به. ثمة من قال ''أنا أفكّر فأنا موجود''. شعاري: ''أنا ألاحظ فأنا موجود''.

كم من دفاتر رميتُ على صفحاتها هواجسي العابرة كلّما أتاني الحكاك الفلسفي، كلّما ألحّت عليَّ فكرة مبهمة تشغلني أياما وشهورا علّها تستقيم لتعني شيئا جديدا، كلما انتبهتُ مجددا لجلال السحاب والنور يزيّن حواشيه عند الغروب، والقلم يحاول بالكلمات رصد دهشة اللحظة التي يحاول الرّسام رصدها بالفرشاة والألوان.

– لهذا لا تنفكّ عن الخربشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

– لست متأكدا أنكِ ستستخرجين منه شيئا، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبتُ.

– خطّ الأطباء؟

– ظروف الكتابة، أحيانا وقوفا وسط حافلة مكتظة وحتّى مشيا.

– مادّة لنصّ جديد في الأفق؟

– نعم، لأهمّ نصوصي، وآخرها. نصّ أضع فيه كل تجربتي في هذه الحياة. شرعتُ فيه منذ حاصروني في بيتي فارضين عليّ السجن على حسابي. ومن يومها لم أتوقّف...

نص هو رحلة داخل الذات أتفحّص فيها ملفاتي المتراكمة عن الآدميين، عن تجاربي معهم، عن العالم الذي عبرت بما فيه من معالم، من كائنات وحتى من الأشياء.

– سيرة ذاتية أخرى! ألا يكفي طوفان النرجسيات الذي نعاني منه؟

كم سأردّدها: هذا النصُّ ليس سيرة ذاتية، هذا النصّ ليس سيرة ذاتية، هذا النص ليس سيرة ذاتية. فيتهامسون وراء ظهري: بلى، بلى، بلى.

تشرد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحَبّ مطربة لكِلينا:

كتبنا ويا ما كتبنا

ويا خسارة ما كتبنا

كتبنا ميّة مكتوب

ولهللا ما جاوبنا

– نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

–إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

– لأن طموحي ليس أن يَرُدّ عليّ أحد وإنما أن أعتصر من داخل الملفات التي تراكمت داخل ذاكرتي كل هذه العقود، أجوبة تردّ على الهواجس التي تلاحق كل آدمي: مَن أنا، من نحن، ما هذا العالم وماذا نفعل فيه؟ ألا يحق لي وأنا في هذا العمر أن أكون فيلسوفا عصاميا ينتصب لحسابه الخاص في سوق تعجّ بالدجّالين وباعة القديم والرث والمستهلَك؟

– وكيف ستحقق هذا الإنجاز العظيم؟

– عبر التمعن في أدقّ تفاصيل القصة الوحيدة التي أعرفها جيدا لاكتشاف الثوابت التي بُنِيَت عليها كل قصص الآدميين. أليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لنعرف كيف بُنِيَت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟

– أنت كمن يدّعي أن دراسة قطرة تعلّمك ما طبيعة المحيط. لكن، ما علينا. المهمّ أن تجد في عصر الاستهلاك للسريع والجاهز والمعلّب، مَن يقرأ، والكتّاب هذه الأيام أكثر من القرّاء.

– هل تساءلت يوما لماذا نقرأ؟ أليس لأننا نبحث عن ذواتنا في قصص الآخرين؟ أليس لأننا نبحث في قصص الآخرين عن معنى وجودنا في هذا العالم؟ لا خوف إذن من انقراض جنس القرّاء والسرّ هو السرّ والفضول أحبّ عيوب البشر.

خوفي الحقيقي ليس أن يغرق نصّي مع كل النصوص التي غرقَت وإنما أن تطفوَ بعض مقاطعه لتسميم عيش تلامذة وطلاب أبرياء وقد أصبحَت –ويا للحسرة– جزءا من الثقافة الرسمية. ما أريده حقا، وبلا حذلقة، أن يكتشف النصَّ ثعبانٌ فضي جاء من أعماق الفضاء في بعثة حفريات آلاف السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيترجمه وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

– دوما وَهمُ التغلّب على الفناء بالحرف.

– الخلود! طُعم كالذي تلوّح به الحياة للعشاق: المتعة لكم، أما بيت القصيد البنون والبنات فلي وحدي.

ما الذي يريده منا هذا الذي يلوّح لنا بطُعم الشهرة ليجبرنا على الكتابة؟ لتكن ما تكون، المهمّ ما هدفي أنا؟

– عُد إلى المشروع. أشعر أنك تحبّ الحديث عنه حبّ الأم للحديث عن طفلها.

– جلّ النصوص تتوجّه إما إلى القلب وإما إلى الدماغ. كأن العقل ليس عاطفيا، كأن العاطفة ليست عقلانية. كأن الذات ليست عاطفة–عقلا أو عقلا–عاطفة.

الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر. الجِدّ حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجدّ. الفلسفة في خانة والشعر في أخرى. العِلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة. الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين؛ النبيلة في الواجهة والدنيئة

خلف الستار. أي تصوّر ثري بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لكن أيّ هريسة فكرية لو لم نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

– واصل.

– أريد النص استحضارا لكل ما تعلمتُ أو توهمتُ تعلّمه عن الآدمي، عن الآدمية، عن العالم، عن ذاتي وهي تصارع من أجل البقاء. أريد أن يتجاور ويتمازج فيه كما في العالم الفكرُ والخيال، أن يتّسع للسفاسف ولأمّهات القضايا، لنقُل إنه التقرير الذي يجب على كل واحد منا كتابتُه وقد انتهت مهمته، لعلّ أحدا من المرتحلين يجد فيه ما ينفعه.

– إلى أين انتهى مشروعك العبقري؟

– إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذَوق الزبون وخوف الرقيب. أيّ ناشر مجنون قادرٌ على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ خاصّة أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟

– نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفَل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستفزاز. أرجو أنْ لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظّهم العاثر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية. جاء دوري لأنفجر بالضحك.

– هم ليسوا بحاجة إلى أي توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي لا للعلم ولا للأدب.

– متى ستشرّفني بأن أكون أولى قرّاء قصتنا جميعا؟

– لا أعرف، بل لا أعرف أصلا هل سأغامر يوما بنشر النصّ.

– الخوف من الرقيب؟

– من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوَجها مهاراتٌ عديدة لست متأكدا من امتلاكها.

– مثلا؟

– مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موحِشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات، مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش، مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القِطَع في أكثر الأشكال تناسقا، مهارة الفنّان والنصّ لوحة فنّية يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف نشازا، مهارة سقراط وهو يستفزّ في السامع طاقاته الذهنية ليوَلدا المعنى معا.

– سأفتعل تصديقك، وأنّ الهدف ليس إرضاء رغبة كل الكتّاب: إنما إعادة صياغة العالم الذي يعبرون وحتى خلق عوالم أخرى يرَونها أجدر بالوجود. والآن ماذا عن العنوان؟

– رحلة الحياة أو كتاب الرحلة، ربما الرحلة.

– إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان فيا خيبة المسعى!

– هل هي غلطتي والبشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكاية فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيطة قرونا قبل أن أولد؟

– إذن، هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسابا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

– طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوما، سيُخرجون جُملا من سياقها، سيقوّلونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان وبالكفر، بالشيء وبالنقيض... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تمرّر مرافقتي يدها أمام عينيّ مبتسمة:

– سهوتُ، كلّي آذان صاغية لك.

– لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفي منه الكلمة بدورِكِ. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ شمسٌ تدور حولَها كل الأفلاك، وذرّةٌ من غبار تدور في فلك ما لا يحصى من الشموس؟

أيّ علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته؟

تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

– معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبدا.

– أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة. والآن كفى من هذا الموضوع. لم تتركيني بمقاطعاتك المستمرّة أقصّ عليك بقية اليوم التاريخي.

– إذن، بعد المطعم والجامع كان الأب المسكين يحاول إكمال بقيّة أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات ''الفرخ''، مقسما بغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

– كنت تسمعيننا إذن! برافو. اتّبعيني الآن إلى المكان الذي كان في عجلة للوصول إليه، لا أزال أتذكر الطريق إليه، كيف أنسى المنطقة الحدودية التي كانت مدخلي لأغرب فضاء من فضاءات العالم؟

– فسّر.

– يجب أن أكون نفسي فاهما، هذا هو المكان.

أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط، أصرخ جاحظ العينين.

– هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو مخصص لأشياء يبيعها محتالون لأغبياء! انظري ما فعل أبناء الكلب بأوّل مكتبة أخذني إليها ''با''... جعلوا منها هذا ال... هذا المكان الذي يبيع أدوات الطبخ والغسيل والساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدّعي الفن والقداسة.

تدفعني مرافقتي إلى الأمام.

– تعال وتمالك نفسك. لا أريد لك السجن بتهمة إحراق محلّ تجاري.

تتدافع الصوَر إلى سطح الذاكرة وكأن الأحداث وقعت البارحة وليس منذ عقود. تمرر مرافقتي يدها أمام عيني مرة أخرى.

– كأنك تحادث أحدا غيري. أكمل القصة وأنت تنظر إليّ.

كانت هذه المكتبة آخر محطة زيارة للمدينة وأهمّها في ذلك اليوم المشهود، المكان الذي كان يركض له ''با'' متأففا من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة.

لا تعرف للآدميين رائحة ألطف من شعر المرأة وعليه عطر خفيف، ولا للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به الكتب. يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

– ''با''، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

– نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

– ''با'' أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كللللللّ الكتب.

– ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق ''كلّ'' كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس ''با'' في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.

– تعال، قل لعمّك ما تريده أنت.

– أريد آخر عدد لمجلّة سندباد وكلللللّ القصص الهنديّة لكامل الكيلاني وكتب جورجي زيدان و...

يفتح البائع فمه:

– كم عمره؟! من أين يعرف؟

يغالب ''با'' زهوه:

– هات له ما عندك من قصص الأطفال حتى لا يقرأ كتبي فيفهم منها أكثر مما أفهم.

يصرخ الرجل وقد امتقع لونه:

– أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟

يتدخّل البائع بلطف:

– لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زادٌ لأشهر من القراءة.

يأخذ ''با'' في تقليد لهجة البائع الحضرية:

– ولا تحمّل والدك فوق طاقته...

يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:

– ما دام والده حيّا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.

يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند ''با'' وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالٍ بالبائع يخفي سروره وشماتته. إنذار صامت أنّه من الأحسن أن نتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير. توقفَ ثم ركض باتجاه المحطة.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرّة تفتح على أوسع أزقّة المدينة العتيقة:

– ''با''، ما هذا الشيء؟

– حثّ الخطوة وأغلق فمك.

– لماذا يقف أمامه الجنود؟

– حتى لا ينسفه رجالنا... إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه ''لافيجيري''.

– ''با''، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟

– لا شيء داخل هذا المسخ سوى استفزاز المحتلّ وكفره.
يزمجر ''با'' كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.
– أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سمّوا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير ''شارع الكنيسة''. اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا–جبروتنا نحن.
– أريد أن ألمس ال...
– الجنود يمنعون الاقتراب منه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، لكننا سنقتلعه طال الزمان أو قصر. أسرع وإلا فاتنا القطار الأخير.
طوال الطريق، مُعرِضا عن أب لا يفهمه، تنطلق طاقة الخيال مجددا. للآدميين أشكال غير التي قُدّت من اللحم والعظم. ثمة بشر من حجر ومن معادن وسيعرف عنهم يوما الكثير.
في بعض ملفات الكهل التي تتواصل فيها أحلام الطفل، يخرج كل زوار متحف اللوفر ساعة الإغلاق باستثنائه هو، نجح في الإفلات من الحراس ينتظر السكون والظلام ليرى خروج الآدميين من الأطر المذهبة، وتدافُع تماثيل المرمر يهزجون ويرقصون إلى ظهور أولى بوادر الفجر. ما إن يأتي الصبح إلا ويدخلون لوحاتهم أو ينتصبون على منصاتهم يتأملون من يتأملونهم بوقار صامت هازئ.
ما الذي يثير ربع ابتسامتك يا صاحبة النظرة الشاخصة من وراء نقابك الشفاف؟ أتسخرين من أكاذيب الأدلّاء أم من آدميين ما زالوا مثقلين بجسم مصنوع من لحم وعظم وشحم؟
هذا النقاش أو ما يشبهه داخل عربة قطار شبه فارغة.
– ''با''، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. ما هو أكبر شاعر في كللللللّ الدنيا؟
يرسم ''با'' على محيّاه ابتسامة التهكّم ثم يصرخ.
– قطعا، ليس ذلك الأخرق الذي قال ''إذا الشعب يوما أراد الحياة''. لو قال على الأقل ''إذا هذا القطيع يوما أراد الممات''، لكان من الصادقين... طبعا أكبر الشعراء هو...
– أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
– هل ثمة غيره يا مغفّل؟
– ''با''، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.
ينفجر الرجل ضاحكا، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.
– إياك، ثم إياك. حذارِ أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقِرَت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثّر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.
– ماذا أكون إذن؟
– مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا، والآن اتركني أقرأ جرائدي. هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده.
يصل البيتَ أبٌ مرهَق وطفلٌ متزايد الرغبة في مواصلة يوم بدا له قصيرا. تفتعل ''ما'' السرور بما جلبا لها من الحلوى.

مؤكّد أن للآدميّ نَهَما للمعرفة أيا كانت أشكالها مثلما له نهم للماء والطعام والجنس. إن أنت حرمتَه منها، حرمته من إحدى أهم ضرورات الوجود. لا شكّ أن هنالك أمراضَ فقر المعرفة كما هنالك أمراض فقر الغذاء، أن الذات التي تتغذّى بأكثرها تنوعا ورقيا في صحّة أحسن من تلك التي تعيش على جوع الصور والأفكار.

يسارع ‘‘با’’ إلى كتبه ويرحل. يسارع الطفل إلى كتبه ويرحل. تعود المرأة لغسل الصحون ثم تجلس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتابا أصفر رثّا، تطيل فيه النظر، ثمّ تغلقه بعصبية. تشيح برأسها، لا تنبس ببنت شفة، ولا أحد منتبه إلى أنها مثل عصفور في قفص عُلّق في سقف زنزانة والمفتاح شيء سحري لا تملكه، آن الأوان لرواية ظروف سطوي عليه.

**

الحاسة السادسة

تهمس أمّ في أذن طفلها النائم وفي صوتها عصبيَة غير معهودة:
– انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!
– إلى أين سنذهب؟
– إلى الكتّاب. هيا، لا تتثاقل!
– الكتّاب! لكنّني ذهبت إليه البارحة.
تغالب ''ما'' نفسها حتى لا تنفجر ضحكا.
– ستذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيّام ما عدا الجمعة والأعياد.
إنّها نبرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحمّام، أي أنّ الموضوع غير قابل للنقاش والمساومة. ومع هذا لا بأس بالمحاولة.
– لماذا؟ ألا تكْفي مرّة واحدة؟
– لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلكّأ.
تجرُّ الطفلَ امرأة بها حماس مبالغ فيه غير مباليَة بحماس طفل أقلُّ ما يوصف به أنّه كان فاترا. كلّ هذه العجلة للعودة إلى مكان ليس هو مركزه!
– تَذكّر ما قلتُه لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تتشَيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام نادهِ ب''سيّدي''، كُن شديد الاحترام له ولا تعصِ له أمرًا، استوعب ما يقوله لك، قبّل يده عندما يدعوك لتَمثُل أمامه، لا تكن وقحًا ولا تتكلّم صارخًا أمامه، أطِعه في كلّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى، ولا تنسَ أنّه سيخرجك من الظّلمات إلى النّور فهو مَن سيعلمك كلام الله.
إنّها عادةُ الأم الأزليَة المتماديَة في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو أن لها أدنى تأثير في تحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد... ويدلُّ على تواضع دورها في الأمر أنّ ذلك لم يحصل.
بقية الحوار.
– لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.
تجذب ''ما'' يد الطّفل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:
– لا تكرّر أبدًا مثل هذا الكلام، خاصّةً على مَسامعِ الناس.
يصل الطّفل مجرورًا من يده إلى الكتّاب، وهو ركنٌ من جامعِ المدينة الصغيرة التي قذفتهما على ضِفافها أمواج النزوح. تدفع الأمّ طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بقوّة، شيءٌ ما بداخلها يحثّ على الفراق وآخرَ يرفضه.
توصيَة عقيمة إضافيَة بضرورة الجلوس قريبًا من الشيخ، وحتّى بين يدَيه للتّبرك والنهل المباشر من نافورة العلم هذه.
تسترجع الذّاكرة صورة شيخ يلتحف ببرنس من الصوف البنيّ وعلى رأسه شاشيَة حمراء يلفّها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيرا لِوهج شمس الفلاّحين، ويدان لرجل لم يمسك في حياته إلا القلم والورق.
كان يفترش سجّادا مهترئا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطّفل مع الرّفاق الصّغار، وكلّهم جالسون أمامه صفوفا متراصّةً في أعجب فوضى. يومَ غامَر بالجلوس قريبًا من الشّيخ ليبصره عن كَثب فوجئ بنظرته الجانبيَة مصوّبة نحوه، وكِلاهما

يقدّر حظوظه –خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الآدميين–في استعمال الآخر لمآربه. ألم يسمع من ''ما'' أنّه يحفظ كلللللل كلام الله، وأنه يعرف ما لا يعرفه حتى ''با''؟ يداهم الطفلَ شعور بالتهيّب.

قد يكون الخوفُ ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للرّجل عصًا طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثَم قرر الطفل البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفيَة ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيءٍ رهيب آخر تسمّيه اللّغة ''الفلقة'' كان الشيخ يضعه قرب ركبته اليمنى، واضحًا لكلّ العيون، جاهزًا لكلّ الاحتمالات.

الفلقة! أداة بدائية بالغة البساطة لكنها رَوّضَت أمّةً برمّتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرِّ التاريخ. هي الّتي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخَوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطّفل لتسييره في قوافل المروَّضين.

على ذكر وسائلنا البيداغوجيَة القديمة عن الجاحظ: ''*كان معلّم يعلّم الصبيان ومعه عصًا طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألتُه ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفّر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفرّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارّة ذلك فيسارعون إليّ ويخلّصوني منهم*'' .

نعم يجب إسناد الميداليَة الذهبيَة لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتّاب ولهذا الشيخ، طيّبَ الله ثراه وأسكنه في أفخم ''سويت'' في الجنّة.

في بعض ملفّاتي الساخنة، يعود الطّفل إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر لا على الأرض وكل همّه دخول البيت محافظا على مشية لا تُلفِت الانتباه. لكن، كيف يتفادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار ''ما'' على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟ كيف يعترف ل''ما'' أنّه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنّه قام ليجلس بعيدًا عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلّا من نفسه، أنّه لم يقل للعجوز: ''سيّدي الشيخ'' وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلّا أقلّه، ولم يُقبّل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زادَ إلى أنْ كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك. ثم ماذا لو سألَته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تتظاهر ''ما'' بأنّها لا ترى مشيته. لا تلقي أيّ سؤال. تتغافل –على غير عادتها–عن حصّة غسل القدمين الإجبارية مظهرة مزيدًا من الحنان. يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويف، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصًا طويلة وقدمان داميتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا.

للمدافعين عن حقوق هذا الطّفل والمستنكرين لكلّ عنف ضدّ فلذات الأكباد، أقول نعم، نعم، كل حُججكم هذه أعرفها جيدًا ورددتها في أكثر من محفل. لكن، بيني وبينكم وبعيدًا عن الآذان المتطفلة، وعِلما أنني ذقتُ الفلقة أكثر منكم بكثير، أيُّ وسيلة هذه للتعامل مع هذه الوحوش الصغيرة التي تسمّونها الأطفال وهم بهذا الكمّ الهائل من النزق والطيش والغباء والعنف؟

تهز اليَدُ الرقيقة الطّفل بحزم:

– انهض، حان الوقت.

– اذهبي أنت إلى هذا الكتّاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه ب''سيّدي''، قبّلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتّاب مهما قلتِ وفعلتِ.

– يا بني لابدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتّاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدِّبا؟! كم سيكون رائعا أن تشبهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صِبيَة قريتنا كلام الله.

– لا أريد أن أكون مؤدبا. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!!

تأخذ ''ما'' طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جَذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلا موجوعا وإنما الرَّجل النائم داخله.

– رأيتك في المنام عالِما بارعًا باللّسانَين! نعم، جاءني في المنام –وأنا حُبلى بك–مَلاك بشّرني بهذا. هل تكذّب ملاك الله وتخزيني؟ هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويلٌ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدها لك ''با''!

نعم، كم هو طويل طريق الآدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبِئه منذ البداية أنه لم يأتِ إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمّة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع مُسبقًا.

هل أتاها الملاك يَومها منتفخ القدمَين يمشي على الزجاج والجمر؟ المهمّ أنّه أتاها واتّفق معها على شروط العَقد الذي سيجعل الطّفل عالِما بارعًا باللّغتَين. لم يَعد مطلوبٌ منه سِوى التطبيق، إذ لا حقّ له في إفشال مخطّطاتٍ سرّية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديَة للأم ورغبةٌ عارمة عند الأب في الثأر. إنها القاعدة في هذا العالم. محكوم عليك أن تنخرط بإرادتك، أو بِتوهّمها، في القصّة التي حدّدتها لك طاولة القمار وأنْ تلعب –شئت أمْ أبَيت–الدور الذي قرّره لك ''البخت'' أو سوء الطالع.

يستمرّ الطفل في عناده رافضًا مواجهة تجدّد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم ''ما'' وهو في البداية؟ تستخرج الأمّ من خوفها المفاجئ الحجّة التي لا تُقاوَم.

– تعلّمتُ بعض الحروف من أخوَيّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيَني بالبقيّة. آنذاك سأقرأ كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:

– أنت لا تعرفين القراءة؟

– في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتّاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

– لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محمّلا بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه وقد تبدّلت كل المعطيات لديه:

– سأذهب لآتيكِ بها. وسأتوَقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

– كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكلْ قطعة الخبز هذه في الطريق.

في ذلك الصباح لم يركض صبيّ في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد –بمحض إرادته–مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشدّه، وقد ألقَت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمّة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة ساديَة يمارسها عليك قبل أن يرميَ بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك.

هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في

ذلك الشيخ نفسه. تُداهم الطفلَ –وهو يردد كالببغاء–أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما العالمين، ما الخنّاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه التهوّر من جديد:

– سيّدي، ما معنى خنّاس؟ ولماذا يوَسوِس الشيطان في صدور النّاس؟ وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر –وهو في هذا العمر–من باب المطالبة بالحُجّة أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفطّن إلى أن الطّفل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأقبح ما يكرهون، فأراد أن يقوّم الخطأ في تركيبته الذهنيّة بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجرًا في الدنيا وثوابا في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجا:

– سيّدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخنّاس؟ ولماذا تبّت يداه؟ وما معنى تبّت؟

أخيرا يستبطن أهمّ ما يعلّمه الكتّاب والحياة بصفة عامة، أنّ تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمق كرهُه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جُعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه الخشن لقضاء حوائج كثيرة، يختفي ساعات، يسلّم إبّانها العَصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون – ككلّ سلطة–إلّا بالفلقة والعملاء. كان همُّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قامة وأكبرهم سنّا، أن يصفّي حساباته مع مَن لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيدَه المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسّف العريف، عقوبات كافية لتُثني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها ''ما'' ما ينقصها.

تواصل الحروفُ اللعينة رفضَ الحضور بين يدَي مَن هو بأمسّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدّار كلّ مساءٍ مثقلا بآلام غير مفهومة السّبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جُمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

– ''ما''، لا حروف في هذا الكتّاب، لماذا لا نبحث عنها في كتّاب آخر؟

– صبرا أيها الطفل العَجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءٍ مع حرقة الإحساس بالذنب والقهر. ها قد بدأت ''ما'' تتخوّف بجدٍّ من صِدق وعد الملاك. تتشنّج أصابعها وهي تمسك بكَتفَي ابنها:

– لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليّا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجِمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبدًا، هل تسمع؟

–... ،... ،... ،... ،... ،

– يجب ألا يحصل هذا أبدًا. أبدًا!!

–...

– كم سأكون فخورة بك وقد حفظتَ السّتّين حِزبا! كم سيكون ''با'' فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسّر منها!

–...

– أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا ستُفرَج بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكّر والسّمن. وأنت أيضا لا تكن سليط اللّسان كعادتك. لا تكابر، فلستَ دومًا على حق. سأصلّي الليلة كثيرًا ليهديك الله.

ولأنّنا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإنّنا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصًا وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشريّة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التظلّمات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدفّق العصيدة بالسكّر والسّمن، أمرَت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفل ويتّخذ طريقًا قد يقوده ليصبح عالِما بأحد الرَّعيَين حسب تهديد أمّه. ربّما تدخّل حليف ''ما'' بحزم وإلحاح لدى مكتب التظلّمات الكونيّة. قد تكون علاقاته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم. ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطّفل وجد أخيرا ضالّته.

ذات صباح يتنحنح الشيخ بوقار:

– والآن إلى ألواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتب بها كتاب الله.

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسّي جسمٌ سليم، حواس نشِطة، ثيابٌ تَقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيّقًا. أمّا عن استكشاف فضاء الرّموز فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة، وعلى الأقل أربعة أشياء توفرت كلها يومها للطّفل: قصبة مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحى به الكتابة وتعاد. إنّه حاسوب ذلك الزمان. يا للأدوات المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الآدميّين!

كم كان الطّفل بعيدًا عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعرًا وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراته لذاته وللعالم! من أين للطّفل –وهو راكع مُنكَبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه– الوعيُ بأنّه وَضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم الفكر البشري! كم كان بعيدًا عن تصوّر حجم ذلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم، وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له إنّه سيقضي في استكشافه جلّ زمن الرّحلة، وهو كمن يبحث عن بعض قطع اللؤلؤ المنضود في أعماق بحار لا تعرف لها بداية ونهاية؟

ها هو منهمِك بهذه الأشكال الهندسية التي تصبح أصواتا، فكلمات، فجُملا، فصُوَرا، فأفكارا تتزاحم داخل عقل نَهمٍ يقظٍ. يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغا كسيف دامٍ في وجه عدوٍّ شرس اسمه الجهل.

عشنا تسعة أعشار المائة ألف سنة من تاريخ الجنس البشرّي، والذي يَفتحُ لنا الآفاق في الفضاء الحسّيّ دليلٌ يحمل هراوة أو نصلا، وندخل فضاء الفكر وراء دليل سلاحه القلم.

يبدأ الطّفل كتابة الأشكال التي أمرَ بها الشيخ، أو قُل رَسمها. لا بدّ من التحكّم في تشنّج اليدين حتى لا تنطلق العِصيّ الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم! يتعلم الطّفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عِصيٌّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نِقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! يرمي لوحه ليرقص طربًا. لقد تعلّم من سيّدي الشيخ، خمسة أحرفٍ دفعة واحدة. اكتسب أخيرا ترديدُ الجُمل غير المفهومة معنًى، وكذلك حال ألم العصا. أليس الأمران ضريبة للحصول على معرفة الحروف التي تنقص ''ما''، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفل من تفحّص العصيّ والنقاطِ لا بد من وضع الدوائر تحت السَّيطرة. تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفَها طوال رحلته من قِبل القريب والبعيد، تارة بالغريبة وتارة بالاستفزازية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرته وعِصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه ''ما''؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف

وعِصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلّا عرض اكتشافه على المؤدب.

– سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهّل كثيرا على ''ما'' حفظ الحروف!

– ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصِّبيَة الحمقى حماقة.

– سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ!

– اخرس يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم خِلسة؟!

المهم أن الطّفل تحصّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل.

– ''ما''، اليوم تعلّمتُ كللللللّ الحروف! إنّها أجمل من كلام الله.

– كم مرّة قلتُ لك ألّا...

– اللّيلة سأعلّمكِ فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس ''ما'' فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطّفل عُود حطب رقيق يلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّما ومُهابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثمّ يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.

– انظري مليّا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟

– نعم.

– نعم، يا...؟

– نعم، يا سيّدي الشّيخ.

– انظري جيّدا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

– هو هذا، يا سيّدي الشّيخ.

– حسنٌ جدّا. والآن الحرف الثاني. انظري مليا ولا تتبسّمي. إنّه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلا إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

– هذا الألف وهذه الدال، يا سيّدي الشّيخ.

– والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمتِ الفرق؟

– نعم، يا سيّدي الشّيخ.

– والآن إذا وُضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

– لا أعرف، يا سيّدي الشّيخ.

لا بدّ من التروّي فهذه التي ستنال العصا هي ''ما''، وعلى كلّ حال هي غير مطالَبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علما بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم مَن لا تظلمُه أبدا؟

– حسنًا، لنراجع كلّ ما علّمتكِ اليوم.

كانت الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ ''ما'' تنسى حرفا أو حرفين وآنذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضّرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمتّع بسلطته الجديدة.

-ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟

ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلّا نادرا.

- إيّاك أن تبوح لسيّدي الشّيخ أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمّك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!

- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتّاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ ''ما''، والطّفل مسكون بهاجس طَبع بقيَة الرحلة. إنّه لا يتعلّم لحسابه الخاصّ فحسب، بل هو أيضا صاحب رسالة ومسؤولية.

تمرّ أيّام الطّفل سعيدة وهو بين صمغ وطين ولوح، وأشكال تبرز وتختفي تنطق بأقدس الكلمات.

- ''ما''، لماذا هذه كلمات الله؟ وما معنى كلمات الله؟

- لا تشغل بالك بهذه الأمور.

يقرّر الطفل -على العكس-أن يشغل باله بموضوع الكلمات. لا بدّ أن يكبر وأن يكبر كثيرا ليفهم يوما ما أنّ العالم الآدميّ مصنوع من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الأحاسيس والمشاعر، أنّ الله، الزّمان، الموت، الآخرة، العفاريت، العدالة، القانون، التّقدّم، البيئة، والحضارة، لبِنات لها من الأهمية في تشكيله ما للطرق والعمارات والجسور... أنّنا نعبره تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع وشتى أنواع السلاح، وتحت تهديد كلمات الكفر والخيانة والعَمالة والردّة والتطرف والإرهاب، تخرج علينا من أدغال الأوراق وشاشات الحواسيب بمخالب وأنياب تقطر بدم المذنبين والأبرياء على حد السواء.

*

ذات يوم تغتنم ''ما'' لحظة هدوء لتُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غدًا سيكون يوما أغرَّ في حياتك يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية لتتعلم فيها المزيد. إنّها قريبة من محطّة القطار ولن تتعب كثيرا في الذّهاب والإيّاب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكرّاسة وكتابُ قراءةٍ جميل.

- لن أذهب إلّا إلى الكتّاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغتَ السّادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصريَة.

- لكن هناك أطفال أكبر منّي في الكتّاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. سترى أنها أحسن بكثير من الكتّاب.

أحسن من الكتّاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معابثة الشّيخ والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظُّهر؟ كلّا، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لن تذهب بعيدا بالزاد الذي يوفّره الكتّاب. لأنّ جُلّ خرّيجيه ليسوا سِوى رُعاة قرية جدّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجَر العثرة خوفٌ مبهَم أن تكون عصا الشّيخ الجديد أطول من التي تعوّد عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا. تُواصِل ''ما'' عملية الإقناع غير منتبهة لمخاوف الطفل وإنّما لمخاوفها هي. تستمع الأمّ إلى حجج الطفل الواحدة تلوَ الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضّحها ثمّ تفنّدها، تخاطب في ابنها كائنا له عقل. يتسلّل إلى عقله أنّ العَرض قد يكون

في مصلحته حقّا، خاصّة أنّه من ''ما''. ثمّة أيضا أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظَت عليها ''ما'' بحرص شديد، لا تخرجُها إلّا نادرا، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

– سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تسأل ''ما'' الطفل بعد أيام وقد اتسعت ابتسامتها:

– ماذا قرّرتَ؟ هل تواصل في المدرسة أم تعود إلى الكتّاب؟

لا يفهم الطفل للسؤال معنًى ولا يكلّف نفسه عناء الردّ عليه. تكتمل ابتسامة الرّضى عند الأمّ، تظنّه أغرم بالمدرسة والحال أنّه كذلك بالفعل.

في أوّل لقاء حدّق الطفل في المعلّمة غير مبالٍ بما تقوله. بيد أنّ جلّ تركيزه منحصر على وجودها في مثل هذا المكان. كيف يمكن لأنثى أن تحلّ محلّ سيّدي الشّيخ، ومن المعروف عن الإناث أنّهن جاهلات أمّيات مثل ''ما'' لا يخرجن من بيوتهنّ إلّا إلى العائلة والحمّام أو القبر؟ هذه المرّة ها هو يفرك عينيه يتأكّد من أنّه يرى فعلا ساقَين عاريتَين إلى مستوى الركبة. يُسقِط قلمه عَمدا، يفتعل البحث عنه تحت الطاولة. ومن ذلك المرقب يأخذ وقته ليتأمّل الساقين المصقولتين، يتابع بخياله تواصلهما تحت الثياب حيث تنتهيان بأشياء مختبئة لا يدري ما هي بالضّبط، ولا يجوز حتى التفكير فيها.

– ماذا تفعل تحت الطاولة؟

– أبحث عن قلمي، ولا أجده يا سيّدتي.

– هل تنوي التفتيش عنه طول اليوم؟

يجلس الطفل معتدلاً وقد ترك القلم ملقًى تحت قَدمه، للبحث عنه مرّة أخرى.

همّه الأوحد الآن الفوز بِرضَى الحبيبة وقد استبطن سريعا أنّ عليه أن يكون أوّل من يتجاوب في لمح البصر مع الرغبة المعلَنة والمخفيَة، ليحرص على نَيل رضًى لا يريد فيه شريكا. إنّها معركة أخرى بين أطفال شرسين لا يحبّون شيئا قدر المناكفة والملاكمة، رهانها هذه المرّة الظفر بحبّ ''سيدتي''. كم سيرى هذا الطفل وكم سيمارس هو نفسه على مرّ السنين من استراتيجيات الإغراء، عندما يَسقط القناع من استراتيجيات العنف والجشع، والهدف دوما امتلاكُ ذاتٍ أخرى! وكم سيكتشف عبث العملية وكلُّ ذاتٍ غيرُ قابلة للتّملك من ذات أخرى ربما لأنها هي نفسها لا تملك ذاتها!

تُواصِل المرأة المرهَقة تزويد القافلة الجديدة للمرتحلين بالأدوات الضرورية لشقّ طريقهم في عالم قد يمرّون على أهمّ مَن فيه إن لم يتملّكوا هذه الأدوات.

– انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات الّتي على الصفحة الأولى لكتابكم ثمّ نقلها على الكرّاس، وأريد أن يتمّ ذلك بنظافة تامّة.

يصرخ الطفل المتهوّر:

– إنّها كلمات سهلة، أعرفها كلّها، فسيّدي الشّيخ علّمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلّمة ابتسامة صفراء.

– حسنًا، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللّوح.

لأسباب ما، تتوجّه المعلّمة متجهّمة نحو طفلٍ مرتبك.

– أريد أن يأتي وليّك معك غدا. وبالمناسبة، من الآن فصاعدا عليك أنْ تجلس في آخر القسم.

تحدّق الأمّ في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللّطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينَيها ذلك البريق اللّامع الذي لطالما أحبّه الطفل.

– أريدك أن تعِدني بعدم مضايقة ''سيّدتي''. إنّها غاضبة مِن كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

– حفظتُ كللللللّ الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.

– لا تقُل أبدا عن أقرانك أغبياء وإلّا كرهوك وآذَوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمّه له ولا امتعاض ''سيّدتي'' منه وهي لا تبتسم إلّا للأطفال الآخرين.

ذات يوم يزداد الوضعُ سوءًا والمعلّمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

– والآن انقلوا في كرّاساتكم الجُملة المكتوبة فوق السبّورة.

الجملة! أين هي؟ مِن هذا المكان في آخر الفصل وظهرُه إلى الحائط هو لا يرى إلّا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرّف عليها. يغالب الطفل تردّده، ثمّ يستجمع شجاعته وقد خرجَت ''سيدتي'' لحظة فينهض من مكانه متوجّها إلى السبّورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالَب بإعادة نسخها، لا يبالي بقهقهة السخريَة وبالطباشير المتطايرة. ثمّ يصلّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرتُه الجُملة الطويلة وهو في غُدوٍ ورواح من السبّورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبّورة، كأنّه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصَّيد.

– ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

– يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبتِ.

– لا تتحرّك مجدّدا دون إذنٍ.

– لكن يا سيدتي...

– عُد إلى مكانك وإلّا شوَيت أصابعك بالمسطرة.

يدخل الطفل مجدّدا في قوقعته.

تصرخ ''سيّدتي'' في قمّة الهَيجان.

– غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبيّ أم ماذا؟!...

– سيّدتي!!

– كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبّورة إلى الجحيم. لتذهب سيّدتي نفسها إليه. على كلّ حال لقد قرّر أن يطلّقها بالثلاث حتى قبل الزواج.

سوء الفهم المزمِن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توَفرها لهم اللغَة.

لمثل هذه الوضعيّة التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بَعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغّص عليه عزلةً موجِعة لذيذة. ومن مشاغله تلك الأيّام التي عَرف فيها لأوّل مرّة تجربة النفيِ، بَلورةُ أولى نظريّاته عن العالم.

لقد استوعب باكرا وبلا وعيٍ صورةً لقَومه، لخّصها في رسم كان يعود إليه طوال الوقت بالتلوين والتحسين.

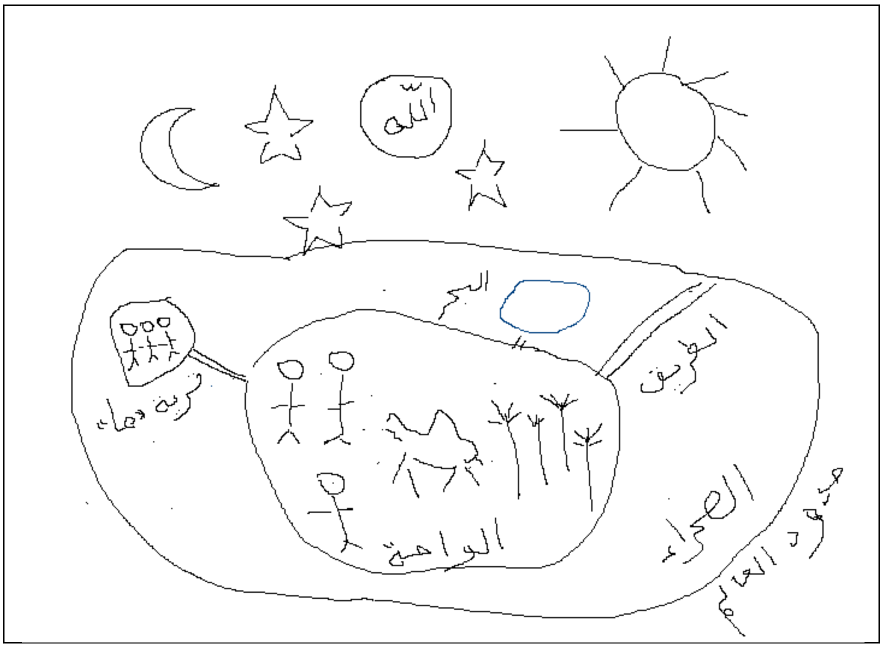

العالَم إذن –مما لا يدع مجالًا للشكّ في هذه المرحلة من رحلة الطفل–طَبَق صلب أفقيّ جلُّه أصفر اللّون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّثه الدليلان عن وجوده، وبُقَع خضراء صغيرة متناثرة هي غابات زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقيّة الكائنات والأشياء ثمّة قبّة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحنا أجوفَ من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبّة تتجوّل الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسيٍّ ضخم اسمه ''العرش'' شيخُ كلّ الشيوخ الذي هو الله. بين قبّة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حينِ تَسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم ''با'' و''ما'' والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران وركّاب الحافلة والقطار تَصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرفان والبقر، وهم أنواع خاصّة من الجيران والأقارب. من مركز العالَم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يَسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافَتيه ثمّة مدنٌ وقُرًى لا يُعرف لها عددٌ، لكنّها كثيرة وحتى بأعداد تفوق كل توقّع. أمّا الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، من بينهم ''العبيثة''.

يُمعِن الطفل النظر في رسمه فيعود إليه الشكّ لينغّص عليه متعة النصر. ثمّة شيء هامّ ينقص، لكن ما هو؟ آه، الآخرة طبعا، التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه! هل يُعقل أن ينسى مَعلَما كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجرّب فكرته ثمّ يسارع إلى التخلّي عنها إذ لا تستقيم مع بقيّة المعطيات. يتذكّر فجأة أنّ الآخرة حسب قول ''ما'' هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميّت حفرة في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللّعب معه وسرقة لوز الجيران؟ إذن، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقا لما سمع من ''ما'' التي لا تكذب أبدا، فهي مكوّنة من الجنّة والنار. يرسم الطفل مربّعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأوّل أخضر اللّون لأنّ الجنّة كما تقول ''ما'' واحةٌ خصيبة، ولو أنّها أكبرُ ونخيلُها أعلى وميّاهها أوفر وأعذب، يذهب إليها من عَمِلوا الصالحات. أمّا المربّع المقابل فهو أحمرُ بلون النار المخصّصة لشواء لحم الكفار والمعلّمات الشرّيرات.

يجيل الطفل البصر في عالَمه راضيا عن عمله وقد اكتمل ووَجدَت فيه كلُّ المكوّنات مكانها.

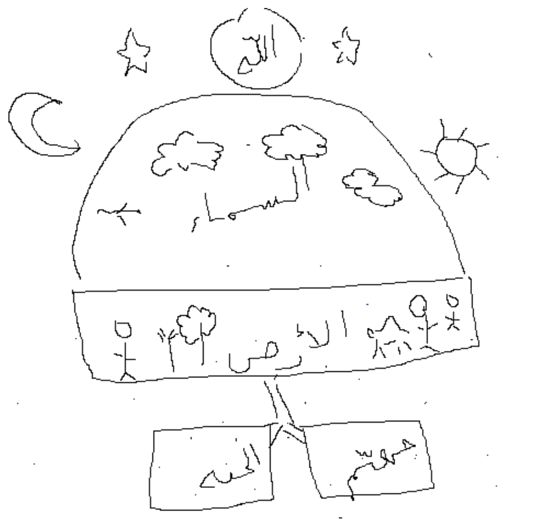

آخر معضلة كانت المكان الذي يَرحل إليه عند النوم. هل هو جزء من الآخرة أم من الدنيا؟ يغرق في تساؤلاته ثم يغلق الموضوع مرجئا حلّه إلى حينٍ يكبر.

لم تبقَ إلّا مشكلة الزمان وينتهي الطفل من فهم تركيبة كلللللللّ العالَم الذي وَجد نفسه محشورا فيه كالفأر بين أرجل الفيَلة. الشرّيرة، الغبيّة، الكذّابة! لم تنتبه لتضارب معلوماتها. ما معنى أن يكون لليوم تاريخان: واحد هجريّ وآخر ميلاديّ؟ كيف يكون هناك زمنان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من ''الهجرة النبويّة'' وأخرى من ''ولادة المسيح''؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالَم وكل الأحداث؟ لتذهب هذه الشرّيرة إلى الجحيم! مؤكّد أنّها لا تعرف متى ستقوم القيَامة. وهل يا تُرى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفّار؟ حسب زماننا طبعا، فإلهنا هو الإله الحقيقيّ. ولكن في أيّ سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكِبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ طبعا كما اتفق مع ''ما'' أوّل يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء. لكن أيّ يوم بالضبط؟! الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفّار اليهود، الأحد يوم الكفّار النّصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحقّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنّه دون شكّ يوم الخَلق، خاصّة أنّه أوّل أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجودا قبل أوّل يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خَيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان سيدهش وربّما يُحبط لو أسرّ أحدٌ في أذنه أنّه لن يكفّ، حتى وهو على وشك تجاوز آخر مفترقات الطريق، عن تدبيج نماذجه وتمزيقها الواحد تلوَ الآخر، لا منهم ما قبِلَه العقل كلّيا أو اطمأنّ له الفؤاد تماما؟

*

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنّها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود. تهزّ الأمّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النّور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله. تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من ''الواقع''.

– كيف تقرأ كتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلّمة، مستغرقا في خربشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنّك الأخير في القسم، كيف أقول له إنّك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دامٍ؟ يا إلهي، متى يعود، علّك تعود أنت إلى رشدك؟!

يرفض الطّفل الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائبُ المرميَة في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلّمة وكل ما تقول. تُطأطئ ''ما'' رأسها، تنكفئ على حزن كأنّه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

– يا بني، كنتُ أظنّ أنّني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلّم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفا، تمسك بيَدها المبلّلة عرقا يدَ طفلٍ يتملّص ضامّا يده الطليقة للصراع. مع مَن، ولماذا؟

اللّعنة، ما الذي يبرّر أن تكون آلامنا بمثل هذه الحدّة والعمق؟ ولماذا يجب أن ندفع كلّنا مثل هذا الثمن الباهظ لرحلة الحياة، خاصّة في هذا العمر؟ ربما فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدّنيا لاستقبال الزوّار، وإلا فكيف نفسّر تعذيب الأطفال بآلام لا يعرفون لها سببا أو معنًى؟

يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكلّف إخفاءه:

– طلبتُ حضور والده!

– أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

– غائب أم فارّ؟ أم في السجن؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطير ومسلّح.

– يا سيّدي...

– اسمعي يا امرأة. إنّ ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلّف ذهنيا. يضايق المعلّمة ويعطّل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الآفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لكِ وله أن تأخذيه ليرعَى الجمال هناك.

– أُقسم يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

– كفى! إنّه متخلّف ذهنيا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

– أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا، إنّه شِبه يتيم يا سيّدي.

– حسنًا، حسنًا، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيوت! لِيُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.

يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمّا تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمّة في أقدم الملفّات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

– طلبتُ حضور والده.

– أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:

– بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيّين. اسمعي يا سيّدتي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّدا. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبّورة لينقل ما تطلبُ المعلّمة كتابته. حقًّا إنّه طفل غريب! لماذا لم يقُل من

البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركتهُ يرسب. أما الآن فخُذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطبّاء الشبّان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقِصَر النظر. أُولَى أَولَويات القسم –هذه السنة–الكشف على عيون كل أطفال السنَة الأولى في جميع مدارس المدينة.

ثمّ تهاجمه آلام اعتقد أنّ الزمان فعل بها ما تفعله الرّيح بالرمال، لكنّ الذاكرة الماكرة أَبَت إلّا أن تحافظ عليها كنقشٍ على الحجر.

لماذا نُبقي بكلّ هذا الحرص على بعض آلامنا، نرفض فراقها ونحن كمن يغلق راحته على الجمر؟

بتصفّح ملفّ الحادثة يستوقفني شعور غريب. أين الحدّ بين الذاكرة والخيال؟ حقّا، أتذكّر ممشى الآلام وأنا في غُدوّ ورَواح من السبّورة إلى الطاولة ومنها إلى السبّورة. لقد قالت لي يوما ''ما''، وكلها استغراب وفخر: هل تتصوّر؟ قالوا لي قبل أن نتفطّن لعينَيك، إنّك قد تكون متخلّفا ذهنيا. هل كنتُ فعلا مهدّدا بالطّرد، قاب قوسين أو أدنى من أن أصبح راعي أغنام عند الأخوال أو راعي إبل عند الأعمام؟ هل وقفت ''ما'' أمام مدير فظّ فاسد أهانها أم أمام مدير وطني كرّمها، أنقَذني وأنقَذها؟ أتراني أقوّل الذّاكرة ما ليس فيها لتكتسب قصتي رونقا أكثر ومزيدا من التشويق؟ أليس من ثوابت السيناريوهات التي نحبّ أن يتعرّض البطل إلى أظلم وأقسى المحَن، أن يشقّ طريقه في العالَم متحدّيا التنّين والساحر والشّيطان، أن يكون قاب قوسين أو أدنى من الفشل الذريع، ثمّ تحصل المعجزة التي تمنحه النصر المبين؟

هل القصّة التي أرويها لنفسي مصنوعة –على الأقل في بعض مقاطعها–من خيال الذاكرة أم ذاكرة الخيال؟

لم لا، فالذاكرة ليست خِزَانة تتراكم فيها ملفّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يَصقل فيها الحاضر ملفّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاءَ معانٍ جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإنّما تواريخ تتشكّل من تضارب الملفّات، وممّا أُضيفَ إليها عَمدا أو بلا وعيٍ. مَن يصدّق سيرة ذاتية لشهير –كتبها بنفسه أو كتبوها عنه–مُطالبٌ بالكفّ عن القراءة، لأنه لا يفهم وظيفة الكتابة، وأنّها جُعلت للإبراز، قدرَ ما جُعلت، للإخفاء والتضليل.

وفي قصّتي –بما فيها من حقيقة وخيال–يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما:

– ابني أنا متخلّف ذهنيا، يوصَى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامَل هكذا؟! ابني أنا يُهمَل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!

– إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

– الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوما في رِقابكم لترحّمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمّه تُذَلّ وتُهان ولم تذبحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلّا الإعدام رَميا بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يَعد فيه إلّا عميل أو جبان. أنا أستقيل منكم، اذهبوا أنتم لتحرّروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيّات!

– يا رجل، اتقّ الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل هو أيضا؟

– بالتأكيد هو أجنبيّ مُتخفّ فضحَته أخلاقٌ انقرضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفّروه خارج الحدود. مَن المتخلّف ذهنيا؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديرا لأنّه كبير الخوَنة؟ ابني أنا متخلّف ذهنيا؟! اسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجَهلة أين صَمد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟

– في الفالوجة.

– نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهنّئا ومساندا؟

– قلت له: جئناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلاح نقهر به أعداءنا وأعداءكم.

– أَسَمِعتم؟! والآن عَلِّم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيّام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

– جومو كينياطا.

– واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

– الماو ماو.

– أرأيتم؟ إنّ هذا الطفل كاد يَوما يُفلسُني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّني وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلّف ذهنيا يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنّه يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يَقدر على فهمها. ابني أنا يرعَى الإبل؟ ابني أنا، يفعلون به ما فعلوا!!! إلخ... إلخ... (وصلة أخرى من نفس النغمة)

ثمّ يلتفت إليّ. يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسَ وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع البقيّة:

– وهذا المغفّل الذي بقيَ صامتا عِوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود،

– اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟

– ابني أنا يبكي! ثمّ ماذا أيضا؟! تعتقدون أنّه من طينة أطفالكم! ربّيتُه على الشدّة حتى لا يشبهكم يوما، يا مَن إذا حَكَمَكم كلبٌ مدحتم الكلاب وإذا حكمكم بغلٌ تغنّيتم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحدًا منكم! إلخ... إلخ...

مِن يوم وُضعَت على عَينَي الطفل نظّارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسايَرة سلحفاة. كما هو الأمر دَوما، لم تتبخّر مصاعبه وإنّما تغيّر منها الشكل.

يصرخ المعلّم الجديد: اكتبوا موضوع الإنشاء! جاءتك فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صِف ما فعلتَ وما شاهدت ذلك اليوم.

يَنكبُّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقَع حبر.

وفي أوّل نصوصه يفيق الكاتب الصغير على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيّها الغبيّ ثمّة يوم أغرّ أمامك. وأمَرها هو ألا تُفْرط في الحرّ ولا في الشحوب لأنّه على سفر. ثمّ خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقوَدها، الأمّ في قمّة الإعجاب والأب في قمّة العجب. سارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنحّ عن طريقي. قال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتُك وكَفَى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يَبسط حمايته عليه وعلى الجميع عند الأصيل، وقد خضّبت دماء الشمس هامات النخيل. توقّفَت السيارة قُرب فِراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا، والمرضى يجب أن يكونوا دَوما في فراشهم يتأوّهون ويصرخون ويطلبون من أمّهم أن تأتيهم بما يشتهون من المرطبات، إلا أنّه لم يكن للجدّ أمّ لأنّها سافرت إلى بلاد بعيدة وتركته وحده، لذلك جاءته "ما" بالحلوى فقال لها شكرا يا ابنتي، مع العلم أنّها ليست ابنته وإنما ابنة أبيها، جدّي

الآخر صاحب البرنس الأبيض الذي توفيّ وأنا صغير. ثم قال الشيخ المريض: آه، إنني مريض جدّا، فقال له الطفل: ولماذا أنت مريض يا جدّي؟ فقال له الأب: اسكت يا مغفّل، ألا ترى أنّك تضايق جدّك؟ فقالت الأمّ: أطال الله عمرك يا عمّي، إن شاء الله يكبر هذا الصبيّ ويصبح طبيبا يعالجك من كل سوء، فبارِكه وادعُ له. فقبّل الجدُّ الطفل ودَعا له وللجميع وهو مسموع الدعاء من الله. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أكككككبر طبيب وسآتيك بكللللللّ الأدوية التي تحبّ وستروي لي كلللللللّ قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنترة وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشُرب المشروبات قبّل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكينَ دَوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبكِ رغم أنّه كاد يفعلها لشدّة حبّه لجدّه. فهو يحبه كحُبّه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا، أبدا.

يختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيالٌ من الكتّاب الناشئين أوّل نصوصهم: ورجعتُ إلى البيت فرِحا مسرورا.

يضع الطفل قلمه لاهثا ماسحا عرقه وكأنه خارجٌ لتوّه من معركة استنزفت كلّ قواه. هو بالفعل خارجٌ من معركة ستتواصل طوال حياته والرهان فيها هو التحكّم في الجُمل تركيبا وترابطا وتسلسلا وتشذيبا.

يلوّح المعلّم بإنشاء الطفل ساخرا ومهدّدا.

– طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحَت الشمس تَأتَمِر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلّم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفرٌ مُبين؟! لا تعُد إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهّد بصَوت مسموع قائلا: هؤلاء البدوُ! كلّهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.

يكظم الطفل غيظه واعدا نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد، فلا المعلّم ولا حتى أعداء ''با'' قادرون الآن على تفكيك الحروف وهي داخل ذِهنه. إنها مِلكٌ نهائيٌ غيرُ قابِلٍ للاسترجاع.

ما من شكّ أنّ النص مواصلة الفرض الأول، فالتلميذ الذي كبُر كثيرا وبَقيَ نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشائه الأطول: أَفَقْتَ في عالم الآدميين، صِف كلّ ما شاهدتَ وفعلتَ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

الأمل أن يحصل النصّ على علامة أحسن من علامة مُنافِسيه، وما أكثر الذين كتبوا وسيواصلون الكتابة في موضوع لا يستنفذه إنشاءُ طفلٍ في السابعة ولا شيخ في السبعين.

*

ذات صباح، يبدو عاديا، يشرع المعلّم في الخطّ على السبّورة أشكالا غير معهودة.

– انظروا جيّدا لهذه الحروف. إنها اللّغة الثانية، ويجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون ''با'' في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضا واحدا من الخَونة الذين يتوعّدهم ''با'' بالوَيل والثبور؟ مبدئيا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

ها هو أمام أزمة سنُسميها تعاطفا معه ''أزمة ضمير''. لا، لا، ليس لأحد الحق بمطالبته بشيء كهذا، يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياةٍ ستكون حافلة بأكثرَ مِن تمرّد عقيم. يفغر المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا يصرخ بقراره: لا أريد تعلّم اللّغة الثانية ولن أكتب هذه الحروف.

يكتشف المغفّل كما كان والده يسمّيه دوما أنّ المسطرة على الأنامل لا تَقلّ أذى عن فلقة سيّدي الشيخ.

الآن وقد وضعنا جانبا كلّ تعاطف، علينا مواجهة الحقيقة المرّة. ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكَمة كان يستحق! الأدلّاء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضّة كللللللّ حروف لغته الأمّ فيُزعِج مَن أهداه أغلى وأثمن الهدايا. يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلللللللّ حروف لغة جديدة –مفتاحا جديدا وكنزا إضافيا–فيتأفف ويُعلِن العصيان. هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يومَ اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير عصره، وبلدٍ غير بلده وعَرف باكرا مِثلهُ قَسوَة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ لجنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسَه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّا خِلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عَينَيه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلّم –الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا–ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف. كان بداخل اليتيم إحساس أنّه إن بقي بثلث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقيةَ حياته بثلث عين لا تَرى إلا ثلث الألوان.

جُنّ جنون الطفل. يريد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف i. ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك –يا أبتاه–ماذا بعد حرف i؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يتوجه إلى عشيقة القسّ: من فضلك –يا سيدتي–ماذا يوجد بعد حرف i؟ فتركله صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟ يتوَجه إلى مَن يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف i؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقا: يا بنيّ، اسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا تَحكي القصةُ كيف وَضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة j، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.

المهم أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.

يواصل الطفل الغبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوَذة والغرور.

ثم تُداهمه الأفكار المنقِذة من الإمعان في الضلال. ألم يَعِد الملاك ''ما'' أنّ طفلها سيكون بارعا باللّغتَين؟ أليست هي التي أصرّت على ذلك؟ ربما دفعَت الثمنَ مسبقا، وكانت كمّية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يخدع الملاكُ ''ما'' فيأخذ منها ضِعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتّهمه بالغشّ والتحايل، وحتى –لم لا–تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويَشهد المعلّم ضده.

كم من قرارات هامّة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المهمّ أن المناضل الصغير وجد مخرجا من الورطة الجديدة مكّنه من الخروج بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه، خاصة وهو في ذلك العمر.

اللعنة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدِّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفّة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت لتزداد لو سمعني سيّدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عِصيٍّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصًا ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأم إلّا عصًا واحدة منتصبة مكتفية بذاتها. يتزايد الانزعاج والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأوّل منتفخ كالطاووس بعِصِيّه الثلاث بَالغة الطول والتعالي، وفي صيغته

الهزيلة هو مجرّد نصف دائرة هزيلة بِذَيل قصير كذَيل فأرٍ قضمَته أنياب القطّ. لا داعي لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غبيّة كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفْرِطوا في الضرب والنفي إلى الركن.

لا شكّ أنّ الملاك تنبّه سريعا إلى ضرورة تدخّل حاسم وسريع. خيرا فَعل، لا لأنه حافظ على الكعك ومصداقيته عند ''ما'' فحسب، إنّما لأنّه فتح أمام الطفل أبوابا جديدة على مصراعيها لن يقدِّر -إلا وقد كَبر-خطورة بقائها مغلقة.

يتحرّك الطريق في الاتجاه الذي لم يكن ''مكتوبا'' يوما في أي سجلّ، يدفع إلى ساحة القصة بعد سنتين أو ثلاث بدليل جديد سيلعب فيها دورا محوَريا.

كان ''مسيو فيدال'' صغير الرأس، يخفي صلعته تحت قبعة على شكل فطيرة سوداء اسمها ''بيري''.

كان بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثّر، يقوّم اعوجاج أشباه الجُمل. كان حقا المعلّم الجدير بلقب المؤدّب، يردّ على السؤال المحرِج تلوَ السؤال الغريب، تلوَ السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح تعلّم اللغة الجديدة وما تزخر به من كلمات غريبة لعبة ممتعة، والطفل غير واعٍ أنّ كل كلمة يحفظ بأيّ من اللغتين هي بمثابة لبِنة جديدة تُضاف للمستوى أو البُعد الرمزي لعالَم متعدد الأبعاد لا توجِده كما هو ولا تطوّره كما سيكون إلا اللغة.

يغتنم الطفل الفرصة للتخلص من بعض الهواجس المتراكمة بما يملك من كلمات صعبة النطق؟

– سيّدي! سيّدي! سيّدي! هل هناك قرآن بلغتكم؟

يبتسم المعلّم برفق ثم يهزّ كتفيه:

– انتظر قليلا، ثمة مشاكل لكل عمر. أنت ولد فضولي وأنا أحبّ الأطفال أمثالك. ما رأيك في قراءة هذه القصة المصورة؟ مؤكد أنك ستحبّها.

يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

– هذه المرّة، القصة بلا صوَر، قل لي عندما تُكملها، ماذا أحببت فيها؟

تتشكل في ذهن الطفل صوَر مشوّشة لبلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنيّة من الخشب، أسطُحها حمراء وشكلها كحدبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض ومتماسك كالقطن يَفرح بقدومه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه المدفأة، فيه توقَد النّار ويلتفّ حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدّتي قصّة جميلة عن رجُل طويل بدين، له لحية بيضاء وثَوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقية بنفس اللون. هو يأتي مرّة واحدة في السنة عندما يشتدّ البرد ويُغطّي قطنُ السماء الجبالَ والبراري، ممتطيا عربة تجرّها حيوانات رشيقة كالغزلان محمّلة بالهدايا. ينزلق الجنيّ الطيّب داخل المدفأة محمّلا بخَيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول اللّيل، لكن النوم أثقلَ جفونهم ثمّ أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعبأ باحتجاجٍ ضعيفٍ، مُحكِمةً الغِطاء فوقهم وطابِعةً قُبلة خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدّات.

متى قلتُ ل''ح'' بلهجة التحدّي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردّها متوقّعا، بل يمكن القول إنني قرأته في ذهنها وهو يتشكّل: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.

ومِن الغد ينقضّ الطفل على دليلٍ جادَ به القدَر ليفتح له طريقا جديدا في عالم تصنعه الحروف والكلمات.

– سيّدي! سيّدي! هناك كلمات كثيرة لا أفهمها وجئتك بقائمتها. سيّدي، سيّدي، سيّدي، سيّدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيَذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلِمات.

- سيّدي! سيّدي! سيّدي! هل يمكن ألّا تعرف أنت؟

- نعم يا فتى، الكبار لا يعرفون كلّ شيء.

الكبار يجهلون وليس فقط الأطفال! يا له من سرّ هائل أخفاه عنه سيّدي الشيخ وسيّدتي ومَن تبعهما من أسياد وسيّدات!

- سيّدي، سيّدي، سيّدي، فرغتُ من الكتاب الذي أعطيتني... هل عندك آخر؟

- يبدو أنّك ستكون من فئران المكتبات.

كم كان حَدس الرجل صائبا، إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدسٍ وتوسّم خيرٍ، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدَتها ''ما'' وهي تروي حُلمها عن الملاك لِتمرير مشاريعها بالإيحاء بَدل الصراخ بالأمر.

فأر مكتبات؟

هل كان الطفل يرمي بكل كتُبه في المزبلة وهو يقرأ في صفحات كتاب الزمان كم سيكون سخيا حاصله من الأذى والوبال لجهله وتجاهله أن البشر يكرهون الحقيقة أكثر ممّا يحبونها، يفرّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها، أنّ أكاذيبهم هي حقائقهم وحقائقهم أكاذيبَ، أنّه لا أثمنَ لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم؟ هل كان سيُصاب بالهلع وهو يكتشف بعد عقود أن المعرفة تضع الذات أمام المرآة، فتصطكّ فرائص الذات من الرعب؟ أنها تعرّي ''حقائق'' وحقيقة القدّيسين والشيوخ والأبطال والقادة والغوغاء التي يسمّيها البعض ''شعبا''. هل كان بوُسعه تصوّر انزلاقه التدريجي نحو الخيانة بكل ما شَحنَه به مسيو فيدال من قيَم، وقد بدأَت تداهمه في آخر عمره أفكار مخيفة حول أفضليّة التجهيل على التعليم، والتعميّة على التوعيّة، والمغالطة على المصارحة؟ وأنّه من الممكن ألّا نحتاج طِوال عبورنا العالَمَ إلّا إلى أكبرِ قدر من الجهل المريح والكذب المفيد والنفاق البنّاء والتضليل القويم.

ألم يكن الجاحظ مُحقّا في قَوله: ''ومذهب صحصح في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عَيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء. ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلِم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء''. وهو الذي قال أيضا: ''وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقّوا بينهما هذا التفريق، ولَما رأوهما بهذه العيون''.

على فكرة ماذا نفعل بالضبط عندما نقرأ؟ ما وراء هذه العادة، وبالنسبة للبعض هذا الإدمان؟

من المؤكد أن الظاهرة –وأقصد تحديدا القراءة الطوعية–تنطلق يوم ننتبه إلى أن العالم لا يتوقف عند حدود بيتنا أو قريتنا أو بلادنا، أن مركزه ليس ذاتنا. تأتينا آنذاك رغبة عارمة في الخروج لرحابه الواسعة، عادةً عبر قصص الرحلات، أسهلِ وأقصرِ الطرق إليه في أولى مراحل العمر.

أليست القراءة هنا رحلة بلا عناء، والكاتب هو من تكلف كل مشاقها، موفِّرا علينا مصاعب الرمضاء والجليد وكل ما عانى من أخطار الطريق؟ أليست بديلا عن السفرة التي لم تسعفنا الظروف للقيام بها؟ وهل من خيار آخر ونحن لا نستطيع مهما سافرنا، في إطار ميزانيتنا المحدودة من الزمان، استكشاف عالم بلا حدود؟

ومن فضائل القراءة أيضا أنها تترك لنا مجال حرية الخيار، وأن لها –خلافا للروايات المحكية–إمكانيات كأنها غير محدودة. هي لا تقودنا فقط إلى مجاهل الأمكنة التي لا قدرة لنا على وصولها وإنما تأخذنا إلى مجاهل الزمان عبر قصص الماضي، وإلى قصص المستقبل مع كتّاب الخيال العلمي.

بوسع القراءة إذن إلغاء الحاجز بين الواقع والخيال. كيف لا، وهي التي تَعلم أصدق العلم أن عالمنا مصنوعٌ من هذا وذاك. وبوسعها أيضا القفز فوق حاجز كَثرة الآدميين واستحالة الوقوف عند مسيرة كل واحد منهم، وذلك عندما تفتح لنا الفضاءات المغلقة لأغرب النماذج أو لأكثرها انتشارا. هكذا نستكشفهم عبر نصوص الشعر والأدب والسِّيَر الذاتية، ونحن بأمان لا نُتَّهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس.

وإبان هذا التجوال في الذوات الأخرى، يمكننا التأكد أيضا أننا نختلف عنها... ولا نختلف كثيرا، فنطمئن لكَوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا مَنفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر.

تبقى القراءة رغم كل إمكانياتها حَلّا منقوصا. صحيح أنها توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي، أو طَرق باب كل ذات تثير فضولنا، أو الانطلاق من الصفر في إشكاليات تَقدَّم التفكير فيها بعيدا.

لكن كم من نواقص لا ينفع الإدمان في تجاوزها بل ويزيد طينها بلة!

ثمة في البداية أنها لا تعوِّض التجربة، والويل لمن يحاول أن يجعلها بديلا لها... أو مهربا منها.

ثمة أنها تجمع بعض أجزاء "بوزل" العالم، لكن قِطَعها القليلة المتناثرة نادرا ما تأخذ شكلا مَرضيا. أضف لهذا أنه لا نهاية لها لأنه لا نهاية للعالم الذي ترصد أو للذات التي تريد سبر أغوارها.

هذا ما يجعل كل كتاب نقرأه بمثابة مفتاح نعمله في باب، يفتح لنا فضاءً مغلقا بسبعة أبواب. وكل باب نفتحه بنص جديد يفتح فضاء بسبعين بابٍ. فنتقدم بالقراءة ونحن مثل من يتبع شعاع مصباح يضيء بضع خطوت أمامنا... وكل ما حولنا، وبعيدا أمامنا، مناطق غارقة في الظلام.

مفارقة القراءة إذن أنها تزيدنا جهلا كلما زادتنا علما، أنها تعمّق وعيَنا بجهلنا فيأتينا يوما الإحباط والهلع. لذلك يفضّل البعض النصوص المغلقة التي تدعي حمايتنا من الدوار.

الأخطر من هذا كله أن بوُسع القراءة أن تضللنا، أن تقودنا إلى مسارب لا تفضي، أن تجعلنا نركض وراء السراب.

إنها وضعية صعبة... وأصعب منها وضعية من لا يقرأ، وهو مثل قشة طافية على سطح الأحداث تطوّح بها هنا وهناك رياح صدف وضروريات مجهولة الوجهة والمصدر... ولا يمكن حتى التحكم السحري فيها لأن مثل هذا التحكم لا يكون إلا بالقراءة.

لذلك لا حل غيرها لنعلم من نحن، من هم هؤلاء الذين يشاركوننا في قافلة الحياة، ما هذا العالم الذي وجدنا أنفسنا فجأة بين أحضانه... بين أنيابه ومخالبه.

نعم، لا مناص من القراءة لكل مَن يريد لنفسه الحد الأدنى من الحرية والوعي والفعالية... لمن يريد شيئا من راحة البال بخصوص كل الأسئلة التي تؤرقنا، والتي لم نجد أجوبة شافية عنها عند من قادوا أولى خُطانا.

بخصوص الأدلاء، مَن يتذكّر اليوم أننا عشنا تسعة أعشار المائة ألف سنة من تاريخ الجنس الآدمي، ونحن نتحرك في كل اتجاه لنجني الثمار ونصيد الحيوان سدّا لحاجيات الجسم... والدليل المسلّح مَن يفتح لنا الطريق؟ من يعي أن تراثا كهذا لا يُنسى، أن الحضارة لا تلغي عقليةً لها مثلُ هذه الجذور؟ كل ما في الأمر أنها عقّدت حاجياتنا لتجعل من المعلومات والأفكار والقيَم ضرورات لا تقل أهمية عن الشرب والأكل. الإضافة الكبرى للحضارة إذن، أنها تخلق فضاء إضافيا هو فضاء اللغة، ندخله وراء دليلٍ سلاحُه القلم، بحثا عن غنيمة هي دوما شكلٌ آخر من المعرفة نأخذها من فكره ومن تجربته.

المشكلة هي في تباين أداء من نتبّع. ثمة شكٌّ من البداية –أو بمفعول رجعي– في هذا وذاك. ثمة أملٌ أن الذي يقودنا هذه المرة لا يغشّ، وليس تائها هو الآخر. ألسنا غالب الوقت عميانا يقودهم عميان؟

يا للغنيمة عندما نسقط على دليل يفتح لنا نصا يغيّر مجرى حياتنا وَجَدنا فيه تجربة نمتصُّها فتُضيف لحياتنا حياة الدليل. هل نكون إذن طفيلياتٍ نأخذ بالقراءة ما تيَسر من حيوية الكاتب، وفي الولائم الفخمة أثمن ما عنده: عصارة حياته ذاتها؟

إنه تشبيه المزاج المتعكّر.

ثمة تشبيه المزاج الرائق: القراءة كصفقة مربحة للطرفَين تتم في صمت لقاء فكرَين خارج أطر الزمان والمكان، يأخذ فيها القارئ بامتنان، ويعطي فيها الكاتب بلا منّ... القراءة كفرصة لتبادل أحسن الخدمات وقد اكتشف الطرفان أنهما غريبان يتخبطان في نفس ورطة الوجود وبأمسّ الحاجة لبعضهما البعض.

الثابت أن القراءة، بما هي شكل من تبادل الكلمات التي نستكشف بها العالم، ضرورية لإخراجنا من خديعة عالم في المطلق كالذي ترسمه الحواس وخاصة البصر.

ينظر البدويّ إلى الصحاري البيض فلا تُسعفه لغته إلا بكلمة واحدة وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا: الثلج. يضحك مرافقي، ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد. أعابثه بدَوري: يوم تزور صحاريّ الصُّفر ستقول لي كم ترى من أنواع النخيل والتمر والإبل؟ وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترَها.

كانت شمس آدمي اسمه ''أخناتون'' إله يُتوَجّه له بالعبادة، ونفس الشمس جُرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه ''آينشتاين''.

ها أنا أنظر من علوّ جبلٍ إلى حفرة تغطيها مياه خضراء وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، فلا أرى إلا حفرة تغطيها مياه خضراء وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، أعبث برَميِها بحصاة. لكن رجُل ''المايا'' كان يرى في هذا المكان باب ''الشيبالا'' أو العالَم التحتي الذي تسكنه الآلهة. من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء إلّا بالأطفال والعذارى قربانا للآلهة.

يبقى أن اللغة أكثر من مسجّلة تُرجع الصدى الذي تعكسه الحواس الخمس الأولى. هي طاقة خلّاقة إضافية تُعيد صياغة انطباعات هذه الحواس. هي تضيف إلى الكائنات الحسّية التي ترصدها مخلوقاتها الخاصة. ويمكن تسميتها بالفكريات مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والنسبية العامّة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود، وكلّها ''كائنات'' غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر.

في مرحلة ثانية تتجمّع هذه الفكرِيات لتكوين التصورات فالفلسفات والعلوم التي تُبلوِر المعنى كما تتجمّع الخلايا لتكوين الأنسجة فالأعضاء فالجسم.

إذا كانت اللغة هي الحاسة السادسة التي نستكشف بها العالم، فلا بدّ من إقحام دِقّة هذه الحاسة ومداها. بما أنّه ثمّة قِصر نظر عند الكثير من الآدميين ومنهم كاتب هذه السطور، فلا بدّ أنّ منهم من يَعبُر العالَمَ بقِصَر نظرٍ لغوي. يا للمساكين! وفي المقابل، ماذا نقول في الرحّالة الذين ضلّوا الطريق جريا وراء السراب، هل ثمّة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات؟

ثمّة مستوَى آخر بالغ الأهمية لهذا البُعد من العالَم. هو يتغيّر ويتجدّد ويتوسّع باستمرار. تُعيد تشكيلَه في السطح وفي العمق كلمات تَبرُز من المجهول. كان عالَم آبائنا وأجدادنا خاليا من كلمات ومن فحواها مثل النازية، الشيوعية، الذرّة، الفاكس، التلفزيون، الهاتف، السيارة، الطائرة، الإنترنت، الثلّاجة، الحاسوب، الصاروخ والذكاء الاصطناعي. تُرى أيُّ كلمات ما زالت في طيّ المجهول ستحمِل لنا أجمل الهدايا وأفظع الشرور؟

**

في ملفّ آخر هو الآخر مكتوب عليه بالأحمر الغليظ: هامّ للغاية، يصرخ ''با'': هذا الولد سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربّين أطفالي؟!

متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس ''ما'' في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس ''با'' ماكان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطُّعم للفأر. كانت أولى محطات الإقلاع التي وَجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سِحري أصبح له الملجأ والملاذ.

يصرخ الأخ الصغير في أمه: ''ما''، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأتبوّل في سروالي. قولي له أن يخرج حالا. تدقّ ''ما'' الباب بإصرار، فيخرج الطفل مُكرَها من مكان كان يظنه آمنا بعد طرده من ''الوكر''.

حتى أعصاب ''ما'' قادرة على التوتّر.

– كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلّم، قل له: سيّدي، أطعه... إلخ.

يستشيط المعلّم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

– تعتقد أنني لا أراك. الكِتاب مُصادَر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرها، يواصل ووجهُه إلى الحائط. تخيّل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تتدافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها ''الهند'' لا يعرف عنها شيئا. ولأنّه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصّة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنُها الشمسَ والقمرَ، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا طفل يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل بفراشه متنفسا الصعداء، لقد تخلّص أخيرا من المتصدّين لحقّه في الاختلاء بنفسه وبالكتاب، الحبيب الوحيد الذي لن يخونه طوال حياته والذي لن يلقَى منه إلا نفس الوفاء. اللعنة على هذا النوم الذي يثقل جفونه، لو يستطيع مواصلة القراءة وهو نائم!

يرتفع صوت ''ما''، وفيه الآن نفادٌ للصبر:

– يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثا، لن تمنعه حتى ''ما'' من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه ''راما'' رحل مع زوجته ''سيتا'' وأخيه ''لاشكمنا'' إلى عمق الغابات بعد أن أَجبرت الملكة الشريرة زوجَها على نفي ربيبها هذا ليخلوَ العرش لابنها هي. وفي ''لانكا'' تبكي ''سيتا'' قومَها ووطنَها، لا تخفي رُعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

''سيتا''! ''سيتا''! خطفوا ''سيتا''، خطفها ''رافانا'' اللعين!

إنه أوّل امتحان للطفل وقد تقمّص الدور، أو قُل تقمّصه الدور. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد المُلك إلى صاحبه والأمورَ إلى نِصابها والعالَمَ إلى توازنه المفقود.

– ''ما''، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأوّل على الأقلّ، أرجوك.
– طيّب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبّل الكتاب!
يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمّه أنّه واثق أنّ قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد.
آه يا سيتا، يا ''جاناكي''، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمة الحياء والخجل، يا رقّة الفجر، يا وداعةً، يا طُهرا، يا مَلاكا على الأرض مَشى. يا أوّل حبّ، ف''سيّدتي''كانت مجرّد هفوة.
– كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.
أنام وأترك سيتا في أسرها! إنّ ''ما'' لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكمّمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهّم ما شئت. سآتيك بالخبر اليقين.
– يا بنيّ، الكتاب لن يهرَب وهناك بعد اليوم يوم جديد.
كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أفظع بكثير؟ لا تقدّر ''ما''كم هي حَرِجة هذه اللّحظة.
– يا بني، أنت لا ترى جيّدا، والقراءة باللّيل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.
– إذاكان النوم عزيزا عليكِ فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟
– لا تكن سليط اللسان حتى مع أمّك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟
لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن ''ما'' تفهم أحسن منه. هل كانت لتَقبل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من ''واقعها'': لا تقلقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركيه، على كل حال هو لن يستمع لكلامك.
يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككل ''الأبرياء''، وهم مَن نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.
كانت تظنّه نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبّئه لمثل هذه الطوارئ.
تندلع المعركة والطفل هو المخرج والمنتج والممثل، يتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولا إرهابي، أصرخ فيه فتصطكّ فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيّق عليه الخناق في كل مجرّة. تكشّر السماء عن أنيابها وقد توسّطتها شمسٌ بِلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيَلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيّالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفّ، فليس هناك رافانا واحد أطهّر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.
يصرخ اللّعين: آه يا راما، قتلتني لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرّجا بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسما مديرا رأسي يمينا وشمالا أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أُخرج رمحي من صدر الشيطان

النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثمّ أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص أخرى لمسيو فيدال.
أووووووه... ،... ، أووووه... ، أنا راما. أنا سيّد الأسياد!!!
بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟
يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلّا الجزء الجميل من الملحمة، وأنّهم أخفَوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الآدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمَتك رائحتها النتنة. ويوم يكبر ويبحث في تفاصيل القصص التي شكّلت باكرا فكره ومشاعره، ومن بينها هذه القصة، سيكتشف أن راما لفظ سيتا بعد تحريرها لأنّه لم يكن قادرا على تحمّل فكرة إغواء الشيطان لها وربّما تمتّعه بها، أنه ندم على فعلته ثم استرضاها فلم ترضَ، أنّه قسّم ملكه بين طفلين ولدتهما له ثمّ أنهى آدميّته عائدا إلى السماء، لأنّه لم يكن آدميا إلا بالمظهر وإنّما الإله فيشنو نزل العالم بعد أن استأسدت فيه الشياطين علّه يُعيد إليه بعض التوازن... أخيرا، أنّ المظلومة استجارت بالغابة هي وطفلاها فكَفَلهما ناسِك اسمه "فالميكي"، خالق هذه الأسطورة التي خلقَت أُمّة عظيمة ودينا فخما. هكذا ارتحلت أجيالٌ بعد أجيال من الآدميين في عالم تكفّل إله مجهول بخلق جزئه الحسّيّ وتكفّل فالميكي بجزئه الخيالي.

*

يكتشف الطفل يوما بوّابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم.
يتوجّه المعلّم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:
– يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة السينما.
عرض؟ سينما؟
ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عمّا يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبّؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبّعة مهرّج ضخم اسمه "العالم" لا ينفكّ يُظهر عضلاته ليزداد به الآدمي تعلّقا وإعجابا؟!
يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجه إليه الأنظار تَوجُّهَ المصلّين للمحراب. يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيّا وغرَق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينفع فيه صراخ المعلّمين طلبا بالهدوء والصمت. وفجأة يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه، يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطًّى من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميّين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتّي يقرأ في الكتب. ترتسم على الحائط مناظر لحقول وجبال خرجت من اللّاشيء ثم لآدميين خرجوا هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريت، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة ألذ من الصياح جَماعةً؟
يتّضِح لي اليوم، وأنا جالس وحدي أمام صندوق سحري حقّق الآدميّون عبره حلما سخيفا بأن يكون لكلّ واحد قاعته المظلمة الخاصة، أنّ جمهور طفولتي ومراهقتي كان جزءا من العرض بل أهمّ ما فيه. صحيح أنني لم أعد أتكلّف جهد الصراع مع طابور طويل لا أدفع أحدا ولا يمشي على قدمي آدميّ معتذرا أو غير مبال، ناهيك عن كوني لا أُخرِج من جَيبي مِليما واحدا. لكن أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعة السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت في مثل هذه القاعات، هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في أماكن عرضٍ أخرى. تأتيني أحيانا فكرة الوقوف بباب داري لدعوة المارّة لدخول الصالون ومشاهدة آخر القصص معي، شريطة افتعال معركة حول احترام منع التدخين والالتزام بالصمت وعدم التعليق السمج على القبلة المطوّلة بين البطلين، وتبادل الآراء بصوت عالٍ حول هويّة القاتل قبل أن يَكشف عنه مفتّش لا تنطلي عليه حيَل مجرم.

يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوِّت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى. تتوقّف الصرخةُ وقد فاجأه قلقٌ مبهَم، هل سيثب الفرسان من الحائط على القاعة؟ هل سيجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ذراعه آليا يحمي بها رأسه من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينبّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. كأنّ غرائز قديمة قِدم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبقت في القاعة تذكّر الآدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتلة ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهدّدين بالقتل. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أيّ أهمية لآلامٍ بالوكالة؟ هو مشغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيَل الصياد والصياد لحيَل الطريدة.

لا شكّ أنّ ‘‘ما’’ لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مِشيَة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرّون من كرّ طفل مغوار يستخدم في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهنّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيل الذين رآهم على جدار القاعة المظلمة؟ مَن الغبيّ، هو أم هذا الذي يقول إنّ الكائنات التي رآها بأمّ عينيه مجرّد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إنه إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أيّ طريقة لإرضاء الإدمان الجديد غير التكتّم والخداع، ف‘‘ما’’ مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يَعرِض –على ما كانت تسمع–قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف وقتل. كل ما تكره، ويحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسّي، كفضاء الرموز، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والآدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.

يتهامس الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه ‘‘دراكولا’’ يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقّد من لهم أعناق جميلة وشرايين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على التي لا تكذب بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على ‘‘ما’’.

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أُجبر يزفر من الغيظ على الانسحاب. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو ‘‘العبيثة’’ التي ما زالت الجدّة تهدّده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه، تجري وراء ما تفتعل الهروب منه، والحدود بين ما تحبّ وتكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض وأخرج مع أخي من القاعة نفتعل اللّا مبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال. المشكلة الآن هي ماذا سنقول ل"ما" بخصوص أين كنّا، وسبب ارتعاش الصغير وارتباك الكبير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما. يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش "ما".

تأتيني رغبة عارمة أن ألتحق أنا الآخر بالفراش الآمن. لكن هل يعقل أن ألتجئ إلى ذراعَي الأمّ كما يفعل الصغار؟ أقرّر، انصياعا للأمر الأبوي الصارم: التحلّي بالشجاعة، أو على الاقلّ افتعالها. لا خيار غير الذهاب إلى فراشي وتنظيم وسائل الدفاع بنفسي.

أبدأ بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتنا، لذلك لا يمكن أن تشكّل الفاتحة رادعا له. هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. أخون إلهَ الآباء والأجداد مستنجدا بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفتي وأنني أصبحت نصرانيا؟ لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثّوم. أين تضع "ما" ثَومها المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ كيف سأردّ وهي تضبطني حافيا في الظلام ويدَاي ملآنتان بالثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطّى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيذ القمر بالله، ترتجف الأشجار فِرقا وتتبرأ البوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للآدميّ.

ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت.

ما تفصح عنه الذات في خلقها لهذه الخرافات رعبها من الأموات الذين يطرقون الباب بقوة إما محملين بخصائص ستزيد من شرّهم أو بالأخبار السيئة عما ينتظرنا جميعا على الضفة الأخرى.

وأيضا أنّ العالَم، كما عرّاه الشريط، مغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض، ولا نتحدث عن دم بقية الكائنات.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلّهم تحت ذمّته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسسه بسوء وفتّش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن.

القاعدة هي، أنّ الخوف من خَطر ليس دَفعا له وإنّما دلّه على أقصر طريق إليك. أنّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما. يجد دراكولا عندها مَنفذا إلى طفل جالس على فراشه ورأسه على صدره فيتدفّق شلّال دم من عنقه وهو بين أنياب الفكّ المرعب.

يحاول فتح فمه، فلا تخرج من حلقه سوى حشرجة صامتة. يهبّ صارخا والبول –لا الدم–قد أغرق الفراش.

ما كان الطفل عاجزا عن فهمه آنذاك أن الآدمي يُظهر عبر أسطورة دراكولا رفضه القاطع لمغادرة العالم وأهواله، أنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة.

ما سيكتشفه الكهل يوما أنه لا وجود لشيء أو فكرة في هذا العالم إلّا ولها نقيض. كم من أسطورة ومن تصرفات تظهر رعب الآدميين من العودة إلى هذا العالم بعد أن خلّصهم منه الموت؟ ستسمع أن منهم من أوصى بحرق جسده وآخرون طالبوا بأن يوثقوا إلى القبر بالسلاسل. ثمة من الأحياء من يفتحون القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمص الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

يذهل الطفل يوم يكتشف قدرته على أن يَخلُق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفّازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعةٍ سلّم الطائرة النفّاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيَب التمنيّات بنجاح المهمّة. تركب الذات مطيّة الرعد والبرق.

ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنّما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

– من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات الموشِكة على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهوّر بأنّه أُنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلّة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان لبعل ولدعوات ''ما'' وللطيار الهُمام.

– من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

– تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببَركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرّت لحلّها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرّفها رضاك.

يواصل الآدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقّل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيَد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعمق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة يتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

كأننا لا نعيش حياة واحدة كما تقول الرؤى غير المتقنة وإنّما أكثر من حياة، منها التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، ومنها التي نقضيها في فضاء الحواس وأجملها التي نعيشها في فضاء الخيال هذا.

تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية من نوع جديد تعذبه بحاجيات مبهمة.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سيتا وبنت الجيران: الحبّ أجمل من الحرب. يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبق الأحداث.

– كفى من المعارك، لم أعد طفلا.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قِبل لك بتصوّر متاعبها. بالتقدم في العمر تُرفع حواجز الحياء والحرج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

يهمس الصوت الساخر:

وبعد الافتتاح، ماذا يريد سيّدي؟ ليطمئن سيّدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الآدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

يا للكارثة لو لم يكن لنا الفضاء الحسي نلهث فيه وراء رغباتنا لا نصِلها إلا نادرا حتى نبقى يقظين متحفزين!

يا للكارثة لو لم يكن لنا فضاء الخيال لالتقاط الأنفاس والتغلب السحري على الحرمان.

لذلك ترانا نستعجل دخوله، استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.

تمرّ السنين. تتغير الأولويات والفضاءُ المبارك من بين كل الفضاءات لا يَرفض لزائره رغبة.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزيّنة ومنقّحة. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنّه ''لا نبيّ في قومه'' وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب، مع أنّ السُّوق زاخرٌ بالمتقدّمين لأقدم المهامّ، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدي نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأُعدّت له الخشبة والمسامير وعُيّن الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدَي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالّين. يقرّر الإنقاذ لأنّه أصعب من التدمير ولأنّه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار ونُواح حَوارييه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف مُلحقٍ صحفيّ يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرّية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعذَّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنّار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلّا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلّا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذيها إلّا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلّا وسارعوا إليه بتمائم مأخوذة من جُمَله المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكِتاب الأزرق بدل محاربته، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلّل داخلي حزن دفين على كم من مُلهم وكم من برنامج طَموح فشل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس.

هل سينتهي البحث بفشل يضاف إلى قائمة طويلة من الفشل؟ طبعا لا، إذ للأحلام بقية. لا خوف من نفاذ الأحلام وللذّات في هذا الفضاء الكريم المفتوح على الدوام كلُّ ما تريد وضعَه فيه، كل ما تريد أخذه منه.

وظيفة الفضاء الأولى إذن، رفعٌ مؤقت لاحتقان ذاتٍ تفضح فيه أعمق شهواتها، وتُبَلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه الفضاء الذي يسمح للذات المنهكة بالصراع في الفضاء الحسي براحة متقطّعة، وكل المطلوب عدم الإدمان.

لكنه أكثر من هذا.

هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات الباحث وأحلام الأديب ومشاريع الثائر.

هل يكون مختبرَ المختبرات الذي يتواصل داخله مشروع خلق عالَمٍ لم ولن يكتمل أبدا؟

**

فضاء الموجود–اللاموجود

وفي ملفّ اكتساب أدوات فهم العالم وغزوه، يتوجه المعلّم المرهق إلى قسم هائج على الدوام:

– هيا يا أطفالي، افتحوا الكراسة وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.

يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بعَيب في التكوين، فيه الوراثي وجلّه مُكتسب.

– سيّدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في أربعة ثمانية؟

– هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

– لماذا هكذا، سيّدي؟

– أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدوَل الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح. والآن تمرين الصباح: اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟

– سيّدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمّي؟

– تسخر مني يا وقح! ركّز على التمرين.

كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تتسبب في قصص عن برتقال يُباع ويُشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيّارات تركض وراء بعضها البعض، وبساتين زيتون يجب أن تُقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمرٌو بعد أن أوصى أبو زيد بالثلث لزيد وظلم عَمرًا فلم يترك له إلّا الجزء العاشر من الحقل. يا لغرابتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل أفعالا خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف، إذ تستطيع أن تتجمّع وتتناقص وتنقسم على بعضها البعض، وتَلد أرقاما أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.

تُنبّه الأرقام الطفلَ لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث أنّه لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنّه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليما للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطّة. يكتشف الطفل أيضا أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانين وحياة خاصّة لا علاقة لها ببرتقال أو ورثة.

من إشكاليات الطفل أيضا مع هذه الرموز الغريبة معضلة كانت بداهة فوق طاقاته.

– سيّدي، ما معنى صفر؟

– الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

– كيف يمكن أن يكون هناك شيء غير موجود؟

– قلت لك كفّ عنّي أسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.

– سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!

– طبعا، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

– سيّدي، لكنني حصلت على رقم لا أعرفه... سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأتُ به صفحة من كرّاسي؟

– ماذا تفعل؟ ما هذا العبث؟

– أبحثُ عن أكبر عدد. لكن، حتى هذا ليس أكبر عدد لأنني أستطيع أن أضيف إليه صفرا آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!! بوُسعي أن أملأ الصفحة بأكملها بالأصفار ولا ينتهي العدد!

– يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقَب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدّدا أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لِتَنساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دَوما إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنْ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفار. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكرا بمعضلة اسمها ''اللانهائي'' دوّخت قبله كمًّا من عقولِ أطفالٍ كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنّ ''كانطور'' من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنونا من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرَك؟

لا هو ولا معلّمه ولا أيّ آدمي كان قادرا يومها على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها في عالم الآدميين هذا الصفر وأقرب رفيق له: الواحد. بخصوص هذا الأخير، هل ثمة رقم أهمّ بالنسبة للآدميين منه وهم لا يُقرّون بالحب إلا للحبيب الأول، لا يعظّمون وطنا أو زعيما أو شاعرا إلا وأسموه الأول، ومنهم من لا يعبدون إلها إلّا لإيمانهم أنّه وحده الواحد الأحد. الرقم الذي يبدأ به الحساب... أبلغ رمز لموجود مكتمل.

مَن كان قادرا على تصوّر الثورة التي سيحدثها الصفر والواحد وكيف ستتغير جذريا ملامح العالم الذي نرتحل فيه؟

حالنا كحال رحّالة فوجئوا يوما في الفضاء الحسّي ببروز قارّة سادسة بين شواطئ أوروبا وأمريكا وذلك نصب أعينهم، تذهلهم بما تَحفل به من غرائب وعجائب لا أحد كان يتخيّل وجودها.

عن أيّ رحلة نتحدث ونحن نصل عالَما لا يمنحنا إلا قبَسا من الزمان لاستكشافه، في الوقت الذي يتمدد فيه تحت أعيننا في كل اتجاه بسرعة تتزايد من لحظة لأخرى، ولسان الحال يقول الحقوا بي إن استطعتم؟ ألَسنا أمام عملية عبثية لا تستحق ما نضع فيها من جهد للعقل والعضل. لمقاومة موجة الإحباط، علينا أن نتذكر أنّ العالم لا يأتيه العبث من أمامه أو من ورائه، أنّه يعرف ما يفعل وأنّه أذكى مما نتصور وفي كل الأحوال أذكى منا بكثير، مما يعني أنّه يعرف مشكلتنا ووَجد لها حلًّا وما علينا إلّا أن نكتشفه وأن نكف عن مطالبته كالأطفال الصغار يطالبون أمهاتهم بكل شيء وبالباقي.

حقا إنّها لضربة الحظ أن أكون من الجيل الذي عايش وِلادة فضاء لم يعرفه لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة.

لا شيء معهود ومألوف في هذا الفضاء الجديد الذي تصفه اللّغة بالافتراضي.

بخصوص الأماكن، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد ''ياهو دوت كوم'' أو ''اكسايت دوت كوم''. لن تجده على أي خارطة للفضاء، وعلى كل حال لا وجود لخريطة له أصلا. إن حاولتَ، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسّي... حتى ولو كانت ''واق الواق دوت كوم'' موجودة بل يسَعك أن تخلقها أنت بالذات.

يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهومٌ آخرُ بَنَينا عليه بديهيّاتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في ''فضاء'' الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في ''الفضاء'' الافتراضي فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان –وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة–الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين –حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين–والتوقف في جوا وعدن للتبضّع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

أما الطريق فيه فلا يكلّف المشيَ الطويل لا تعبا ولا منغصات المغامرات المثيرة مثل بعوض المستنقعات الاستوائية ودِببة القطب الشمالي وأُسود الأحراش الإفريقية وضبّاط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضا أن تَعترَض طريقك سيارة افتراضية

يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلّا أخذ حياتك. هذا لا يعني أنّه خالٍ من المطبّات والأخطار. كل ما هناك أنّها من أنواع لم نَعهدها في ''الفضاءات'' الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من ''الفضاء'' الغريب أَطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليالٍ وليالٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

مَن هذا الذي يدمّر بصفة دورية الجزء من ''الفضاء'' الذي اقتطعته لنفسي، والذي أستودع فيه ما أكتب علّي أتخطى رقابة الورق؟ لا مجال لأن أضع عليه أيّ صورة أو أيّ اسم.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الآدميين الذين يتحركون داخل ''الفضاء'' العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعفاريت التي يحفل بها فضاء الخيال، والفارق الهامّ أنّ لهؤلاء الأشباح فعلٌ لا يتوقف في أخصّ خصائص حياتك.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني آدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعني أحد أنّه ثمّة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمّة إذن، للآدمي اليوم مستوًى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما شاء من الأقنعة، يتّخذ له أكثر من عنوان، يؤثّر من أبعد نقطة في ''الفضاء'' الحسّي، يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتفطّن لتطفّله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كلّه أن هذا ''الفضاء'' بصدد ولادة جنس جديد من الكائنات الذكية يسمونها الروبوتات. لمن لا يعلم، بدأت في بعض أصقاع الأرض الأكثر تقدما في ميدان التكنولوجيا الحديثة، قصصُ الحب والغرام بين آدمي من لحم ودم وروبوت جميل يعوّض الآدمي المسكين كلّ ما لم تُعطِه أمه من حنان وصديقته من وجود دائم يخفف عنه آلام الوحدة. انتظروا التقدم المتسارع في ميدان الذكاء الاصطناعي وتوقعوا عالما مذهلا وقد غزت الروبوتات المتزايدةُ الذكاءِ سوقَ الحب والتجارة والسياسة والحرب والشعر والأدب والموسيقى، تاركة بعيدا وراءَها وتحتها كائنات غبية بَلغَ بها الغباء أنها هي التي خَلقَت مَن أَزاحَها واستعبَدها.

ما يشدّ الانتباه أن هذا ''الفضاء'' الافتراضي هو أيضا –مثل ''الفضاء'' الحسي–ساحةُ حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمسة نجوم يُعِدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخُ برامجُ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

هو مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضّع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تُقدَّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو أيضا قمامة تَصبّ فيها مجاري صرف صحّي تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في ''الفضاء'' الحسّي، حيث يختلي كل واحد بمرحاضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمّة التخلّص منها بعيدا.

لكن مهلا، أيّ حُكم كنّا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سُهولا سَوداءَ لفظَتها البراكين لتوّها لم تُغَطِّها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترتفع فوق سَطحها الأشجار وما يَصيح على غصونها من عصافير؟ أيّ حُكم كنّا نطلقه على ''فضاء'' الحروف وهو أُولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنةُ أراتا وتجّار أوروك؟

هل قطعتُ كلَّ هذا الشّوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحله أنني لم أكن إلا رحّالة بدائيا يتحرك مَشيا على قدمَين، حَبيس جسد بدائي، وسأغادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على رحلات لا يتخيلها عقل.

ليكن، وهنيئا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات، وسَفَرُهم مستَلْقين على ظهورهم في صناديقهم البلورية وخيوطٌ غيرُ مَرئية مزروعةٌ في أدمغتهم، يتجوّلون داخل المجرّات وشوارد الذرّات. نعم، هنيئا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص.

أيّ لذّة يمكن أن تضاهي لذّة المشيِ حافيا على العشب المبلل بِقَطر النّدَى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

هل ستعطي البرامجُ التي سيضَعونها في المستقبل أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر، وما على الأجيال المقبلة من الرحالة إلا النقر؟

لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضّل الأصل على صُوَره، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصُّوَر؟ وهل لهذا العالم أصلا أصلٌ، أم له ما لا يحصى من الصوَر و"الأصل" نفسه واحدة من بينها.

**

على هامش النص

انطلاقا من كل ما تَجمع داخل هذا الملفّ من معطيات يمكن التقدم بتصوّر أوّلي للعالم الذي نعبر، وأنه مصنوع من أبعاد ومستويات متعددة، متباينة، متداخلة، رَصَدنا منها لحدّ الآن ما أسمَيناه فضاء الحواس، وفضاء الحروف والكلمات، وفضاء الخيال، وفضاءً جديدا سميناه الافتراضي.

أما الفضاء الحسّي فهو الفراغ الممتلئ بمظاهر وكائنات وأشياء، وأدواتنا الأساسية التي تخلقه وتستكشفه هي حواس خمس اسمها: البصر والسمع والشم والذَّوق واللمس. هو مجال كلّ الأفعال والتفاعلات التي تسمح بها هذه الحواس، وحدوده تلك التي تتوقف عندها قدراتها عاجزة عن مزيد من الرصد والتحليل.

أما فضاء الحروف والكلمات فمصدرُ خلقه واستكشافه الفكر، وأداته اللغة التي يوكَل إليها بتنظيم المظاهر التي بلورتها الحواس الخمس تسميةً وتصنيفا وإضفاءً للمعنى. إنّه جُملة ما كدّس الآدميّون وما سيكدّسون من تصوراتهم حول ذواتهم وحول العالم. أمّا حدود هذا الفضاء فهي الكلمات التي لا تملكها اللغة لرصد ووَصف أحاسيسَ ومشاعرَ وأفكارٍ توجد فَوق وخارج تجربة البشر، مثل التي يخمنون أنّها تعتمل داخل "ذهن" النبات والحيوان أو كائنات يتخيّلون وجودها فوق سطح كواكب هائمة في أرجاء الكون اللّامتناهي.

أما فضاء الخيال فمصدر خَلقه واستكشافه طاقةٌ داخل الذات اسمها المخيّلة. هو المصنع الذي يُنتج وتتكدس فيه ما تخلقه المجموعات البشرية المتعاقبة من أحلام يقظة، وأساطير، وفنون، وحدوده إمكانيات المخيّلة وهي في ذروة الخلق والإبداع.

أخيرا، فضاء افتراضي لا تخلقه الحواس والكلمات والصوَر وإنّما الأرقام، واثنان منهم على وجه التحديد.

الخاصّية المشتركة لكل الفضاءات عدا كونها مخلوقات من الذهن هي التمدّد.

نحن نوسّع فضاء الحواس بالتنقل من مكان لآخر، قد يكون يوما كوكبا في مجرّة بعيدة. نحن نوسّع فضائَي الأفكار والخيال بما نضيف لسَيل لا يتوقف من ابتكارات ملايين الأدمغة البشرية منذ أكثر من مائتي ألف سنة.

لكن سرعة تمدد الفضاء الافتراضي ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ تَشَكُّل العالمَ الذي انبثقنا فيه وانبثق فينا.

أنت في هذا الفضاء مثل زائر يَدخل متحف اللوفر بحثا عن لوحة مونا ليزا، فَيُفاجَأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتماثيل تتزايد عددا بسرعة مذهلة وفي كل الأركان، كمْ من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم ينافسه كمْ من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

أخطر سؤال يُثيره هذا الفضاء الذي لم تعرفه آلافُ الأجيال التي سبقتنا، هو هل ما زال هناك فضاءات أخرى ستتمخض عنها عبقرية عالَم بديهي، فهو ورشة لا تنتهي أشغالها أبدا؟

النقطة الأخيرة بخصوص علاقة الفضاءات الأربع ببعضها البعض: أنت لا تنتقل بينها كما تتنقل بين غُرف البيت، وكل غرفة مستقلة عن الأخرى، يَفصِل بينهما باب وجدار. نحن نتحرك دوما في عالم واحد تندمج فيه كلّ مكوّناته الموضوعية والذاتية، كما يتشكل بنيان الطوب من الطين والقشّ والماء ومهارة الصانع، عالم من الأزل وإلى الأزل حسي–رمزي–خيالي–افتراضي خاص بكائنات مُحدّدة، شاء سوء الحظّ وحسن الطالع أن نكون أنا وأنت عيّنة منها.

الكتاب الثالث: الاستكشاف

قال أرجونا: إني أتحرّق شوقا لرؤية وجهك المقدس، إن كنتَ ترى ذلك ممكنا فأرِني –يا إله الآلهة–ذاتك الأزلية.

فردّ كريشنا: تأملني –يا أرجونا–في أشكالي القدسية، إنها بالمئات والآلاف نَوعا ولَونا وشكلا، تأمّلني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمَر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهاجاد فيتا

قدّم لنا الراوي لحدّ الآن عالَمَه كَمُعطَى حواسٍّ وفكر وخيال الذات... مما يعني ضرورة أنه موجود داخلها.

ها هو يقدّمه لنا الآن كأكبر حاوٍ ينغلق على كل المحتويات من مظاهر طبيعية وأشياء وكائنات وأحداث. مما يعني ضرورة أنه موجود خارجها.

الأمر كالقول بأن العالم مِثلُ محيطٍ تتخبط في أعماقه ما لا يُعدّ ولا يحصى من الأسماك، في الوقت الذي تتلاطم أمواجه في جوف كل سمكة.

إما النجاح في تجاوز هذه المفارقة وإلا فهي نهاية المشروع.

المعلّق

مقدمة الكتاب الثالث

تبادرني امرأة متوترة على باب خروج محطة المترو:

– سيّدي... شارع بلانكي من فضلك؟

– لا أعرفه يا سيدتي، آسف.

يا لسخرية الأقدار! تسألني بنت البلد أنا الأجنبي عن شارع... شارع مَن؟ غريب! هل يكون الشارع المقابل للذي أسكن فيه. هذا ما سمعتُ من الرجل الذي تطوع ليدلّ المرأة بعد سماعه ردّي عليها. يجب أن أتثبت من هذا الموضوع. لماذا تريد التثبت، لنا أشغال أخرى ومنها موعدنا؟ قلتُ يجب أن أتثبت وليَكُن أن آتي الموعدَ –بَدَل غيري–هذه المرة متأخرا. يا للغرابة... فعلا هو الشارع الذي مررتُ منه مليون مرة للوصول لسوق يوم الجمعة. ولم أنتبه يوما لاسمه. بلانكي. تُرى من يكون هذا الرجل وما الذي فعل حتى يكون له شارع. يجب أن أتثبت. يا رجل، لا تكن موسوسا فلنا مشاغل كثيرة وضروريات أوكد. الصمت يا "هذا الشيء". يجب أن أراجع الموسوعة. خاصة أن أفكّر في مغزى مروري على الأقل مرة في اليوم من هذا الشارع منذ سنوات لا أنتبه لا لاسمه ولا للسبب الذي جعله يحمل هذا الاسم. آه! الرجل ثوري، اشتراكي، جمهوري، حارَب طغيان الملوك، عاش لبثّ نفس الأفكار والقيَم التي نتناقلها جيلا بعد جيل، والآدميُ دَوما أقرب للقرد منه للإنسان الذي نريده أن يكون. يا لها من حياة، كم فيها من الدسامة، من العظمة، من الطرافة ومن الإقدام! مَن أحرى مني بمعرفة هذا الرجل؟ لكنني مررتُ يوميا طيلة سنوات أمام شارع لا أعي أنه يحمل اسمه ولا أعي حتى أنه وُجد يوما رجلٌ يحمل هذا الاسم. آه، هو الآخر وقف أمام قاضٍ بائس ليسخر منه ويسفّه حقه في الحديث باسم العدالة... هو الآخر وُضع بين أربعة جدران، بل وأكثر من مرّة! أين؟ المرّة الأولى في قلعة "ف". هذا مكان مررتُ أمامه كثيرا وأنا أبحث عن غابة أختلي فيها بنفسي... ماذا لو قمتُ بحَجّة لزنزانة الرجل؟ هكذا، لمجرّد التكفير عن جهلٍ لا يُغتفر. لأنتبه للدليل. سيداتي سادتي، الرجاء الاقتراب مني حتى لا أضطر للصراخ فتتداخل أصوات الأدلاء. هذا الجزء الذي نزور هو ما تبقّى من حصن القرن الثاني عشر، استغرق ترميمه سنوات واستهلك كم من الملايين. هو يتكون من خمسة طوابق، الثاني طابق الملك الحكيم شارل الخامس. مَن؟ لم أسمع أبدا بهذا الملك. آه، وكان ملكا حكيما ويحبّ الكتب! عجيب ثمة ملوك حكماء ويحبون الكتب... آه، وله هو الآخر قصة طويلة عريضة حافلة بالأحداث! يا رجل ما يهمني الزنزانة التي سُجن فيها البطل. آه هذه هي أخيرا! ماذا يقول هذا الرجل الذي لاحظ الجميعُ أنه أفريقي، وسكت معظمهم عن استهجانهم للأمر، وأنه لا يجوز لأجنبي أن يُدرّس أبناءَ البلد تاريخَهم. راسباي سُجن أيضا في هذه الزنزانة! إذن راسباي اسم رجل. كنت أظن أنه اسم مقاطعة أو مدينة. آه وسُجن أيضا في نفس هذه الأمتار المربعة القليلة الماركيز"دو ساد" و"ديدرو"!

تتلقفني الغابة القريبة. أمشي بين أشجارها كالروبوت وقد فُتحَت داخل الذهن فجأة نافذةٌ على عالم مَنسيٍّ فيه كم من قصص لِكَم من ثوار بسلاسل وملوك بأرقام.

كل هذا حدث داخل هذه الجدران التي مررتُ طوال سنواتٍ أمامها لا يخامرني الشكّ حتى بوجودهم!!!

فجأة تستحوذ على وَعيي صورة جحافل السياح المتدافعة داخل القلعة. اللعنة! هم أيضا مررتُ أمامهم كما مررت من قبل أمام الجدران الأثَرية... ألقيتُ عليهم نفس النظرة العمياء.

والدليل! بالكاد أذكر ملامحه.

وهؤلاء البشر الذين لاقيتُهم هذا الصباح!

وهؤلاء الذين يمرقون أمامي الآن!

كل واحد منهم مثل كتاب لا تقرأ منه إلا العنوان على الغلاف، أما النص...
أرتمي على أول مقعد وقد داهمني إعياء مفاجئ ليس إعياء الجسد.
بما أن الذهن انخرط في هذا الطريق فليواصل. أجيل البصر حولي بنظرة فيها شكّ وحذر.
إذن هذه غابة جلتُ فيها لا أدري كم من مرة ولم "أرَها" أبدا.
كم فيها من أشجار؟ كم من أجناس؟ ماذا تفعل هنا؟
تلسعني بعوضة فأمنع يدي بإرادة مفاجئة من ردّ الاعتداء. آه يريد هذا الكائن الصغير أن أنتبه لوجوده هو أيضا. طيب! نفس السؤال الملقى على الأشجار. أيتها البعوضة كم من كائنات من جنسك، ما قصتك أنت بالضبط، هل ساهمتِ في ثورة، هل اعتُقلت يوما في مظاهرة؟ كيف هي حالة القضاء عندكم وما حالة السجون؟ هل هناك تدفئة في الزنزانات وهل يمكن أن يَستقبل فيها السجين ضيوفه؟ على فكرة، ما رأيك في مدّي بتقرير عن الحروب الدائرة رحاها هذه اللحظة بين مختلف الأجناس الحية، لنَقُل حتى لا أكلّفك ما فوق طاقتك، في السنتيمتر المربع تحت قدمي؟
أسحب قلمي وقد جاءتني فكرة رسم الشجرة الضخمة التي لم أكفّ عن النظر إليها، وتلك من بين تقنياتي للانتباه للتفاصيل.
ثم أنتبه إلى أن القلم هو نفسُه لا يقلّ تكتما من الشجرة، على أصله وفصله ومَن صَنعه وكيف، وما هو الطريق الذي انتهجه لينتهي في جَيبي وما هي نواياه المبيتة، وماذا فكّر وأنا أدوّن به أفكارا قد يكون من المتفقين معها وأغلب الظن من الساخرين.
أعيده للجيب وقد قرّرتُ أن أخاصمه هو وكل أشجار الغابة وكل بعوضها ونملها ودودها وفطرها وأزهارها وعشبها، ناهيك عن الآدميين وما يركبون من دراجات وخيل. فثمة شعور بداخلي لا أحبه ويصعب وصفه.
بداهة أنا لا أحب الصورة التي تسكنني منذ سألتني المرأة عن الشارع اللعين.
كم أكره فكرة أنني خَدعت نفسي وأنا أتصور أنني أستكشف العالم بمهارة ودقة متزايدتين، والحال أنني كنت فقط أنزلق على سطحه.
أكره أكثرَ فكرةَ أن العالم هو الذي خدعني عندما زيّن لي أنني أستكشفه، والحال أنني كنت كمن يزيل قطعة بسيطة من لثامٍ تحته ألف لثام متجّدد... والوجه المخفي تحت كل هذه الطبقات يبتسم من سذاجتي وغروري.
ما أكرهه فوق كل هذا تأكُّدي أنني مررت طول الوقت أمام الغالبية العظمى للأشياء والكائنات والأحداث وأنا أعمى، أصم، جاهل، متخلف ذهني لا أفهم ولا أعي... أنني، بعد إغلاق قوس الانتباه، سأواصل بقية الرحلة على نفس المنوال.
ثمة إذن خلل هيكلي في مشروع التدوين نفسه.
أيّ جدوى لشيء كهذا وكل المرجوّ منه في أحسن الأحوال وصفُ طريف لزبد موجة والمحيط هو بيت القصيد؟
تُداعب وجهي أشعة شمس صيف مجهض نجحت في التسلّل خلسة من بين قوافل السحاب وأغصان أشجار تبدو مصرّة أكثر من أي وقت مضى على الحفاظ على أسرارها.
أغمض عيني كي لا تشغلني أي صورة عن التمعن بكل خلايا جلدي في أحاسيس بالغة الدفء، بالغة الرقة، بالغة المتعة، محاولا نسيان ما يعتمل داخلي من مشاعر الإحباط.
فجأة تتكلم اللوحة الزرقاء الموضوعة فوق الصيدلية، تروي لي كل تفاصيل قصة بلانكي التي لا يعرفها الدليل، وسكتَت عنها الموسوعة.
تنطق لوحة راسباي بكل ما تعرف عن صاحبها وهو يرتحل من المهد إلى اللحد.
تتدخل كل لوحات شوارع المدينة وأزقتها كأنها سعيدة بالنطق أخيرا لتروي أسرار التسمية والمسمِّي والمسمَّى.
تتدخل الحيطان، لترويَ هي الأخرى كلَّ ما شاهدت من أحداث على سطحَيها الخارجي والداخلي.

يرتفع الهمس من الأشجار ومن المارة ومن كل الكائنات المتصارعة في السنتيمتر المربع تحت قدميّ، وكلٌّ يقدم نفسه وقصته بكل التفاصيل. تمطرني السحب بالصور والأفكار حتى لا يبقى لي ما أجهله عن مشاكل السحب. ثم تنطق الأشعة الدافئة بكل أسرار الفضاء والشمس. يقرر حتى القلمُ فكَّ إضراب الصمت.

أُصاب بالدوار وبالصداع وبتعطّل كل أدوات التحليل.

كيف يمكن فهم شيء ما من كل هذه الضوضاء، من هذا التداخل بين القصص، من هذه الطفرة، من هذه الهريسة، من هذه العجينة المكوّنة من كل الممكن من الصور والأحرف والكلمات.

حتى ولو استطعتُ فكّ الرموز وإحلال شيء من النظام على الفوضى، ماذا تراني فاعل بكل هذا؟

كأنني الآن شحاذ جائع وضعوا أمامه –للسخرية من جشعه–فِيَلةَ أفريقيا وآسيا مشويةً، وحوت الهادي والأطلسي مقليا، والقهوة الساخنة تضخ في الحلق عبر شلالات القارات الخمس.

التخمة. الاختناق. انقطاع الشهية إلى الأبد.

فجأة تعود البعوضة للهجوم الغادر على رجُل مسالم أخذته غفوة لذيذة نحو عالم، قَبِل أخيرا برفع كل حاجز ولو ببعض المنغصات.

أستقيم على مقعدي غير مشغول بالدفاع عن جلدي وكل الاهتمام منصبٌّ على التخلص الذي وجده الذهن. هل هو مواساة الذات لذاتها على قصور نهائي لا شفاء منه، أم هو تنبيه إلى أن فيما يقدمه العالم لكل مرتحل ما يكفي وزيادة، أنه من العبث محاولة استنفاذ ما لا يُستنفَذ، أن كل المطلوب البقاء منتبها لأهم خصائص العالم ومنها هذه الخاصية؟

إن دعاء فاتحة الحياة الذي يجب أن يُتلى عند مهد كل قادم جديد أو عند أي مفترق طريق في مسار الرحلة: يا مَن تتوجّه إليه كل الصلوات، اجعل هذا المرتحل منتبها واجعل تبلّده لا يدوم أكثر من ضرورة التقاط الأنفاس، واجعلنا وأياه دَوما من المنتبهين، إن لم يكن كل زمن الاستكشاف فعلى الأقلّ أغلبه.

أي جدوى أن تأتي مثل هذا العالم غير منتبه، أيْ غير متفاعل مع ما يزخر به من روائع، من أسرار، من عجائب؟

نعم، الانتباه هو الشرط المسبقُ لاستكشافٍ لا يكون تَنَقُّل الجسم من مكان لمكان والفكرُ مشغولٌ والقلبُ في صَمم.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر البكر كالتي اكتشفتها لحظة إفاقتك في هذا العالم، أنك استرجعت الوعي بغرابة المخفي وراء المألوف المبتذل.

جرّب التسجيل في جولة سياحية في... مدينتك. رافق مجموعة من السواح الآتين من كل فج عميق وانصت لما يقوله الدليل وما يسأله هؤلاء الرحالة المرفّهين. ستكتشف مدينتك كما لو كنت تراها لأول مرة وستفهم عمق ما فعله بك التبلّد.

لاستعادة الانتباه، إن شغلتك كثرة هموم الرحلة، قف أينما تشاء وتأمّل ما حولك قائلا في نفسك إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها هذا المشهد والأجل المحتوم في الخطوة المقبلة... أو يمكنك أن تتصوّر أنها أول مرة ترى فيها ما ترى.

لما تنتبه إلى رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة. لما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس. نحن لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ. أهمّ فضل للانتباه نجاحه في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرد هموم المستقبل من ساحة الوعي. إنها حالة الاكتمال وقد تمازجت الذات بالعالم وتوقف سيل الزمان.

قد يكون أكثر الآدميين انتباها بعد الأطفال الشعراء. أستمع إلى الشعر بأي لغة. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان انتباه اللغة لإمكانيات مطمورة داخل كلمات جفّت عصارتها من فرط الاستعمال المبتذل.

من كبار المنتبهين أيضا الرسّامون. موني، مثلا، وهو على امتداد الشهور يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغير الطقس واتجاه أشعة النور للعودة إلى الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لونا يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين لنفس الكاتدرائية.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسّس دين كبير ''بوذا'' أي المستيقظ أو المنتبه. ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من ''الساتوري'' وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم في مثل هذه الرؤيا.

أن تكون منتبها يعني إنك استعدت اكتشاف ما يزخر به الشيء أو الكائن أو الحدث من غرابة حجبها التبلد حجب السحاب للشمس.

التبلد حالة من الكسل تمر بها الذات وقد أصبح جل مبتغاها من العالم تكرار المعهود والمألوف والمتوقّع والمبتذل والروتيني ولو بثمن حجب أهمّ هذا الذي جئنا بحثا عنه. هو انتهاء التعجّب والتهيّب أمام الخوارق والمعجزات التي تحفّ بنا.

لا تعجل باللوم على المتبلّدين المزمنين ولا تحاسبن نفسك بقسوة لقلة انتباهك.

من يستطيع العيش طول الوقت مستنفر الحواس والذهن وهو يرتطم كل لحظة بغرائب ومعجزات لا تحصى ولا تنتهي؟

ثمة ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبلّد. أنت لا تنخز عضلة لتنقبض المرة تلو الأخرى دون أن تأتي لحظة تضرب فيها العضلة على الردّ احتجاجا على كثرة الوخز. كذلك تتصرف الذات وإلا هلكت من إفراط العالم عليها رعبا وانبهارا.

نبض الرحلة ليس فقط سعادة فشقاء فسعادة، يسر فعسر فيسر، وإنما انتباه فتبلّد فانتباه... إلى نهاية الطريق ومن ثمّة ضرورة مراقبة التبلد ليكون حالة عابرة وتعهد الانتباه وإلا فإنها رحلة ضاعت عبثا تكلفتها من المحن-الامتحانات.

**

المعالم المقدسة

أخيرا عَرض المحيط غلب شَوقي إلى البحر كلَّ العوائق.

يحدّثونك بتهيّب وَجِل عن عواصف بُحيرة كبيرة من الماء المالح كانت تذهب لها الطفلة ''ما'' مع جدتي لغسل الصوف. أيّ رعب مقدّس كان سيداهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المكان!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلّق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع. يشتدّ الدَّوار وتتحرك السوائل المشبوهة داخلي تريد التفجّر من فمي. ذلك لأن الخاصّية المميّزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط.

مَن لا يقدّر أهمية هذه الملاحظة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي بين بيته ومكتبه والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، ثم يغور به في عمق الأرض، ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه فيتهمه الناس بالنظر إلى نسائهم وهو من التهمة بَراء، ثم يعود به اللعين إلى مستواه الأول، يواصل مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه، إلى أن تنزل منه أمام بيتك تترنح فيَصِفُك الجيران بالعربيد، في وضح النهار. نعم، من حسن الحظّ أن الطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحيَة دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمله حتى مسافر صبور مثلي.

ها أنا الطريدة بين البراثن والبحر الصياد المظفّر.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سميّك السائل! اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان؟

تصرخ فيّ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

آه، الحوت الذي ركبتُ هذه السفينة الصغيرة عَلّي أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأتُ له سيرة لا كَسِيرة الأنبياء والقدّيسين، كتبَها له مريدٌ اسمه هرمان ملفيل.

أرفعُ رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقتا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعودٌ وهبوط.

تعود المرأة إلى الصُّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!

كُفِّي عن الزعيق لوَجه موبيديك. نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبّار في خيالي بعد أن أفرغتُ كل ما في معِدتي على فستانِ عجوزٍ أخرى أشبعَتني نظرات ساخطة، لا تَقبَل صاحبتُها بوُجود البدوِ في عرض المحيط.

هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل. وبَدوُه الدلافين والسلاحف والحوت، يرحلون هم أيضا بحثا عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعِبة، يجدون فيها الكلأ والمرعى وجِماعا يُجدّد الحياة.

ما يقال إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كائنات تتبارى في الغرابة والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان، مما عاد به الرحالة الذين ذرعوا هذه المساحات الشاسعة من قصص لا تكاد تصدّق، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض.

قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك. تحت هذا الطابق الأسماكُ الأكبر التي تبتلعها، ليبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسَه بين فكّي الحوت الخرافي. لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصياد الآدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إرَبا إربا.

لله درّ فرسان الريح والموج. إن شجاعتهم حقا لَضَرب من التهوّر أو الجنون! لم تَكفِهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وأيضا لمواصلة حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون أو أي بحار من قرطاج إلى البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُحِيَ من ذاكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضتُ إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري. لكن حانون عاد إليه كما عادوا كلّهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح. ربما عاد لأنه لم يرَ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف رَوعة أروع من سطح البحر ليلا وشّحه طلوع القمر بنهر من النور.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

الرأس بين الركبتين والعينان مغلقتان يسترجع الشاب أول لقاء الطفل مع البعبع المبهِر المرعِب وهو يتقدّم بخطًى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف مبهَم.

تلك الليلة سألَت ''ما'' طفلها ألّا يبخل عليها بالتفاصيل.

فتح ذراعيه علّه يبلّغ كم هو عريض كم هو متّسع، فسقط الذراعان.

كيف يصف لها هيبة دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟

ما نفع الكلام في وصف سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضان الموج واختفائها فيها!

من أين له الكلمات لوَصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدّها سوى الأفق؟

كم يكره أن تظنه ''ما'' مبالِغا أو كذّابا!

تلك الليلة آب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ الشيء الشمس مجددا أم هل سيحتفظ بها نهائيا فتغدو كل أيامه لياليٍ بأشباح وكوابيسَ. مِن الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف لماذا تبدو الشمس لامعة نظيفة كل صباح وأين تذهب لتغتسل كل غروب، فتتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

وفي صوَر أخرى لنفس الملفّ، أراه يواصل تفكيره وقد تذكّر أن ماءه مالح مثل الدموع التي تسيل على خدَّيه. تتشكل أولى نظرياته أن البحر حفرة ضخمة مليئة بالدموع. مَن، يا ترى، بكى كل هذا البكاء؟ البشر الذين سبقونا طبعا! برَبّك، أليست هذه فرضية معقولة وقد وُصف هذا العالم أكثر من مرة أنه وادٍ للدموع. هل من مستَودع أحسن من البحر، ولو أن فكرة السباحة في دموعنا ليست من النوع الذي يحبّب رياضة لا يعاب عليها شيء؟

كم حَلُم يومها أن يضع خُطاه –هو الآخر–على خُطى فارس الريح والموج وكلِّ المغامرين الذين ارتحلوا على صفحة الماء، ليعرف أخيرا كيف هو وسط البحر. لكن من أين له تحقيق مثل هذا الهاجس هو الذي عاش في أحضانه القاتلة رعبُ الموت الوشيك ذلك اليوم الذي أوشكَ فيه على الغرق على بعد أمتار من الشاطئ؟

متى أقنعَت مثل هذه الحجج الآدميين بالإعراض عن البحر وهو كما تقول القصص الشائعة اليوم الرحم الذي خرجت منه كل الكائنات؟

في ملفّ آخر ما زال في خضم مستقبل بعيد، رجُلٌ تجاوز السبعين، رأسُه بين الركبتين يغالب موجة من الغثيان، يتساءل هل البحر الذي أمهَلَه كلَّ هذه السنين سَيتركه يُفلت منه هذه المرة.

يأتيه من كل النواحي صُراخ البحّارة المسالمين وهم يواجِهون بأيدٍ عارية مسلحين داهموا السفينة الصغيرة، التي ركبها علّه يصل مكانا سُجِن فيه شعب بأكمله دون ذنب أو محاكمة.

فجأة ينكبّ أحد المهاجمين على الرجُل الجالس ينتظر بهدوء ما الذي ستتمخض عنه الأحداث، ومنها إمكانية الموت في الدقائق القادمة: سيّدي لا تخشَ شيئا، لو كنا نريد موتك لسلّمناك لأعدائك الذين ينتظرون على بعد أميال. سنجرّ هذه السفينة –التي تريد كسر الحظر عن الإرهابيين–إلى بلدنا وسيمكنك أخذ الطائرة والعَودة من حيث أتيت.

نعم، وسيمكنني أن أنظر لهذا البحر من عُلوّ عشرة آلاف متر بمأمن من أشداقه المفتوحة.

بالمناسبة، مَن قرّر أنّ على الآدمي بالضرورة شقّ الطريق على سطح البحر؟ أليس من الأسلم رسمه على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم؟ ألم يتّبعوا الشاطئ آلاف السنين لا يحيدون عنه إلا اضطرارا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون وهم متردّدون بين فتح الطريق في البرّ أو فتحه في البحر، من شدة وعيِهم بأنهم بين خيارين أحلاهما مرّ؟ أليست فكرة رائعة أن أمشي ونَعلايَ بيدي وبنطلوني مرفوع إلى الركبة، قدماي في الماء إلى الكعب، أدور حول هذا البحر الذي عشتُ كثيرا على ضفافه، أملأ عيني من تعرجات شواطئه الجبلية وشواطئه الحجرية، شواطئه النظيفة وشواطئه القذرة. ويوم أُكملُ تأمّلي لِكُل هذه الأماكن أشرَعُ في دورة حول الذي يصِفونه بالأحمر ثم الأصفر، ثم المحيط الأول والثاني والثالث. ثم أنهي البرنامج بالمحيط الأبيض، وهو على ما يبدو أبيض فعلا خلافا للبحر الذي أعرف والذي أشهد أنه أزرق. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمَدُ مَن يتوجّب له الحمد أني لستُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.

وحيث أن عاهة غبية اسمها ''دوار البحر'' حرّمت عليّ الرحيل على ذروة الموج، فإنني أحيلكَ إلى غيري من الرواة ليحدثوك عن البحر وما عاشه المرتحلون على ظهره.

كل إضافتي لأدب الرحلات البحرية ستقتصر على بعض الأفكار الفلسفية العميقة من نوع أن رحلة الحياة –مثل رحلة البحر– مغامَرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحةِ أشداقَها غيرُ قَشة طافية، ونحن نتشبث بها ونتقيّأ على بعضنا البعض.

*

حولي يتدافع الزوار في فَوضًى لطيفة. داخلي تتدافع أشباح آدميين اسمهم خوفو، خفرع ومنكاورع. وهم الذين بلوَروا كل ما في الآدمي من طموح وإرادة وقوة لترتفع هذه الجبال من الصخر. شبح آدمي اسمه هميونو، المهندس الذي بلوَر كل ما في الآدمي من عبقرية وقدرة على الخلق والإبداع لكي تتخذ الصخور هذا الشكل، أشباح آلاف الآدميين الذين لم يحفظ التاريخ أسماءهم وهم الذين بنَوا هذه المعجزة بأبسط الأدوات، وبلوَروا كل ما في الآدمي من طاقة الصبر والعمل.

يجذبني من ذراعي رفيقي ومُضَيّفي، ابن المدينة التي تُشرِف عليها هضبةٌ طَبَقَت شهرتُها الآفاقَ وفوقها جبالُ البشر هذه:

– هيا، أفِق من ذهولك، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.

وهذا نوع من الطريق لا صعود فيه ولا هبوط، بل ولا يكلّف المسافرَ أدنى جهد. تأتيني دَوما عليه حالة من الارتخاء اللذيذ وأنا أستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبر الحياة: جلوسا على كرسي مُريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء. نتأمل من بعيد –وفي أمان–روائع العالم وفظاعاته. أروَع ما في هذا المعلَم القار من معالم العالم، أنه لا تشتكي منه ظاهرة مزعجة اسمها دوار النهر.

في طباع هذا النهر شيء يذكّر بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمَّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل مَن وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

"هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

ميقات كل العصور

راحل أبدا باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفتيه السؤال

عن نخلة يتناهى إليها المساء ويطلع منها الصباح

وعن تعب غامر يتساقى به الطهر فوق الحقول الفساح"

يمازحني مضيّفي:

– هيّا يا رجل، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

– كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

– لهذا تسمّيه اللهجة العامية "البحر".

– أهم تحدّ طرحه النهر على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضُه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة.

– حتى طوله أرهق الكثيرين وهم يبحثون عن منبعه.

– المنبع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد ووُلدت معه حضارتكم.

– كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل "الولية مراتي". ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

– رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

– تذكّر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأن ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيَويته. هذا النهر شيء جد مختلف في شبابه وطفولته أو هو يتشكل في رحم المجهول.

– نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج.

– لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرّك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

– والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلتُ لنفسي: أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق، وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيّب، ماذا سنفعل الآن بالآدمي وقد توقّف به النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصّد تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظره البشر آكلو لحوم البشر.

– لا خيار له سوى أن يسبح بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظره أسد فارغ المعدة نافد الصبر، وإن نجا بجلده، عليه مواصلة التوجه دوما نحو المجهول.

– يا رجل، رحمةً بالآدمي! اختصر. ما الذي حصل للمسكين وهو يواصل بحثه عن أصل الشيء؟

– ضاع في ألف اتجاه. لكنه لم يكفّ عن الترديد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن أكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا النهر؟ هكذا سمع بعد قرون من الضياع ببحيرة تقول الشائعات إنها المنبع الذي يبحث عنه.

– برافو لأوائلنا ونحن خير خلف لخير سلف. الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي هربتُ منه آخذ المترو كل صباح لأسمع تفاهات الناس يصرخون في نقّالهم!

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبثّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه المستنقعات وهذه الأدغال التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

أعود لممازحة مضيّف كريم.

– لا تُطِل، اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟

– بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يُقال إنها الخزان الرئيسي. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قِطع "البوزل".

– متأكّد أن كل القِطَع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرّم أمرا كهذا.

– ثمة صوَر التُقطت من الفضاء وكم من برهان آخر.

– طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأمّ لتلد نهرك هذا؟

– من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة وموثّقة.

– وقبل ذلك.

– ماذا تقصد؟

– فهِمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟

يضحك مرافقي.

– في السحب طبعا.

– وقبل تجمعه في السحب، من أيّ بحر تظنّ أنه انطلق؟

– أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

– إذن تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبعه. محكوم علينا أن نجهل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوَة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تَقدر عليه والبحر ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر.

– وبعد وصولنا البحر، أين تريدني أن آخذك أنت الذي لا يسعك مكان؟

– نوقف الطريق لنذوب ونتلاشى وقد تحقق هدفنا وهدف هذا النهر؟

– لستُ متأكدا أنه مستعجل للذوبان والتلاشي. ألم ترَ على الخريطة حبّه للتعرّج واللفّ والدوَران. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطّا مستقيما؟

– طيّب، لنتتبّع بعض تعاريجه شمالا أو جنوبا. ما زال أمامنا بعض الوقت.

– أمامه هو الذي قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن ''الولية'' تزفر من الغيظ أمام أكل بارد.

مِن أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أَوحى به النهر أباكل الأسئلة التي تلاحق الآدميين: من أين أتى الآدمي، من أين أتى العالم؟ من أين أتى الزمان؟ أليس النهر من ثبّت لنا تصوّراتنا الساذجة عنه، وأنه مثله يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، وأنه لا قدرة لأحد على تثبيته في نقطة ولَو أوثقته بكل سلاسل الدنيا والآخرة.

**

تُطيل شرطية المطار تفحّص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بَداهة تقديرُ مدى خطورتي على أمن وطنها المفدّى.

كان الأوائل عندما ينزلون بشاطئ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفينتهم ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفا يقتربون من أشيائهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدَورهم ليعودوا يوما –إن عادوا–يضعون هداياهم على الرمل.

بالكاد تغيّرت الطقوس والحذر من الشبيه المختلف قارّ ثابت.

كأنني أسمع الأسئلة الصامتة تتدافع في ذهن حارسة وطنها: ما سبب قدومك لحرّيَتستان؟ زرتَ قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان. ونفاقستان أيضا! ماذا فعلتَ في هذه البلدان؟ مَن تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل كنتَ ستخطف الطائرة ولم تجد الشجاعة أو السلاح؟ هل أنت مشبوه في بلدك؟ هل تحمل قنبلة؟ لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيّفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكّد أنّك لا تحمل فيروسات أو قنابلَ؟

تتوجّه إليّ الموظّفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا ودراسة وتدقيقا.

– انتظر سأسأل رئيسي. على فكرة، أنت لا تنوي زيارة مزرعة؟ أنت لم تأت بفواكه مشبوهة وبذور غير مرخّص بها؟

تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

– تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلّنا نحتاجك في أمر ما.

أخيرا هذا البلد أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جئتُه متعللا بالبحث عن العلم. والحال أنني لم اقصده إلا للضياع في غاباته.

لم يبق لي إلا بضعةُ كيلومترات بالحافلة لأصل المدينة التي سينطلق منها بحثي عن ممالك الأشجار الباسقة.

أتوجّه لرفيقة الطريق مداعبا مستفزّا.

– مِن الظلم أن تتمتّعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأتُ أخطّط للغزوِ والنصر المبين. المشكلة أن جِمالنا لا تعرف السباحة. كيف لها عبور هذا المحيط الذي حفرتموه –من الواضح–تحسّبا لغزونا؟

– أخذتم الصحاري الصفر بنفطها وأخذنا البيض بمائها. قِسمة عادلة.

فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها:

– ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

– حذار، هذا الذي ذقتَ أنيابَه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلتَ مصرّا على غزو غاباتنا؟

– يا بنت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

– إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلّفنا أصحاب الأرض الأصليين. اسمح لي بأن أقدّم لك البعوض الأكبر: المار نجوان.
– بعوض! تسمّون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ طمئنيني. هل النزل مَحمي ببطاريات صواريخ مضادّة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدّدا إلا مسلّحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتجّ على وكالات الأسفار. ما هذا الغشّ؟ مَن تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنّة والحالُ أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة –على الأقل–ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايُل موصوفة.
تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال.
– لا تعجل بالاتهام واللّوم. كل ما هناك أنّك أتيتَ في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.
– تقصدين أنه انتظرني حولا كاملا وأنه ترصّد قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم.
عالم رائع حقا لكن لا مَوطئ قدم فيه إلا وحولك ضرورة كائن يخدش أو يقضم أو يعضّ، وإن لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنينا مزعجا أو رائحة كريهة لمجرّد المضايقة. القاعدة هي نفسها أينما ولّيتَ وجهك: قناع جميل آخر لنفس اللّيث بارزِ الأنياب وأنت كالعادة تحسبه يبتسم.
بدأ حماسِي يفتر بهذه الغابات الكثيفة وبالبحيرات الزرقاء التي تنعكس على مياهها الوديعة قمم مكللة بالثلوج.
أقفز من جديد وأفظع الشتائم تتدافع مجدّدا على لساني:
– بجِدّ، كأنّ لهذا اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجّلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيّرتُ رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.
– نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.
– تمزحين!
– الظاهر أن ''المارنجوان'' مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزل. انظر مليّا لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.
– وفي الأثناء أُفرَغ من دمي! حذار قد أكون مضطرّا إلى مصّ دمكِ أعوّض ما يأخذه مني فيلُكم الطائر.
بعد فترة، تبسط مرافقتي خريطةً على الأرض منهمكة في دراستها. لم يبق عليّ إلا تأمل الأشجار متسائلا عن أسمائها واحدة واحدة. أغمض عينيّ للتمعّن بكل خلايا جلدي، في أحاسيس بالغة الدفء، بالغة الرقة، بالغة المتعة تبثّها فيّ الغابة العجيبة. يرتفع الهمس من الأشجار تروي لي قصصها. تلسعني بعوضة من غير جنس البغيض فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والكائنُ الصغير لا يريدني إلا أن أنتبه لوجوده هو أيضا. على فكرة، كم كائنات حية تختبئ داخل هذه الغابة وفي السنتيمتر المربع تحت قدميّ؟ آه، هذه أجناسهم وهذه آخر مشاكلهم!
أخيرا تخرجني رفيقة الطريق من حلمي اليقظ: من هنا الطريق.
تشير إلى الخارطة بأصبعها لتقنعني بصواب القرار، لا تعلمُ أنه لا أجهل منّي بقراءة الخرائط علما وأنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح.
أعود للمزح مع امرأة متوترة ربما لأنها لم تكن واثقة تمام الثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف، مشينا فيها جلّ النهار.
– ثمة أهم من خريطة موثوق بها ونعرف قراءتها وكان عليك أن تملئي به حقيبة الظهر قبل تطفلنا على مملكة المارنجوان.
– عمّ تتحدث؟ أخذتُ كل المطلوب من القهوة والسندويشات.
– أتحدث عن التعاويذ لتفادي الدببة التي قد تكون قد خرجت للصيد.

– التعاويذ؟

– نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: ''ابرادابرام باتو باتتي يتاى متغقى''.هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريت، يَقيهِ العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي 543 فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة 798: ''لايانايع لايس''. هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديَين لمن تجاوزن عمرا معيّنا. لكن جهلي بالدبغة لا يمكنني معه إعداد التعويذة الملائمة.

– إذن سيادتكَ تتحرك في هذه الدنيا مُلغيًا بتعاويذك كل ما لا يعجبك. فعلا، إنها رحلة كنتُ أتمنى أن تكون من نصيبي أنا أيضا.

يتعمّق الصمت والتجهّم والمرأة تعود لخريطتها تسألها عن الصراط المستقيم، لا تعلمُ كم عانى البشر بحثا عنه عبثا وسيواصلون.

أعود للمزح هذه المرة للتخفيف من توَترٍ انتقلت عدواه إليّ.

– هل تعلمين أن الأوائل، سامحهم آمون–رع، كتبوا دليلا مفصّلا وليس مجرّد خريطة بسيطة، بخصوص الطريق الذي يأخذه الموتى ليصلوا في الوقت وفي أحسن الظروف لمثواهم الأخير، بعد التغلب على قطّاع الطريق من شياطين وثعابين وخنافس؟ ألم يكن من الضروري أن يمدّونا أيضا بالذي نحتاج في هذا العالم: كتاب الأحياء؟ نَقْصٌ قررتُ أن أضع له حدّا.

– فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

– نعم، ويجب أيضا أن أعمل على خريطة جدية للعالم حتى لا يتيه فيه مزيد من المرتحلين.

بجدّ، مَن تَسلّم عند الإفاقة مِثل هذه الوثائق الضرورية للرحلة؟ ألا نَقضِي عمرنا في مزج قطع ''البوزل'' التي جمعناها ببالغ الصعوبة من هنا وهناك، فلا تتجانس فيما بينها أبدا، والحال أننا بأمسّ الحاجة إلى صورة واضحة عمّا رُمينا فيه. أليس وضع المرتحل شبيها بوضع سائح يفيق في محمية إفريقية وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ مَن يكون وماذا يفعل في هذا المكان؟ ما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي سيقوده إلى الهدف المجهول.

– معك حق، لكن شريطة ألا تكون خريطة مزيّفة. هل تعلم أن الإسبان كانوا يوزعون في القرن السابع عشر خرائط كاذبة عن العالم الجديد، حتى لا يهتدي المغامرون إلى الأماكن التي كانوا يسرقون ثرواتها؟

– إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الآدمي وكتاب الحياة لحُسن التعامل معه، هناك غياب الأدلّاء أصحاب الكفاءات العالية.

أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم –ولو أنهم أقلية–مَن يتسلّم القادم الجديد فيرميه خِفية في مَصبّ البلدية، أو يدخل به أوّل سوق يبيعُه بمقابلٍ بَخس، أو يجعل منه عبدا، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نَقضِي جلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلّاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟ مِن أين لي أن آتي لوحدي بكل ما تحتاجه الأجيال القادمة من أدلّاء يعرفون حقا أين هو الطريق؟

ما زال على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلٌّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد

تهزّ رفيقة الطريق كتفيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطةً لا نفع منها.

– واصل هذَرَك، لا أحبّ اجتماع الصمت والظلام.

– أمرك. كم من مشاكل تطرحها عليّ وثيقةٌ بمثل أهمية كتاب الحياة وهي لم تر بعد النور! كيف سأحفظ حقوق الملكية في عالم مكتظّ بالناسخات والمزوّرين؟ هل سأبيع منها طبعة موجزة بثمن خاص للطلبة والفقراء؟ هل سأطرح للسوق نسخة مبسّطة للأمّيّين وأخرى "بالبرايل" للمبصرين؟ إنها مشاكل واجهها واضعو كتاب الموتى. ما يشجّعني أن منهم من أصبحوا أغنياء. يجب أن أدرس تقنياتهم.

تهزّ المرأة كتفيها مجدّدا. تعود إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد.

ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في فتح "الترموس" وارتشاف القهوة الساخنة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمّل الآدميَّ إذ أَغلقت عليه الغابة قبضتَها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهَم وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج لا يُرجعه إلى نقطة الانطلاق.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند الرجال ونوبات الهستيريا عند النساء. لا بدّ من خفض الاحتقان.

– أقصّ عليكِ طُرفة عن آخر مرة ضعتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكّد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، قُضَّ لك يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمرة، ماذا تسمّونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبّات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

– نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومربّى.

– ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا –لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقنص– أصلَحُ من زوجها للمهمّة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: ماذا لو طلبتُها أن تعطيَني أيضا أحمر الشفاه لأصبغ به جسمي وأخرج إلى الغابة عاريا. يجب أن أطلب أيضا رُمحا وقَوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ آثرتُ الصمت وتوَكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أُولى غلطات اليوم وأنا أستفزّ آلهة الربوع، المحلّية منها والمستورَدة. خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعنُها في السرّ وفي العلَن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلُكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطَعمُها حامض وتلتصق باليَد تاركة بقَعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبتُ –مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها– على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري. مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكّر من أين أتيتُها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كَونها في أقاصي الأرض و"ما" في طرَفها الآخر لا قِبَل لها بمساعدتي في شيئا. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الآدمي طوال سَعيِه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسَب اتجاه، ومواصلة المشيِ دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتُ على قدميّ منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرقُ يتصبّب منّي، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلّا إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

– ووجدكَ البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

– يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين لم يتركوا لنا إلا الطرق المعبدة والحافلات المكتظة.

كأني بأشباح توَغّلَت بعيدا في فضاء العتَمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجّب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

– سهوتُ. واصل.

–كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مروّضا شَقّ فيه الآدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة مَن لا يعرف في أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

– مالك ممتقع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

– أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى الدببة في جبل بوقرنين إلا بالرمح، وترسلوني هنا لكل الأخطار أعزل. سأقول كلّ شيء ل"ما".

يومها ضحكَت المرأة الطيبة:

– آه منكم يا أهل المدن، تَضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبّعة صفراء.

تنفجر مرافقتي بضحكة متجهّمة:

– هذه ليست غابة صغيرة تحاصرها الحقول. إنها تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه. إنها، غابة حقيقية.

– من الأزل وطن السحر وموطن الساحرات، آخر معقل للثوار!

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة لا تَخفَى دلالتها: لولاك أيها الغبي لما وجدتُ نفسي هنا، الله يلعن اليوم إلخ.

تعود إلى الحديث، تفتعل استعادة السيطرة على أعصابها.

– حظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

– لنتنفّس إذن بهدوء، ولنعمل الفكر لتحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي اخترنا؛ لا نحيد عنه قيد أنملة.

–كفى. انتبه لعلامات الطريق. لقد رسَمته، بل قُل نَقشَته على أرض الغابة الخُطى المسرعةُ لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدّا منّا.

– إن رأيتَه فسأفتعل أنني لم أره.

– لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

– أنتِ في ورطة، أمّا أنا...

– لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

أكبر مشاكلنا مع هذا الطريق اللعين. أذهبُ يمينا أم يسارا؟ أرجعُ إلى الوراء أم أبقى ساكنا بانتظار المفترق المقبل؟ كيف الخيار وجلُّ ما تعرفُ عن الطريق وتقاطعاته مصدرُه تائهون.

يتواصل المشيُ وسطَ أليافٍ وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا.

– لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غبي؟ قد ننجح في تربية هذا المارنجوان السمين لتغذية أطفالنا، ففيه ما يكفي من الدم والبروتينات. تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب؟

– سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وآنذاك حدثني مجدّدا عن رغبتك في العَودة إلى جَنيِ ثمار الغابة ولِبس جلود الحيوانات. حدَسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

– اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطبل الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء، خاصة وأن لي شاهدا.

– وما حاجتك إلى شاهد إن أردت الاختفاء؟

– هل أنا مجنون للاختفاء دون تَرك علامات؟ ألا تعرفين أن الآدمي لا ينظّم اختفاءه إلا ليثير في الناس فضول الجريِ وراءه؟ كل ما نفعل تمثيلٌ على أنفسنا وعلى الآخرين، والاختفاء لا يشذّ عن القاعدة. لكنني الآن صادقٌ قليلا، أو على الأقلّ أكثرَ من المرات الأخرى.

تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخَوف الطفل التائه في الظلام.

– الليل يداهمنا، يا يسوع!

– نعم، لنُصلّ ليسوع. سمّره ثم اعبده. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلَّينا، ماذا نفعل؟

– عمّ الظلام وهدّني التعب. لم يعُد لنا من خَيار غيرُ التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلا ولا نارَ تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

إذن هذا هو العالم الذي جرّبه الأوائل كل الليالي. هكذا هو عندما يلبس أوحشَ قناع. هكذا هي الأحاسيس البكر من الرهبة والانتظار القلِق والخوف من بروز دابة من الظلام الدامس.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر حذِر. ثم العودة للبحث عن الطريق اللعين بعد ارتشاف ما بقيَ من قهوة، وقضمِ ما تبقّى من السندويشات.

– آه، عادت الابتسامة إلى شفتيك.

– أخيرا، ها هو الطريق. يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

– أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكلَ الحقيقيَ لكل طريق؟

– كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة وسيجارة و"بفتيك" بحَجم ملعب تنّس.

– شهية طيّبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما أعمق ما عشتُ هذه الليلة. ما زال لديكِ وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الوراء.

– خذه أنت.

– يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالَي، كوني بنتا طيّبة. مَن سيطبخ لي المارنجوان ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها؟

– لو كنتَ تعرف على الأقلّ كيف توقد النار!

– لم أتمعّن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

– شكرا على دعوَتكَ، والآن تدبّر أمركَ.

– كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكَيفيَة خَلق امرأة من ضلعي.

– هذا شغلك، أما أنا فمُهرولة إلى النزل. واصل أنتَ الطريق الذي تختار.

– تقصدين أواصل الطريق الذي اختارَني.

– إلى هذا الحدّ تؤمن بالجبر؟

– موضوع قد نخوض فيه أمام "البفتيك" الذي تَعِدينني به. آه منكم يا أهل المدن، تَضِيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبّعة صفراء.

*

من أروع البطاقات البريدية المتراكمة في ملفاتي عن أجمل الأماكن التي قادني إليها الطريق.

يبسط الطريقُ إغراءاته دَوما أمام الماشي، يَعد باستكشاف مَعلم آخر لا يقلّ فخامة عن كل التي وعدَ بها ولم يخلف الوعد أبدا.

على ذكر المشيِ، لِيُسمح لي بملاحظة بالغة الأهمية بخصوصه.

بجدّ، هل ثمة أصلح للاستكشاف من المشي؟

من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أيّ وقت نشاء، وخاصة أنه فرصةٌ للاختلاء بالذات.

لا أتذكّر أن فكرة هامّةً أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن الفَوضى التي بداخلي، اكتسبَت بعض النظام إلا إبان المشي.

يكتبون بأيديهم وكلُّ ما كتبتُ كان بِرجليّ.

ومِن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح ''المجانبة'' وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر.

لا خيار للفرار من العالَم غير الركض ولا إمكانية للقائه غير المشي، وأَحسنُه الأكثر بُطأً. كم كان أوائلُنا محظوظين والعالمُ يكشف لهم روائعه خطوةً بعد خطوة، وهم كمن يتذوّقون أفخم مأدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غَصّوا ببعضها أحيانا.

المشكلة مع هذا المعلَم من العالم الذي أمشي إليه، أن الطريق فيه ليس متّجها إلى الأمام وإنما إلى فوق.

شيئا فشيئا تتمرّد الرئتان وقد أصبحتا تتنفسان الماء بدل الهواء. يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الإضراب العامّ. يحتدّ الصداع ويتفاقم الغثيان والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرّة العقرب. لم يَعد أمامي من خَيار غيرُ رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثِقَل عمود من الرخام. أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثّر. مَن كان يتصوّر عند الإحرام أن الطريق سيكون بمثل هذه المشقّة!

في مثل هذه الحالة يجب أن تردّد لنفسك تخادعها: ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أُقسِم أنها الأخيرة.

صدق من قال ''لا وجود للطريق، كل ما هو موجود هو المشيُ''. لا وجود للمشي، كل ما هو موجود هو الماشي. ما دُمتَ ماشيا فأنت موجود. يجب أن أنهض بعد كل عثرة لا ألتفت إلى ألم وما على الجِراح إلا أن تندمل وأنا أمشي، إلى آخر منعطفات الطريق، حتّى أَخِرّ على وجهي وقد تبدّدت مني آخر طاقة لمواصلة المشي.

يتوقف بي الطريق، لا لأنه انتهى، إنما لأنني أنا الذي أصبحتُ عاجزا عن أيّ حركة.

يا إلهي ثمة رحالة طلعوا إلى قمم تتعالى على هذه القمم التي هي في نظرهم هضاب؟

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الآدمي، وكلُّ عقبة مآلُها التذليل والإذلال! لكن يا للأوباش، تنعّموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظّا بباصات السواح أو آخر فوق طاقاتي!

كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادِلَنا رفاهَك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الجبال المرعبة لا نعرف أين تنتهي داخل السحاب، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

لألتقط أنفاسي وأغتنم الفرصة لتأمّل كيف هو الطريق مِن هذا العُلوّ. لا أرى شيئا والسحبُ التي أصبحت تحتي تمنع النظر.

لم يبق لي إلا تخيّلُ شبكة آثارٍ رَسمتها على البسيطة أقدامُ الحجاج والغزاة والصيادين والمهاجرين والمغامرين والسياح والتجار والمشرّدين والتائهين والمبشِّرين والفارّين من السجون والراكضين وراءهم وقُطّاع الطرق والمهربين وكل من تدافع من الآدميين على مرّ التاريخ لبسط سلطانهم على الامتداد.

ثمة أيضا الآثار التي رسمتها غزلان تركض عبر الأحراش وإبلٌ تمشي بكل وقار وخَيل وبغالٌ وحمير سجينة تئنّ بأثقال سجّانيها، ناهيك عن آثار دبيب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ. أيّ مخيّلة قادرةٌ على استحضار أشباح مَن تتابعوا على الطريق وأعطَوه الوجود والشكل.

ثمة أيضا جبال فضاء الرموز والأفكار والقيَم ولها هي أيضا كبار متسلقيها والعائشون في ظلها.
عن آدمي اسمه غاندي قوله: ''الله بمثابة قمّة جبل وكل الأديان هي الطُّرُق التي تؤدّي إليه من هذه الجهة أو تلك... '' هكذا بِقدر ما ''يصعد'' طاهر القلب راقي العقل إلى ''فوق''، بقدر ما يقترب من القمة وأيضا من الآدميين الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى... وبقدر ما يبتعد عن الذين بقَوا عند السفح سواءً كانوا من ملّته أو من الملل الأخرى يوحّدهم جمود الفكر وغلظة القلب.
فجأةً يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة لا أعرف لها اسما. تتهاوى ببطء شديد كأنها تُقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. تُرى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلّقةً في الهواء كأن خَشية الارتطام الموجِع بالأرض –التي ستكون لها قبرا–زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلفّ وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أَطلقَ عليها الصيّاد وابل رصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركَت مشاعري، فتأتيني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فآخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مَشوبةً ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جَيبي ثم أغيّر الرأي. مكانُها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدَت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أنّ العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدَورة جديدة من الخَلق طبقا لقاعدةٍ لا تعرف استثناءً: قدَر الموت أن تتغذى بالحياة، قدَر الحياة أن تتغذى بالموت.
والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على البطن.
خلفي وفوقي الشمس ، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أرى لأول مرّة أن لي ظلّ.
أخيرا المكان الذي أُوصيتُ، قُل أُمِرتُ بالوصول إليه وكلُّ مَن حملهم الطريق إليه كانوا مثلي حجاجا.
قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أَوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذ له من رسوم. أروع ما فيها تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة. العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة لا تكاد تلحظها، اختزلَها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دَوما شكل لا يكاد يُلحظ لآدمي يفضِّل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.
كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسمُ عندهم صلاة المؤمن!
جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يبتسم (كيوكسي)
جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا
جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن
جبل الشتاء بعيد لا مُبالٍ كأنه نائم
كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة.
منهم مَن جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد.
يُقال إن أحدهم وقف مشدوها أمام المعلم ثم عاد طفلا فأخذ يصفّق صارخا: برافو الله!
أما أنا فبعد لحظة التجلّي التي كافأتني على كل عذاب المشي، لا بدّ أن أواصل الاستكشاف فهذا عالم يغطّي فيه دوما العجيبُ على الأعجب والغريبُ على الأغرب والرائع على الأروع.

قد يكون أصعب سؤال يُلقيه عقلٌ منتبه هو: ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل؟ بانتظار أن يجد أحدُنا ردّا وافيا لا بدّ أن يكون هو الآخر جميلا. لا خيار غير أن نعمل بتوصية الشاعر حتى لا نُضيع أهمَّ ما تُعوّض به الرحلةُ آلامَنا.

عش للجمال تراه العين مؤتلقا في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)

وفي الرّبى نصبت كفّ الأصيل بها سرادقا من نضار للرياحين

وفي الجبال إذا طاف المساء بها ولفّها بسرابيل الرّهابين

وفي السواقي لها كالطفل ثرثرة وفي البروق لها ضحك المجانين

وفي ابتسامات أيار وروعتها فإن تولّى، ففي أجفان تشرين

لا حين للحسن، لا حدّ يقاس به وإنّما نحن أهل الحدّ والحين

فكم تماوج في سربال غانية وكم تألق في أسمال مسكين

وكم أحسّ به أعمى فجنّ له وحوله ألف راء غير مفتون

عش للجمال تراه ههنا وهنا وعش له سرّ جدّ مكنون

خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين

*

للطلوع إلى أعماق السماء التي ترعى بحنوّ بالغ هذا الجبل وغيره من المعالم المقدسة، لا خيار لك غير السفر بالوكالة والحظّ لم يسعفك بأن تكون من مئات الآدميين الذين أخذهم الطريق إلى أبعد نقطة فيه حاليا.

قد تجد بعض السلوى في إقناع نفسك أنك وفرت عليها التعب والدوران، أنك ستتابع على الشاشة العملاقة من هذا المقعد الوثير ما يراه الرواد من المحطة الفضائية التي حرمت وصولها.

يخيم الصمت على قاعة العرض. فجأة يدوّي انفجار يصمّ الآذان. تدخل رؤوس بعض النظّارة الأكتاف والصاروخ الجبّار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به كالرضيع بأمّه، وهي تهمّ بالقفز فوق الهاوية. يخيّل إليك من فرط دِقّة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهيب النّار يلفح وجهك وبرائحة الدّخان تخنق منك الأنفاس. تتابع كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدّخان وهو يتلاشى رويدا رويدا.

ثم ينفصل المكوك عن الصاروخَين الدافعين.

انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكّن الآدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغةُ الأرضَ، وكان من الأصحّ أن تسميه البحر.

يتضح من أول نظرة أن هذه اللؤلؤة الزرقاء التي نتحرك فوق سطحها فعلا مستدير استدارة البرتقالة والتّفاحة والسوار والشمس والقمر. كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليلي!

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين والجيَف، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت وكل ما يتدافع على السطح لا يكفّ عن الصراخ.

على ماذا أركّز والذهن مشدوه مأخوذ بكل هذا الجمال المهيب؟

على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟ على البياض وهو كفَرْوِ دبّ أُلقي على كتفَي غانية؟ على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟ على الصفرة تضيّق الخناق على النهر الخالد كأنّها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟ على الحمرة التي استفردَت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الآثار التي ترسمها من القِدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر فما بالك بالشبكات غير المرئية التي تتحرك داخلها البضائع والأفكار.

فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعدّ للاعتداء المبين على الآدميين المساكين.

هو يتحرك في زمان تستطيع مواكبتَه وحسابَه بالساعات والأيام. لكن من أين لك رؤية ما يفعله الزمان بالمعالم الكبرى بحساب ملايين السنين؟

هكذا لن ترى الجبال ترتفع ثم تتهاوى، والغاباتِ تغزو الامتداد وتندثر، والصحاري تتقدم وتتراجع، والبحارَ تفيض وتجفّ، والجليد يغطي نصف قارة ثم يتقلص. ذلك أن هذه الأرض —البحر التي تتأمل كائن لا يثبت على حال، كائن ينبض قلبُه قبضا وارتخاء، حرّا وبردا، خلقا وتدميرا، وما يتتابع على سطحه من أجناس فلذات كبده، أنها كلها أشكاله وحالاته.

ذلك لأنك أمام كوكب حيّ فان، زائل، راحل، عابر وإن طال أمده ملايين وملايين السنين.

ثمة من يتنبأ أن سقف الكوكب سيطلى يوما بالأخضر وأن هذه السماء الخضراء ستشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين.

آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك.

تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية.

تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثّة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنوُ الحياة.

من هذا العلو الشاهق توحي لي الصورة بسيل من الأفكار وكل فكرة أغرب من الأخرى تثير فيّ مزيدا من الاعجاب والعجب.

إنه كوكب خاضع ككل الكواكب للقوانين التي تسيّر الكون، تحكمه الجاذبية وتسيره ميكانيكيا الفضاء التي تفرض أن يكون مساره حول نجمه إلى الأبد دائري لا بيضاوي.

داخل هذه القوانين السرمدية، كم من أحداث، من حوادث، من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف وذهبت جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي.

هو لم يكن مقدّرا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما يحصى ولا يعد من الإمكانيات.

كان كرة من النار، من الصخور السوداء والرمادية، من الماء، من الجليد، ثم توشّحَ بالأخضر لونِ الحياة. مرّ عليه زمن يشيب من طوله الزمن قبل أن ينهي الاستعدادات ليبدأ الخلق المتواصل الذي لم يتوقف إلى هذه اللحظة.

يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما أبدعت ولا تزال من خوارق ومعجزات.

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظّ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!

وكما هو فريد، يتيم، وحيد، لا شبيه له في كل الكون ولا إمكانية أن يتكرر، فإن كل كائن يتحرك على سطحه أخذ منه مواصفاته هذه كما يأخذ الطفل كبرى خصائصه من أمه وأبيه. كم مدهشة، مذهلة، أخاذة، رائعة، مرعبة فكرة أن شيئا ما سمه ما شئت تدبّر أمره حتى لا يشبه ورغم كل أوجه الشبه نجم نجما آخر، كوكب كوكبا آخر، كائن كائنا آخر. ترى ما السرّ في كل هذا الحرص على الطرافة والتميّز في كل مكونات الكون؟

كم هي ساذجة قصص الخيال العلمي وجلها تفترض وجود كواكب فيها أنواعا من الحياة كالتي نعرف وكائنات أرقى منا وأنجح بل تحلم وتخطط لتلتقي بها يوما والحال أن وجود كوكب كهذا الكوكب مثل تكرار الذي لا يتكرر وتمخض ما لا يحصى ولا يعدّ من الأحداث والحوادث المتفجرة في كل اتجاه عن نفس النهاية.

يا للشرف الأثيل الذي ما فوقه وما بعده شرف!

أي حي لا يحق له أن يفاخر بأنه النسخة اليتيمة الوحيدة التي توجد في كل هذا الكون، أنه حضر وليمة الوجود ولو قبسا من الزمان!

أي امرأة لا تفاخر بأنها تضع حول عنقها زمردة لا شبيه لها ولا مثيل في كل الكون على ما يحفل به من مجوهرات! تدريجيا يمحو السواد باقة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الآدميين. هذه قارتي المنكوبة بأضوائها الباهتة المتفرقة غارقة في كل أصناف الظلام.

يتوجه الانتباه للفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه اللؤلؤة الزرقاء.

تفغر فاكَ دهشة وأنت أمام لوحات ليس مثلها لوحات.

كأنّ الفنان الأعظم الذي رسمها أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشموس وفوانيس المجرّات. كم غريب أن يثير الجمالُ فينا إن فاق حدّا، شعورا يقارب الألم.

مما يقال إن النجوم والمجرات تتباعد عن بعضها البعض، كشظايا قنبلة انفجرت منذ مليارات السنين. وممّا يقال أيضا إنها ستواصل الفرار في كل اتجاه بسرعة متصاعدة، إنه سيأتي ''يوم'' تغيب عن أنظار بعضها البعض، لا قدرة لجار أن يدردش مع جار فَصلَت بينهما مسافات يستعصي اختراقها حتى على النور.

لنجعل طريقنا يسرع أكثر مما تسرع، يلحقها ثم يتجاوزها إلى أن تتوقف، فيتوقف خطوة أبعد، والكل يلهث ويمسح عرقه. أمامنا الآن فراغ مطلَق حالك السواد لا ترمق العين فيه منارة ولم يعد فيه كائن أو شيء أو حدث. أُوصد المسرح نهائيا أبوابه. انصرف الممثلون. انغلقت العتمة على العتمة وتمازج المصب بالنبع.

ماذا لو واصل الطريقُ طريقَه، هذه المرة لحسابه لخاص، بعد أن نفض عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين؟ ... إن بقي في مستوًى كهذا لا معنى لسؤال ولا وجود لسائل؟

حقّا لا أتفه من قصتنا أفرادا وحتى أجناسا بمقياس كل هذه الشساعة. لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟

**

بنو حرية وآل ثبات

الآدميون، بعددهم ومشاكلهم التي يُرهقون بها أنفسهم ويُضيعون وقتي، هم مثل حائط شاهق تأتيني دوريا رغبةُ تَسلقه ثم وضعِه خلفي لتأمُّل الأبعاد الأخرى للعالم.

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعدِ يومٍ لا كَسائرِ الأيام:

– الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميَة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة الطريق:

– تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكَون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميتها الكبرى، التي نحن بالطبع أثمن حيواناتها؟

– شتّ، لا تخلق لنا مشاكل مع قِوًى نحن في أمس الحاجة إلى حيادها، خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.

يهمس الدليل: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشيُ الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيًّا من هذه ''الوحوش'' التي جئنا نتطفّل عليها في عقر دارها.

تُبادرني رفيقتي ممازحة:

– الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظًّا من رحلتنا إلى شواطئ ''هرمانوس''.

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

– انظر إلى هناك.

– لا أرى شيئا.

– دقّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

هل أعترف أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام، ونزلتُ من السفينة الصغيرة أترنّح كأنني شربتُ كل الخمر التي حرّمها الدين وحرّض الشعر على تناولها؟

تمدّ لي المرأة بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

– ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

– أيًّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها –على ما يبدو– لا ترغب مطلقا في لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيَلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم الصديق الوفيّ.

– نعم، كيف لا تختفي عن الأبصار وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه "الصيد الرياضي" وأنك من كبار الأنصار والمعجبين؟

– رجاء قولي لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.

فجأة تقطع المرأة عليّ أفكاري وهي تنهر الدليل:

– نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ الرجل متحرّجا:

– المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الآدميون. ما أبرعكم في قلب الحقائق. مَن عرف منكم جنسا فيه جلّادون باستثناء جنسكم؟ مَن سمع يوما بنمر نكّل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل كلمة شتيمة؟

ربما "المتحركة غير الآدمية" للفصل بينها وبين "الثابتة غير الآدمية" كالأشجار والنبات؟ مصطلح جدّ دقيق، لكنه طويل، ولا أعتقد أن أحدا سيقبل به لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة. حتى أنا غير راض عنه وهو يجعل منها فرعا بالنسبة إلى المرجع الذي هو نحن.

هل ستستقيم الأمور لو سمّينا الآدميين "الكائنات–غير الحيوانية–غير الشجرية"؟

أخيرا يتسمّر الدليل مشيرا إلى مُبهم ما:

– سيّدي، انظر هناك!

– لا أرى شيئا.

– دقّق النظر يا سيّدي!

– في ماذا؟

– في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

– أه، تقصد هذا الخطّ.

– إمضاء فهد. هيّا. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب.

تختفي رغبتي في ملاقاة السكّان الأصليين، لعلمي بِطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء. نعاود التحرّك إلى الأمام والطريقُ يتوغّل بين أعشاب تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

– من هنا فصاعدا المشيُ دَوما ورائي. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرتُ بالتوقف، تَوقّفَا فورا دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمَ هنا سبعٌ سائحة انجليزية متهوّرة.

أهمس في أذن رفيقة الطريق الجديدة:

– أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.

– كن جديا، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.

– وهل الغاب الذي جئنا منه حقا مختلف؟

يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يختفي وراء الأشجار ليتبوّل مؤكّدا على ضرورة عدم التحرك بانتظار رجوعه وأنه بوُسعنا فعل نفس الشيء. أقترحُ على مرافقتي رفع الحرج.

– لا نيّة لي بدخول هذه الغابة، أخشى من إزعاج الفهد. أَديري لي ظهرك وأُدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع.

تهزني مرافقتي تفضح ما بها من توتر متصاعد خاصة والسماء تتلبّد بسحب كثيفة ترمينا ببعض القطرات.

– تكلّم، ماذا تفعل بهذا العود؟

– أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضعُ شعوب هذه الحشائش بداهةً ليس أسهل من وضعنا.

– تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشراتِ التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحنّ قلبك على الآدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم –على الأقلّ–خَلقوا على هامش معاركهم شيئا اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقزّزة.

– تكلّمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله.

– تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

– يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرِب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بَنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعةَ والرعي والغزو والرقّ والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسيّر أمورَه على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبيّ؟ أليس هذا سرُّ بقائه منذ مئات الملايين من السنين؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تسحب المرأة المتوترة هاتفها النقال من جيبها. أبادرها أفتعل لومها.

– ألم نتفق أننا لن نحمل معنا هذا الهاتف اللعين؟

– لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكامٍ إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقُل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خبرا ما...

– نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي مَن أنا، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يريده مني من قرّر لي هذه الرحلة.

– ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم. انتبه، ثمة حركة وراء الشجر.

تسأل مرافقتي الدليل المقبل (ضاحكة) لا تُخفي انحسار الخوف وعودة الصلَف:

– افترض –بعد الشرّ عنك–أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعا. كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟

– اطمئني، أنا مطالَب كل ساعة بمخاطبة المخيّم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلتُه هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرّك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحراش بلا بندقية وخارطةٍ ودليل مَحض انتحار. آسف، ممنوع دخول الأدغال حتى لقضاء الحاجة الطبيعية، في الخلاء فقط.

أجيل البصر حولي وقد اكتسب المكانُ كثافة أجّجت انتباها كنت أظن أنه وصل أقصاه.

يتواصل المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

على فكرة، ماذا قال هذا الكائن المجنّح؟ إلى مَن تَوجّه بالتهديد أو بالغزل؟ هل يُغازل نثرا أو شعرا؟ هل تكون –يا طير–أكبر شاعر في هذه الأدغال؟ الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجّل الميكروفوناتُ المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك. ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟ الأهم من هذا كلّه، بماذا تشعر وفي ماذا تفكّر هذه الكائناتُ وهل ثمة فلاسفة من بني حرية وآل ثبات تساءلوا هم أيضا ماذا نفعل في هذا العالم؟

أفيق على همسٍ صارخ للدليل:

– انظر هناك!

– أين؟
– تحت قدميك!
– لا أرى خدشا.
– هناك، هناك!!!
– آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.
أثر آخر سينمَحِي قريبا. هو والآثار التي تركتها كلّ الكائنات على الطريق.
– لا يا سيّدي إنه لوحيد قرن. لننتبه، قد لا يكون بعيدا.
وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة. هم السابقون ونحن اللاحقون. التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجدَت يوما. على كل حال المحمية نفسها من الآثار. ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدَى عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.
نجلس ثلاثتُنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.
– هل تعلمين أن الفيَلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفَي سنة في البراري التي جئتُ منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلهيةَ الشعب أساسُ السياسة، فبَنَوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه ‘‘الحفلات’’ أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات الملاعب الرومانية على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين –نعم الملايين–من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِق ‘‘بزنس’’ كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوَغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. انتظري، مَن قال إن علينا تعلُّمُ حماية هذه الكائنات لا لشيء إلا لأن ذلك سيُكسبنا مهارات تمكننا من حماية أنفسنا؟
تُفضّل المرأة المرهَقة عدم الردّ خاصة والدليل يدعونا إلى مواصلة المشي.
– سيّدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
انتباه متحفّز ثمنه توتّر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظلّ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلّما نجد صاحبه؟
بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي.
(رافعا صوتي متوجها إلى الدليل المكسوف)
– طيّب والآن، لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا خَرا!!
– هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار. انظر الآن إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدها.
– عظيم، عظيم!
نعود للمشي وسط فراغ متزايد الاكتظاظ بالأشباح. تفاجئني مرافقتي بسؤال يُلقى كأنه تهمة:
– هل ندمتَ على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

– أبدا، أفضّلها على طريقة الذين يتجوّلون في عرباتهم شبه المصفحة على امتداد طريق معبّد والحيوانات عليه كأنها في عرض أزياء. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكّرنا: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط.

حوار بصوت هامس لمغالبة الإرهاق والملل.

– انتبهي لطبيعة هذا المكان. تتصورينه كآخر معاقل الحرية، والحال أنّ الكائنات التي تعيش فيه في سجن أكبر ممّا يذهب لزيارته الأطفال. حديقة حيوانات وُضعت وسط الطبيعة لا مجرّد وسط المدينة، ولا وجود لأي منظمة تطالب بالعفو العام وإطلاق سراح سجناء أطوَل حروب الآدميين. هذه المحميات ''بانتوستانات'' للحيوان، لا غير. كم تذكّرني بتلك التي وُضع فيها بَشر سُمّوا "الهنود الحمر." يومها قيل أيضا إنهم سيكونون فيها أحرارا.

هذا الفضاء الحسّي هو أيضا وطنٌ لما لا يُحصى ولا يعدّ من الكائنات، وكلها بحاجة إليه مثلما نحن بحاجة إليه، تَصنع منه واقعها كما نصنع منه واقعنا. أليس بديهيا أننا نُسافر داخل عالم على تخوم ما لا يعدّ من عوالم، قد تكون بعدد قطرات ماء المحيط، قد تكون بعدد حبات رمل الصحراء، قد تكون بعدد النجوم في السماء. ربما حتى هذه الصوَر عاجزة عن تقدير عددها. دوار، دوار، دوار!

– واصل

– آخر سجن حيواني زُرتُه حبسٌ بخمسة نجوم اسمه طارونغا بُنِيَ على هضبة غنّاء تشرف على البحر. كل السجناء –حتى في ذلك الحبس المتحضّر وفي ذلك البلد المتقدم–كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراحٍ شَرطيّ، ناهيك عن ظروف إلقاء القبض غير الشرعية! أتذكّر –بمنتهى الوضوح–أحد سجناء ذلك المحتشد الأنيق. كان كلب بحر، جُوّع عَمدا، يَرمي له المروّضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الآدميين، والأطفالُ حول المسبح يصفّقون له فيقلّدهم سجين الحرب. كلما ازداد مَرحه ومرحهم رَمى له بسمكة أخرى لتشجيعه على مزيد من التهريج وتكلّف حركات لا وجود لها في قاموسه لتسوّل غداء مُنع بالقوّة مِن البحث عنه في لجّة المحيط. نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبَد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وجواد مخصيّ على المشي إلى الوراء. بعد التنكيل يعودون بهم إلى الزنزانة كما كانوا يعودون بي بعد حصص الاستنطاق. مَن قال:'' الآدمي حيوان خان السلك؟'' لافَهم للآدميين إلا بتفحص علاقاتهم ببعضهم البعض، وأيضا لا معرفة بهم إلا بتفحص علاقاتهم بالكائنات الحيّة الأخرى التي تقاسمهم تجربة الوجود، وإلا أنت كَمَن ينظر للَوحة فنية فريدة غَطّت قطعةٌ من قماش نصفَها الأيمن أو الأيسر.

– بهذه المقاييس كلنا مساجين، الفرق اسم السجن ومساحته.

– لهذا أقول بفتح سجون الآدميين للزيارات السياحية. على الأقل ستمكن مداخيلها –بعد خصم رشاوي الإدارة والحراس والقضاة– من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكّد منه أن مثل هذه الزيارات ستَلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات ستتدافع للضحك على السجناء ورميِهم بالحجارة وبالبذر.

– تُبالغ. تبالغ. تبالغ.

– أبدا، صدّقيني ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخانق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومِن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ثم مجدّدا من القضبان إلى الحيطان، ومن القضبان إلى القضبان فإلى الحيطان فإلى القضبان فإلى الحيطان.

– انتبه، بدأتَ تتكلم وحدك.

– ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

– أعراض ضربة شمس؟

– وجع ذكريات. وقفتُ طويلا أمام قفص الكائن الذي تسميه اللغة "الغوريلا" وهو جالس، ظهرُه إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب، ويرمقني. يومها تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. لحظتها غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"الشيء" بما لا يدع مجالا للشك يحدّق فيّ يسألني: عرفتني، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها.

– وفي الأخير انصرفتَ مُضيفا إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجدَت في هذا السجن حياة آمنة لا يتهدّد نومها زئير الأسد؟

– والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثرَ من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

تُرى كيف هو حس الكرامة عند الأسود؟ ما أعمق تبلّد من يعتقدون أنه ليس لبني حرية وحتى لآل ثبات أحاسيس ومشاعر، أنها لا تعرف الحبّ والكره، اليأس والألم، الحزن والفرح، الاستنكار وربما حتى السخرية. هل من الممكن أنّ عالم هذه الكائنات أحاسيس بكر، مشاعر بكر، في صفائها الأول، في عنفها الأول، أحاسيس ومشاعر سلمت من "تلوّث" الأفكار ومن "هلوسة" اللغة. آنذاك من الكائنات الأرقى، وأيُّها تعرف أجدر التجارب بالعيش: البشر أم بنو حرية وآل ثبات؟

فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

– انظر هناك!

– هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

– نقترب لنرى بوضوح.

– يا سيّدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

– حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

– يا سيّدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمَّى "نيالا"، والضخمة وتسمّى "كودو." ما رأيتَ واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

– تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التأدّب وكبح ما به من سوء مزاج.

– كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدّرون ضرورة التحلّي بالصبر.

– نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربع الخالي فتبعَه الصياد لا يصده الحرّ. استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهرول وراءه لا يخيفه الجليد. استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة. استجار بالجبال الشامخة فوَضع للإمساك به الأوتادَ على الجبال. استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا. استجار بالصِّغَر فخلق له المجهر. من الفضاء

تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رَشق على ظهره واشيا إلكترونيا. كم من سُيّاح ومصورين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! أترى كل هذا الإصرار لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رفيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

– على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعانَ فَرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستتبخّر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صفيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:

– نعم أتكلّم ''الهيبو''، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترب، آنذاك قدِّروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحدّق فينا الكائنات بتقزّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

– هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أتكلّم الجَملي والحِماري والحصاني والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسَعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلّمني. لأجرّب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففيوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

– يبدو، يا سيّدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

– حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكّس الدليل رأسه. جرحتُه. متى سأتعلم مَسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحراش؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.

لماذا تصرّ هذه ال''غير الحيوان–غير شجرة'' على أنّ يَومها ذهب هباء لمجرّد أنها لم تظفر برؤية كائنات متحركة غير آدمية لا تولي أدنى اهتمام للكائنات غير الآدمية الثابتة في مواقعها كأنها لا تستأهل التوقف عندها الساعات وراء الساعات؟

ما أعجب تجاهل أغلب الآدميين لها، والحال أنها حاضرة بكثافة وتواصل على طول الطريق. من ينتبه إلى شجون الأشجار الأسيرة المزروعة على قارعة الطريق، لمشاعر التي تجتمع تحت أغصانها النساء والأطفال يجمعون حباتها السود المتساقطة على الحصير؟ أو لتلك التي تتدلّى منها العراجين الذهبية لا تبخل على الفقراء بالعراجين؟ بالكاد يعتبرها البشر كائنات حية وهي الحياة بزخمها وتنوعها وعبقريتها ولولاها لما وجدوا أصلا. من يعرف أكثر من ثلاثة أو أربعة أصناف منها، ولا أتحدّث عن جهلنا بأسمائها الفردية التي تناديها بها أمهاتها همسا؟ يقال هذه الأيام إن من سخّروا حياتهم بحثا في أسرارها لا يكادون يصدقون ما يكتشفون: أشجار تتبادل بينها المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أشجار تدافع عن نفسها تسمم الحيوانات التي تبالغ في قضمها، أشجار تتعاون مرة مع الفطور ومرة أخرى مع النمل وتستعمل الطيور لنقل أجنتها. كل هذا الذكاء الصامت في مواجهة غباء كائنات منتصبة على طرفين تتصور نفسها أذكى الكائنات وقد تكون أغباها. يوم جاءتني رغبة معرفة أمم الشجر وتاريخها، داهمني نفس الإحباط الذي داهمني وأنا أخطّط لمشروع معرفة بني عمومة لها تسميها اللغة "الأعشاب" و"الأزهار". استسلام غير مشروط أمام الشطط في التنوع، في الابتكار في الجمال، في الغرابة، في الإعجاز. كم ثمة هنا من أصناف غريبة منها لم أرها في أي مكان آخر!

– يا رجل، قلت لك: انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكّر هذه المرّة؟

– في الطريقة التي تموت بها الأشجار. ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة ألاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتدبيج تقرير له الحدّ الأدنى من الجدّية. آه، لو علّمَتني سرّها.

– ثم ماذا؟

في ضرورة العودة لعبادة الأشجار. ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفّى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرةٍ عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدَّعي أنه ابن الربّ! بربّك هل في الآدميين ما يُعبد؟

– ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنك أول عدوّ لكل العنصر البشري أتشرف بمعرفته.

– بالعكس أنا جدّ معجب بالأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطرّون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلنا نأمل بمستقبل للبشر أن منهم من يتجمعون آلافا يحتفون بالشجر المقدس، يتعبدون للقوى التي ترقد في الجذور والجذع تجدّد أزهارا سريعة الفناء، والزمن مختزل في اللحظة العابرة وعودتها ربيعا بعد ربيع.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنتُ الثلاث وعشرين سنة تقتات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقال–المجانين مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها ''لونا'' لن تفتّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول ''نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن، ونحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. ''

– هل عندك المزيد من هذه القصص؟

– أذكر يوم مشيتُ وراء النخلة المقتلعة لحيّنها، وجرّار البلدية البطيء يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه. كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.

بربّك، ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.

– هل عليّ أن أفهم أنك من عبدة الأشجار وأنك تحاول أن تملأ قلبي بالإيمان؟ لكن قل لي قبل أن أقبَل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة.

– كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحرّاس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين. ثمّ مُتقطعَ الأنفاس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

– مَن؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

– جوناس، الاسم الذي أطلقته –هكذا دون سبب–على الكائن غير الآدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع، في حديقة قرب بيتي. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

– أشجارك ومنها هذه التي تتبرك بها –إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه–فيها من يسمّم الحيوانات ومن يخنق أشجارا أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.

– ممكن، لكن هل رأيت يوما شجرة تقول كلاما بذيئا، أو تغنّي ''أهواك وأتمنى لو أنساك؟''

آسف للخبر المفزع وهو أن أعلى درجة سلّم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

– لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضا فقُرّر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

–تفسير منطقي. لهذا حاولتُ في هذه الرحلة أن يبقى ملفّي نظيفا علّ السلطات العليا تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم، لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل سيكويا، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة. في شراييني تتدفّق عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار. بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد، محميا بظلّي يفكّر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرّد، يتسلّقني الطفل. على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أُطعم من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا. صلب، ليّن، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر. لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار. لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو آمل شيئا. تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل. الريح والفراش والنحل رسل أشواقي. منتبه، شارد الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوّي تلعثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

يهمس دليل مكسوف كم أودّ مواساته:

– آسف. لا بدّ من العودة إلى المخيّم. التجوّل في المحمية ممنوع بعد غروب الشمس.

تتنهد رفيقتي هامسة لنفسها بصوت تريده مسموعا للجميع:

– يوم ضاع بين دليل لا يعرف يمينه من شماله وقرد سابق يحلم أن يكون شجرة.

– دليل لا يعرف يمينه من شماله! هل ثمة في هذا العالم دليل يعرف يمينه من شماله أيا كان الفضاء الذي يقودك فيه؟ كلنا تائهون نقود تائهين.

يهمس الدليل فينا بعصبية متزايدة:

– قلت آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

عند وصولنا المخيّم تبادرني رفيقة الطريق محاولة افتعال التهكم:

– نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خَرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المرأة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

لا هدف ولا وجهة.

يغنم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة

– على فكرة هل تعرفين ما قاله لاوتسو...

– لا ولا أريد أن أعرف كفاني استفزازات، اتركني أحاول أن أنام.

– من قال لك إنني أريد أن أنام... النوم في مكان كهذا! في ليلة كهذه! ما أفظعه تبذير.

تبادرني رفيقتي كأنها تطلب الصلح لسوء مزاجها المزمن.

– طيب، لكن لا تحدثني عن حيوان. كيف كانت جولتك البارحة في هذه الأسواق الإفريقية التي تعشق؟

– غاية في المتعة. كيف أصف طفرة الألوان والروائح والأصوات! مأدبة فاقت كل توَقّعاتي.

– هل وقعتَ في فخ شراء تماثيل تدّعي علاقة بالفن المحلّي وهي مصنوعة في هونج كونج؟

– فزتُ بما هو أحسن بكثير. انتهى بي التسكّع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبث ساهمة بعصا ولا شيء أمامها. لما انتبهَت لوجودي حدّقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردّد: ليكن. التقطَت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض الأعشاب المحترقة. مدّت لي الكلّ في خرقة قذرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكّة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه.

– واصِل، المهمّ ألا يكون الموضوع عن هذه الحيوانات اللعينة.

– هل تتزوّجينني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.

– احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهنّ، ثم هل ستقدر على مهري؟

– كم؟

– مائة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

– للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

– وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

– قد لا أكون أَحسَن مَن يَصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن أُلَمّع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغلية البيض أحسن مني.

– التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدّك بقائمتها الطويلة.

– هل سمعتِ بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذببة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتماثيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كُثرٌ يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاقّ لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أنثاهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

– كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، ديّة من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

– تَعادُل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة

وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون،

– فقط؟

– والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات آكلة السوشي وآكلة السباجيتي وآكلة الهامبورجر وآكلة جناح القرش.

– يا الله!

– لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا.

– بالضرب والخيانة الزوجية؟

– بما سميناه –وبصوتنا رنّة فخر كاذب وتأثّر مفتعل–تحرّر المرأة. هل لاحظتَ أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغّلي دماغك الأنثوي الصغير. تأمّلي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكَّن الأنثى من حق الشغل–قُل، من واجب الشغل–ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين." ستكتشفين آنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمّا خَطبتُ أُمّ تفاحة وتفيحه، كنت لا أملك شروى نقير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدُّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أُنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهَم أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

– سلّم عليه من طرفي وبلّغه تضامني وتشجيعي.

– كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيّلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطبينني من "ما". قد تخيّرك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أنصحكِ بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتنص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمّك مع بقية العفش، لكن انتبهي، لن أقبل أن تضربني فأنا ابن ‘‘ما’’ وما أدراك، وجداتي ينحدرن مباشرة من الجازية وبلقيس وعلّيسه.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكد أنها ستكتشف –طال الزمان أو قصر–أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، لم تنتبه للأمر إلا وهي تودعني عند باب المطار.

–كفى هذرا، والآن حاول أن تنام. غدا قد نكون أحسن حظّا.

إنها ليلة تشبه كل ليلة ولا تشبه أي ليلة. ليلة أرق تنتظرني رغم إرهاق يوم طويل، ليلة ستتضوّر فيها الأسود جوعا هي التي لا تصطاد إلا في حالك الظلام. ليلة تنام فيها الطرائد نصف مطمئنة والبدرُ المكتمل يدفع عنها رعب الأظافر والأنياب.

"الليل وطوله (شيكي)

والقرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟" *

من الغد توقظني رفيقة السفرة، نافدة الصبر من البداية:

– انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

– صبرك، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

نزدرد فطور الصباح لننطلق مجدّدا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يقول عنهم الدليل إنهم يتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا.

ما أرقّ هذا النسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! ويريد هذا الكائن غير الشجري غير الحيواني أن نجري وراء شيء آخر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعدي.)

أي شيء أهم من التنعّم بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء. كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

– أسرع، الدليل واثق أننا سنعوّض كل ما فاتنا البارحة.

بعد أقل من ساعة مشي حازم يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألتفتُ إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

– وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

– أنتِ، أمّا أنا فلم أصل يوما إلا بعد الأوان أو قبله.

– أتكون رأيتَها وترفض الاعتراف؟ فاجأتُك أكثر من مرّة تخلع نظّاراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

– لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أرَ شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمَّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة آسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

يجب أن أواسي امرأة عادت لتجهّمها.

– أنشدك بعض قصيدة لأحَب الشعراء إليّ

قال البشاشة ليس تسعد كائنا   *يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)*

قلت ابتسم مادام بينك والردى   *شبر فإنك بعدُ لن تتبسما*

تهزّ المرأة كتفيها.

– أمَلنا الأخير في الكسالى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل الترعة وسيادتك تغطّ في النوم. آه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو،

– تغني أيضا!

– إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سَحر جمالُ صوتها أُمّةً بأكملها.

يضع الدليل إصبعه على شفتيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمة.

هذه المرّة وصلتَ حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب عن بعد أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقا بالغة الطول ثبّتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جُعلت لرعي السحاب. تصطفّ على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس

إلى حيث يوجد الماء الزلال. فجأة يتواجه كائنان منها فيتقاطع عنق الأوّل مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبتا في اتجاهين معاكسين. ثمّ تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديدٍ، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع ''الشيء'':

هل من حدّ لعبقريتك، لذوقك المرهف!؟ هل ستجود في المستقبل بكائنات أغرب من هذه، من كل الموجودة وحتى من تلك التي انقرضت مخلّفة أعجب الآثار؟ هل هذه الكائنات التي جئنا نتعقبها وتلك التي تعوّدنا عليها وتعوّدت علينا مشاريع بحثك تجرب عبرها إمكانيات خلق لا تنضب أبدا؟ في هذه الحالة ما الذي تجرّب في الآدمي بعد أن استنفذت الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب. ربما القدرة على خزن الأفكار وتناقلها من جيل إلى جيل. ربما توسيع رقعة الوعي، ربما...

تصرخ مرافقتي:

– اللعنة، لم تترك لي الوقت لأخذ أي صورة.

يتوجه إليها الدليل بنبرة مَن نَفد صبرُه من الأبلهين:

– يا سيّدتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيٌّ من هذه الحيوانات المقام.

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان. كلّ ما في جعبتك اللعب على تنوّع الأشكال وتغيير المقاييس. هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ مثلا عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختلّ له توازن.

تتوجه إليّ امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

– على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

– هل انتبهتِ أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

– وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقَومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

– اللغة أكثرُ مِن وَضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلّم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغيّر المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

– بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

– أفضّل صورة مع الفيل والثور والكركدن والأسد، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق. إذا رفضوا لي الأمر، فسأكتفي بصورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون. أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي ترصد وراء الأعشاب، ثمّ سأصرخ مثل طرزان أنبهها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

– انتظر تذوّقها وستعرف تكلفة بطء الآدميين في الركض هربا من الآدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لَعينة قرّرَت أن تمنع عنه بَقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق الفلاش أو الرصاص عليها.

ها هو يتسمّر من جديد مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

– وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجثو مرافقتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟
- آه طبعا رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.
- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.
- اطمئني، رأيته الآن.
أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:
- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...
- الأبيض والأسود كلاهما رمادي.
- عجيب!
يتفطّن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟
تقطع عليّ رفيقة الطريق خواطري.
- واحد أفلتَ من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.
- لكنه لن يفلت من حنوّكم عليه فردا فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.
- هل جرحتُك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألستَ من ألحّت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟
- كل الأمر توزّعي بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، والحرج. هل كنتِ تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الآدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميكة. على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.
- لهذا تحمل كل شيء لأنفك أو لفمك!
- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّرا على عجزي عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق السحب.
تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنئ صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون.
النوع الأول صيد الأسد والنمر والفهد للغزال والكودو والحمار الوحشي. يتميّز بضراوة انقضاض الصياد وأناقة مراوغة الضحية، بسرعة مباغتة الأول وسرعة هرب الثاني، بالحسم السريع، بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد أو بالخاتمة السعيدة للآكل والفظيعة للمأكول.
على طرف النقيض النوع الثاني: صيد تنّين الكومودو نوع من الحرباء انقرض إلا في جزيرة نائية في المحيط الهادي. ينهض الثور من رقدته في الوحل يدفع عنه هذا الدخيل القميء الذي عضّه في طرف وسبّب له جرحا بسيطا. هو لا يعلم أن الدم الذي يسيل منه رسالة تعبق بها الأجواء تدعو بقية القطيع من الزواحف الكاسرة إلى التجمّع وملاحقته بصمت طيلة أسابيع لا تضيّعه لحظة، تنهشه هنا وهناك وفي كل عضّة تحقنه بمزيد من السمّ الموجود في لعابها إلى أن تخور قواه فيسقط لقمة سائغة فتمزّقه المخالب والأنياب نصف ميّت نصف حيّ. مَن خَبِر البشرَ يعرف أن صيد الآدمي للآدمي يأخذ من تقنيات الأسد ومن استراتيجية الكومودو، والظروفُ وحدَها مَن تُملي الخيار.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل، وهل من الممكن أن يكون الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة.
كلّا! فالفاعل لبؤة لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني آوى.
حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين، كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة، المسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمعنت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه. لا شيء في هذا العالم غير الآكل والمأكول، غير القتلة والضحايا، أَهَمُّ فعل فيه كان وسيبقى قتلٌ والباقي من الأفعال تعاليق وهوامش، من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكّر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.
فجأة تتحرّك بعض الأغصان فوقنا يتعالى منها صراخ منكَر.
يهمس الدليل: لا تهتمّا، مجرّد خصومة قردة الشمبانزي.
أهمس في أذن مرافقتي:
– على أيّ شيء يتخاصم بنو عمومتنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدّى الذي تهدد حدودَه المقدسةَ جحافلُ الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.
تضحك مرافقتي.
– ليس الأمر دوما هكذا. تذكّر ما يُقال عن طبائع بني عمومتنا الآخرين: البونوبو. عندهم يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما أن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى لشعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.
– لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلِح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدّعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.
يلتقط الذهن الشارد آخر جُمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:
– حقّا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادةُ رؤيةُ البعض منها حتى أوّل يوم.
أتدخّل في الحديث:
– قطط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبّر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.
تهزّ مرافقتي كتفيها.
– قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.
– أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد ممكن من المارّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء.
– يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من قطط هذه المحمية اللعينة.
– لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، آه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجففه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أفظع منه مذاقا، مالح، تتكسّر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرَت إناثنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

*

حديث هامس حول النار بين آدميَّين التقيا صدفة يتبادلان تجاربهما ومفترقُ الطريق على وشك أخذهما كل واحد في اتجاه.

– أما اليوم فأربع زرافات تبخّرت كما ظهرت ووحيد قرن تائه في غبار بعيد وبقايا جثة غزال. أي حصيلة بائسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

– لا تكفّين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكّري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الحيوان الذي قَتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف مَن قتل، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعبناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الغزالة التي لا نعرف كيف اغتيلت ومن قاتلها.

– هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع الأسد؟

– استحضري أيضا ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا قِبل لنا بتخيله.

– كفى، أصَبتَني بالدوار.

– انتبهي لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكلّ هذه الأشجار التي تحفّ بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حجرك.

تشير رفيقة الطريق إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

– أرجو أن هذا الغبيّ يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألذّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائي بالادعاء أنك طباخ ماهر.

– ذكّرتِني على فكرة، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشّى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميّز إناثها بصبغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق.

– كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

– يا امرأة، رحماك...

في ملفّات قديمة دائمة الوجع، يفتح طفل في سنته الرابعة عينيَ الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّله كما لو كان له الأب والأمّ. وفي هذا الملفّ المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئ راض عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدّر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الآذان. لماذا فعلتم

هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك من الآن إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصبان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هوّن عليك، إنه مجرّد... أقصد أنه، على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الآدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوّة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لَما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاد صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيَت أنها تناديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزّني مرافقتي من كتفيّ:

– ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيّئ.

– المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أرَ في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزّارين.

– خاصّة إذا تكدّس عليها الذباب.

– لأنني منصف، سأسمح لكِ بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحَقٌّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزارين ببلدك وببلدي: محطّات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدّة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أمّ أو أخ أو أب.

– ارتفع صوتك والدليل ينظر إليك باستغراب.

– ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

– وماذا فعلتَ أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزّار والشوّاء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

– لذتُ بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور عابرة ممتعة لقطيع من الآدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزّار، ينتظرون أن تنفد لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

– غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل آدميين يتوقفون أحيانا للتبوّل تحت الحيطان.

– روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديدمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقّا لصور منعشة للروح!

تضحك رفيقة الطريق إلى أن يتملكها السعال. تحثّني على المواصلة فأغتنم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

– أذكر أيضا يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الآدميين طبعا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء ميتة –أو هذا ما يتمناه لها المرء–وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتتدفّق شلالات من الدم والرجُل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

ألم تنتبهي يوما إلى أن الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أَضرب بحذائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لَمّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال –يَقتل الأول ويموت الثاني–يَحفُّ بهما وقارُ الصمت. أما عند الآدميين فيرفع القتيل عقيرته بعويل يجمّد الدم في الشرايين والقاتل يصيح يحيا الامبراطور أو عاش الوطن أو بلاهةً أخرى من نفس القبيل.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء –إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات–أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدّعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟

– ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟

– أخيرا تعترفين بأنني على حقّ، بدايةٌ مشجعة.

– ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

– موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصّد بنا الكوابيس على الضفّة الأخرى.

على خط التماس بين الوعي واللاوعي أصبح صراخ الكائنات مفهوما. تحققت أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن ضرائب جديدة سيفرضها العالم على الكائنات، عن شجرة سنط شاهرةٍ شوكَها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتيل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته، معها تارة، وتارة أخرى ضدها.

*

سمر الليلة الثالثة

قالت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير الدليل يعلو ويهبط:

– تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسَلية ورقيقة كتلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الآدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووئام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احكِ لي مَثلا عن دبّ النسيج الذي كنتَ لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

– ليس لنا دببة في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفَوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرّين.

– ربما كان لكَ دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

– أخشى أن تضحكي منّي إن حدثتك عنه، عِديني بعدم فضح الأمر.

تَعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة من بدايتها. كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي. كان جديّ لا يملك غير حوش متداعٍ وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أُدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكنا معهم. مِن يومها قطعتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه. لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أذقتُه إياه من أصناف التعسّف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبيه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثمّ أُخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

– هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

– الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى –من فرط تسرّعي–فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدّي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطن عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبّي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلّف الرسمي والوحيد بأن آخذه ليشرب من العين، والمشرف الأوّل على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القِرَب الرَّطبة المطلية بالقطران.

– توقّف، ستبكيني. لا أتصوّرك تَحدَّثت يوما عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثر.

– يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحدّثيني عن النساء! آه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حميّر يُحضِّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد مَن تحنى الآذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! آه يا عنتر، رحمكَ الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميلَ الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من مفكري الآدمية وحكمائها، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. أقولها ولن أعود إلى القضية ثانية. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الآدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في خيالي لجنّة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجارَى في الشرّ اسمه الآدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة أخرى في فكر من يعشقها.

– الخلود للحيوانات! هذا يعني الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟
– الحيوانات الأخرى، ناقشي الأمر مع من تريدين. أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية إناث الآدميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكن إلى المحراث.
عن نكران الجميل حدّث ولا تسل. ألم تشكل الحيوانات النموذج والقدوة، ونحن نتشبه بهيبة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ هل كنا نتعلم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاةً وفرسانا لولا مُطَهَّم الخيل؟ على الأقل رسمَ أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد. أما نحن أحفادهم الأغبياء فنضعها في الأقفاص أو نسومها خسفا بلا حياء أو عقدة ذنب.
– واصل القصة.
– فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محاصَرا قلت: لم لا أشتري حمارا أُسكِنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نَكّلت به البشرية على مرّ العصور؟
– أخيرا عرفتُ ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟
– لا داعي لتكلّف المشقة فبلدي يعجُّ بالحمير، بل منهم من تبوّأ أرقى المناصب.
– ذكّرتني بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنتَ ستفعل بحمار بَطّال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟
– من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحي. كان المشروع أن أُغافل في آخر هزيع من الليلِ البوليسَ السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيراني وكلهم مَيسورون لا يركبون إلا المرسيدس؟ ماذا لو تفطّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!
– فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برؤاك دَوما معدومة. لكن لو كمشوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحَت معدومة ونصف.
– خاصة مع قربة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.
– من الجبن أو من التعقّل؟
– في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. دَيدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبنَ قوام الأفعال. المهمّ، تخليتُ عن المشروع برمّته ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلّاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتي على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمارَه أواصرُ نَسب بحمير الجنوب وربما –لم لا–بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون –هكذا بمجرّد الصدفة دائما–من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الآدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة المكذوب عليها والحال أن كل الكتب العلمية تؤكّد ذكاءها وصبرها وقوّة شخصيتها.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدباء التي حُكم عليّ بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جنح الظلام حيث لا يمكن للبوليس أن يتصوربي فارا إلا على متن سيارة. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أواصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمّته. تصوريني على عنتر الثاني متسكّعا بين المجرّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّدني، لا خصم ينافسني، لا نصير يبتزّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنتَ تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تنحنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوى هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الآدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أُجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلّما تذكّرت الثمن الذي طلب.

– وهل كنت تريد الحمار مجّانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

– لا تفتعلي عدم الفهم.

– بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

– طبعا لا. من يقدر؟ لكن هناك حدودا للغباء الآدمي. مائة وخمسون دينارا لكائن له ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها!، ذلك الجلد الأعجوبة!، ذلك الجهاز المناعي العبقري!، تلك الحواسّ الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان!، تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورّثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الآدميون! حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تَطلّب ابتكارُها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمةُ تعقيدٍ مخيف يكتشفه الباحثُ، فاغرا فمه من التعجّب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تُكلّف الملايين، ويقول لي هذا الآدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينارا!!! وفي نفس الوقت يتهافت أمثاله من الحمير – بمفهومك للكلمة–على شراء آلات تنقل ساذجة بسيطة غبية، مصنوعة من أكثر الموادّ بدائية، تقتل، تصمّ الآذان، تلوّث الهواء وتزيد في الاحتباس الحراري الذي يعدّ لنا الكارثة المقبلة، بآلاف الدنانير.

– ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.

–لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.

– في ماذا تفكّرين؟

– في غباء تكلّفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أَقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

– لا تغتمي، غدا يوم آخر سنرى الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

– غدا يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة.
– أي نوم بكل هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلا لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.
– تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟
– ثمة من يهتف بسقوط الآدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home، Go home، Go home
تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم. لربما تلاقي فيها الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.
آه يا صمت صحرائي الغالية!

*

سمر ليلة الرحيل
نهار آخر من الغبار والحرّ وكثافة الغائب الحاضر، نهار انتهى ومعه العذاب اللذيذ.
في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعبَ على الآدميين من التزام الصمت وهم جنبا لجنب.
– لننسَ هذه الحيوانات اللعينة. كلّمني.
أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أوّل نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكاري، وترتخي أعصابي، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل مَن حولي؟ ما أروع أن يكون لكل يوم نكهته، الذي ننتظر بفارغ الصبر، الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء، الذي نبكي منه، الذي نبكي عليه، الذي أحسنُ ما فيه أن له نهاية، الذي أسوأ ما فيه أن له نهاية، نعم ما أروع أن يكون لكل يوم طعم جديد ولو كان أمرّ من الحنظل.
– يجب أن يقتصر اليومُ على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. بربّك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غبيّة مثل الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ مَن بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبّري الانقلابات؟
– بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحتفظ إلا بالسبت والأحد.
– السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمّل بكل تهديدات الاثنين.
– وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟
– يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلّقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من الحياة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكذوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهّرناه من كل وقت مضيّع للوقت؟
– وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟

– كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء العشرة آلاف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراءه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادُنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصيلة. تصوري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادئا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحارٌ بصدد التصحّر بجبال من البلاستيك.

بصراحة ألا تعتقدين أننا نوع من الفيروس الخبيث داهم هذا العالم المسكين كما يداهم الأيدز أجسام المصابين بالمرض الخبيث؟ مسكين هذا العالم وقد تورّط فينا ورطة لا أدري كيف سيخرج منها. نعم، كيف سيحلّ مشكلته وقد أصبح وجود البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.

– كيف؟ فسّر.

– يوجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلا بوباء لا يبقي ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطيئة الانفجار تبثّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

– إذن سيتحملنا العالم طويلا لأنه لا خيار له.

– نعم سيتحملنا من باب "مكرهٌ أخاك لا بطل." ألم تخالجكِ الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتقزّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

– ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريتة التي تصف بالنسبة إلى كلبي وأنني لو متُّ غدا لحَمل الحداد عليّ.

– كل الكائنات ومنها كلبك ستُقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدَنا إلا الجراثيم والطفيليات والفطور التي وجدَت فينا مرتعا خصبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوَته الوحيد.

بالمناسبة، على كل الكائنات التي نكّل بها الآدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر، إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للآدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

ما معنى أن تكون آدميا بالنسبة للكائنات التي تتحرك بصمت وخوف داخل هذه الأدغال؟ أخطر وحش يأتي منه موت خاطف مُدَوٍّ وهو بعيد لا تطاله أنياب ومخالب... من يعرف منها أن وحش الوحوش هذا يسيّر دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها!

– افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

– الأوفر حظّا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدَّ لتكون حاضنة الحياة.

تتنهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.

– بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتدارك حتما خطأ تغييبك عند وضع التصاميم.

– لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيتَ في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الآدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم مَن أَقحَموا في هذا

العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. لكن انتبهي. لي في كل القضايا رأي للصباح وآخر للمساء، لأوقات الغضب ولأوقات الرضا. تريدين رأيي الآخر أنقض به هذا الرأي؟

– ما نسيتَه أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجّد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرّة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدّد لكَ ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبّر على أضعفَ منها؟ هل رأيت صوَر الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صيّاد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثمّ مَن أَدخل في صراع البقاء الشفقةَ غير الآدميين؟

– من قال لك إنني ضدّ كللللللّ الآدميين أو إنني متعاطف مع كل الكائنات غير الآدمية؟ أبغض –دون حرج أو عقدة ذنب– الذباب والبعوض وكل هذه الهوامّ التي أطلقَتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرأيتِ أقبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الآدمي الجديد –بالمقارنة–آية في الجمال. والجراد، من أي مخيّلة مريضة خرج كائن كهذا؟ لكن بصراحة ...

– نعم، نكّلنا بالحيوانات لكنكَ نسيت أو تناسيت المعابد التي يقدسون فيها الفئران، الأطفال الذين يغسلون فيَلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حدب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر. نسيت رجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ألم تسمع ببشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. نسيت أو تناسيت الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمور لغسلهم وتغذيتهم وأخذهم للفسحة في ضواحي الدير.

إنها العلاقة المتذبذبة منذ الأزل مع هذه الكائنات التي تشاركنا الوجود. مرة نجعلها آلهتنا ومرة نجعلها عبيدنا أو أشياءنا. مرة نرى بيننا وبينها أوثق وشائج القربى، مرة نتخيّل هوَة بيننا غير قابلة للتجسير.

– أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ.

– لا تنسَ ملفّ من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات القطع.

– وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي.

– ثمة وثيقة أخرى. هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسّ أخلاقي مرهف وخير فطري في الآدمي؟

– عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فاسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الآدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظّة، يتحرّك طابور طويل وكل آدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقطّ، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الآدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أشكال لنفس الخالق.

ما سرّ تصرفات كهذه؟ لنقُل إنه كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينفجر بها البركان، هناك داخلنا ''شيء'' مطمور في أعمق الأعماق يربطنا بجذع الحياة. هو الذي يشق طريقه نحو سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لآدميتنا البدائية فتأتي منه الرسالة والأمر. طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها، طالما بَقيَ أمامنا أمل في الخلاص.

– والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لكَ أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية وهل وجدتَ ما كنت تنتظر؟

– لإثراء نص أكتبه عنوانه ''الرحلة''. كنت أحلم باستجواب سكان المكان حتى أعرف صورة العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومتنا المتأرجحين على الأغصان.

– خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.

– بل كلّي جدّ. جئت لأرى العالم من وجهة نظر الكائنات التي تُقاسمنا الوجود. كم بودّي أن أخرج من جسدي ولو لحظة لأنظر إليه بعيونها!

– أليس هذا ما ينفق فيه خبراء ألعاب الفيديو حياتهم؟

–تصوّري يوم تتقدم هذه الأبحاث ونسمع إشهارا من نوع: انتهى الجريُ وراء الحيوانات وتصويرهم من الخارج. ادخلوا عندنا عالم الأسد. تأمّلوا الغابات بعينيه. كونوا لساعات لا تُنسى فهدا في بعثة صيد، وإن شئتم غزالا لكن مع ضمان مطلق الأمان. الملاعين! أي رحلات مثيرة سيتمتعون بها!

– نعم، تُرى كيف هو العالم للدلافين والفراش والنورس؟ كيف هي صوره داخل ذهن الفيل والنمر؟ هل كنتُ سأفضّل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق، لا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ كيف هي المظاهر عندما ينظر لها النسر من القمم الشماء بعينه التي ثُبِّت داخلها مجهر يبصر أدقّ التفاصيل؟

– فتحت شهيتي (صارخا بكيفية مسرحية): يا ناس! يا من يهمّهم ولا يهمّهم الأمر، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما".

محكوم عليك أن ترتحل في عالم بالغ الخصوصية هو عالم الآدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمنا، فمحرّمة عليك إلى الأبد.

–كفى هزلا. مرة أخرى، ما الذي جئت تبحث عنه؟

أقرّر مواصلة المزح، لا أَحبُّ إلى نفسي من الضحك مع الآدميين.

– ربما جئتُ على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.

فجأة تَستعيد الذاكرة صورة ''ما ''عندما أخرجتُها من المستشفى لتموت في بيتها. يومها شخصت للسماء، للشمس، للسحب للأشجار كأنها تراها لأول مرّة وسمعتها بكل وضوح تهمس لنفسها عقد الخشوع لسانها: يا وجه ربّي.

ما من شكّ ذلك اليوم أنها رأت، ربما لأول مرة، وجه الله تعرفت عليه في جمال الدنيا والجمال أُولى خصائصه وبصمته التي لا تخفى في كل شيء وكل كائن.

تراهم ينظرون إليك جهرا وهم لا يبصرون من العماء (الحلاج)

– عد إليّ، بجدّ، جئتَ تبحث عن... الله... هنا؟

– أين تريدينني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمعّشون منه وبشحاذين يتسولون دون حياء.

لا يبغّضك في السياسة قدر السياسيين إن عارضوا وإن حكموا. لا يكرّهك في العدالة إلا القضاة والمحامون. لا يبعدك عن الدين غير الكهنة والمتدينين. كأن هناك لعنة مصاحبة لكبرى المؤسسات والقضايا تجعل حراسها لصوصها ومدّعي حمايتها ألدّ

أعدائها.

– ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

– لا أغبى منكم أنتم معشر الملحدين. تخلطون بين حاجتنا إليه وبين تصوراتنا البدائية له، بينه وبين الفظاعات المرتكَبة باسمه، ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القذر.

– أما أنتم معشر المؤمنين فلا أذكى منكم. تتخيلون كائنا يعرفكم واحدا واحدا، يستجيب لطلباتكم، يقتصّ لكم من أعدائكم، يا للكسب السهل!

– أنتِ لا تدفعين نقودكِ لشِراء البرامج التي تخرب حاسوبك. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجاتك. هكذا ما فعلته الآدمية منذ البداية. شحنَت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها في فضاء الواقع وفضاء الخيال. طبيعي أن يلقى النجاحَ الباهر حتى بالأسماء والتصورات الساذجة التي يسخر منها أمثالك.

– وما هي تصوراتك غير الساذجة له؟

–...

–ما زلت أنتظر. تكلّم وعليك الأمان.

التي تتقدم كفرضية متينة لا كحقيقة مطلقة... التي تتخلّص نهائيا من ثنائية الخالق والمخلوق... التي تكفّ عن إلصاق الصفات وإضفاء الطبائع الآدمية على ما هو من طبيعة جدّ مختلفة... خاصة التي تستحيي من إقحامه في الصراعات الدموية للآدميين.

– لا تردّ لأنكم أنتم المؤمنون في ورطة. كل صفة تضفونها على إلهكم هي من صفات البشر، كل طرق التفكير التي تنسبونها له من تفكير البشر، وكل الأسماء التي تطلقونها عليه من لغات البشر.

– موافق تماما، قال لا وتسو له كل الأسماء ولا اسم يستنفذه. لذلك اسمّيه ''الشيء''.

– وجئتَ إلى هنا لعلّك تقابل شيئك هذا؟ أرجو أنك لاقيته وسأل عن أحوالك!

– أضاعنا الفلاسفة والمتدينين والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه. الحقيقة ليس أننا لا نراه وإنما أننا لا ننتبه له، ليس أننا لا نفهمه وإنما أننا نحاول فهمه بالأدوات الخاطئة. قال أحد أذكى مفكرينا اسمه الحلاج ''وأيُّ أرض تخلو منك حتى تَعالَوا يطلبونك في السماء''. هو في كل مكان، في كل كائن، في كل شيء. نحن نراه، نلمسه، نشمّه طول الوقت. هو مثل الهواء المحيط بنا والذي تتنفسه الرئتان داخلنا. عندما ننتبه له، تحت ما يلبس من أقنعة وما يتخذ من حالات، يكون ما أسميه اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها، تحصل تلقائيا دون سابق إنذار.

– ومتى عرفتَ آخر مرة مثل هذه التجربة؟

– لما مدَّت لي المرأة الغريبة حجيراتها وبعض العشب المحترق، شعرتُ بوجوده... وأنا أتأمل مشدوها الزرافات تشرب من الغدير، شعرت بوجوده.

– طيب إذن لم تأت لمشاهدة الحيوانات التي لا توجد في بلدكم. لم تأت بحثا عن الله حتى وإن أبصرت ظله بالمجان وراء متسولة وأربع زرافات. ما الذي جاء بك إذن؟

أقول لها إن هذه السفرة حجٌّ لما يعتقد أنها نقطة انطلاق الطريق؟ ففي هذه الأرض أو في جوارها القريب، صفّر أحدهم قبل مائتي ألف عام على حفنة من ''الهمج'' صارخا فيهم أن الرحيل لأطول بعثة صيد سيكون على الساعة الثامنة وخمسة عشر دقيقة صباحا بالتوقيت المحلّي، أن الركب لن ينتظر متخلفا دقيقة واحدة، والبرنامج استكشاف عالم بأكمله. في هذه الأرض أو في جوارها القريب نشأ الأوائل وترعرعوا. في هذه الأرض أو ما يشبهها تعلموا تقنيات البقاء على قيد الحياة اليوم بعد اليوم، الساعة بعد الساعة. في

هذه الأرض أو في جوارها القريب عاشوا على خوف سرمدي حملوه داخلهم على طول الطريق. في هذه الأرض أو في جوارها القريب ظهرت الحاجة الماسّة إلى حماية قوة غيبية تحميهم من أهوال عالم مبهر مرعب. في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والساحر يروي ملاحم كبار الصيادين. في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للدين والعلم والسياسة، وكم من أشياء أخرى يعتقد السذج أنها ابنة الحضارة وهي حفيدة صراع البقاء والطبيعةُ هي المعلّم.

– ما لك صامت، تكلّم.

أقول لها إنني جئت أسأل هذه الربوع: هل تحركنا لضرورة الركض هربا من الكواسر والخوفُ يعتصر منا الأمعاء ولضرورة الجري وراء الطرائد والجوعُ هو العاصر؟ أم هل كان انطلاق الرحلة، بحثا عمّا هو أهمّ من الأكل والشرب والأمان؟ لكن ماذا؟

تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

– تُذكّرني بجدّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد. أنت طولَ الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله مَعبدُك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

– وهو؟

– هل حصل اللقاء بين آدمي وآدمية تائهَين وضعَتهما صدف الطريق وجها لوجه.

– ونحن ندير الظهر لبعضنا البعض نتبوّل في الهواء الطلق تحت حراسة الدليل، أنتِ تُخفين حرجك وأنا أكتم ضحكي.

**

على هامش النص

عن علاقة الآدميين بالكائنات التي تقاسمهم هذا العالم وفي ملفّ ما زال بعيدا في غياهب المستقبل:

مُدنٌ مطوّقةٌ، محلات مغلقة، مستشفيات تفيض بالمرضى، شوارع مُقفِرة، ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن كائن لا تكشفه أي من الحواس اسمه فيروس الكورونا خرج فجأة من المجهول ليصبح بين عشية وضحاها القاتل بالجملة، مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول.

لا شيء يَختزل هذا التطاول على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه قَدرَ وَضع أُمّة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تَدّعي أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها.

ها هو كائن مجهري ينقضّ عليها فيزهق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية...وبصفة عامة كم هي تافهة أوهام الآدميين عن تفوقهم المزعوم وكم يبالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هشّ وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم .

ما أسرع نسيان البشر لدروس التاريخ والآدمية عَرفت من قبل على مرّ القرون أوبئة فتاكة تسبّبت فيها كائنات مجهرية مثل هذا الفيروس حصدت منها عشرات الملايين من الأرواح مدمرة شعوبا ودولا وحتى حضاراتٍ بأكملها.

وهذه الجائحة كما لم تكن الأولى لن تكون الأخيرة.

أيحق لنا الشكوى؟

أنشتكي مما تفعله بنا الفيروسات ونحن فيروسات العالم الذي نتحرك على سطحه؟

لم لا ، إمعانا في سوء الأدب الذي يميزنا ونحن أخطر كائنات هذا العالم على الاطلاق، ألم نحصد ولا نزال دون أن يرفّ لنا جفن، ما لا يحصى ولا يعدّ من أرواح بني حرية وآل ثبات ؟!

وبالمناسبة: من استوقفته لحظة فكرة أنه يحمل على سطح جسده وفي جوفه أمما وشعوبا وقبائل من هذه الكائنات المجهرية ...وأنه العالم الذي تعيش فيه، الذي تقتات منه سلما وحربا، بوعيه أو بدونه.

أترتحل العوالم داخل العوالم داخل العوالم داخل ...؟ !

الشيء الوحيد المؤكّد أن البشر في إطار طقوس الاحتفال بانسياب الزمان وعودته سيبالغون ذات ليلة لم تعد بعيدة في إطلاق الشماريخ والرقص والعربدة في الشوارع المكتظة لا تيمنا بقدوم السنة الجديدة وقد تعلموا الحذر وإنما لرحيل سنة شؤم رقمها 2020.

الأشياء

قد لا توجد سفرة تُجدّد فيك أقدمَ تجارب الأوائل وهم الغرباء في العالم الغريب، قدرَ التي تقف بك في مدينة نائية والليلُ أرخى سدوله.

تبثّ فيّ الساحات شبهُ المقفرة قلقا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم، عن أخطارٍ مُبهمة تترصد، عن وجع الشعور بفقدان التحكم والأهمية وأنت في مكان لا تعرفه ولا يعرفك فيه أحدا.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمّى "ليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تضرب في الأرض ذات العرض والطول فإنك لا تغيّر مكانك فقط وإنما مكانتك.

الآن وهنا، بغرابة سحنتي وجهلي المطلق باللغة، أنا أشبه بالحيوان أو بالمتخلف الذهني، آدميٌ أدنى درجات سُلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

والآن إلى أين؟ حتى العلامات لا تعني شيئا وحروفُها مجهولة عندي.

هذا مارٌّ ربما يدلّني. أتوجه إليه بِلُغة يُفترض معرفة أغلب الناس بضع كلمات منها. يعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبَه عفريت خرج لتوه من القبر. هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يعرض الرجل عني لا يُخفي خوفه.

يتفاقم شعوري بالضياع وأنا أدخل وأخرج شوارع متجهمة وساحات مقطبة الجبين. يصبح التنفس عسيرا مؤلما كأن جبلا جثم على صدري. يخرجني من تلاطم الأفكار بروزُ امرأة من الظلام لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرّب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي تحريك عنفهم الغريزي.

– سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض، أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلّيني، جزاك بوذا وإله "ما" ألف خير.

المعجزة. المرأة بابتسامة عريضة:

– أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أحبّ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

– أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

– آه نزل السعادة الأبدية! لستَ بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثّر من رعشات اللذّة لهذه المرأة الصالحة.

تخيّلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهّد هامسة لنفسها: آمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدّونك بها.

أخيرا النزل في ابتذاله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأغراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهتَ أن الأماكن الآدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الآدميين منصبٌّ على السطحَين يتكلفون ما يتكلفون لتزيينهما، ينذرون أن لصاحب المكان مكانة، لكنهم لا يقدرون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه الأسطح الداخلية.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قَصرٍ مزركش بكل أصناف الزينة وأغلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش. تقول لي: نسيتَ يا مسكين ما يتكلفون لتعبئته بأجمل الأثاث وأرقاه وأغلاه.

طيب، كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتماثيل الغالية واللوحات المسروقة من أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلّا في ماذا ستمدّ رجليك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض القصدير.

تقولُ بدأتَ تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع. رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل جسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها ثم بسيارة أجرة لدفعه أخيرا داخل قفص بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الأشياء اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغَت متاعبه ومُتعته وإن لم تُلغِ خطر الموت الخاطف مذكرة أنه أيا كانت وسائل الارتحال فالطريق إلى الأزل والخطر سيّان.

لا يبقى عليّ إلا إلقاء الجسد المرهق على أريكة غرفة فيها برّاد زاخر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدفّعونني فيها ثمنا موجِعا عند المغادرة. يجب أيضا تعديل المكيّف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة.

آه منكم –منا–نحن رحّالة وكالات الأسفار، بقايا أجيال المغامرين، عار الأوائل.

ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

أضع على باب الغرفة لافتة "ممنوع الإزعاج"، وعلى الطاولة الصغيرة حذو السرير لافتة: "ممنوع الحلم".

من الغد يرنّ المنبه منذرا أنه آن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث تتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطاب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيَل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقته الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبهٌ ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذَت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق.

آن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددتُ به عبثا كل السلطات ودعوتُ إليه كل المتمرّدين دون نجاح. ألستَ من يردد دوما أن السيد من يعطي المثل وليس من يعطي الأوامر؟ إذن لأعطِينّ المثل. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، وهذه المدينة، ولِم لا العالم بأسره؟ ربما ستفيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوءً مريبا في شوارع أقفرت وبيوتٍ أغلقَت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة وبأغلظ الأيْمان أنها ستغيّر جذريا في التعامل معنا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرّت على عنادها خوفا من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراءنا!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين، أما أنا فلافتة "عدم الإزعاج" موضوعة من الآن، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح. بدأ الإضراب التاريخي وسنرى موقف كل المعنيين به.

السؤال ماذا سأفعل بكل هذا الوقت وأنا رجل لا يكفّ عن الحركة؟ طبعا النسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعوّ دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوما في غرفته عقابا على خطأ ما، فتوكّل وجهّز نفسه لخير استغلال للوقت: استكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها. كان الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين –قرنان قبل المسمّى ليفي شتراوس–إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غالَينا في التهوّر.

على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقرية؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسيُكتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقا ألفا في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا اللعين دوماستر شبه مجهول بين قرّاء لغة موليار فما بالك بقرّاء لغة المتنبي، وحيث أن احتمال ظهور ناقد يفضح السرقة شبه معدوم، فإنني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي وادّعاء أنني أولّ من دوّن لرحلة في غرفة نومه.

ها هي إذن رواية أول رحلةٍ الهدفُ منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الآدميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه.

*

يبدأ الاستكشاف بتفحص أثاث الغرفة عَلِّي أكتشف فيها شيئا لم أره من قبل في كل ما عرفت من نزل. خيبة أمل عابرة. إذن داخل الحمام: حنفية، دشّ، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب، حولي: سرير، أريكة، خزانة، كرسي، مكتب، دفتر، لمبة، برّاد.

يتوقف البصر مطوّلا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا رأي الذي سرق مني فكرتي وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. من أين له هذا وهي عقبة جبارة على الطريق، علما وأنه لا يوجد ما يكفي من الفضاء للجري حتى يمكن القفز فوقها. مما يعني أن المرء مضطر إلى تسلقها والنزول وراءها لمواصلة التحرك نحو الحمام. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الأرستقراطي الفرنسي الكسول.

اللعنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء –حتى بأدراج المكتب–أكثر من ربع ساعة، وذلك الآدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا! كم مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

أضيع في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوما متناقضة. فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعبقرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فآدمي نزيه مثلي لا يسرق أبدا ما هو ليس بأدنى حاجة إليه (إلا في بعض الحالات التي لا يفهم دوافعها حتى الوعيُ الباطني) أستسلم بهذه السهولة! لأكون وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. كيف وأخطر من الدوار الملل؟

بصراحة ألا نقضي العمر نستكشف العالم كما أَستكشفُ الآن غرفة هذا النزل التعيس؟ كل ما في الأمر أننا –لحسن حظنا–لا ننتبهُ كم هو ضيّق فضاء الاستكشاف وكم هو مضحك قِصر زمانه؟

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة.

لا شيء باستثناء مشاهدة التلفزيون.

التلفزيون!

ما الذي تحاول الآلة تقليده أو التصريح به؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بيأس متعاظم؟ نعم، قد توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب. ألم تتابع آلهة هومير كبرى المعارك وزوس يحرّض هكتور وأبطال طروادة وبوسيّدون ينتصر لأقامنون وفرسان البحر؟

هومير! ما الذي نقصه حتى لا تنتصب على قمم جبال الأنديز، في كهوف اثيوبيا، في غابات كيرالا وسهول بريطانيا معابد المرمر الأبيض بدل كنائس الطوب والحجر؟ ما الذي حدث حتى لا تخرج جماهير هذا الزمان وراء مواكب زوس وأثينا؟ ما الذي جعل ملحمة الأم والابن تغلب ملحمة الأب والبنت؟ آه لو كان لك مدير أعمال كالداعية الداهية المسمَّى بولس! آه يا هومير، يا نبي بلا بخت.

آه لو كان هذا التلفزيون حقا ابن حلال وصديق الناس الطيّبين أمثالي وعرّيفا بأقدار الرجال، لَما بخل عليّ هذه الليلة –التي لا تشبه أيّ ليلة–بالفيلم الوحيد الذي يهمني: ملحمة الجنس البشري؛ وليأخذ كل الوقت لستُ في عجلة من أمري.

كأن جنّي علاء الدين هو الذي أسرع بتلبية الطلب. فجأة تمتلئ الشاشة بالصور والصخب.

يا جنيّ، قلتُ فيلما ينطلق من بداية الرحلة. يروي تطوّرها عبر العصور. يَصل إلى النهاية التي توصَف دوما بالمحتومة. وَعدٌ مِنّي أنني لن أبوح بالسرّ لأحد حتى لا أُفسد على الأجيال المقبلة تشويق قصةٍ يجب أن تبقى لآخر لحظة مجهولةَ الخاتمة.

ربما الأمر فوق طاقة المسكين. لا شيء على الشاشة غيرَ وجوهٍ تتتابَع بسرعة متصاعدة... وجوه ضاحكة، مضحكة، عابسة، مبتسمة، جميلة، قبيحة، بذيئة، نبيلة، مُنَفِّرة، مُحبّبة، مُطمئنة، مخيفة، مرعبة، راضية، ساخطة، متشنّجة، هادئة، حائرة على شفتيها ربع ابتسامة بوذا ومونا ليزا. إنها وجوه كل الذين ارتحلوا قبلي وكلّ الذين سيرحلون بعدي!

كأنك أمام المحيط تستعرضه قطرة قطرة. كأنك أمام الصحراء تتفحّص هضابها حبة رمل بعد حبة رمل. كأنك أمام سماء ليلة صيف وكل نجم فيها يحتلّ كل الفضاء ثم ينطفئ.

فجأة وجهٌ كيف لا أتعرف عليه وهو وجهي بقسماته العابسة دوما وضحكه المكتوم على الدوام.

هو الآخر اختفي بنفس السرعة التي برز بها.

يا ألهى، كلُّ هذه الوجوه!

وجوه؟ بل قُل نفسُ الوجه على ألف شكل وشكل، على ألف حالة وحالة.

أفتحُ العينين والتلفزيون الغبي ما زال على لامبالاته بما آمُل أو أرهب معرفته.

يتفاقم الهاجس: ما العمل بكل هذا الوقت المترصّد بي؟ تقول: استعمل الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء. رحماك، لا أكرَهَ عندي من التلفزيون إلا الهاتف وكم من أشياء غبية أخرى من نفس الصنف.

الأشياء! ماذا كتبت؟ الأشياء!

يا إلهي أدعو الناس لتنمية الانتباه ومحاربة التبلد وأنا أمرّ طول الوقت في قمة التبلدّ غير منتبه للأشياء وهي من أهم مكونات العالم الآدمي، وقد تكون فيها أهمّ المعطيات عن هذا الكائن الذي أوجدها! تجتاحني قشعريرة من خوف مفاجئ كالذي ينتابك وأنت تنتبه لخطر ماحِق أفلتَّ منه. ثم يداهمني جذل يجدّد قواي وقد أيقنتُ أن الاعتصام لن يمرّ في التلذّذ بالكآبة والملل إنما سيكون سفرة مثيرة فيها من المفاجآت ما سأرقص له طربا.

*

التأكّد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح. مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟

من منكم اكتشف التناقض؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثَم جواز تسميته بالمفتاح. تَخَلُّصٌ سهلٌ فهذا الذي أقصد صُنِع وطُوِّر وحُسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سرّي للغاية"، كل هذا خوفا من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الآدميون الخطيرون.

الوظيفة الأساسية لشيئك هذا بما لا يدع مجالا للشك إذن، هي الإغلاق. أما الفتح –أي الرَّفع المؤقت للإغلاق–فمِن المهام الثانوية، ومن ثَم دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تَسهُل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وطبقات الذاكرة، وآخرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارَها التعيسة.

ثمة إذن قصور لغوي قد يكون خلقيا وليس فقط مكتسبا، في تسمية الأشياء.

ما زال أمامي متّسع من الوقت لاستنفاد هذا الفضاء أنتقم من ذلك الآخر الذي لا يستنفد. آن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة أغالب به تسلّل النعاس. فرصة لأتمعّن فيه كأني أراه لأوّل مرّة.

بداهة الشيء الذي بين يديّ كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقا. هو يُحدث صوتا إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جُعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكّد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلّف مشقّة جمع كل هذه القطع؟

"على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالٍ

أشلاء صحون

مواسير معوجّة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوانٍ مهشمة

تنتظر البعث مثلنا"

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الآدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصِي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا يوجد أيضا في عالمي الصغير؟ طبعا هذه اللوحة على الحائط التي تريد الإفلات من الجرد.

لنعدّد ما تحتوي عليه من أشياء لا يهمّ موضوعها أو جمالها: المسمار، الزجاج، اللوح، الورق، الأصباغ.

أين بقية الأشياء؟ هي داخل الأشياء نفسها. صحيح أن الشيء ملعقة، مكتف بذاته، ولا توجد أشياء داخله. ومع هذا أغلب ما أواجه به علَبٌ كبيرة تحتوي على علب أصغر، هي نفسها حاويات لمحتويات لا تحصى. ماذا لو بدأتُ بتفكيك التلفزيون؟ رفض الفكرة رغم إغرائها الشديد. ستتسبب لي في مشكلة مع إدارة النزل. أضف لهذا أنني سأكتشف داخله أشياء لا قدرة لي على

تسميتها. كذلك الأمر مع الهاتف علما وأن رغبة تفكيكه أصعب مقاومة. ثمة البرّاد وما يهمّني فيه ليست الأشياء التي في جوفه. كلّا، إنما الأشياء التي تجعل من البراد برادا.

عودةً إلى نفس الرفض لنفس الأسباب المذكورة أعلاه، يضاف إليها أنه مستعص على التهشيم مثل الهاتف والتلفزيون، ولا أعرف فتحه على طريقة عمال الصيانة. ثمة إذَن خُبثٌ خاص بالأشياء وهي مثل الكائنات لا تُظهر لنا إلا سطحها محتفظة بأشلائها داخلها. من حسن الحظ أن هناك شيئا أستطيع البحث في أعماقه دون صعوبة أو خطر: حقيبتي.

يبدأ العدّ مباشرة بعد نفض بقية محتويات الحقيبة على السرير: جواز غير مزوّر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان أستاذ "أين في الناس"، كيس الملابس المستعمَلة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، بطاقة الطائرة، هدايا متواضعة طبق نحاس صغير منقوش، باقة ياسمين، علبة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ؛ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أن آكله كله بما أن أيًّا من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العامّ. والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتُها من جوف الشيء؟ آه ثمة في جيوب البدلة التي طويتُها بسرعة وحشرتها في الحقيبة هاتف نقال مغلق منذ أيام وبقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة.

المال!

إنه شيء يشبه المفتاح، لأنه يفتح أبواب الأماكن التي كدّس فيها الآدميون –على مرّ العصور–ضرورات الرحلة وكمالياتها، أي كل ما حرمتنا منه الإدارة العامة وهي تلقي بنا على الطريق حُفاةً عراة ولا حتى أظافر وأنياب محترَمة للقنص بالحدّ الأدنى من الجدية. دخول هذه المخازن وَقفٌ على من يملكون المفتاح. الحصول عليه بالنسبة إلى من لم يجدوه قُربَ المهد، أصعَبُ حتى من صَيد الكواسر بأظافرنا. قد يجد هؤلاء المساكين العزاء في فكرة أن المال الذي حرمَتهم منه إرادة غير مفهومة أو صُدَف عمياء، ليس بالضرورة خيرا صافيا وهو يتسبّب في كثير من المشاكل ومن أوجاع الرأس خاصة عندما يتعلّق الأمر بالحفاظ عليه من اللصوص ومن جباة الضرائب ومن الأطفال والأصدقاء المفلسين. أضف إلى ذلك أنه، وإن كان يسمح بشراء ما له ثمن، فإنه لا يمكّن من الحصول على ما له قيمة.

آه ليس هذا رأي الجميع؟ أي غرابة في الأمر وأنا لا أقول رأيا، حتى "اثنان واثنان يساوي أربعة" إلا وتصدّى له آدمي مقتنع أنني سيد الأغبياء وهو سيّد الأذكياء.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن ساذجا. أعود للعمل بعصبية لأكتشف كل ما سهوُت عنه: قنينة عطور، شامبو، علبة شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.

ماذا بقي مخفيا؟ لا شيء. هل تمزح؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا وضعه في الصدارة، في الواجهة، على مرمى حجر، أمام أنفك وفوقه أحيانا، والدليل على ذلك أنني قلبتُ مكتبي رأسا على عقب أكثر من مرّة لاكتشاف أين ذهبت نظاراتي وأنا أرتديها.

ما الذي يحاول العالم إخفاءه عني؟ لا بدّ أن يكون الشيء ضخما للغاية وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. آه إنه جهاز التبريد طبعا. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء. لم تنطل حيلته طويلا. ها هو على رأس القائمة.

ماذا الآن عن الشيء المختفي في صغره البالغ؟ هل هي علبة الكبريت؟ أم هذه المشبّكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى "بقة"؟ يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون.

لسبب مّا تثير فيّ هذه الخاطرة قلقا غامضا. أسارع إلى المرآة أتأمل شكلي مُقدّرًا كم من غرام من الغبار سيغطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعيها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لآدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحاب خفيف! كم سيتطلب كنس هذه الوساخة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب! بالمناسبة، هل لاحظتَ أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلَق كلِّ شكل والشكلُ الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أَعِدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

يقطع عليّ أفكاري رنينُ الشيء المسمى "هاتف"، رغم أن الذي في جيبي مقفل بإصرار. تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الآدمية بالسراح الشَّرطي وبالعفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفّعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدعم الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات. نعم لا عدوّ لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المغرقة في القدم.

في ملفّات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مُطرِقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

في ملفّ آخر تهزّني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

كم من ذكريات بشعة بطلُها دوما هذا الشيء اللعين. يرنّ صوته في غرفة الحراسة. تصرخ فيّ الممرضة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا: الرجل يفرغ من دمه. عجّل.

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلقُ الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهرول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخطّ. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضّل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمج الحامل لكل خبر سفيه: سيّدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم. أرمي بالشيء على الأريكة وأهزّ كتفيّ: معاقبة؟ لماذا أكلّف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحقد لا يدمر إلا الحَقودَ والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟

يرنّ الشيء: آسف سيّدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبَحَهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

من يستطيع الاطمئنان لشيء كهذا؟ تقول بأنني أتجنّى على جهاز يؤدّي خدمات جليلة، نعم؛ للآخرين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلّته، تمادى في المعاصي. فعِوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبَى إلا أن يصغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ –وقريبا كل طفل–عل حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب. هكذا أصبحتَ تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الآدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكةٌ هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقّالهم معهم مواصلةً لعادةٍ مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوطات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحه بحشو أذنيّ بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكره وآنذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلّبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خَطبه إذن؟ لا أصدّق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهُمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ وعليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيني الجميع. لم لا؟ سيمكّنني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوّالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب". الآن وقد طلبتُ نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتُها. آه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!

تقول: لا يكفي أن تكون سيء النية بالبشر والكائنات والآن بالأشياء. اعلم أنني لست ضد الأشياء ولا حتى ضدّ البشر الذين ارتكبوها. كلا، فأنا بشهادة نفسي رجل متوازن، يضع الوسطية والنسبية والاعتدال حتّى في شتائمه. مثلا أنا أقرّ بوجود أشياء لا ترنّ ولا تحمل الأخبار السيئة.

خذ السرير مثلا –أو الحصير بالنسبة إلى متطرفي الفقر–مَن منّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر"، والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر: الحذاء.

تصوّر كم كان سفر الأوائل عذابا صرفا وهم حفاة. لا غرابة أن يكون الحذاء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمل الطريق لولا صاحب الأيادي على قدمينا؟

مؤكّد أنني خلعته كعادتي حال دخولي هذه الغرفة ورمَيتُه دون رفق تحت الأريكة لا أكلّف نفسي عناء النظر إليه. انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلصق بالشيء المسكين بل ثمة منهم من يذهب إلى حدّ رميِه في وجه كبار المجرمين وكأنه لا أحقر منه في الوجود.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي أَبلَيتُها على الطريق وتخلصتُ منها رميا في الزبالة لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها وفّرت عليّ ما لا يحتمل من الآلام، وسهلت عليّ الطريق كما لم يسهله دِين أو عِلم أو أدب ولا حتى موسيقى. كم نُظهِر للأشياء من عقوق أفظع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجَهْنا بها الأشياء أو الكائنات.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو يوارو)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أواصل حافيا"

صحيح أنني انتبهتُ يوما إلى أن أهمّ ما في جسدي قدميّ والحذاء جلدهما الثاني. لذلك طلبتُ وأطلب وأكرر الطلب بأن يتلخص تمثالي -إذا رُفِعَت لي يوما التماثيل- في شكل قدمين لكن بفردتي حذاء، وعلى النحّات أن يعطيه حقه الكامل من الإبداع الفني والإتقان التقني.

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص. أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القدّاس. يا له من منظر مَهيب والآدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظّف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لابِسِه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قدميّ داخله رِفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. إن حفظتُه من الإهانة كيف سأواصل الطريق وهو ممتلئ بالشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟ من سيقبلني في صالونه بقدمي القذرتين؟ أي جامعة ستحملني على محمل الجدّ وأنا أدخل المدرج متأبطا حذائي أضعه بمنتهى الحنان على الطاولة قبل الشروع في المحاضرة؟

ورطة لا خلاص منها إلا بالعودة إلى النظرة القديمة إلى الأشياء عموما وللحذاء تحديدا.

نقطة أخيرة. أنظر دلال الأشياء وهي لا تترك لنا خيار المواد التي نصنعها منها. أذكرُ أنني فتّشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشّاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور. إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا، ثم يدّعون بعدها أننا نفعل ما نريد بها وأننا مثل الآلهة التي تقول للشيء: كن فيكون.

يرنّ الشيء المسمى الهاتف. أقرّر تجاهله ومواصلة تلميع الحذاء وأنا جالس على العرش الديمقراطي الوحيد معمّقا تفكيري في أيادي الأشياء علينا.

يمكنني أن أتابع سيل أفكاري لمواصلة تذكيرك بكل الأشياء التي تستعملها ولا تعيرها أدنى اهتمام، فما بالك بشيء من العرفان.

الثياب مثلا. على أيّ حال مِن الاضطراب كنتَ سترتحل عاريا حتى وفي يدك نقّالك اللعين! من يقدّر اليوم قيمة الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جدّ بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس

وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغانم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدّر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الآدميين –خاصة الإناث–مَن ينتبهون أكثر، لكنني أشكّ أنهن يُظهرن لها من الامتنان أكثر ممّا أُظهر. فالثياب دوما مجرّد أدوات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتميّز، أو لأداء مهمة قذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطَى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. مَن أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطَواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمة أوادم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرّد منديل، مثل المدعوّة هرتا مولر التي تستأهل جائزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

''هل لديك منديل؟'' سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقنّعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداع نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرّك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثّة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيءُ يوضعُ على عيني مَن خرَّ صريع الموت؟ مِن هنا فصاعدا إن أُصبتُ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. للأسف سأواصل إغراق الشيء النبيل بسوائلي الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يديّ لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

تقولُ أنسيتَ شبه التقديس الذي يوليه بعض الآدميين للأشياء التي تصلح في هذا البلد لحفظ الشاي وإعداده وشربه؟ يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال كأنهم يجاهدون لإنقاذ مريض عزيز من الموت. يفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل. أنسيتَ ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء لأنها واكبت ماضينا، لأنها أصدق شاهد عليه، لأنها –خلافا للكتابة–لا تكذب عليه؟ أنسيت وضعها في المخازن والمتاحف وعلى أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟ أنسيت حب الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الآدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تَصلح حتى لنقل الكلام الفارغ. أنسيت أنها قد تلبيّ حاجيات مثل خطف الأبصار عند الإناث وإظهار الجاه عند الذكور، لكن الأصل فيها بحثُنا الذي لا يكلّ عن الجمال؟ أنسيت ما تَكلّفه مِن مشاقَّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنَوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها؟ أنسيت كل الجهد الذي تَكلَّفه البشر في صنعها واقتنائها؟

فجأة أنتبه لإناء موضوع على رفّ. يبهرني لَمَعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه حِرَفيون صعدوا إلى الجبال يُنَقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونه منها، الشيء الذي استفزّ طوال قرون قريحةَ الفنانين وطمعَ الأثرياء وجشع التجار، الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار، الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدِّين العواصف والقراصنة، قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهرا حمولات قوافل أشباه العبيد. الشيء الذي رجع به جشعون غرقَ منهم الكثير وغرقت معه أثمن بضاعة، الشي الذي مثّل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

طيّب، ليكن أننا أمام حالات تَطرُّف في عبادتها، ولنعد إلى تلك التي تأخذ منّا قسطا من الاعتبار ليس فيه إفراط.

اعتبر الكِتاب مثلا. مَن منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المربّي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنونا له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خُيّرتَ عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدا بين فردتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج. أي حياة حافيا، لكن أي حياة دون كتاب الطريق، أجمل هدايا "ح"!

يعود الشيء إلى الرنين المطوّل غير عابئ –على ما يبدو–بازدرائي. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة. كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة! ربما لم ألحّ بما فيه الكفاية على أن تصرفات هذا الشيء من أهم أسباب دعوتي إلى الإضراب العام. أستعد الآن لتصفية حساباتنا معه وكُلّي ثقة أنكَ ستوافق على كل كلمة من كلماتي. ها هي الساعة موضوعة على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة ''اللمبة'' أسلطها عليها كما تَعلّمتُ من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض لكل جرائم الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولا التعدي على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق. ثانيا، ادعاؤها تمثيله، لكن مَن منكم توقّف هرمه عندما كسّر ساعته أملا في،

تيك، تاك، تيك، تاك. الساعة على أذني أتوهّم أن للزمان صوتا. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. متى انطلقَ العدّاد؟ ما ميزانيتي من الزمان؟ كم وُضع منه في رصيدي لحظة الصرخة الأولى؟

ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليالٍ؟

حقا يا شيكي تريد أن تعرف؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو فاجأك جنّي خبيث بالردّ.

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. خطوة بعد خطوة تتوارى البداية، تقترب النهاية. حاوِل التوقفَ عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه، هو لن يتوقف. حقا لنا حرية الثأر: إيقاف التيك تاك بمحض إرادتنا بحبل حول العنق أو رصاصة في الصدغ أو كيلوغرام من حبوب النوم بالنسبة إلى الإناث. لكن ممّن سنثأر والعالم بالكاد منتبه لقدومنا أو لرحيلنا؟

نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضوءه

فوق عقارب الساعة

يقضم شيئا من أحلامنا

ثم يمضي

حتى قبل أن نشعل

نار المضافة

والآن التهمة الدامغة: أي زمن تقيس هذه الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدوَل؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الآدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جَريح ينزف أم الزمن المستنقع لأيام زنزانات العزلة الانفرادية؟

نقرأ لائحة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة –شأنها في هذا شأن كل الساعات–الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّةٍ لا يُعرف حتى عند النقّال، وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان عندما تتعطّل أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات

والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفكّ عن دفع الزمان قُدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد منغلقٍ على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمعن في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرنّ الشيء المسمى "هاتف" مغتنما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتنم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجناب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الآدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الآدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.

لا يتوقّف الرنين هذه المرّة. على الأقل خَلّصَني من ثرثرة المحامي ضعيف الحجة. آن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعَى عليه، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حَكَمنا على الشيء الماثل أمامنا بالجنون المؤبّد.

كيف يمكن للساعات أن تُجنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لخَبِط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-2-4-5-7-8-3-9-11-10-6. تأمّل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمني نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرتَه منذ ساعتين وعندما تحتجّ ينبهك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولا، لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ آه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ آه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظارات؟ آه النظارات! كم من مرّة أسرَّت الأم في أذن الطفل المتهوّر، وبعد تجدّد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بنيّ أرجوك كفّ عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوّع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولاها لعبرتُ عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.

آه كم كنت أفضّل أن تكون لي في حقيبة السفر نظارات تدقّق في ملامح الروح والفكر أو على الأقلّ لا تُكسَر، ساعةٌ تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، تلفزيون ليس فيه أخبار مجازر، قلم يقرأ أفكاري ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكيّ تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّنني من القفز فوق الجبال وفوق البحار، وخاصة هاتفٌ لا يرنّ وإن رنّ فلِخبر سعيد.

فجأة انتبه لغياب أشياء هي دوما جزء لا يتجزّأ من الفضاء الذي نلتجئ إليه عند حلول الليل؟ طبعا تلك التي نعلّقها على جدران كل بيت نسكن، التي نضعها في أجمل إطار على مكتبنا، التي نسندها رثة صفراء إلى صفّ كتب ليست بأحسن حال، صور الأحبة

الذين يتعثرون في خطواتهم الأولى، صور الأحبة الذين رحلوا، الصور التي لا يتغير مَن عليها وأنت وحدك الذي يتغيّر. إنها الأشياء التي نتوَهم بها تملك جزءًا من الفضاء الحسّي كالغزاة الذين يرفعون عَلَما على أرض يدّعون أنها من هنا فصاعدا وقفٌ عليهم وحدهم. كل هذه الصور الغائبة تصرخ الآن في وجداني: يا مَن دخل كالآلاف هذه الغرفة وسيخرج منها كأنه لم يدخلها قطّ، بالصور وبدونها أنت دوما في هذا العالم غريب عابر سبيل.

*

كدتُ أنسى حاسوبي النقال وكل الخدمات الجليلة التي يقدمها لي.

يدفع الشيء بأوّل قطعة على رقعة الشطرنج. أدفع القطعة تلو الأخرى فتسقط بسرعة لا تصدر صوتا. هكذا يجب السقوط في ساحات الحروب بدون ضجيج مزعج قليلِ الذوق. يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كشّ مات. إنّها نفس مشاعر الهزيمة في معركة الجسد. خليط من المهانة والنقص والألم وشهوة الانتقام. أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللّعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمنّي نفسه باستعادة كلّ ما خسر في الجولة المقبلة عبثا، والرسالة دوما نفس الرسالة: كشّ مات.

لأحاول التهديد.

– اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلّة المهملات.

كشّ مات.

– يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلّكم في كمبيوتر نقّال لفسحة نهاية أسبوع فلا تَقضُون العمر كلّه في هذا المكتب الكئيب.

– كشّ مات.

– وماذا لو زوّجتُك تفيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟

– كشّ مات.

الرابعة صباحا! لا شك أنني أَرهقتُ الحاسوب المسكين وأن مِن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضتُه عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب.

المشكلة الكبرى مع هذه الأشياء اللعينة تزايُد تعقيدها وذكائها... وخطورتها.

من يتذكّر أن الفكر الذي يسكن داخل هذا اللعين كان لحدّ هذا الجيل موجودا داخل أدمغة متحصنة بقحف عظمي يحميها من الرضوض؟ ألم تعد تَسعه فقرّر أن يسكن أجسادا جديدة لأنها تمكنه من التفكير بطريقة أنجع وأسرع؟ هل سيبقى هذا الفكر مجرد امتداد وتحسين للطاقة الذهنية التي تسكن أدمغة الخلايا العصبية والشرايين، أم هل سيستقلّ يوما مُعلنا انتهاء صلاحية أدمغة الجماجم والأجساد سريعة العطب؟ تقولُ: لكن الحاسوب لا يحس ولا يشعر مثلنا، ربما انتبه الفكرُ المخفي الذي يبحث فينا وفيه أنه من الأحسن خَلق عالم بلا عواطف بعد أن اتضح أن أضرارها في تسميم حياة الكائنات فاقت منافعها في تنبيهها السريع للأخطار. ربما هو بصدد العمل على أحاسيس وعواطف أكثر صقلا وتشذيبا، ربما سيأتي يوم يصير فيه متيّما بحاسوب المكتب المجاور فتحدث مشاكل لا قبل لنا بتصورها إذا كان هناك حاسوب ثالث يريد أحد الحاسوبين لنفسه.

ها قد بَدأت تتزاحم على حدود ما نسميه "الواقع" أصنافٌ متفاقمةُ التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكيرٍ أسرع وأصفى من الآدميين، ولم لا على مشاعرَ أرقى وأفعالٍ أذكى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاعَ حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلكَ والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدُنا آدمية اللحم والعظم إلى محميات من نوع "سانتا لوسيا" تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف. عَلى كلٍّ هذا مشكل الأجيال القادمة، تكفينا مشاكلنا مع الأشياء وهي ما زالت ملتزمة بالطاعة أو تفتعلها.

من باب توارد الخواطر. لبضعة عقود فقط لم نكن نعرف أشياء اسمها النقال والحاسوب والروبوت وها هي اليوم جزء من حياتنا اليومية. أليس ممكنا أن أشياء أخرى من هذا القبيل أو أخطر تنتظر الولادة.

أغمض العينين أستحضر بعض التي كنت أودّ حضور خروجها من رحم فضاء أخصب خيال وأذكى تكنولوجيا.

مَن هذا الرجل المكبّل بالأصفاد، ما الذنب الذي اقترف، ما العقوبة التي يُجرّ إليها؟

إنه مثقّف مرتزق ارتضى لنفسه دَور كلب ينبح ويعضّ كل من يتهدّد سلطان سيّده. ولأنه تعلّم في مدارس الشعب الغلبان وجامعاته واستَعمل عِلمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن المحكمة العادلة حكمت عليه بالارتشاف. آه لا تعرف ما الارتشاف وما الآلة التي يضعونها الآن فوق رأسه. سمّيتُها المرشاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعارف من ذهن رجُل لم يكن جديرا بها. تقول: هذا يعني أن المسكين! ... بالضبط، مُسِحَت ذاكرته وعاد دماغه مثل صفحة بيضاء.

مَن هذا المجرم الآخر؟ إنه صاحب الكلب وملفّه أثقل بكثير، لذلك حكمَت عليه محكمتي العادلة بالعقوبة القصوى.

تعالَ معي إلى حيث يوجد اختراعي الآخر:"الأفورتوار". لا تَسَلني عن سبب هذا الاسم الغريب، فلست مضطرا أن أقول لك كل شيء، وما عليك إلا أن تشغّل دماغك وتتعلّم الكلام بلُغة مسيو فيدال. الرجاء التزام الصمت، فهذا مكان له رهبة خاصة لأنه نهاية الطريق بالنسبة إلى من ثبت ضدهم أنهم اعتدَوا على الحياة ودنّسوا قداستها.

وحيث أنه لم يعد ممكنا وضع حدّ لأيّ حياة بشيء همجي مثل الإعدام شنقا وخنقا وتسميما وقطعا للرؤوس بالخنجر والسيف والمقصلة، فإنه تقرر اعتماد جهازي هذا للتخلص من عتاة المجرمين مثل الذي جاؤوا به للتوّ واللحظة من المحكمة. إنها ضربة حظ حقا لأنك ستشاهد كيف يعمل "الأفورتوار".

هذه غرفة تنفيذ الحكم. وهذه الأنثى هي والدة المحكوم عليه. انظر كيف يمددونه برفق على الطاولة المصممة للغرض والرأس متجه نحو فرج العجوز الراقدة بدَورها على الطرف الآخر من الطاولة. تشاهد الآن دخول الرأس واختفاءه شيئا فشيئا بين الفخذين ثم دخول الكتفين والبساط المتحرك للطاولة يدفع بشيء من الصعوبة بقيَة الجسم، والأم تصرخ بألم الوضع المعاكس وتشتِم القانون الذي حكم عليها باسترجاع ما وَلدت بعد أن تبيّن أنه غير صالح للوجود. تسألني لماذا لم يخلعوا له الحذاء وهل من الإنصاف أن يعود الرجل إلى رحم أمه بحذائه وبقية الثياب؟ اعتراض وجيه لكنه ثانوي جدا فالأيادي الخفية التي صنعت الرجل هي الآن بصدد نزع الملابس والحذاء وإعادة تفكيك كل ما قامت به طيلة الحَمْل. هكذا يعود الجسم الضخم جنينا ثم نطفة ثم تفترق البويضة والحيوان المنوي الذي أخصبها ويذهب كلٌّ في حال سبيله، ثم يتواصل الطريق العكسي حتى العتمة حيث يقع تفحّص الخطأ بتمعّن من قِبل المهندسين المختصّين.

ماذا قلت؟ كان بودّك أن تراني الممدّد على هذه الطاولة! آه منكم يا أولاد حواء. والآن إياك من الأسئلة البليدة حول ما الذي كان يحصل لو لم يكن للمجرم أم حيّة، وماذا لو كانت الأم هي المجرمة، فأنت تعلم أنه ليس لكل مشكل من حلّ، بل إن القاعدة فيه أن أغلب مشاكله بلا حلّ... أعني بلا حلّ مُرضٍ لكل الأطراف.

آن الأوان هنا لأقدّم أهمّ إنجازاتي في ميدان خلق الأشياء.

انظر لهذه الأكفان البلّورية الملآنة بأجهزة غريبة، والتي يرقد داخلها آدميون يَغطّون في نوع غير معروف من النوم. أنت أمام أروَع مبتكراتي وأرقى صنف من ''المرحال''. داخله يورّق المرتحلون ''الكتالوج'' وهو زاخر بكل المطلوب من أجوَد الرحلات، لينتقوا منه ما يريدون مجانا.

أغلبهم يسقطون في فخّ قضاء بقيَة رحلتهم في الجنة كما وعدتهم بها كتب الأوائل. أحيانا تأخذني الرحمة فأطلق سراح البعض. منهم من قبّل رِجلَيّ وقد أعدتُ له الصراع والألم والخوف والانتظار والشوق ومفاجأة المجهول. انتبَهوا أخيرا للسخاء مُنقطِع النظير للعالم وهو يمنحهم الجديد في كل لحظة. فهموا أخيرا أن أروع ما في الرحلة أنه لا يومٌ يشبه آخرَ وأنه لا قيمة للمُتعة دون الألم ولا اكتشاف لرَوعة للجمال دون طول معاناةٍ من القبح.

آه، انظر هذه المرأة التي تضرب بقوَة على الجدار الشفاف، تصرخ: أريد أن أخرج! أريد أن أخرج! هل اكتشفَت المسكينة التي سحبَت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دَميمة –والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال–أن العالم وَزّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه دفَع فيها أغلى الأثمان. ربما أصابها رعب لا يوصَف وهي تصادف في رحلتها هذه نفسَها تبلورَت في قصة موازية فاختلطت عليها الأمور وفقدت عقلها، خاصة وهي تضطر إلى قتل النفس الأخرى التي هي نفسُها لأنه لا حق لأحد غيرها أن يوجد في جسدها وأن يسرق قصتها... عِلما وأن الشكّ راودها بأنه من الممكن أن يكون لها ملايين من النسخ... وفي آخر الأمر مَن هي؟

عندي أيضا ''المنضاج'' وهو الشيء الذي سيُنتج مَن سيَخلقون لك عوالم أفضل حتى من التي تحلم بها. تفضّل، الدليل جاهز لكن الرجاء طرحُ أسئلة لها معنى.

– مَن هذا؟ وماذا تفعلون كلكم حول جثمانه وما هذه الآلة الغريبة التي تلفّه؟

– إنه النبي الذي سنرسله قريبا إلى مستعمراتنا على المشترِي. انطلقت هناك فوضى استعصَت على كل أنواع البوليس. لا بدّ من منقذ ليستتبّ النظام. نحن بصدد وضع اللمسات الأخيرة، بعدها نوقظ المبعوث الخاص من سباته الاصطناعي ونشحنه في أول صاروخ.

– هل كل هذه الآلات والأنابيب مخصّصة... لحقنه بالبرامج المختصة في...؟!

– لا تتصور صعوبة إيجاد التوازنات المطلوبة. يجب أن يكون المبعوث الخاص قائدا فذّا، وخاصة أن يقبل بالاضطهاد والتعذيب والقتل. ثمة عند الآدميين الملاعين قدرة هائلة على رصد مبَشّرينا. لا فكرة لدَيك عن عدد المبعوثين الذين خسرناهم والشغلُ في أولى خطواته. خذ هذا الملفّ، إنه لمبعوث دعاهم إلى اللاعنف فقتلوه بالرصاص... وهذا لمبعوث حدّثهم عن طبيعتهم النورانية فقطّعوا أوصاله... وهذا لمبعوث أراد أن يفتح عيونهم على روائع الكَون فحرقوه حيّا. المبكي المضحك بقية السيناريو. بعد الاضطهاد، التمجيدُ، يتبعُه التفويضُ والكل يتجاذبون كَفن الشهيد، في الظاهر دفاعا عن تراثه وفي الباطن دفاعا عن مصالحهم الخسيسة. كم نقسو على مبعوثينا ونحن نكلّفهم كم من تضحيات عبثية. حقا يا للمساكين!

– كيف تُعِدونَهم للمهمة؟

– نقوم بفرزٍ أوّلي على أطفال تختطفهم دوريات مختصة. نعمل على الاستعدادات الغريزية عند البعض كالطيبة والسذاجة وحبّ التضحية والايمان بقابلية البشر للتحسّن. ثم ننتقي وننَمّي هذه الاستعدادات إلى أن تصبح الضحيَة جاهزة.

المساكين! لا أحد أخبرهم أن البشرية حالة ميؤوس منها، الآن وغدا وعشية يوم القيامة.

بعد التأكّد من تشبّع المصطفى بكل المشاعر والأفكار الضرورية للمهمّة، نرميه وسط هؤلاء التماسيح ونقيِم.

كم من مرّة أعدنا الكرّة قبل أن ننجح في تجربة واحدة. حتى هذه لا تدوم. فالملاعين، يُصابون بالملل ولو من أحسن آلهتهم وأنبيائهم. آنذاك لا بدّ من التجديد واغتنام الفرصة لتطوير مهاراتنا نحن بخصوص فبركة أديان وآلهة جديدة.

لا أمل إذن في عالم قابل للسكن أو للإصلاح، ما العمل؟

اعتبر هذا الاختراع: ''المرصاد'' ففيه على الأقلّ بعض العزاء.

أنت في هذا العالم كمن يشقّ طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم، وعفاريتٌ وأشباح. أخطر ما يتربص بك ليس هراوات وسكاكين قطّاع الطريق الحسّي وإنما أفكارٌ ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري تطوير علم التنبّؤ بالحالة التي عليها العالم، بخَلق الجهاز القادر على الإنذار السريع بقُرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إعصارٍ استبداديّ قادم، أو طوفان عنصري آخر، أو مَوجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حربٍ أفظع من كل التي عرفنا. تصوّر منافع جهازي هذا وهيأةُ الرصد تنذر بأن الأجواء غير مهيّأة لرحلة فيها الحد الأدنى من الضمانات، فيقرّر جيل عاقل إرجاء ولادة الجيل المقبل لترك الوقت لتبخّر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية وصراع الحضارات، وكم من ملوثات أخرى.

نعم، آسف هذا كل ما أقدر عليه للرحّالة المساكين، اللهم إلا إذا أرادوا استعمال ''المعكاس''.

إنه أداة العَودة من حيث أتينا بدل مواصلة طريق عبثي. الزمان الآن يسيل من المصبّ إلى المنبع. غَدي هو البارحة، وبعدُ الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي أحتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يصل الزمان الراكض القهقرَى إلى منعطف ضروري. تقصر القامة شيئا فشيئا. تنسحب القوَة من عضلات لم تعد مفتولة. يتقدم الطفل المشدوه بخطًى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف داهم لا يكاد يصدّق ما يرى. كم هو عريض، كم هو متّسع وكم فيه من ماء. هل ستصدّقه ''ما'' وهو يروي لها كيف هو البحر؟!

إنها مرحلة تأجّج الانتباه والعالمُ كأنه خارجٌ لتوّه من ورشة الفنّان الأعظم يعرض مفاتنه على أول زائر. هي أيضا مرحلة الانخراط في أولى قصص الوجع والطفل جالس ساعات عنيدة على باب المحطة يكفكف دموعه ينتظر من القطار الأسود الذي أخذ والده أن يرجعه إليه فورا.

يتلعثم اللسان، تتفكك الجُمل وقد فقدَت الكلمات انضباطها ومعناها. ترتبك القدمان والرِّجلان لا تقوِيان على حمْل. أنا الآن على أطرافي الأربعة أحبو، تركتُ المشي ورائي مع كل ما تركتُ من مكتسبات زمان الاتجاه المعاكس.

يتعالى صراخ الرضيع وهو يدفع بقدمَيه البضتين قماطا يقيّد حركته. إنها المرحلة من الرحلة والذاتُ كالإسفنجة تمتص معطيات محيط غريب متقلب، تتفاعل معه أحاسيس بأحاسيس، مشاعر بمشاعر، لا تشوّش على تفاعلهما لغة قد لا تكون إلا تعويض خلل أفلتت منه بقيَة الكائنات. يطلّ عليه وجهٌ مشفق يتساءل: مَن هذا الكائن الغريب الذي يلمع في عينيه شيءٌ كأنه حضور جنّي أو كهل. فجأة، صرخة الانبهار والرعب، الأخيرة هذه المرّة لا الأولى.

يبدأ تسلق النفق المظلم للارتماء أخيرا في مسبح الماء الدافئ. ما الذي دهانا لنغادر مكانا كهذا نصرّ على الخروج إلى عالم كانت تبلغنا منه كم من إنذارات التهديد وكم من صرخات الألم؟

أخيرا أهم الآلات: "المبدال" وما أدراك ما "المبدال"!

أذكر أول معاملة مع الوكالة وكنت يومها مشغولا بتقليب عرض العتمة الأخير، تتقاذفني الرهبة والرغبة. كيف أقبل رحلة كهذه وأنا لم أبرأ بعد من أوجاع الرحلة الماضية؟ الحلّ الاستنجاد بالوكالة لكن إلى أيّ مدًى أستطيع الثقة بهكذا مؤسسة؟

لفهم ما أقصد، تذكّر وظيفة الوسطاء في تخليص أبناء الأغنياء التي عيّنتهم القرعة للخدمة العسكرية، ليذهب بَدلهم أطفال الفقراء طبعا مقابل عمولة محترمة.

ينظر المسؤول عن المعاملات بكثير من الحذر إلى سيناريو المهمّة كما تلقيتُه بالبريد العاجل. يعود إلى الوثيقة ويبدأ قراءتها بصَوت عال وفي صوته نبرة لا تخفَى، من الشفقة والتهكّم: الولادة في عصر الحروب العالمية والاحتباس الحراري وانقراض الأجناس وبوادر انقراض الجنس الذي كُلّفتُ بالتجسّد في شكل من أشكاله... طفل بلا طفولة... نصف وقت المدرسة الوجهُ أمام الحائط... متمرّد على كل الأفكار والقيَم والقوانين المعمول بها، حتى قوانين النحو والصرف... دون كيشوط يريد تغيير واقع، لا يكره شيئا قدر التغيير ولو إلى الأحسن (خاصة إلى الأحسن)... مُلاحَقٌ من طرف البوليس السري ربع الميزانية الزمنية... يكسر نظاراته طول الوقت ويضيّع مفاتيح السيارة والبيت باستمرار!

يغلق المهرّب الملف مستعيذا بمن يُستعاذ به في ديانته الصحيحة، ثم يرميه في وجهي: آسف، لن أجد لك بديلا، الوكالة لا تتعامل مع مثل هذه الحالات. آه، اللعين! إنه يريد رفع الثمن حيث أعرف كما يعرف هو أن الوكالة عالجت مبادلات أصعب. مِن أين لي لَومه وشغلُ السماسرة إيهامُ كل مُجبَر على الرحيل بصعوبة توفير رحلة أقلّ مشقة من تلك التي سحبَتها له القرعة الرسمية.

ما يهمّني أن يسافر أحدٌ بَدَلي أيًّا كان الثمن. كفاني وَجَع النفي السابق. يقلّب المهرّب شفتيه ببطء مدروس وأنا ألحّ حتى لا أقول أرجو وأستجدي. يواجهني بابتسامة ماكرة: أعتقد أنني وجدتُ ضالتك، لكن التكلفة ستكون على قدر الخدمة. الوكالة تضمن لك مواصلة راحة العدم إلى أن نقرّر دعوَتك لتأخذ مكان ذاتٍ أخرى. بالطبع، رحلة التعويض ستكون أصعب بعشرة في المائة فقط من الرحلة التي آلت إليك. تذكّر أنه لا مجال للرفض وأن لنا وسائل لإجبارك على الرحيل. ما قرارك؟ الطلبات كثيرة ووقتنا محدود.

كيف التعامل مع وكالة يعرف الكل باعها الطويل في غش الزبائن. ما زلتُ أرتجف من هَول الكابوس الذي أفَقتُ منه. لكن هل من خيار غير الرضوخ؟

هذا ما يطرح سؤالا قلّ ما تطرحه العقول السميكة: هل الآدمية –أو جلّها–مكوّنة من ذوات وقع ابتزازها لكي تَنزِل العالمَ في ثوب فرضَته عليها وكالات سماسرة لا يتورّعون عن أيّ خديعة؟! إنها الفرَضية المنطقية الوحيدة التي يمكن أن تفسّر، لا تواجدَ الآدميين في هذا العالم الرهيب فحسب، إنما إصرارهم على مواصلة دخوله.

الآدميون بدائل مزوّرة لذوات مجهولة الشكل والهوية تدبّرت أمرها للإفلات من عقوبة الوجود؟!

كلنا –أو جلنا–هنا من باب ''مُكرَه أخاك لا بطل!''

إنه اكتشاف آخر سيضمن لي البقاء في ذاكرة الآدميين طالما بقيَت للآدميين ذاكرة.

المشكلة أنني لستُ متأكدا هل قبلتُ بالصفقة أم رفضتُها، وهو ما يعني أن هناك شكّا بخصوص هُوِيَة كاتب هذه السطور. هل هو أنا أم البديل؟ لاحِظ أنني لا أرى مانعا أن يكون هذا البديل هو الذي يذهب إلى طابور تسجيل الحقائب في المطارات وإلى طبيب الأسنان ولطاولة العمليات الجراحية، ناهيك عن قاضي التحقيق والزنزانات النتنة. أمّا أن يذهب بدَلي لليلة حبّ مع "ح" فهذه جريمة شرف، وشرفي الرفيع لن يسلم إلا بإراقة الدم. كيف التأكد أن دمه ''هو'' الذي سيسيل وليس دَمي ''أنا''. حقا ما أصعبه مِن وضع!

فرضية سخيفة والدليل على ذلك تعلّقنا بالعالم، مما يدلّ في أسوأ الافتراضات على أننا خَدعنا مَن حاولوا خداعنا؟

صحيح أنه يمكن للبدائل أن تنسى أنها بدائل وأن في هذا العالم بعض المغريات التي تحبّب تطويل المكوث فيه.

آخر وأهم شيء، سيد كل الأشياء بلا منازع، ذروة العبقرية الأدمية ‘‘المشفار‘‘: الأداة التي ستمكنني من فكّ الشيفرة التي تحفظ ملفات الله نفسه من الجواسيس والعلماء. آه أخيرا الأرشيف الذي تحفظ فيه كلللللّ الملفات. آه، هالكَ اتساع هذا القسم وهو الآدمي فقط. لو رأيت القسم المخصص للطحالب والفئران وأشجار السيكويا!

تقارير كل الرحلات ‘‘هنا’’! من بالِغة الطرافة إلى بالغة الابتذال، من بالغة التجديد إلى بالغة الترديد، من بالغة العظمة إلى بالغة التفاهة، من التي كانت كارثة من البداية إلى التي رافقتها بركات كل آلهة العوالم المعروفة وغير المعروفة. هل هذا" المكان" مخزن مذكراتنا نحن أم ذاكرته" هو" الذي ارتحل فيّ وفيك وفي كل ما تمخضّت عنه أحلامه وكوابيسه من كائنات؟ أتكون هذه الوثائق تسجيل كل ما أمكن له اعتصاره من الآدمي وهو يعرّض لكل الظروف، لكل الأدوار، لكل القصص؟ ثمة بالضرورة بينها ملفّ رجل غاصب يجرّ طفلا غاضبا وهما على الدوام بين صراع المحبة ومحبة الصراع. أخيرا الغوص في المحيط الذي منعني ذات ليلة من الارتماء في أحضانه صراخ بنت أزعجها شخيري.

هيهات أن تجري السفن بما تشتهيه الرياح. فجأة أفيق من حالة اختلطت فيها أحلام المنام بأحلام اليقظة ورنين مزعج لأقصى درجة آت من الغرفة المجاورة يسحبني من " المكان" الذي حلمت دوما بدخولي إليه إلى المكان الذي لا أعرف إلى اليوم ما الذي أفعل فيه.

يجب أن أخطّ بعض الملاحظات السريعة على دفتري ثم أحاول النوم مجدّدا ولو بِضع ساعات.

بداهةً هذا العالم يفيض بأشياء لا تعدّ ولا تحصى ولا سبب لوجودها إلا وهو مرتبط بوظيفة تُلبّي حاجة ما للآدميين، بل قل: هي حاجاتنا بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصوَر، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط.

ماذا عن الأشياء التي لا تلبي أدنى حاجة؟ مثلا تماثيل بأذرع حديدية تتحرّك في كل اتجاه ولا تحرّك شيئا آخر، مثل التي ارتكبها فنان يُدعى جان تنقلي وتطلّب وضعها تصاميم معقّدة استنزفت أموالا باهظة دفعتها حبيبته الفنانة نيكي دو سان فال. لنقُل إنها الشاذة التي تحصى ولا يقاس عليها، الاستثناء الذي يوكّد القاعدة.

بخصوص الفنّ، ما يذهلني في الشيء الذي اسمه "العود" ليس ما يَعتصر منه الفنان من أنغام تُسكرني وإنما كل الوقت المتطلّب لكي يروّضه ويجعله طوع بنانه. سنوات وسنوات من العمل، لكن مَن يروّض مَن؟ الشيء الذي يَستلّ من الفنان كل قدراته ويعاقبه أشدّ العقاب لأبسط هفوة، أم الفنان الذي يقضي عمرَه ولا يصل إلى استنفاد قدرات سحرية لقطعة مزركشة من الخشب ثُبّتت عليها بضعة أوتار مصنوعة من أمعاء الحيوانات؟

الأشياء إذن ضرورية للقيام بوظائف تلبي حاجيات عاجلة وأخرى مؤجلة. على أي حال ما كنا سنَعبر العالم لولا هذه الأشياء، حتى على ما هي عليه من نقصان؟

نعم، لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالآدمي، خلافا للدب بفروه، للبغل بحوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أَفاقَ في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أُجبِر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها. مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوّقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يُقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

ثمة فرضيتان. الأولى أن الإدارة العامة بصدد القيام بتجارب حول الحدود القصوى للكائنات، من أجل الردّ على أسئلة من نوع: هل من الممكن لجنس من الكائنات دون مخالبَ وأنيابٍ أن يعيش بين الكواسر، أن يمشي في الأحراش دون حوافر، أن يعيش في صحاري الجليد بلا فرو، أن يطير دون أجنحة؟

الفرضية الثانية أن الإدارة العامة رمَت بالآدمي في هذا العالم، كما يَرمِي المهندس في مكان مُهمَل من المخبر آلةً أيقنَ أنه لا فائدة من مواصلة البحث فيها، لكنها تدبرت أمرها لتواصل وجودها، والمهندسُ غافل عن تشبثها بالبقاء واختراعها لما يكمّلها ولو جزئيا. مما يعني أن وجودنا في مثل هذه الفرضية غير شرعي وخارجٌ على القانون وربما ما زال مجهولا عند السلطات العليا. السؤال إذن: كيف ستواجِه الإدارة العامة الأمرَ عندما تكتشف بقاءَنا بفضل ما خَلقنا من أشياء؟ هل ستغفر لنا نجاحنا في البقاء؟ أم هل ستصاب بالفزع فتُسرع بالقضاء علينا قبل أن تقضي أشياؤنا على أشيائها؟

يُدقّ الباب بلطف لكن بإلحاح. أقفز من فراشي أفتح الباب لمجهول مبتسم.

– لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنّى أنك ارتحت. كثيرٌ من الأصدقاء ينتظرونك في" اللوبي" ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضّل.

يرنّ الشيء فجأة في ظهري. يصمت بسرعة. يعود إلى الرنين ثم يصمت عائدا بعد ثوانٍ لرنين طويل. إنها "ح" وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخطّ. أجزم أنها تريد التأكد أنني ما كنت سأنسَى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من الآدميين وهم يلاحقونك في عالم اليقظة وفي عالم المنام، بكرههم وبحبهم!

**

الكتاب الرابع: بنو سفر

وبعض المفسِّرين يزعم أن نوحا صلّى الله عليه وسلّم
إنّما سُمّيَ نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه،
وأنّ آدم سمّي آدم لأنّه حذي من أديم الأرض.
الجاحظ

ما قد يضرب مصداقية استنتاجاتنا حول الكائنات الغريبة، اعترافُ الراوي أنه لا يتحدث عن بني جنسه بموضوعية وإنما انطلاقا ممّا يثيرونه فيه من كره ومن حبّ، ممّا يعرف عنهم وممّا يجهل.
ما سنحصل عليه إذن صورة تعكسها مرآة ذات لا ندري إلى أي مدى كانت مشروخة في بعض المواقع أو عمياء في بعض المواقع الأخرى.

المعلّق

مقدمة الكتاب الرابع

سبر أغوار الآدميين أمرٌ ليس هيّنًا لجملة من الأسباب القاهرة أُسارع لعرضها للتنصّل من مسؤوليةِ محدودية هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كل نواقصها وحدودها.

ثمة التجربة المباشرة لكنها محدودة بحكم استحالة معرفتهم واحدا واحدا.

ثمة القيل والقال. تجد في هذا الكلام ما تجد من موضوعية ونزاهة في الإعلام الرسمي لدولة استبدادية.

هناك القراءة عنهم. هي محدودة بخبرة من يكتبون عنهم وحتى بنزاهتهم. في آخر المطاف هي ليست سوى الشكل الأنيق للقيل والقال المذكور أعلاه.

ثمة مراقبتهم في أماكن خاصة تبرز جزءا مُعيّنا من طبيعتهم كساحات المعركة، والأسواق والمحاكم والمعابد والمواخير والمعامل والسجون والثكنات وبيوت التعذيب. المشكلة أن هذه الأماكن كثيرة والمورد الزمني كما رأينا جد محدود.

ثمة استحالة النظر إليهم بعينَي البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تَصوّرْ كلَّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صوَرنا في ملفات ذاكراتها. تُرى هل كنا سنرفع ضدها قضايا في الثلب والتعدي على الأعراض؟

ثمة أن المعرفة بالآدمي لا تُورَث ولا تورَّث، بل تأخذ كثيرا من الوقت للتخلص من الأكاذيب والشائعات والأحكام المسبقة التي تزيد من ضياعنا.

ثمة دوما قِصَر زمن الملاحظة ورفضُ الإدارة العامة المتواصل تمكيني من الوقت الكافي لمتابعة بحثي بضعةَ قرون، وهو أقل ما يكفي من الوقت لإكمال عمل كالذي تسرعتُ بالانخراط فيه.

كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكّنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة، من مَوقع لا يحتلّه إلا مَن تسميه اللغة الربّ.

هيهات! القاعدة أنكَ لا تنظر للآدمي، مثلما لا تنظر لباقي تمظهرات الموجود إلّا من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها جدّ محدودة القدرات، تركب ذرّة من المكان وقبَسا من الزمان، تتأمل ذاتا أخرى أكثر غموضا وضياعا.

آه لو مكّنني جنّي مصباح علاء الدين من مجهر ذهني أنظر به داخل كل ذات كما أنظر بالمجهر الطبي داخل الأنسجة والخلايا. آه لو وضع تحت تصرفي عيّنة ممثلة أدرسها بهذا الجهاز أتابع أدق اختلاجاتها! آه لو مكّنني نفسُ الجني ابن الحلال من مرقب ذهني بقوة تلسكوب ''هوبل'' الذي يبصر النجوم والمجرّات وهي تتكوّن في اتساع الفضاء الذي تسميه اللغة الكونَ، لكنه تلسكوب لدراسة قصص كلللللللّ الآدميين الذين تعاقبوا!

أخيرا أكبر الصعوبات: استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات وليس الأحكام.

أعيد قراءة تقرير الرحلة وما ورد فيه عن الآدميين، فأجد نفسي حاضرا في كلّ سطر وفي كلّ فاصلة. ذلك لأن الخَيار أمام الراوي جدّ محدود، فإما الحضور الضاغط لذاته أو افتعال إخفائها. كلُّ ما تَكتب عنهم وَصفٌ لحالات تمرّ بها أنت في علاقتك معهم، لأنه ليس لهم من ''حقيقة'' خارج ما ينطبع في ذاتك بخصوصهم من أحاسيسَ ومشاعرَ وأفكارا. هذا ما يجعل من كل شهادة عنهم تقريرا عنك في علاقتك بهم، حيث كل علاقةٍ رسمٌ لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا عِلمَ آخرَ بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.

تفرض هذه العلاقة الهيكلية عدم جدوى أيّ حديث ‘‘موضوعي’’. فالأمر إما محاولة يائسة لإسكات الضغينة التي نشعر بها تجاههم، وإما محاولة بائسة لإسكات تحيّزنا لجنس تنتمي إليه ‘‘ما’’ والحبيب والصديق وأكبادنا التي تمشي على الأرض.

يعني هذا أن عليك أن تنتبه للحالة التي أنت عليها عندما تكتب عنهم، وأن تفصح عنها حتى لا تغالط نفسك وقارئك. كذلك تنصح الرؤيا بانتظار تجدد طاقة الكره والحب، فلا خير يرجى من كتابة تحت راية اللامبالاة.

نعم، لا وقت للحديث عنهم أحسن من ذروة الأزمة معهم. هكذا تراني انتظر دَوما تجدّدها لأسارع إلى نصّي لتقطر الحروف إعجابا وسخرية، لَوما وتقريعا، هجوما ودفاعا، حبا وكرها. الخطر الكبير مجددا هو التبلد، يأتيك من مَلل طول حبهم ومن ملل طول كرههم ومن عبث الصراع معهم ولأجلهم.

أقصى الممكن إذن للحديث عنهم الصدقِ وليس الموضوعية. على اعتبار قدرتي على الالتزام طويلا بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقا من كل المحاذير التي ذكرتُها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الكائنات الغريبة التي وجدت نفسي محشورا في شكل من أشكالها أعبر عالما من صنع حواسها وأفكرها وأعمالها وأحلامها وكوابيسها.

**

الجزء الأول

الكائنات الحسية

المُعطَيات الخام

يجب عليّ الآن –ولو ببعض التأخير–اتّباع سُنّة أسلافي الميامين من كبار الرحالة، أي وصفُ شكل الكائنات العجيبة التي اكتشفتُها عند الإفاقة.

أثرى المعلومات عن الآدميين هي التي تأتيك بها حاسة البصر كما رأينا ونحن ننظر لهم بعيون الطفل.

ثمة أيضا حاسة الشمّ ولو كانت بغير الأهمية التي هي عند أغلب مخلوقات الأرض.

ممّا أذكره عن علاقاتي المعقّدة بالرجل الذي كنت أسميه ''با''، أنّ أول سوء تفاهم بدأ معه في سنتي الثالثة وكان بخصوص الروائح التي يبثها الآدميون من حين لآخر، تفضح ما يريدون التستّر عليه من طبيعتهم.

ذات ليلة صرخت متوجّها إلى ''ما'' وهي مضطجعة حذوَ ''با'':

– أف!، ''ما'' أخرِجي الكلب بسرعة!

كان في ضحكها المكتوم ونحنحة ''با'' –إضافة إلى أنني تذكّرتُ آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم–ما يكفي لأفهم أنّ رَبّ البيت –وربّما حتى ربته–يضرط أو تضرط كما أضرط، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منّي.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال –وأنا أداوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب، تغطيةً على الصوت بالسعال الملائم–ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعا اللهم إلا الانفجار ضحكا.

البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها ''أنف أن تسكن اللحم والعظم'' فما بالك بأن تكون قمامة متجوّلة تصدر من حين إلى آخر روائح نتنة.

من حسن الحظّ أن هناك حواسَّ أرحمُ بصورة الآدميين. خذ مثلا المعلومات التي تأتينا والفم مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ بالحبّ، والسائلُ الدافئُ الرقراق يُبعد عنّا أبغض حالات الشعور؟

أليست أدوات المعرفة الأُولى لدى الآدمي الشفتان والأسنان واللسان؟

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوُّقٌ وابتلاعٌ لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله. مما يعني أن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الآدمي، أكل الآدمي.

أليس أقصى قدر من فهم الشيء استملاكه، أيْ جعله جزءا لا يتجزّأ من الذات؟

لهذا يمكن القول إن أكل الآدمي كان وما يزال في العقل الباطني أكملَ الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدرُ كل خطرٍ والمعين على كل الأخطار. من جهة نحن نتخلص جذريا بهذا الأكل من الخطر الذي يمثله. من جهة أخرى نختزل كل زمنِ البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

انظر طقوس كهنة الأزتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدّامية لقلوب ما زالت تنبض تُقدَّم إلى مأدبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذّة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكّد؟

عن الجاحظ، طيّب الله ثراه، بعضُ الأشعار التي تنبؤنا أن الأمر كان موجودا أيضا في ماضينا.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدّم زمانا فلا يأمنكم أحد بعد

تداعوا له من بين خمس وأربع وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

وقال شاعر آخر:

إن سرّك الغدر صرفا لا مزاج له فأت الرجيع وسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهمُ فالشاة والكلب والإنسان سيان

ثمة من قال في قبيلة تُدعى بني فقعس:

عدمت نساء بعد رملة فائد بني فقعس تأتيكم بأمان

وباتت عروسا ثم أصبح لحمها جلا في قدور بينكم وجفان

وقال شاعر يهجو قبيلة اسمها باهلة:

إن غفاقا أكلته باهله تمشّشوا عظامه وكاهله

وأصبحت أم غفاق ثاكله

يبدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذوّاقة وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الآدمي:

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد

هذي الخصى فكلوها من نفوسكم كما أكلتم خصاكم في بني أسد

لا داعي للحرج والانكار فالظاهرة قاسم مشترك بين الآدميين، وُصفوا بالتحضر أو وُصموا بالتوحش.

قيل –والعهدة على المؤرخين–إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبّان عصر يسمّى النهضة، مَلك عظيم راعٍ للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدّوام في جيبه قنّينة صغيرة من مسحوق اللحم الآدمي يمضغه متأنّيا، يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهّج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وُضعَت أُصول وقواعد لتذوّق اللّحم البشري. فبعد قتل الآدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمّونه "عدالة"، تُترك الأجساد معلّقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتّى يتعفّن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادةٌ تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهّزون الميّت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطريّ ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

كان ديوجان –المسمّى سقراط المجنون–لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تذوّقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يتمازج الباحث والمبحوث فيه فيصيران شيئا واحدا.

هل كان نبلاء "الأزتاك" يبحثون وراء طعم اللحم الآدمي عن طعم الذات نفسها، أو حتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود غابات الأمازون ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الآكل؟ ماذا عن المِلك الفرنسي المتحضّر؟

في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، مِن أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرّا وأوقات المجاعات فقط؟

ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث، ويزداد المبحوث فيه معرفة بالوجه الآخر للذبح والالتهام.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقّبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلّص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه أوكرانيا، قَتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحال أنّه كان مجرّد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحُدّان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الآدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألدّ الأصدقاء.

ثمة أيضا استحالة تطبيق مقولة ''اعرف نفسك'' بهكذا منهجية. فمِن الصعب أن تعرفها بأكلها إذ بأي أسنان ستمضغ أسنانَك؟

لهذه الأسباب النظرية والعملية وتفاديا لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلا بها، فإننا ننصح كل الباحثين في الشؤون الآدمية بتَرك فكرة أكل العيّنات الدراسية جانبا، ربما إلى أزمان أخرى تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ماذا بقي لنا إذن؟

الاحتكاك بهم وهو الذي يعلّمك -وكأنك تصيب عصفورين بحجر واحد-البعضَ مما يجب أن تعرف عنهم، والكثيرَ مما يجب أن تعرف عن نفسك، والذاتُ لا تتشكل في أهم خصائصها وطريقة تفاعلها مع العالم إلا باحتكاكها الموجِع الممتِع مع الذوات الأخرى.

**

معطيات الفؤاد

عليّ الآن اختراق مدينة مترامية الأطراف هي إحدى آلاف المضارب التي كدّسها الآدميون وكلها بقايا قلاع شُيّدت للحماية من بشر لا يحبون شيئا قدر غزو بعضهم البعض. هي أيضا الأماكن التي يتبادلون فيها ما يحتاجون من مؤونة وأخبار وتجارب، وإصلاح ما يتعرض له المسافر المسكين من شتى أنواع العطب.

بعد حافلة المطار، ركضٌ مع الراكضين في دهاليز قطار الأنفاق.

أخيرا مقعد في عربة شبه فارغة. على الطرف الآخر ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولدعوة رفاقه إلى الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ آه، إنها لهذا الأجنبي القذر!

نعم، لم يكن الرحيل يوما سهلا على الآدمي، لا بحكم اتّساع المحيط وضراوة الصحراء وعلوّ الجبال وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر فحسب، إنما أيضا لأنه فلّاحٌ يرفض له القيصر أو "الشوجون" مغادرة قرية وُلد ويجب أن يموت فيها، لأنه فقير أو عبد أو أنثى أو سجين أو مِثَلي، على الدوام في وطنه وفي كل وطن، غريب، أجنبي، مشبوه.

يجب تغيير الخطّ والنزول في المحطة المقبلة.

على بساط السجاد الآلي المتحرّك أقف لالتقاط الأنفاس آخذا كل الوقت لتأمُّل البشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعاكس.

ثمة من قال بخصوص الآدميين: نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية من المجهولين لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

شيء من التصحيح: عادة نحب من الآدميين أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية من المجهولين التي لا تثير عند الكُسالى إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ على العكس فضولا عارما.

تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة. عوّضَتها أخرى كم هي مُشابهةٌ وكم هي مختلفة.

تداهمني صورة الرجل الماشي للنحّات جياكومتي. قدماه ملتحمتان ببساط الزمان، والمسكين يتخيّل أنه هو الذي يتحرّك. أما الوجوه فهي كما رسمها، بنفس الأضلع الحادة والملامح المتجهّمة الأبصار الشاخصة نحو الفراغ؛ بما يكفي من الوضوح لتكون وجوها آدمية، وبما يكفي من الإبهام لتكون لكل الآدميين ولأيّ واحد منهم تحديدا.

هذا وجه لم تزَل في رسمه يد الرسام الأعظم. تُرى عن ماذا تبحث المخيّلة الخفية وهي تصوغ مثل هذه الملامح؟ عن بسمة لم تصل إلى مصافي ما يريده على كثرة ما رسم من بسمات؟ كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علَت على محياه ابتسامة النصر. ماذا لو كان بصدد البحث عن مواصفات مبهمة لم تتحقق ولا حتى في هذا الوجه؟

الكلّ تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج آت من الإناث بكعبهن العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادّة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذاتُ ما فاتها. هذه نظرة مطوّلة للصياد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير، بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة، يأس موجِع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

تختفي الحسناء التي شدّت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه.

ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة الرسم، إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه وتحديدا في هذه التي تختزله كله الآن وهنا؟ هذا عالم أغلى قيَمه الجمال. محكوم عليك أن تَعبُره رائيا مرئيا، والكل يقيّم مدى قربك وبعدك منه. هل ثمة أصعب من

الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ على العكس ما أروع أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلكة الظلام. هذه نظرة خِلتُها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقَت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الآدميّ جديرٌ بالاهتمام. كم هو مُخيف ألّا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إلي، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مُرهَق مَهموم أو عَبأ بطموحاتي ومشاريعي أو استفزّته أفكاري. لكن متى انتبهتُ أنا للآدمي المجهول أو اهتممت به، أو شعرت بآلامه أو عَنَت لي هذه الآلام شيئا أو لاحظتُ كم هو مرهق ومهموم أو عبأتُ بطموحاته ومشاريعه أو اهتممت بأفكاره أو انتظرت منه شيئا. اللعنة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يَرى، وهم يبصرونني بنفس العيون التي لا تبصر. مَن ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وَسَطهم منذ الإفاقة أغرابا لستَ لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات. مَن قال منهم: ''وُلدت مجهولا، وأملي أن أعيش مجهولا، وطموحي بعد أن أموت، أن أترك ورائي ما ينفع الناس دون أن أكلّفهم عناء أن يذكروني".

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأغراب يقف مسلّما ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقُبَل والدموع.

كلهم كُتُبٌ مُحكَمة الإغلاق لا تَرى منها إلا العنوان. أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. ألا يكفي أن أقرأ في صفحات الذات لأقرأ في صفحات كل الذوات؟ ألا يمشون في الطريق الذي أمشي فيه. أغلبهم مؤمنون بأنهم صرّة العالم، مقتنعون أن الأقدار ظلمَتهم، منغلقون على أسرار بائسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عائشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبَه على ممشى الآلام، ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعِدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور: التعجّب، الإعجاب، الكره، الحب، الحنوّ، الأسى، ربما الشفقة؟ نعم الشفقة، حقّا يا للمساكين!

كم تسكّعت شرقا وغربا! *(أغنية صينية)*

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتذكّره

تعبت حقائبي

ظلّي وحده الرفيق

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشاراتُ الصامتةُ هي الدليل.

أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرّت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.

ينفرط الجمع ليتشكّل آخرُ بَدله، بعيدا سيتفكك بنفس السرعة ولا أحد يتوقف ليقول لي مَن هو ومن أنا وماذا نفعل كلنا هنا.

يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بدوره في الزحمة. آدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق!

يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وبيدي اليمنى تمسك بيد اللص وبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو

أنها تابعَت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة! مَن قال لهذه الغبية إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملّص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثُر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغبية لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدّني هي بتصريح مطوّل، عَلّي أزيح بعض الغرابة عن الآدميين بصفة عامة وعن النمط الآدمي الأكثر انتشارا: الذي منه كل وحشة. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقَوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد وراء قطار خَطّهِ لأبقى وحيدا في مواجهة المعضلة.

لنُسمِّ هذا النوع من الآدميين: الذي منه كل وحشة ومنه خَرج وسيخرج عليك في شتى مراحل الطريق بقيَة الأنواع.

*

تسألني ''ما'' عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة.

أنفجر في وجهها وقد طلعَت من أعماقي كل الشراسة المترسبة فيها:

– يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أيّ محكمة تنصفني منك؟

تبهت ربع ابتسامة الأم. تقطّب جبينها:

– آه يا طفلي الصغير، كم أنت موجوع هذه الأيام.

تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.

– قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

– تسألينني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الآدمي البغيض.

أثبُ أمامها لأمثّل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، وبيدها الأخرى تمسح دمعة.

تدخل الأم الجديدة بأمومتها عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حادّا آمرا نافد الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلّمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلّل أحدا. تدريب هذا الصباح السيطرة في المدرسة.

يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين. يتصاعد صراخ الأمّ المتخرّجة من الأكاديمية العسكرية المؤهّلة وحدها لإصدار تراخيص الأمومة: يا الله، بأسرع من هذا. تفتعلون عدم سماع ما قلت. اللّعنة! مَن تثاءب؟ مَن؟ أنت، إلى العزل، تبكي! والله لأقطعنّ عنك هذه العادة ولو تطلّب الأمر أن أقطع لسانك. انتهى العهد الذي كنتُ خلاله أرميكم في الشارع دون إعداد مُحكَم. وأنتِ يا بنت، خمسة جَلدات هذا الصباح لتتعلّمي الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواساة الأخت. ستذهب مباشرة إلى الخزانة تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلّم عدم رسم مثل هذه السحنة على وجهك.

قطعة خبز جافّة وبعدها مباشرة التمارين.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: ''هايلي هايلو هايلي''، نحن للألم مستعدّون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت للتصفيات الجسدية. بعدها التمرين النفسي للصبر على الأذى وحسن استعماله ضدّ الآخرين، كل الآخرين. أبدأ بضرب أصغرنا ضربا مبرحا فتشجعيني على الضرب. أصرخ فيه مرّة أن يستكين ومرّة أخرى أن يدافع عن نفسه. الويل له إن ارتمى في أحضانك مدفوعا بعادات قديمة ما زالت مستحكمة. يأتي ردّك صارخا: أتريد أن يسخروا منك طوال حياتك؟ أنت الذي ستقول لهم: عودوا إلى أمّهاتكم. نعم، لا أمّ لكم في هذا السيناريو وإنّما دليل كفْء يعلّمكم العالم على حقيقته والآدمي على طبيعته.

بعد انتهاء حصّة الإذلال لتقوية غرائز العنف يجب التدريب على التعرّف على السحن والطباع للتمييز بين الأقوياء الذين يجب تفاديهم والضعفاء الذين يجب ركوب ظهورهم. آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى الذي منه كل نقمة ومواجهة القاسي النذل الخطر. نعم، هكذا كان عليكِ أن تفعلين.

تضع الأم الأزلية يدها على رأس ابنها:

– يا طفلي الحبيب، من أين لك الرفق بالآخرين إن لم ترفق بنفسك؟

– أرفقُ بهؤلاء الملاعين؟ تُسمّم حياتي إناثٌ بالادعاء أنني أقلِب الحمام مسبحا كلما أخذت دشّا، أنني أستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتي فوق أنفي، أنني نسيتُ عيد ميلادهن. يسمّمنَ حياتي وهنّ رضّع لا يحلو لهنّ الاستيقاظ وإطلاق منكر الصراخ وبليد البكاء إلا آخر هزيع من الليل. حدِّث ولا حرج عن ولعهن بالإصابة بالحمى وبالإسهال وبأغرب البثور الجلدية عشية كل سفر لي هربا منهن ومن التي ولَدتهن، قُل ارتكَبَتهن. يسمّمن حياتي وهن أطفال أُعاني سنوات من أنانيتهن ونرجسيتهن وخصوماتهن التافهة التي لا تنتهي. سيسمّمن حياتي وهن مراهقات يكلّفنني مصاريفَ تَقصِم الظهرَ، كأجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية، الشيءُ الذي لن يمنعهن من الفرار من البيت دون سبب معقول، ربما هربا من ضَرب يستأهلنَه.

سيسمّمن حياتي وهن شاباتٌ يرمينني بالهتافات وبالحجارة يدّعين أنهنّ مَن قُمن بالثورة، يُرِدن كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تَضعُهن في أعلى المناصب تكتشف كم هن ساذجات مغرورات جاهلات.

سيسمّمن حياتي وهن مُسِنّات ينافسنني في أسمى المناصب والحالُ أنني –وبموافقة ''ما'' غير المشروطة– أعلمُ الناس بأني بتلك المناصب أجدر. سيسمّمن حياتي وهن عجائز يرتعشن ويَهذين ويتبوّلن تحتهن، أرى فيهن بشاعة ما سأكون عليه يوما، لم أنتبه لفرار السنين. يسمّمن حياتي لحظة خروجهن من هذا العالم وأنتَ مضطرٌّ للوقوف ساعات طويلةً في الحرّ وفي البرد لتتبّع جنازة وتقديم التعازي مفتعلا الأسى والحالُ أن نفسي تهمس: على الأقل نقَصَت منهن واحدة. يسمّمن حياتي وهن أموات، بما يتركن من عادات خطرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيّفة وأساطير مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف –في أحسن الأحوال– في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوَئها للمثول أمام كبير محاكم التفتيش ليَأمر بحرقك حيّا بعد ما تيسّر من التعذيب.

تضحك ''ما'' إلى أن يأتيها السعال، أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما في آدمي أفشّ فيه غيظي ضربا بالحذاء.

– كم أخفتَني ذلك اليوم عندما وجدتُك بين عُلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف اكتشفتَ هذه الأسلحة اللعينة؟ حالا طلبتُ من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.

– ماذا فعل ''با''عندما اكتشف خيانتكِ للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عينيَ ''ما'' نوع خفيف من المرح، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوّناته سخريةٌ خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفيّ بالرجل الذي ابتليَت به بعلا.

– هل تظن أنه كان يتذكّر أنّ بيتَنا من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

المهمّ أن هذا طفل لم يكتشف –لحسن الحظ– كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقُه سوف يأخذ اتجاها جدّ مختلف. تصوَّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): ''طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتُل زميلا ويجرح المعلّم الذي حاول التدخّل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون''.

بصراحة ألم يكن من حقّه أن يفكّر في امتشاق السلاح لدخول قسم فيه ذلك الكمّ الهائل من الخصوم، وبعضهم من الراسبين الأزليين يسومون مَن هم أصغرُ منهم استبدادا يُنذر بما سيأتي من كل أصناف ظلم الآدمي للآدمي.

ابحثْ دَوما –وراء الهدف المعلَن–عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها الآدمي، ومنها المدرسة. وستكتشف أن أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب.

أين تَعلّمنا لأول مرة الوقوفَ في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلّم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلُّ صغير يجرّب على مَن هو أصغر منه؟

داخل الفصل يبدأ باكرا تلقين كل أطفال العالم تواريخَ انتصارات دَموية مرعبة، وأسماءَ كبار الجزارين. ثم تُغرس فيهم البذور المسمومة، لتنطلق أحلامهم بالمشي أمام كتائبهم لنصرة قومٍ هم أحسن الأقوام.

وسط الساحة، يُترك للأطفال أنفسهم مهمّة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري –والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين–وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجِه الطفلُ خصمَه منتبها لأوّل مرّة أنه فارعُ الطول مفتولُ العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار الطفل بسرعةٍ المواجهةَ، ربما لأن أمرَ الأب الجبار المتواصل داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوعٌ، ممنوع، ممنوع. تضيع ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجهَ البغيض. ثمّ يندلع الألم فظيعا ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صُنعتا من حديد ورخام. يستنجد بكل ما بقي فيه من وَعي وحيَوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوًى مجهولة.

يلمَح من خلف انتفاخ عينيه نظرةَ الاستغراب في وجه المعتدِي وصوَرا مشوّشة لأطفال يتهامسون، كأنّ شيئا كالقلق بدأ يستشري بينهم. ربما أرعبَتهم شلالات الدم من الأنف والفم. فجأة تتوقّف ضربات المطرقة. يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدّب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أخرسَهم صمت متعجّب قلق.

هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كَم هو رخوٌ في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجِعة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسمٍ ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. هكذا يتعلم كل طفل ماذا بداخله، وهل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابةً ستمكنه من مواجهة كل المعارك التي تنتظره في ساحات كل المدارس والمعاهد التي سيمر بها الطريق.

سبحان مَن جعل أطفال الآدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية ونرجسية من الآدمي وهو طفل. أليس جلّ ما نعانيه من بعضنا البعض تواصلُ الطفولة فينا؟ أليس كلُّ طاغيةٍ طفلا رفضَ أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمّة يريدها أمّهُ؟ لا يوجد متوَحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش موزَّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف. كم ننسى أننا نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين. لكنّ عدّادَ النضج يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة. فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع –في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة– أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول.

بربّك، ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيرا أحدنا مسؤولية قَول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرُهم الرضّع؟ لا أحمل أيّ واحد منهم – وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبّله وافتعل الإعجاب بجماله ونباهته المبكّرة–إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبوّل عليّ اللعين أو أن يغتنم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة. ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضع على وجه الخصوص. بالله عليك، هل وُلِد هولاكو، أو هتلر، أو ستالين، أو جورج بوش الأب أو الابن، بشوارب وحذاء بمهمازَين؟ ألم يكن نيرون –ولا أتحدث عن كاليجولا–هو الآخر ''ملاكا'' تذوب القلوب لرؤيته، استبشَر بقدومه أبٌ وأم وجدّة وأعمام وأخوال، وهو يُعدُّ منذ نزوله عالَمنا للمصائب التي ما زال التاريخ يتذكّرها مرتجفا على هَول ما شاهد وما جرّب من فظاعات؟

يستبطن الطفل منذ ذلك اليوم المشهود الدرسَ الذي تعلّمه بفضل من سيسمّيه على طول الطريق ''الذي منه كل نقمة''، أن الشجاعة ليست ألّا تخاف وإنما أن يَعتصرَ الخَوفُ منك الأحشاءَ فترفضُه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزيّن لك الاستسلام فتلفظه. بتكرار مثل هذه التجارب –سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات–تترسّخ عنده القناعة التي ستتحكم في كلّ تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرتَ على خَوفك لن ينتصر عليك أحد.

يواجِه الطفلُ المهزومُ المنتصرُ الوضعَ وكلُّه سعادة بأنه لم يستسلم لخَوفه، مرُجئا مشكلة الأكذوبة المفضوحة التي سيبرّر بها حالة ثيابه ووجهه. لكن كيف؟ نَفدَت كلُّ أعذار السقوط: من السلّم عند مسح الخريطة بأمر من المعلّمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلّا الكرسي ليسقط منه.

تأخذ ''ما'' بيد طفلها، لا تُخفي وراء شبح ابتسامةٍ حزنَها المتواصل:

– لا يمكن للأمور أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟

– برأسك ''ما''، لم أكن يوما البادئ. لا أفهم حتّى سبب عداوَتهم. ماذا أقول ل''با'' يوم يعود؟ إنّني تركتُ كلبا منهم يعتدى عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

تعود ''ما'' إلى محاولاتها العقيمة والمرأةُ المسكينةُ إلى النهاية أسيرةُ التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة، وعن طفلها على وجه الخصوص.

– عِدني أنّك ستكلّم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لُبس يُسوَّى بالحسنى.

– لا، أبدا، أنا أكرههم.

– إنّهم أترابك وأبناء الحيّ، منهم أقارب وجيران، ربما أسأتَ إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كلّ سوء تفاهم.

– ''''''''...

– لا بدّ أن تكون أكثر لطفا وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللّعب معهم من جديد.

تهمس ''ما'' في أذن جارةٍ جاءت تسلّي عنها همومها.

– إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسّف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيَجان والمرح، يَصِف يوما من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

– أعمَلتُ في أولاد الكلب قبضتيّ. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستنجدون بالمعلّم. كنتُ كسيّدنا عليّ في هجومه على الكفّار.
على فكرة، السيد المدير يطلبكِ غدا لأمر يهمّك.
تدير ''ما'' ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف بفسّر لها أنّه وفىَ بوعده، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.
– أرجوكِ، اسمعيني. يدّعون أنّ ''با'' يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لأحصل على أحسن الأعداد، لذلك أنا أوّلُهم.
تفتح ''ما'' فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.
قدر الآدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهيه هذا الآخر. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهيه كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارتها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسَد وصراع وظلم. إنه العَيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةٌ أو فلسفةٌ أو دِينٌ أو سياسة.
وفي ملفٍّ مودَع في أعمق طبقات الذاكرة يشتدّ صراخ ''با'':
– هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضّ الطرف يا ابن الكلب. غضّ الطرف واطلب العفوَ. لا تريد أن تبكي. لقد كسرتُ شوكةَ مَن هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك –يا كلب–وستعلَم أنه لا خيار لك غير الطاعة.
هل من باب الصدفة أن يسألني بعضٌ من الأهل عن أحوال ''سيّدك'' لأن لهجة القرية تسمي الأب ''سيدا''؟
تشتدّ سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.
– رحماك، رحماك، ستقتله.
يصرخ الأب وكأنه مُصاب بلوثة من الجنون:
– سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!
يواصل المراهق الرافضُ الخضوعَ لمتسلط –أبا، حاكما، أو إلها–التحديقَ في الوجه الغاضب المحمّل بآلام السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.
تحت وابل الضرب يحوّل ذهنه وجهة بيت شهير بتغيير كلمة واحدة منه:
أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهيٌ عليك ولا أمر.
يجنّ جنون ''با''.
– تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.
يخطر للمراهق أنّه آن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليّها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أَشباهِه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمّل تبعات كسر ذراع مَن يبغض أشدّ البغض، لكن مِن أين له تحمّل تبعات كسر ذراع مَن يحبّ أشدّ الحبّ؟ إنه فصلٌ من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة –وإن بأشكال مختلفة–إلا علاقة الأم بالبنت، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.
كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي سيواصل هذا الطريق؟

يصرخ الرجل في أَوَج الغضب لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مُناصِر مجهول:
– قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجّلوا بالطبيب!
يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرهَق على الأريكة منتظرا أن تأتيه ''ما'' بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دَوما على حقّ وأن هذا الولد ما زال غير ناضج وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مراهق.
وفي آخر ملفّ عن صراع الإرادتين، يواجِه الشاب نظرة أبيه لا يرفّ له جفن، نافخا ببطءٍ مدروسٍ في غليونه الجديد، وحركاتُه تنضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.
يعود الصراخ بنفس الحدة وكأن الزمن لم يتحرك قيد أنملة.
– تدخّن أمامي؟ خسئت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.
قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدّي؛ فالذات لا تتشكّل إلّا باعتراف تفتكّه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السّبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالحب والاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها بالكره أو بالتجاهل. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية.
اللهم اجعلني دَوما من بُناة الذوات لا من مدمّريها.
يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالةُ الحقيقية لرَجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتّجاه، لرجل مقهور مِن تجدّد مَنعه من دخول صحرائه الغالية، والمانعُ شرطي محلّي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبَط هزمَته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذَوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشِل حياته.
وفي عينَي ''أين في الناس'' يلمَع الاستغراب كأنّه ذُهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبُه طفلي؟
تبقى العصا معلّقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجُل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمَن يُعيد إلى غمده سَيفا لم يعُد له نفع. ثمّ يحدّق في ابنٍ لم يتفطّن أنه أصبح شابا وفي عينَيه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التفهّم وشيء من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فَضَلالة عابرةٌ من الكآبة ثمّ تجدُّد المرح.
ينفجر ''با'' ضاحكا: لله درّك إنك رجُل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

*

جاء الدور لتعذيبي على من لا يلمع في عينيهم إلا بريق الحقد والغضب.
يحدّق فيّ كبير الشرطة السرية طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحوّل اتجاه النظر:
– نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرناك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجدّية.
يريد مني هذا المستخدم الخُضوعَ للتهديد، والغريزةُ عندي الهجومُ على كلّ مَن يهددني!
لم يكن الرجُل المخيفُ يهدّد في الفراغ. تصرخ سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفةٍ مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني مَن تجمّعَت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع بلا نهاية والأوباش ورائي، تَوزّعوا الاستفزازَ في نظام محكَم. فهذا مكلّف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أخُن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

من أين يأتي النور؟ *(البياتي)*
ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور
يبيعنا الطغاةُ للطغاةِ والملوكُ للملوك
تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذا من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أُمّي. يفتح المارّة أفواههم دهشةً ثم يُطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفَوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية. في مستوى حديقة الحيوانات تَفتعل حشود الذي منه كل نقمة قطعَ الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضَع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القرَدة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيضَ لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفتين مغلقتين باشمئزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استَحلَّ حرمتَه إجرامُ الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي –وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال–صارخا: مَن تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة داهمتني على غير انتظار، رعدُها الحقد وبَرقها الغباء والجهل؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العَون؟ ممّن؟ أُجيل البصر حولي باحثا عن هبّة من ''الشعب'' الذي نَدّعي كلُّنا أننا على استعداد للموت من أجله. يطأطئ المارّة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبَها فكيفما انقلبَت يومًا به انقلبوا (أبو العتاهية)
يُعظّمون أخا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

فجأة أنفجرُ ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة عائلية سيضحك فيها على الفجّار ويتشمّتون.

في ملفّ آخرَ والغوغاء المأجورة –نفسُ الغوغاء المأجورة–الملجأُ الأخيرُ سيارةٌ يَستهدفها الذي منه كل نقمة ضربا بالعصي. أصرُخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلمَ السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبدا. يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دَولةٍ صادرَتها العصابات، مثلَ زورق تتقاذفه الأمواج. فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرّد إنذار آخر وربما أخير.

لنُسمِّ هذا النوع من البشر الذي منه كل نقمة.

ها قد أَغلقت المدينة أبوابها في وجهي كأنني لم أسكنها يوما ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح بوجهه مَن يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدَهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غبارا شوّه لمعان حذائه. يفتعل مَن كنتُ وليّ نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرَني وأنا أوّل من رأى مصدوما ومتضايقا. إيه والله هكذا هُمُ البشر.

ما أكثر الأحباب حين أعدّهم لكنهم في النائبات قليل (علي بن أبي طالب)

لم يبق لي من مكان أمشي فيه طولا وعرضا، ولا خشية فيه أن ألاقي آدميا يغيّر الرصيف، غير بيت فارغ ومطوّق. الوحدة والبرد. ومن ثوابت قصص الآدمي أنه دَوما في وضع أحسن مما يَتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا عِلم له بالمصائب التي أَفلتَ منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه. ذاتَ يوم وأنا أبحث عن كشك هاتف غير مراقَبٍ، تُمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهروا من طول النفَس طوال هذه السنين والعقود. نفَسٌ لا يضاهيه إلّا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين ''ما'' هذه المرة لتحميَني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطّب الجبين مِن حامٍ؟

العقبة الكأداء هذه المرة، ليست كثرة مفترقات الطريق وكثرة قطّاعه ولا حتى اكتظاظه، إنما توقّفه غير المتوقّع.

يصرخ ورائي الحارس بصَوت خشن فيه ملل لا يخفيه: قف؛ وجهك للحائط. انتظر أن يأتي دورُك. لا تتحرّك. لا تتكلّم إلا إذا أذنتُ لك. اغمس الإبهام في الحبر الأزرق. ابصم يا حيوان. انظر إلى المصوّر دون هذه الابتسامة الغبية. تظنّ أننا نأخذ لك صورة العرس؟ والآن إلى الزنزانة ركضا، لا تنظر يمينا أو يسارا.

وفي ملفّ آخر ما زال بعيدا على خطّ الزمان يهمس فيّ السيد مدير السجن بصوت معسول، فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة لأعلى هرم السلطة: مِن هنا سيّدي، حذار من دخول الزنزانات ففيها بعض المجانين الخطرين.

يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرَى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الآذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيّدي أرجوك. انظر إلى هنا!

ما أريده هو أن تتداخل الفضاءات والأزمنة والملفات لأقف أمام زنزانة رجُل منهمِك في القراءة لا يعلم أنّ شبحا آتٍ من مستقبلٍ قريب يراقبه بسخرية ممزوجة بشيء من العطف يهمس فيه: يا لك من غبيّ!

كل الامتداد زنزانة نتنة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباحٍ ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زنزانة ذاكرةٌ ملفّاتُها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أُحاول استحضار الوجوه وتخيُّل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلّا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: صبر.

قد لا يعرف الآدمي طوال رحلته حالةً أكثر عمقا وتواصلا من العجز، وهي الآن وهنا في أوَجها، وقد أطبق فخّ الصياد الخبيث على الطريدة الساذجة.

فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة ستُلاحقني سنواتٍ، في النوم وفي اليقظة، بين يدَي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجدّ، تُذكّرُ بأعمق وأرهب ما تعلّمتُ عن الطبيعة المخفية لآدمي يلاقيك في الطريق مُسَلّما، تَضمُّه لصدرك لا تدري ما الغولُ الذي تُقبّل. أيّ كائنات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعَت التعذيب بل وجعلته أداة سُلطة في الدنيا والآخرة!

كم سمعت بالفظائع التي يرتكبها الذي منه كل نقمة في مثل هذا المكان. أظافر تُقتلع، ابنة تُغتصب أمام أمها وأبيها، سياط تسلخ الظهر إلى العظم، حوامض تراق على الجروح، كيّ القميص على حامله، أطراف تبتر تباعا، عيّنات مما يَقدر عليه الذي منه كل نقمة، عندما يتعامل مع أعدائه بالتفصيل. أمّا بالجُملة فأكوام من الأجساد تُحرق لاستخراج ذهب أفواهها، تلال من الجماجم على أنقاض مُدن سُوّيَت بالأرض.

لا يُعرف عن أي كائن أنه يمارِس التعذيبَ باستثناء الآدمي. ولا يُعرف عن أي كائن آخر مثلُ علاقته بالقتل. هو عند الحيوان عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياتَه ولو بثمن حياة المقتول.

يتغير الأمر بصفة جذرية مع الآدمي. كأن هناك داخلَه سائلٌ يَطرح أسئلةً لم تُلقَ قبلَ ظهوره: هل ما زالت هناك طُرقٌ للابتكار بعد اكتشاف الذبح والحرق والخنق والشنق والصلب وضرب العنق، والقطع إربا إربا والدفنِ حيًّا والسلخ ونبش القبور والتمثيل بالجثث؟ أيّ طريقة جديدة لم تُجرّب من قَبلُ لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم، بهذا الذي يُقتل؟ كيف القتلُ السريع النظيف غيرُ المكلّف للتخلص دفعة واحدة إن أمكن بمئات الملايين من البشر. ثمة مَن قضى رحلته يبحث عن سُبل القضاء السريع المريح، على كل ما تحمل هذه الغابات من أشجار وتلك السهول من الأبقار الوحشية أو المحيطاتُ من الحوت. السؤال الوحيد الذي يجب أن يُطرح: كيف سُمح لكائن كهذا بأن يوجد؟

الردّ داخلَ الرؤيا القائلة بوجود خالِق خَلق هذا الجنسَ، أنه ارتكب الأمر –كما قال أحدهم–وهو في حالة متقدمة من السكر.

الردّ داخلَ الرؤيا القائلة بأنه تجربةُ قوَةٍ عمياءَ اسمُها الطبيعة، أن تجربتها هذه كانت أكبر غلطة ستدفع ثمنها باهظا.

يصل الصراخ إلى أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثمّ صفيرا ثمّ حشرجة. كفّ الرجل عن الصراخ. ربما هو بصدد التقاط أنفاسه. ربما هو يتوجه بِاسمنا جميعا إلى مَن لا يهمّه الأمر: خذ استقالتي على وجهك واذهب للجحيم أنت ووجودك، أنا عائد إلى العدم. صدق من تنهّد: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أَصدَقُ منه من صرَخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل في المحطة القادمة. أَصدَق منهما الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد. نعم، إنه السجن، السجن الأكبر، السجن النهائي، السجن الذي لا قدرة لأحد على تخطّي قُضبانه وهي في كل مكان.

فنون رداكِ يا دنيا	*لَعمري فوق ما نَصِفُ*	*(أبو العتاهية)*
فأنتِ الدار فيك الظلم	*والعدوان والسرف*	
وأنت الدار فيك البغيُ	*والبغضاء والشنف*	
وأنت الدار فيك الهمّ	*والأحزان والأسف*	
وأنت الدار فيك الغَدرُ	*والتنغيص والكلف*	
وفيك الحبل مضطرب	*وفيك البال منكسف*	
وفيك لساكنيك الحين	*والآفات والتلف*	

شيء بداخلي يستهزئ: بل أنت السجن وقضبانه مخيّلتك القاصرة وفكرك الضيّق وروحك المشبعة بالخوف وفؤادك عندما يفرغ من الحبّ.

تتردّد قهقهةٌ عاهرة وأوامرُ صارمة بالصمت وأخرى بالكلام. كيف يمكن أن يكون لهذا الذي وصلَت لديه نقمةُ البشر إلى ذروتها حبيبٌ أو طفلٌ؟ بل كيف يمكن أن يكون له أمّ أصلا؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ كائنٌ جاء من عوالمَ أخرى لتدمير الآدميين بغَرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ شيطان طُرد حتى من جهنّم؟

فرضية رهيبة وأفظع منها أنه آدمي، بل وله أمّ.

اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقةَ الوحيدةَ التي يعرف أنها قادرةٌ على دكّ حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الزنزانة وأن أضع رأسي بين ركبتيّ وأصابعي داخل أذنيّ، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بِقع نور باهت.

يا إلهي، أيّ شيء جئتُ من أجله لهذا العالم يستأهلُ كل هذا الألم، والباقي منه الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟ اللعنة، ماذا فعلتُ لكم؟ ماذا فعلت له "هو"؟ لماذا صادر حقي في نعمة العدم؟ لماذا أجبرني أن آتي عالما فيه العذاب والتعذيب؟ ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن الرجُل، ولهم مني كل ما يريدون. لن أتركهم يجنّنوني. ستفشلون هذه المرة أيضا بل سأقلب الموقف رأسا على عقب.

ألا يُصدر الآدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجُل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفالَ. فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد. لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحمله القلب. يا رجل، مَن يحدثك نحاسي كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعبّ الأُذُنان من رَوعة صمت مفاجئ كما تعبّ الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكونون بصدد مسح دمائه والتفكير في الأعذار التي سيتقدمون بها لتبرير زلّة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفّ في خرق قذر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم،

لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تعلو محيّاه ابتسامة الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأسُ مدفون عميقا بين الركبتين.

ما الذي يجعل من الآدمي مثل هذا الكائن البشع الذي لن تجد له نظيرا بين الكائنات الحية، في القسوة والنذالة؟

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص وسط جحافل الآدميين. تقول ما العمل؟ لا شيء غير مواصلة العيش معهم رغم كل ما تعلم عنهم. ألا نزرع على سفح البركان؟ ألا نبني فوق أرض الزلازل؟ لمَ لا نواصل النوم مع الآدمي الآخر بلا سلاح تحت المخدّة، طالما نستطيع تناسي مَن هذا الذي يشخر بجانبنا.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعِنان السماء. تريد شجّ رأس مَن ارتكب هذا العالم فترفرف لحظة لتنقضّ عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تَحالفَ لإخماده سادةُ السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأوّل لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلتَ موجودا! كأنْ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعتُ فيك.

ذلك أنّني أضع اللعين كلّ ليلة في المزاد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يَسهُل التغرير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غرّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجّه إليه مجددا كل صباح متثائبا ولا أَملَ جِدّيًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالَمٌ كاملُ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

يُفتح باب السجن الضيّق يوما ليتلقفني سجنٌ أرحبُ اسمه الوطن. يأخذونني إلى بيتي في سيارة الشرطة.

حديثُ بَشَرٍ تخلّوا لحظة عن لَعِب أدوارهم.

– تظنوننا وحوشا؟ نحن بشر، نعم بشر، ماذا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

يواصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت:

– هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركتَ فيها؟ التي حصلَت أمام مقرّكم؟ ... طالَبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسسك أحد بأذًى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟

الصوت الآن مختنق يغالب عبرة صامتة:

– قل،

– فتحَت القحبة بنت الكلب التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقزّز لا يكفّ عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني.

المضحك المبكي في هذه المآسي المهازل التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الممثلين يعتقدون أنفسهم أخيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمعّن عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار–أشرار وأشرار–أخيار، بين جلادين–ضحايا وضحايا–جلادين، بين خطرين أغبياء وأغبياء خطرين، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذينَ بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على جلّ فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الاستيلاء على ما أُخذ منهم، وسَرقةِ ما لم يُسرق بعد، وكل آدميّ على الدوام كذّاب مفترًى عليه، سارق ومسروق، ظالم مظلوم.

تتدافع إلى الذاكرة صورة ''با'' ويده على خده وغضبه لم يخمد بعدَ عقود من صفعة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصداع المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي. يا ربّ، كم من آلام عبثية يلحقها الآدمي بالآدمي!

دون وعي ترتفع يدي، أمرّرها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفّ منذ شهور.

– عفوا، وقبّل صغارك من طرفي.

إذا أردتَ ألا تُخطئ أبدا في حقّ إنسان، تساءل أمام أيّ تصرف يلفظه القلب ويرفضه العقل: ما المصاعب التي يتخبط فيها هذا الشخص؟ ما المشاكل التي تجاوزَت قدراتِه على حلها، ما الآلام التي يعاني منها؟ لن تجد إجابة أغلب الحالات، لكنّ مجرد إلقاء السؤال على نفسك سيمنعك من الردّ على الخطأ بالخطإ وعلى الخطيئة بخطيئة أكبر منها.

مِن أين لي التركيز على العدوّ وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي.

ومن يَذُق الدنيا فإني طعِمتُها وسيق إلينا عَذبها وعذابها (الإمام الشافعي)

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همّهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنتَ سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتيّ. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدوّ جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرحٍ الذي أصابه به الصديق أم العدوّ. يهمس فيّ:

– أتعقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيّنك بالمقابل على أصحابك؟

أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقَه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ فيّ قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

– يا مغفّل، مَن يبحث عن الوفاء يستثمر في الكلاب لا في الآدميين.

لا أحد فَهِمَ الحقيقة المرة قدر ذلك الأعرابي الذي تزوّج وهو في أرذل العمر، فعاب عليه أصحابه الأمر يُخفون حسدهم وراء اهتمام كاذب بذريته: هلّا فكّرتَ في أطفال صغارٍ سيكبرون بلا عائل. فجاء الردّ مفحما وحكيما: ''أبادرهم باليتم قبل أن يبادروني بالعقوق''.

بربّكم، أليس مضحكا أن تلتحم الجيوش ببعضها البعض وهي مثخنة بجراح المعركة التي لم تكفّ لحظة داخلها، أن تنشب بين جيوش من المعاقين والجرحى أنهكتها تنافساتها الداخلية وأكملت المهمّةَ حروبُها الخارجية مع جيوش ليست بأحسن حال؟

مشكلتنا الكبرى في معارك الصديق الذي يَختفي وراء ملامحه المنافسُ المزمن. فالصديق الحقيقي هو آخِرُ من يصدّق ما يُروَّج عنك من إشاعات وأوّلُ مَن يغفرها لك إن صَدقَت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، هو ما تُسمّيه ويُسمِّي نفسَه الصديق، هو أوّل من يُصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك فيها عن الخلّ الرفيق كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور. كم صدق القائل: اللّهم أَعِنّي على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل. ما تحتاجه هذه الساحة ليس محارِبا غبيا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

السؤال أمام أي حليف تصيبك به الأقدار ليس هل سيغدر بي يوما وإنما أي يوم سيغدر بي؟

لا تحاول أن تصل قمة تظن نفسك في مأمن منه، فأنفاسه في ظهرك وأنت على أعلى القمم.

في ملفات ذاكرة المستقبل حادثة تؤكّد أنه لا فرار من الذي منه كل نقمة، لا في أدنى درجات سُلّم الثروة والسلطة ولا في أعلى هذه الدرجات.

– كان كمينُ الإرهابيين البارحة لجنودنا...

أرفعُ يدي، أريد من الطبيب العسكري الصمت. على فراش الآلام كان ثلاثتهم راقدين لأشهُر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

– ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

– لا خوف على حياته سيّدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في...

بَشرٌ يزرعون الزيتون وبشر يزرعون الألغام. هكذا هم البشر. عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزَوٍ من دهاليزها، تترصّد كل الاستعدادات القادرة على جعل الآدمي يُعذّب الآخر، يَغتصب أمامه زوجتَه الحاملَ، يستلُّ قلبَه يأكله وهو ينبض، يبول على قبره يُقهقه نصف سكران نصف مجنون، يُلقيه حيا من الحوامة، أو يزرع على طريقه لغما من متفجراتٍ كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام.

القاعدةُ أن هذا الصنف من البشر على يقين أنّك حجَرُ عثرة في وجه ما يريد، أنّك أخذتَ منه ما لا حقّ لك فيه أو أكثرَ مما تستحق، أنّك لم تُعطِه حقّه من هذا الشيء أو ذاك، أنه سيفتَكّ منك ما هو أحقّ به منك كلّف ذلك ما كلّف. هو يريد الدنيا له وحده وحتى في الآخرة لا يريدك إلا عبدا له.

ذروة الغريزة العمياء عنده ظاهرة ذكرها المؤرخون وأكدتها الحفريات وهي تكتشف مقابر يستوي فيها الطاغية الممدّد على ظهره وحوله جواريه وغلمانه الذين قتلوا على حافة القبر ثم رموا فيه على عجل، لأن الآدمي الذي استنزف الأجساد والأرزاق حيّا اعتبر من حقه أن يكون له خدم في الموت كما كان له خدم في الحياة. كم صدق شاعري الحكيم في قوله عن هذه الدنيا:

تملَّكَها الآتي تَمَلُّكَ سالِبٍ وَفارَقَها الماضي فِراقَ سَليبِ

إنه رفيق الطريق الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خرير الماء على دويّ الرعد، على نزول المطر. هو دليل السوء والشرّ الذي يقودك في مجاهل الغابة ليضيّعك عمدا. هو مَن يحفر أمامك الحفرة لتقع فيها، من ينصحك بالطريق الذي ينتظرك فيه قطّاع الطريق. هو من يسرق حذاءك لتمشي حافيا على الأشواك. هو الذي يدفعك نحو صحاري الموت يمنع عنك الماء عند العطش أو يقرّبه لشفتيك المتشقّقتين ثمّ يبعده ضاحكا متشمتا. هو الذي يدعو الكواسر لتقتات من لحمك ولم تلفظ بعد نفسك الأخير. هو الذي لا يترك لك الخيار إلا بين الحرب الأزلية والاستسلام المشين. هو الذي يتبوّل على قبرك ضاحكا.

كأنه لم يُخلق إلا ليكون مُغلِقَ كل الأبواب، واضعَ كلّ العراقيل، معسّر كلّ يسير، منغّص الوجود. إنه الوجه البشع للعالم وللآدمي. اللهم احرمه من النوم ومن الموت.

يأتيك مِن تَواصُلِ المواجهة مع كل الأشكال التي يتخذها الذي منه كل نقمة وتجدّدِها بعد كل صُلح قصير، مَللٌ مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ في هذا الآدمي: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيهات. هو كتلك النباتات المضرّة التي لا ينفع فيها اقتلاعٌ أو سُموم أو حَرقٌ. لا جدوى من قتل شكله الأوّل، ولا الواحد بعد الألف. ولا جدوى من التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها، فنحن دَوما مطوّقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحتَ من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

ربما للقوى المبهَمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود جنس الذي منه كل نقمة. منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يولّد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهّج نارا ونورا ونحن نقاوم وننتصر.

ممكن، لكن لماذا بهذا الثمن؟

تقول انتبه، قد يثير كلامُكَ هذا حفيظة السلطات العليا فترميك بالمزيد منه وهي التي أرادته جزءا قارا من السيناريو لما يقال عنها من حكمة خفية. اطمئن، جرّبتُ كل الفظاعات ولم يعد يخيفني شيء. هذا ما يسمح لي بطرح الموضوع من جذوره واقتراح الحلّ الجذري. كيف؟ بتنظيم مظاهرة عامة وعارمة لكل من أضرّهم وجود البغيض والتهديد بكذا وكذا إن لم تحذف التعيس من برنامج الرحلة.

تقول ساخرا بماذا ستهدّد السلطات العليا؟ بما يخطر على بالك، المهمُّ أن نهدّد بشيء علّها تحملنا على محمل الجدّ ولو لحظة.

الدليل على موافقة الجميع على ضرورة التخلّص من البغيض حضورُ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نقمة، فتردّد البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشرّ: لا، لا، لا.

بدايةٌ موَفّقة لأكبر مظاهرة في التاريخ ستُجبر القوى المبهمة المتحكمة في المصائر على الكفّ عن تجاهل صلواتنا، وأخذِ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشازٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين! وآخر يصيح عيب يا إخوة، يجب أن نتوحّد لنكون أقوياء. تفكّكت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبّق مطالبه ويصَفّي حساباته مع مَن يدّعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.

آخر محاولة لإنقاذ فكرةٍ يبدو أنها لم تكن بالعبقرية التي اعتقدت. لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامّة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورصّ الصفوف. آه، لا أحد يسمع. لأشغلهم بقصيدة تلخّص شكوانا منذ خلقنا.

فيا ربّ إنّ الناس لا ينصفونني — فكيف وإنْ أنصفتُهم ظلموني (أبو العتاهية)

وإن كان لي شيء تصدَّوا لأخذه — وإن جئتُ أبغي شيئهم منعوني

إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم — وإن أنا لم أبذل لهم شتموني

وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا — وإن نزلت بي شدّة خذلوني

وإن طرقتني نكبة فكهوا بها — وإن صحبتني نعمة حسدوني

سأمنع قلبي أن يحنّ إليهمُ — وأحجب عنهم ناظري وجفوني

تتعالى أصوات الاستحسانِ فالسبِّ والصفيرِ، بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلّفِ بتسميم حياة كل زعيم: مَن قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاوَر في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صِحتُ: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يريدون التثبت من حزامي أنا!

أنا الآن كالأسد الجريح يلعق جراحه خارج ساحة المعركة منتظرا الموت، ينظر بشماتة للذئاب وبني آوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه يتنظر خائفا لحظة الأكل.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا وليأكلوا كل هذه الخرفان، فإن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمّية الشحم واللحم التي يوفرونها للكواسر.

آه، وبخصوص عذر وجودي؟ كمّية المواد المذكورة أعلاه التي سأوفرها لكواسر من حجم أصغر اسمها الدود.

الجنازة عند الآدميين كالختان والزواج: مناسبة لملاقاة الأعزاء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت وإتمام الصفقات، خاصة لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبَه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

وما النعش إلا كالسفينة راميا بغرقها في بحر الردى المتراكب

كأنني أَسمعُهم يتهامسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيتَ ما أبشع نظراته، لا يلبس ربطة عنق، مَظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الآفاقي أن يكون سيّدا لنا، حرام عليكم أن تواصِلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة، يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير"، إلخ.

كم أخطأوا جميعُهم في حقي. الذين بالغوا في كرهي لجهلهم أو لتجاهلهم لما فيّ من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعيوبي. كان لي ككل الآدميين بعض الحسنات تنسبّها زلّاتي، وبعض الزلّات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدَر الآدمي ألا يكون إلا صوَرا في الأذهان. صورته في مرآة مَن يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يَعبر طريقها، بالكاد تَلمحُه. وحتى صورته في مرآة ذاته. أما مَن له هذه الصور المتباينة فشبه مجهول للآخرين ولنفسه أوّلا.

لعنات الحفّارين الصامتة وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة. على فكرة، لماذا يجب أن أُودَعَ في جَوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في آدمي؟ الرائحة! من سيتضايق إذا رُميتُ بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تَقلق فتحتَ الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتَني. "ماشي" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأُدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا

أخشى ما أخشاه أن ينتصبَ الخطيب المفوّه لآخر اعتداء. مَن قال أكبرَ الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصَّيد؟ نسيَ الشقيُّ خطبة التأبين. ها هم على أُهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشوِ فَم الميّت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطاءه وهو حيٌّ أصغرَ حبّة منه. لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّا، بالتنقيص من قدرِك، ويكذبون عليك ميّتا بالزيادة فيه. إياكم ثم إياكم، واللهِ لو خطبتم خُطَبَكم الرنّانة على حافة قبري لرميتُكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانقلبتُ عفريتا يأتي لياليكم بأفظع الكوابيس. بالله عليكم يا مَن أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركتُ لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا مَن أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبَلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وتنتحبن على الميّت، والحال أن تمام العكس ما يجب. ولأنني لَمّا انبثقتُ في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوّه يمدحني بخصالي المرتَقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخالةٌ وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثالوثا آخرَ من النساء: تفاحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحبّ لم أستحقه يوما.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميّت دفنُه. نعم، وبصمت.

وحده الوجع الخاص الصامت حقيقي، أما الصاخب الجماعي فأغلب الوقت مسرحية عديمة الذوق.

تُهال على جسدي آخر حفنة من التراب، أُبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعينٍ تعتصرُ عبثا من مآقٍ جافّةٍ دموعَ التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفّق سيل الحياة، نهر جبار عاتٍ آتٍ من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما يعنيه القطرة التي تبخرت منه.

ميّت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد. أنت الذي يعرف محوَ الخُطى، امحُ آثاري.

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقربُ الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أولاد الكلب! أي أهمية للأمر الآن وقد أدرتُ لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهدة أريد أن يكتب هايكو ايسا أعدتُ صياغتَه بما يرضيني ولا يغضبه.

"أخيرا نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غنِّ على قبري"

كأني بكل الذرات التي تدافعت طوال حياتي منتزَعَة من كم من كائن ومن شيء لتتجمّع في شكلي العابر تتفرق فجأة في كل الاتجاهات لبناء في أشكال أخرى مآلها هي أيضا التلاشي طال بها الزمان أو قصر. يا لهذه اللبنات الحاضرة بداية كل البدايات ونهاية كل النهايات، التي بنت وستبني كل ما وجد وسيوجد من الأشكال-الحالات! صدف ترتطم بالصدف، عبث يتفاعل مع عبث أم بحث متواصل، تجريب لا يتوقف، لكن لأي باحث، لأي فنان خاصة لأي غاية؟

المهم أنني عدت من حيث أتيت أن بوسعي الآن أن أضع رَحلي انتهت مشقّة السفر. قبل الإخلاد إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجّل إدانتي التامة لفكرة خَلق كائنٍ مثل الذي منه كل نقمة، وطلبي الملحّ بسَحب دوره من السيناريو.

أتسمّر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهّمة لجبريل وهي تنقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي. ماذا أيضا؟ آه هذا ملفّي وهو بداهة زاخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوَى الأطفال الذين تكبّرتُ عليهم لا أنتبه لحاجتهم للتفوّق، بشكاوى الإخوة الذين استأثرت دونهم بأب لا أنتبه لحاجتهم للفت انتباهه إليهم، بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح وشاب ناكر للجميل لا أنتبه لحاجته من الاعتراف، بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عفّرت أنفهم في التراب لا أنتبه لحاجتهم من الاعتبار، بشكاوى الطغاة الذين أشبعتُهم تهكما وتحقيرا وجعلتُهم مضغة في الأفواه وساهمت في دكّ عروشهم، بشكاوى الجلادين الذين فضحتهم وسلّطت عليهم الأضواء وهُم خفافيش الظلام والعفن، بشكاوى كل الذين ظلمتُهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم ناظري وجُفوني، بشكاوى الذين لم يسلَموا مني أُلاحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق الأبيض.

آه، ما زال هناك المزيد.

ماذا أيضا؟

شكاوى الأعشاب التي اجتثثتُ أو دُست غير عابئ بماذا أجتثّ أو على ماذا أمشي، شكاوى الفئران التي سمّمتُ صغارها في غرفة المهملات، شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بأبشع أدوات الدمار، شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمتُ أطفالها شاكيا من رداءة طبخها، شكاوى شعوب النمل التي لاحقتُها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

اللعنة! لا يكفي أنني كنت الذي ''منه كل نقمة'' لكل هذا الكمّ الهائل من الآدميين، بل وكنت أيضا غولا وعبّيثة لِما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى! أيّ عقاب ينتظرني...

اللهم إلا إذا شفَع لي عند السلطات العليا أنني كنت أيضا ذلك الآدمي الآخر، الآدمي الذي منه... الذي منه كل نعمة.

*

يخرج لك الكائن العجيب من جحافل الذي منه كل وحشة متى لا تتوقّع وعند أصعب مفترقات الطريق.

يُداهِمني الشعور بأنني مجدّدا في خطر داهم وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي في الشارع المظلم ويده تمسك بذراعي. تدوّي داخل الذات كل صفارات الإنذار. تتراءى لي بسرعة البرق الصوَر المعتادة وكيف سأُقتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمة وعيونٍ يتطاير منها شرار البغض والخوف.

تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الآدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربتُ يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الزحمة، لا يترك لي الوقت للتمعّن في ملامحه.

إنّه الآن شعور مَن كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عَثر أخيرا على والديه. صدّقتم صراخي في وجوهكم بسببٍ وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدّدا على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخجلته التأتأة. مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روحي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم جميعا. على أي حال كنا نعيش دون هذا الذي يرافقك على طول الطريق يُعينُك على أحواله وأوحاله!

ذات صباح يُدَقّ الباب بإلحاح، فأخرج إليه متوقعا الشرّ المألوف، خاصة وأنا أسمع أصوات كلاب الضبع ترغي وتزبد وراءه. كلا، هم لم يأتوا لأخذي مرّة أخرى للتحقيق في قضية ملفّقة وإنما هم بصدد التأكّد من هُوية شخص أكاد لا أعرفه يصرّ على زيارتي. يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حق منع الزوار عنه. يسلّم عليّ مهنئا بسلامتي. يلقي بنظرة ثاقبة حوله، متعجبا من خلوّ البيت تقريبا من كل أثاث. لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة كأنه يعرف حبّي للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليَعلم الجميع، مع مَن يقف وأي قضية اختار. أمازح الرجل:

– أرهقتَ من يتبعونا وأرهقتني بهذا المشي البطيء، أنا الذي لا أعرف إلا الركض.

– كيف أحوالك مع زميلك العزيز في الكلية وإلامَ وصلَت الخصومة؟

– طلبتُ منه رسميا أن يتوقف حالا عن الصلاة والصَّوم حتى لا يزيد في نرفزة الله. قلتُ له سوّ وضعيتك مع الناس ومع نفسك، بعدها يمكنك العَودة إليهما قد يقبل بهما الغفور الرحيم من جديد. أما فيما يخصّني فسأبقى دَوما صديقك المخلص حتى وإن كنت أعرف عنك كل شيء والباقي.

– لماذا لا تُظهر نفس الإنسانية مع خصومك السياسيين.

– هؤلاء لا تنفع فيهم الإنسانية ولا اللاإنسانية. هل تتذكّر ما ردّ به فرويد على امرأة طلبَت نصيحةً بخصوص أحسن تربية لأبنائها: افعلي ما تريدين، النتيجة دوما سيّئة. نفسُ الشيء مع السياسة، ربما لأنها عُنوان المشاكل التي ليس لها حلّ.

– فسّر.

– إن أنت لاطفت الأصدقاء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك عاجلا أو آجلا انطلاقا من قناعةٍ لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم انقلبوا أعداء مع كل تبعات الأمر. إن أنت لاطفت الأعداء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك سريعا انطلاقا من قناعة لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم زدتهم عداء على عداء مع كل تبعات الأمر.

نفس المعضلة على صعيد الأنظمة والمؤسسات. خذ الدكتاتورية التي نحاربها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولا يتحملونها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مبادئهم ومصالحهم. خذ الديمقراطية التي نحارب من أجلها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولن يتحملوها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مصالحهم ومبادئهم.

أما عن النظام المثالي الذي سيرضي مبادئ ومصالح الجميع فهو السراب الذي نركض وراءه جميعا. تسيير شؤون الآدميين مثل تربيع الدائرة. إن حكمتهم بالعنف خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين تمرّدوا مباشرة، والرقّاصُ يقفز على مرّ الأنظمة والأحقاب، من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادرا ولمرحلة لا تطول.

– كفى وجع رأس من هذه السياسة اللعينة وصراعاتها العبثية. هل جعت؟ أي مطعم تفضّل؟

– بعد طعام السجن وما أطبخ بيدَيّ، كل طعام سيكون زردة.

– لنذهب إلى مطعم المتوسّط، هناك أحسن أنواع فواكه البحر وصاحبه صديق.

أمام أفخر المآدب التي أصرّ الرجل على اختيار أصنافها بنفسه، ينتقل الحديث من موضوع إلى آخر، وهو يرجعه دوما إلى ظروف عيشي.

– لا بدّ أن تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر خاصة وهو شبه فارغ؟

لا أتمالك نفسي من الضحك:

– لا تقلق، بَدويّ متعوّد على خشونة العيش.

– عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتنام قربها؟ أم هي للزينة فقط؟

– لا، هي شغالة، لكن لا بدّ مِن... بالمناسبة، إلى أين وصلت المحاكمات الأخيرة؟

– غدا، سأذهب للمرافعة في إحداها. أنا معك في أنها مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبولُه على محام مثلي لا سلاح له غير القانون. موضوع سنتناقش فيه لاحقا، شقيقك يشتكي أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي إلى استفزاز الشياطين. تذكّر أنك تتعامل مع ''كأبو'' مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.

من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب.

تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.

نعود للمشي اليومي والرجل الطيب يركض ورائي لا هثا يمسح عرقه:

– قد يمكنني إعانتك على هموم السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتَها على رأسك. لا أحد يريد هذا الطبّ الشيوعي الذي تحاول فرضَه. وضعك في الكلّية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكزك الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

– يكذبون عليّ كعادتهم إلا في خصوص نفور طلبة الدكتوراه مني. لكن صدّقني ليس هذا سبب ما فعلتُه مع تلك البنت

– لا أصدّق.

– فعلتُها والله دون تقاضي فِلس أو مراودة المسكينة.

– ولو! هات التفاصيلَ وسرُّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

– طالبة أجنبية جاءت من بلد أكثر منا فقرا وتخلُّفا، جمعَت في آن واحد قلّةَ الذكاء والجمالِ والمالِ. دخلَت مكتبي ذات صباح ترفل في أسمالها باكية لأن كل من توجّهت إليهم من الزملاء الأعزّاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمسّ الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوَزة. نسيتُ أن أقول لك إنها قضَت في دراستها ضِعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تندّر في كامل الكلية. شيءٌ ما تحرّك داخلي يأمر بمدّ يد العون لآدمي سبَح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلّا، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوتٍ مثل كل مَن ابتلاهن الله بما ابتليَت به من مصير. قلتُ لها هذا موضوعٌ سهل، جمعنا له كلَّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدتُ أرمي أوَل مسوّدة في وجهها. تمالكتُ أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجينة محسّنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شِبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه البنت وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضَتكم يوما تبيع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بَيع جسد لم يُسوِّهِ الله أحسن مما سوّى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأَت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأتجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلَّفين آخرين قد ينتبهوا للخديعة ويتسببوا لي في مشاكل جديدة أنا في غنًى عنها. قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يشِ بي أحدٌ بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكلي المتعددة. أيّ جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شخصيا شفتيها بالأحمر لكي تبدوَ من فصيلة بني آدم وبنات حوّاء. يومها كِلْنا لأنفسنا الثناء ولم نقصّر في مَدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توَصّلت إليها وكيف ستغيّر وجهة الطب للعشرية المقبلة. كل هذا أمام عاملات لا يفهمن شيئا من كلامنا. بعد نهاية ''النقاش'' مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحفُّ بنا وقار العلماء لنعلم البنت أن رسالتها قُبِلت بعلامة مشرّف جدا. لما أتمت قراءة قسَم أبقراط وهي تتلعثم، همستُ في أذنها أن قسَمها لأبقراط لا يعنيني في شيء، كلُّ ما يهمني احترام قسَمها لي بألا تلمس أبدا مريضا وألا تغيّر مِن الوظيفة التي وجدتُها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقّف عملُها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلَت علينا في القسم امرأة تلبَس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسِم مسحة من جمال محتشِم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحبّ عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرا. لحظةُ سعادة صِرفٍ وتصالحُ خالص مع الذات والآخر.

هل من الممكن أن نغفر لأنفسنا والآخرين كل ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار استرجاع رأس المال والفائدة.

حدّثني جدّي وأنا طفل، قال الأجنبي وقد تمخّضت عنه العاصفة: غُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. قلت له: الضيافة في هذه الربوع حقُّ طَرَفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفيافي القاحلة التي تَفصل بين أرضٍ يَهرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يَهربون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرجَّح فيها مرور أو ضياع المهاجرين

غير الشرعيين... في نفس الوقت الذي يركض الذي منه كل نقمة مدججا بالسلاح لرميهم في المحتشدات أو رفع جثث الذين ماتوا عطشا.

في قصة أخرى، لِنقُل إنك أنت بطلُها تقول: غُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد ولن أتحرّك خطوة أخرى. كفى أعذارا فارغة. يا لله تحرّك، ألا ترى ذلك النور؟ إنه مصباح كوخٍ فقير. لا تخشَ أن يكون وكرَ قطّاع الطريق، حبسنا لك الذي منه كل نقمة في الفصل السابق. هيا تشجّع.

تفتح البابَ امرأة مبتسمة. تخاطبك بلُغة لا تعرفها لكنك تفهم من نبرتها أن عليك الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءك مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعا، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أيّ لحظة.

لنقل عن الذي منه كل نعمة أنه الآدمي الذي يمشي أمامك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُطلق صَرخة الفزع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوّة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يُخرجك من رمال متحرّكة كادت تظفَر بك، الذي لا يفتعل سمَاعك وإنما يُنصت إليك حقًّا، الذي إذا انتصرتَ عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهيه نجاحك ويبكيه أن يراك فاشلا، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتّكئ على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاحُك في يدك بروزَ الذئاب، الذي يتغاضى عن واضح خَوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذئاب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بَدَلك من شدّة البرد، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراكَ في قلبه تُواصلُ داخله أغرب أصناف الوجود. نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتّخذها العالَم عندما يتكفّل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهَقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الحُجّاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

*

أصخْ السمعَ لما يتعالى من أغاني الآدميين ومن أشعارهم لتكتشف أنه شغلهم الشاغل بل وفي كل عمر.

لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الآدمي لهذا الآدمي.

"أغدا ألقاك؟ اطلب عينيّ الغاليتين عليّ وأغلى منهما رضاك، مولاي وروحي بيده، ضيّعها سلمت يده، مَن أكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلّمتني كلّ ما أعلم، نور جمالك آية من الله!" إلخ، إلخ...

حدِّث ولا تسل عما قيل فيه من أشعار وما رسمت له من لوحات وما أُلّفت له من موسيقى.

ثمة فينا مَن بحث عنه على طول الطريق ولم يجده ثم جاءه اليأس فانكفأ على حزن دفين. ثمة من لم ينتبه يوما لوجوده أو لضياعه. ثمة مَن ما يزال مصرّا على أنه موجود في مكان ما وأن قَدره أن يلحقه في هذه الدنيا أو في الآخرة.

أمِن الممكن أن يكون المسافرُ هدفَ المسافر، أن يكون هو أهمّ رهان الرحلة؟

"ح" هي المرأة التي تلعب الآن دَور الحبيب الذي تمّ العثور عليه أخيرا بعد طول عذاب الجري وراءه.

تفتح فمها من الدهشة وهي تسمع اقتراحي بخصوص مكان السهرة.

– تريد الذهاب إلى علبة ليلية! أنت!

أهزّ الكتفين:

– كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض ''الستربتيز'' ولا شيء آخر. ثمة بشرية لا أعرفها ...بشرية الليل والمحرمات والخطيئة المرحة ...بشرية السكارى، المدمنين، الموشمين، البغايا، القوادة، اللصوص ، المحتالين ، الذين لا يعرفون الأدب والتأدب، الذين يضرطون ويتجشؤون ويتمخطون بصوت عالي وأمام الجميع. لن أعرف شيئا ذا قيمة عن الآدميين وأنا أدير ظهري بكل تكبر وغرور لهذا النوع منهم وربما هم أصدق النماذج.

تقطّب ''ح'' الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

– ستزعجني طوال الوقت بخطبك المملة عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديلوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية. لا شكرا، وعلى كلٍّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

– أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.

– أبحاث!؟ وفي علبة ليلية!؟

– ألم أقل لكِ لحد الآن أن أطروحتي في الطب كانت لمجرد أكل عيش كما يقولون. أما اطروحتي الحقيقية فهي التي أعمل عليها طول الوقت. عنوانها؟ الآدمي، هكذا بكل بساطة وتجريد. ربما سأضيف تحته سطرا: الموجز والقول الفصل في الشؤون الآدمية. طبعا لن أجد أستاذا يحترم نفسه يقبل بتأطير رسالة كهذه. لذلك قررتُ أن أكون المشرف على نفسي وأن أناقشها معها في آخر مراحل العمر. ما من شكّ أنني سأقبلها بعلامة مشرّف جدا. لكن في الانتظار، عليّ مواصلة جمع المعطيات الضرورية وهذا يتطلب أن ألحق بالآدمي في كل الأماكن التي تتجلى فيها بعض أخص طبائعه ومن بينها العلب الليلة. أرجوك، لا أتجاسر على دخولها وحدي.

– خشيتك من العيون؟

– التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلّف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبّانها الأشياء عن الأنظار، تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار، التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين، التي نخرج فيها مكرهين إلى أخطار عالم وضع على وجهه نقابة الأسود وعيناه جمرتان تحدقان في الآدمي كالذئب المتربص بالأرنب.

تعبق قاعة ضيّقة عائمة في شبه ظلام برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين المشاهدين والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

– مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

تخرج التي ستخلع ثيابها من وراء ستار قذر. شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر. تبدأ ''الفنّانة'' في التثنية وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مهنيّة أستشفّ من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتَواصلُ الحياء والشعور بالإثم عند المرأة مكتملة النضج.

أتت تزجي ردفها بقوامها... فتأطّر الأعلى وماج الأسفل (ابن هانئ)

تبدأ في خلع قميص جدّ شفّاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

هنا تنتبه للوظيفة الأخرى للثياب وأنها لا توضع على الجسد للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصياد: تحت الغلاف جوهر النصّ.

تنهرني ''ح'' لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها

– بهرك جمالها، أليس كذلك؟

– لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. كي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها.

فجأة يتعالى الصفير والصراخ من نظّارة يلعبون أحسن منّي الدور الذي يؤدّى في مثل هذه الأماكن.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها وسط ضوضاء تتزايد شراستها وقد تسمرت العيون على أعمق محرّك لجشع الآدمي: اللّحم خاصة اللحم الآدمي.

تنفجر ''ح'' ضاحكة:

– تغنّي! أنت! أظنّ أنّني مُقْدمة هذه اللّيلة على أكثر من مفاجأة.

– ألا يغنّون؟ لم لا أغنّي أنا أيضا؟

– أنتم الرجال لا تنحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّني لا أفهم الكلمات.

– إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنّى. ردّدي معي: آمان آمان، وبالمناسبة كفّي عن إلصاق التهم المشينة بالخنازير.

تفتعل المرأة معابثة حمّالة الصدر ليحتدّ الضحك والصفير.

تهمس ''ح'' في أذني: كأنك كئيب، حدثني عمّا بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحذائها وهو بكعب عال مدبّب.

تبلغ هستيريا الجمهور أوجها عند نزع الصدريّة ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات تعجّب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيّق. مسكينة! حقّا؟ مَن قال إنّها لا تشارك مرح المتفرّجين، أنّ اللّعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظار، سالب للعقول؟ كأنّي أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأمّلوا، سبّحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الآدميّ للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدا وتجميلا منذ أُولى خطواته على الطريق؟

يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة.

يُرمى البنطلون أخيرا بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفّاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة.

تنفجر شتيمة حقيرة أرتجّ لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه. تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا للقاعة رغم أنف القانون. المأدبة أمامهم ولا مجال للإمساك بما تعد. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل إنّها تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟

صدق مَن قال، من باعوا أرواحهم ينظرون باحتقار إلى من باعوا أجسادهم، اللّهم إلا إذا...

ربما لم يدخلوا هذا العرض فضولا أو لإذكاء الشهوة وإنّما لغايات أخرى؟

على من يتهكّمون إذن؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخاطفة للأبصار؟

هل داهمتهم هم أيضا صورة نظّارتيْ بُعد وقُرب وُضعتا على العينين التي كان بهما حور؟،أسنان سوداء وأخرى صبغها النيكوتين بالأصفر، نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تئنان بحمل ما لا يطاق من مترهّل اللّحم والشحم. هل شتائمهم موجّهة إلى المرأة أم للذي يرهّل ويمزّق ويكلّس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كئيبا؟ هل

هذه العلبة اللّيلية الحقيرة محراب نتعبّد فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع؟ أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العبادة والكفر، التقديس والتدنيس، الصلاة والرجم؟

تأخذ ''ح'' هي الأخرى في التهكّم:

– تسمي هذا رقصا؟

الرقص، لحظة استكشاف ما يزخر به الجسد من إمكانيات حركة تجاهلتها أغراض البقاء، لحظة نعود فيها أطفالا نقفز ونصرخ ونهرّج لِنُفرغ ما بنا من طاقات طال كبتها، لحظة تفجر الفرح فينا لأننا ما زلنا أحياء، منذ الأزل الطقس الديني بامتياز.

''ح ''وفي صوتها نبرة لا تبشّر بخير.

– خذ بالك، ستسقط نظّاراتك من فوق أنفك.

– هكذا تكون النهود وإلّا بلاش، الافتعال والتكلّف عند بعضهنّ.

– أخطبها لك؟

– الآن؟ هكذا وبلا مقدّمات.

–كن على حذر. ذقت أظافري ولم تجرّب حتى الآن عضّتي.

– صمتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهائجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى ''جوردانس''.

أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الآدميّ عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى.

– انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

– رُبّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفتُ هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورّط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟

– لا أرى ما أريد رؤيته.

– المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتّى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمّر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

– لا أصدّق أنّها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

– لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيتَ من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

يعتقني الظلام من كلّ تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجوّلة ستُرمى يوما لقمةً سائغة للدود.

– أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه، !!!

– وماذا كنت تنتظر؟ أنْ تحاضر في النحو المقارن.

– تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة ورائي، لا أظنّ خرا حتى هذه الحسناء يعبق برائحة الياسمين.

تواصل ''ح'' ضحكها مختبئة بين ذراعيّ، وسيارة الأجرة تأخذنا إلى البيت. ثم تتوقف:

– ما لك صامت؟

– أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.
– إنه الذي أتيتَ لي به آخر سفرة.
– على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وقد اكتشفنا فضائل الماء والصابون على الروائح المخجلة؟
– كفى استفزازا رخيصا.
– استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدع الذي تسمونه ''الملك الشمس'' نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشّا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقرية والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في المدينة الجميلة التي أعيش فيها سنوات أخرى من النفي، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّون على الخنازير وقد عبَرتم جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا تعيشون بين وفوق القمامات وبعدها تدّعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.
– آه، يا عدوّ البشرية!
كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟، قيل في الآدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا. ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا. مرحى إذن وألف مرحى لقسم الهندسة في اختياره الموفق لأنف محدود الطاقة والمبدأ: استر ما يجب ستره.
– دخلتَ قوقعتك كالعادة.
– تكلّمي أنت وخذي حريتك.
– أشتمك؟
– كل ما تريدين. المهم استعادة أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين؟ أتذكرين أول آلو، يوم اتصلتُ بقسمك بخصوص مريض حوّلَته لي ممرضتك دون ملفّه؟
يا ربّ الموسيقى، من أين أتيتَ بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمن صنعها؟ وهل لديك أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتا أجمل؟ يومها قلت لنفسي لا بد من عذر–مهما كان واهيا–لأكلّم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليال، وبجانبي دفتر صغير أدوّن فيه ما يوحي إليّ به صوتُها من أحاسيس ومشاعر.
أخيرا اختلاء الحبيب بالحبيب.
فقل لهم لا تحضروا الشمع في هذا الجمع، في هذا المساء (حافظ)
فقد تم قمر الحبيب في مجلسنا، واكتمل له البهاء...

تشعر ذات عذّبها طول الانتظار بالجذل يتصاعد داخلها فتستعجل ما لا يزال مخفيا وراء ألف حجاب. أخيرا التي تتشوّق إليها روحي، التي سيمتلئ ويفيض بها فراغي. تحدّق الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. تتّسع ابتسامتي وابتسامة "ح" وهي تمرّر يدها أمام عيني لأفتحهما. عاد العالم طفلا.

أيّ أوتار سحريّة خفيّة تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عندما رفع كأس الماء إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمّه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفأ بعد طول تشرّد.

يا معشر العشّاق ما البشرى قد ظفرت كفّي بمن أهوى (أبو العتاهية)
واصلني من بعدكم سيّدي كذاك أيضا لكمُ العقبى
ضممت كفّي على درّة لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سرورا بها أغربت عنّي سائر الدنيا

قد يكون الحبّ خرقا كالذي تمرّره على نافذة تراكَم فوقها غبار، لكنه خرق تمسح به يد رحيمة الغبار الذي تراكم على الروح.

الحبّ شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق (الشابّي)
يطوف في هذه الدنيا فيجعلها نجما جميلا ضحوكا جدّ مؤتلق
لولاه ما سمعت في الكون أغنية ولا تآلف في الدنيا بنو أفق

ثمة طقوس معقّدة للاقتراب الحذر من الذي منه كل نشوة وهو الآن القريب البعيد، المعروف المجهول، المحمّل بكل الوعود وبكلّ الأخطار. الجسد أخيرا. كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تقديس ومن تقديس إلى تدنيس. كم يخطئ شاعر "با"، فخير جليس في الزمان حبيب وأعز مكان في الدنيا الفضاء الذي بين ذراعيه.

تهمس "ح":

– ستترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنَع:

– هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!

تَعبر الوجهَ رهبة ما زالت قائمة وابتسامةٌ تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنّها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنّجتين. أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

– هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟

– نعم!!

– انتبهي.

اتحد المعشوق بالعاشق ابتسم الموموق للوامق (الحلاج)
واشترك الشكلان في حالة فامتحقا في العالم الماحق

دليل يقودك داخل مجاهله وأنت الدليل الذي يقوده في أعمق دهاليزك.

وفي جسدي تبحثين عن الهضبة (أوكتافيو باز)
وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسدك أبحث

عن المركب وسط الليلة الضائعة

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

– رويتَ.

– رويتُ.

– تغنّي! بماذا تهمْهِم؟

– بكلمات أغنية قديمة تدافعت إلى سطح الوعي.

نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، ننعم بالدفء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

– لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

– أمر سأنفذه دون تردّد، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع الذي منه كل نشوة، لكنه فضّل الصمت؟

آخر محاولة.

– مجددا، من أنت؟

– وأنت، من أنت؟

– من أنا؟، ''أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به''

– نم الآن، واتركني أنام. يجب أن أرتاح لمواجهة المشاكل في القسم وهي تتوالد من بعضها البعض كخلايا السرطان.

لنسمّ هذا النوع من الآدميين الذي منهم كل نشوة.

لا دوام لصداقة أو عداوة مع هذا وذاك، إنما البقاء للعداوة والصداقة. اللعبة ثابتة، كلُّ ما يتغيّر هم اللاعبون. كذلك الأمر مع الحبّ. ما أفظع أن تفرّ الآن ممن جرَيت وراءه طويلا، أن تملّ ممّن أخرجك من الملل، أن تكفر بمن عبدت. وفي مثل هذه الحالة كأن ذاتك جذوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحرّكها ريح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

لا أحد عبر العالم وحيد لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع الذي منه كل نشوة.

مقدورك أن تمضي أبدا *(نزار قباني)*

في بحر الحبّ بغير قلوع

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع

وفي مثل هذه الحالة كأن حبّك جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحرّكها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

على فراش كان يضمنا للحب، تدير لي ''ح'' ظهرها وأدير لها ظهري وقد أصبح لكلّ واحد منّا شبح يعايشه سرّا، يعانقه نهارا، لينام في أحضانه ليلا. هي ولّدت من حرمانها ومن توقف اللقاء حبيبا جديدا وولّدتُ من حرماني ومن إخفاقي في تجديده حبيبة أخرى صغت ملامحها في طيّ الكتمان والسرّ. تأتيني غيرةٌ غبيّة وأنا أشعر ب''ح'' تحتضن شبح حبيبها الجديد بلهفة وخشوع. أسترق النظر إليه من فوق كتفيها وكلّي فضول جارف لأعرف مَن فضّلت عليّ. ثمّ أنسى غيرتي من هذا الآدمي الذي تعانقه سعيدة راضية وقد أنساني الفرح بمن أتاني على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيني. ربما تسترق النظر هي الأخرى من فوق كتفي وقد عرفت شيئا كالغيرة من المرأة التي أعانقها وتعانقني بكلّ هذا الشوق السعيد. ربما تجاوزت هي أيضا غيرة لم تعد ذات موضوع وقد أنساها الفرح بمن أتاها على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيها. على حدود عوالم الحلم والخيال نُسلّم نحن الأربعة –اثنان من عظم ولحم واثنان من خيال ومن حلم–مصيرَنا إلى تدفق سيل الزمان.

تكفكف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح.

– هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيتُ على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذوَ النافذة. فتحتَ ''لوموند'' واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عن الجريدة والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

اللعنة على هذا العالم الملعون الذي لا تتحرّك فيه خطوة إلا وأنت تتأذّى وتؤذي، بإرادتك وبغير إرادتك.

– لم أكن أقرأ وإنما كنت...

– لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمتُ أن تبكي ورأسك على صدري.

– ما رأيك في تغيير الموضوع؟

– ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا.

– لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

– هل بوسعك أن تكون مثله؟

– ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتني مصيبة، خاصة مع النساء.

– أريد أفعالا لا أقوالا.

– تعاليْ.

تفتح موظفة النزل فمَها:

– حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

– لا أسخر منك أنت. هذا ثمن غرفة لشخصين وباقة الورد وهذا للبقشيش. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهرا.

وعند باب النزل تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

– إلى أين؟

– ربما ظننت أنني تراجعت في قراري.

– من يتفهّمك أحسن منّي، أنا الذي لا يريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

– بلى، وداعا.

فراق الذات لذاتها! طلاق بالثلاث بين الأنا والأنا! أي جزء سأرمي خارجي رافضا كل صلح معه؟ أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العش أنا المتكلّم؟ هل سأتخفف حقا من أثقالي أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأثقال؟ عبثا أصرخ في ''ح'' وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

– يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفّعوني.

يتجّدد بحث العابد عن المعبود والسؤال هو دوما نفس السؤال:

من تراها (البياتي)

أنا لا أعرف. ويحي من تراها؟

همست في مطلع الفجر وقد ضاع صداها

أيّها الفجر الذي ذابت به، أين أراها؟

أيّها الغاب الذي مرّت به، أين شذاها؟

في آخر المطاف مَن هذا الذي نركض وراءه على طول الطريق، مَن تسميه الرؤيا الذي منه كل نشوة؟

ثمة من يدّعي أنّه البديل الهزيل ل''ما'' أو ل''با'' حسب جنس الفاقد والمفقود، أننا نظلمه عندما نريده مطابقا لأوصاف مَن لم يعرف. هناك مَن يقول إننا لا نبحث فيه إلّا عن ذاتنا. ألا نتغزّل بالحبيب نشنّف مسامعه بما يريد أن يسمع ليبادلنا الهديّة بأحسن منها؟ ألا نتزوج إلا بمن يشبهنا؟ ألا نرمي الذي منه كل نشوة أو يرمينا يوم ترفض المرآة أن تُرجع الصورة المطلوبة؟

ثمة تصوّر آخر للذي منه كل نشوة، تعبّر عنه أحسنَ تعبير قصةٌ كُتبت بألف صيغة وها هي صيغتي لها.

تحلّقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم.

لما أتتني البعثة بنماذج الكائنات التي سَبَتْها في أبعد غزوة لنا داخل أبعد مجرّات هذا الكون، وضعتُ أمامي على طاولة التشريح كائنا أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنّها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أيّ ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلا؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحسس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكّد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكتف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلّا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدتُ الكشف أكثر من مرّة لتُواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العِلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل. إذن نجح غريمي أينما أخفقتُ. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح مَن ألقمني علقما. فتحتُ الكائن لدراسةٍ مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين ألصقا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تُجدِ نفعا. أخيرا رقصتُ طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل ناقصين سأزرعهما لتجربة مثيرة، أواصل أبحاثي؛ أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا إبليس.

هل نجري حقا وراء صورة ''ما'' أو ''با''، أو وراء خيالنا في مرآة الآخر، أم نسعى لجمع جزئي ذات مشطورة منفية عن بعضها البعض؟

**

الجزء الثاني

الكائنات المأساوية الهزلية

الممثلون

ثمة الأماكن التي تتعرّى فيها الأجساد، وثمة الأماكن التي تتعرّى فيها الأرواح، وهذه المدينة التي أوصلَني إليها الطريق زاخرةٌ بهما. لا توجد بناياتٌ أَولاها البشرُ العناية الفائقة وصرفوا عليها الأموال الطائلة، قدرَ هذه الأماكن التي يسمونها المسارح. ربما المعابد. طبيعيٌّ والمعابد مسارح والمسارح دور عبادة تُخفي نواياها. هل من باب الصدفة أن أول مَن علّم الآدميين بناءها ربٌّ اسمه فاكسمان، وأن مدرّبهم على الإيقاع كان شيفا، وأستاذة الرقص الربَّةُ بارفاتي بنفسها، وبراهما لا غيره هو أوّلُ معلّمٍ لفنّ التمثيل؟

لذلك لا أدخلُ معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين، ولا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظةً فكرةُ ترك نعلَيّ عند الباب.

ليُسمَح لي هنا بفتح قَوس. ماذا لو كان المحيط الرائع الذي نتحرك وسطه هو الآخر مسرحا–معبدا تكلّفت السلطات العليا كثيرا من الجهد لكي يكون على أعلى قدرٍ ممكن من الجمال ونحن على ركحه الممثِّلون؟ آنذاك من النظّارة؟ هل هم بصدد متابعة ما نقول وما نفعل؟ خاصة هل أدائي وأداؤك يثير فيهم عاصفة من الضحك أم وابلا من التصفيق؟

ثمة صورة أخرى للمسارح–المعابد الآدمية: مختبرات طبّية للتشخيص والعلاج، تُشرَّح فيها الذواتُ أمامَ الأنظار المتشوّقة، والجرّاحُ الماهر آدميٌّ اسمه سوفوكل، ايشيل، أوريبيد، موليار، شكسبير، أو زي–آمي.

أَغرقُ في المقعد الوثير متنفّسا الصعداء أرهقَني طول الطابور.

تمرّ بين الصفوف مضيفة برزمة من المطبوعات.

– سيّدي هل تريد برنامج السهرة؟

– نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

– عفوا!

– كنت أمزح.

برنامج الرحلة! طبعا هناك برنامج للرحلة. قارّ. إجباري. لا أحد يدري مَن خطّه ولماذا.

على كل آدمي أن يولَد، أن ينموَ، وأن يموت. عليه الحفاظ على الجسم الذي انبثق فيه، في أحسن حال ممكن ولأطول فترة من الزمن. لا حقّ له إلا في جسد واحد. عليه اكتساب خبرةٍ ما يقايضُ بها ما يَتلقّى من غذاء الروح والجسد. لا مكان له ولا مكانة، إن كان عالة لا عائلا. عليه تزويد القافلة الكبرى بالنسل حتى لا يتوقف الرَّكب. عليه استكشاف رفاق السفر لحُسن استعمالهم أو لاتّقاء شرّهم. عليه الغوص في أعماق ذاته ليفهم مَن هو، حتى يفهم مَن هم. عليه أن يقرّر ما المهمةُ التي كُلّف بها في هذا العالم وهل قام بها على أحسن وجه.

تنطفئ الأضواء تدريجيا. يُزاح الستار ببطء. يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسمّيه ''الواقع'' لنتوغّل بعيدا داخل فضاء الرموز والخيال.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جئنا جميعا للتمعّن فيها، نبحث عن شيء غير محدّد.

يبدأ الممثل في الإلقاء.

كم مرّةً مُثّلت هذه المسرحية! تُرى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟ آه لو تُرك للمثلين حقُّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عَرض الليلة عرضَ البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة. آه، لو تُرك للنظارة حقُّ التدخل لا يهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفّق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

يئنّ شبح الملِك المقتول يستنهض هِمّة ابنه يحفّز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

– "في نومي وبيَد شقيق! انتُزعَت منّي في مرّة واحدةٍ الحياةُ والتاجُ والزوجةُ. يا للفظاعة. لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنَّس بالفسق والزنا اللعين".

يراقب العمُّ المتزايد قلقا ابنَ أخيه. هل فَهم أنه قاتلُ والده وناكح أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلّة؟

يتوجّه إلى هاملت خائفا متودّدا، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

– "إنّه جميل ومحبَّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقَد أبا وكذلك والدُه، ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوّة في الأسى، لكن لمدّة. أمّا الإصرار عليه فعِنادٌ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مزّق عهدا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، متكلّفا السذاجة، قصّة تخلّصِ إيطاليٍّ اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

قصة أخرى عن نكث العهود والعقود، عقد الحبّ، عقد الزواج، عقد الصداقة، عقد التحالف، عقد الحكم، عقد التجارة، عقد السلام. كل قصصهم أفرادا وشعوبا تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا، لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة علّهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبّط فيه، ومِن أيّ مصباح سيشعّ؟

ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحثّ بولينيوس على أن يَصدُقها القولَ بخصوص تغيّر طبع هاملت.

تُرى هل يعلم ما فعلَته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرّح الرجل برأيه كمَن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

– "سأختصر. ابنكِ النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

– "أريد أكثر مادّة وأقلّ بلاغة".

– "يا سيّدتي، أُقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة".

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدَته الجريمةُ النكراءُ صوابه.

– لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذنيّ. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السذاجة.

– هل يكون السبب الذي أَخرجَ هاملت من عقله موتُ والده؟

يستحيل الصبرُ على كل هذا القدر من سوء النية، وهو أكرَهُ ما أكرَهُه عند الآدميين.

أرفعُ إصبعي في وجه هذا المنافق.

– عيب يا رجل. لا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه مِلكه، والآن تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أوّلُ مَن يعرف.

يرمقني القاتل بحقد:

– ما دخلُك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوّج من أشاء.

يقرّب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسَيهما من الملِك يهمسان في أذنه.

– مِن الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوًى آخر لعالمنا، فهو مُعارِض معروف، ككل المعارضين بقَلبِه مرضٌ.

يعرض عنّي الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحتُه وهذا المهمّ. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتنم الفرصة لأُسمعها رأيي دون خَوف، ومَلقّي بخصوص سَبّ السلطات العليا زاخرٌ، ولا تُضيرني قضيّة إضافية.

– أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمُّه قَتلت والدَه وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! كيف لا يُجَنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للآدميين! امشِ، يَلعَن أبوكِ يا قحبة.

يواجهني الممثّلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفّ عنّا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنّك تشوّش علينا. نحذّرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.

يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنّهما طَعنا في الظهر الفارسَ المغوارَ الذي هبّ لنصرتهما. لكن جحود الآدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللّئيم ويتمرّدون على كلّ كريم مُذ وُجدوا. أجيلُ البصرَ حَولي أقيّم مدى تأييد القاعة لي وتفهّمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عنّي إذا نشبَت معركة عامّة بين النظّارة والممثلين. أُفاجَأ بهدوء جيراني، ذلك لأنّ أطوار المشادّة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأَت التموقعَ لجرّوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الآدميّون عندما يخلِطون بين الفضاءات المكوِّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثّلون تحت وابلٍ من التصفيق، وراء الستار. يعبّر جاري بصخب كبير عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفتُ إليه باسما متأدّبا:

– أتتصوّر! أخ يقتل أخا وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّدٌ من مظهره أنه إطار كبير في شركةٍ ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات.

يا للرجل المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يَفتح برنامجَ السهرة يُشعرُني أنه لا يَنوي فتحَ نقاش مع غريب مشبوه. مَن قال له إنني لا أنوي الصمت؟

– يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟ بالمناسبة، مَن هو مؤلّفُ هذه القصة التعيسة؟

– (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

– لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أيّ قاعة لقضاء السهرة. لَمّا رأيتُ طول الطابور قلت لنفسي: لا بدّ أنّه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرّب؟ على فكرة، ما اسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟

– المؤلّف وليام شكسبير ''مون بون مسيو''. (بإحباط من قدّر فجأة عمق الهوة بين المتحضرين والمتخلفين من وراء البحار)

– وليام من؟

– شكسبير، شك–سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟ (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):
أحدّق في الفراغ مُطوّلا.
– فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعَت أحداثُها في مدينة إيطالية اسمها ‘‘فينيسيا’’؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبَختي كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدَّق. إنّها حقّا لمأساة أن يضطرّ رجل مسكين إلى قتل زوجته ثمّ تتركه اللعينة يتخبّط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلّاد. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن ‘‘الفاندتا’’ والشرف الذي لا يُحفَظ إلا وقد أُريق على جوانبه الدم! هل تعلم أنّهم جيراننا، نرى شواطئهم بالعَين المجرّدة في بعض الأيام؟ أَخذوا منّا هذه العادات التعيسة وانتقموا منّا بإغراقنا بالبيتزا، البيتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة،
– شكسبير ليس إيطاليا ‘‘مون بون مسيو’’ (باحتقار دون مساحيق)
– صحيح ما أغباني، إنّه دانماركي بالطبع.
– ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي ‘‘مون بون مسيو’’ (بلهجة عطف على المتخلف المسكين)
– ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟
– جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.
نعم، لكن عن نوع معيّن من مواطنيه وخصوماتهم التي تقع دوما في قصور شاهقة، تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرهقَت أبطالَها القضايا الفلسفيةُ الكبرى من نوع ‘‘نكون أو لا نكون’’ . بصراحة أفضّل أبطال تشيكوف ومشاغلهم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الداتشا الآيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعَها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.
– طمأنتَني. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العَرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟
يحدّق فيَ الرجُل بذهولٍ. لا شكّ أنه قرّر أن يَرويَ الطرفة، واختار مَن سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيتكرّم بها عليّ.
– ‘‘مون بون مسيو’’، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.
– المسكين، كنت أظنّ لطول الطابور أنه العرض الأوّل.
ثم ترتفع القهقهة صاخبة والرجل لم يعد قادرا على التحكم في نفسه. تُدير امرأة رأسها باستنكار للتعدّي على حُرمة مكانٍ يُقَيَّم فيه كلُّ آدميّ على أناقة حركاته وسكناته.
هذا الآدمي المحظوظ يَعرف اسم المؤلِّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدّرها بالضبط. لكن هل يعلم أن هناك خصومةً متواصلة منذ قرون حَول هُويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم هل هو اسم واجهة لأرستقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرفة؟ هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتَبها المؤلِّف، أيًّا كان، أُسقطت من النصّ وأخرى تَصرّف فيها الناشرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ هل يعلم أن قسّا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتّع هو والمشاهدون ب‘‘هابي أند’’، وأنّ مُراجَعة النصوص وتزييفَها قاعدةٌ لم تَسلم منها حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرتَّل في المعابد؟
الاستراحة. الوقت الضائع.
ثمة دَوما وقتٌ ضائع كثيرٌ يَفصل بين الأحداث الجديرة بالتجربة والرواية، في المسرح وفي الحياة. خُذ مثلا الوقت الضائع في برنامج الرحلة نفسه. ثمة من الظرفاء من تكفّل بحسابه بدقّة. النتيجة: ‘‘ثلاثون سنة في النوم. اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون. اثنتا

عشرة سنة في الثرثرة. ثمانُ سنواتِ عملٍ (والخيار أغلب الوقت بين الأعمال الشاقة والروتينية). ثلاث سنوات في الأكل. سنتان في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقّال)، ستة أشهر في المراحيض.

عندي شكٌّ بخصوص منهجية هذه الدراسة، حيث لا تتحدث عن الوقت الذي يُضيعه الآدميون في الشجار، والحال أن تجربتي المتواضعة تؤكّد أنه أكثر الأفعال استهلاكا للوقت الضائع وحتى للوقت الملآن.

فرصة للتجوّل بين المتفرجين وهم يتدافعون نحو المشرب حيث ستنطلق الألسنُ بعد أن فُرض عليها فرضا أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة. سيعوّضون الوقت الضائع يثرثرون بحماس متجدِّد حول أحد موضوعَين لا يوجد أهمّ منهما.

موضوعهم المفضّل الأول الشكوى من ''عزٍّ مَضى، من حلولِ مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عِدًّى عَلت صيحاتهم، من كَفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرُّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغَما ويغادرها مكرها''.

موضوعهم الثاني عن آخر مستجدات خصوماتهم مع هذا وذاك.

كل هذا الخصام الذي لا ينتهي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسّ الحروبَ والانقلاباتِ والإرهابَ والشجارَ على الطريق العام وارتفاع الأصوات عند الجيران ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطفَ الأطفال والنصبَ والسرقة والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيلياتٍ تُعرَف بالمحامين والقضاة وكَتَبة المحاكم والسجّانين ومُرَوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف. أضف حصاده من الروايات البوليسية عمَّن قَتل مَن، وكم من أجناس أدبية أخرى حَولَ مَن كره مَن ومن تآمر على من، وما لا يحصى من المسرحيات التي يتسابقون لمشاهدتها وكتابة رسائل الدكتوراه عنها، وجلُّها إن لم تكن كلها لا تَطرح إلا شكلا منمقا من خصوماتهم الأزلية المقرفة.

تَعبُر العالم وأنت تسمع هذا يصرخ بشمم مجروح: "وإذا أتتك مذمتي من ناقص"، وذاك يشيح عنه البصر مُغنّيا بتكبّر ينزف وجعا: "ما كانوا طلبوك بذَمّهم لو لم تكن منهم أجلّ وأعظم." تتصاعد من كل حدب وصوب أصواتهم بالنقد والتجريح والتهكّم والسبّ والشتم والإدانة والتهديد.هم يتخاصمون كل لحظة وبخصوص كل المواضيع. يواصلون خصامهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: ''وأشارت (الدراسة) إلى أن التململ احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة.''

اللعنة! اللعنة! اللعنة! كفّوا عن خصوماتكم بخصوص مَن الأجمل ومن الأولى بالاعتبار، كفوا عن خصوماتكم بخصوص مَن ملك الحقيقة ومما يزال أسير الخطأ. كفّوا عن خصوماتكم بخصوص مَن دان بالدين الصواب ومن ما يزال يتخبط في أساطير الأولين. كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولمن يجب أن تؤول. كفّوا، كفّوا، كفّوا. أضجرتموني بخصوماتكم العبثية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين. كفى. أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرفة. ماذا؟

استجابوا لدعائي! صدّقوني، رحلوا، الملاعين! فعلوها بي رغم كل ما فعلته من أجلهم. والآن مع من سأتخاصم؟ ثمّ مع من سأتمتّع بالمصالحة بعد أن تمتّعت بطول الخصام.

يرنّ الجرس منذرا بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأبي هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبي شكسبير.

تركض أوفيليا في أروقة القصر تتمتم مرة لنفسها ومرة تولول، أصابها مسّ من الجنون.

– "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نونيّ نونيّ هاي نونيّ، وعلى قبره تهاطل المطر دموعا"!!!

يتوجه شقيقها لارتس إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقد الألم الآدمي صوابه.

– هل ترى هذا يا ربّ!؟

مسكين لارتس! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا، وأكثر لا يهمه منّا استنكار أو استبشار، مدح أو قدح.

والآن ماذا أفعل؟ أعود إلى مضايقة الرجل؟ من الأحسن مواصلة تجميع أفكاري أبهره بها في الفاصل.

عمَّ تتحدث هذه التمثيلية التي طبقت شُهرتها الآفاق؟ عن السلطة؟

وفي ملف ما زال بعيدا على خط الزمان سيفيض بأحداث قد توصف بالتاريخية، سأنهض من مكتبي أتأمل عبر النافذة البحر وكأنني أراه لآخر مرة.

داخلَ ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاظم الأخطار تتلاطم الأسئلة الحائرة: من وراء الاغتيالات والإضرابات والاحتجاجات والمؤامرات التي وصلت ذروتها هذا الصيف المشؤوم؟ ما مدى جدّية المعلومات الاستخباراتية عن عملية ستستهدفني هذه الليلة؟ أي فعالية لفيلق الدبابات الذي أرسله الجيش لتعزيز حماية القصر الرئاسي إن كان الهجوم سيأتي من البحر كما يشاع؟

تتدافع في ذاكرتي الصور، صورة الملك الطيب الذي أعطاني ''با'' اسمَه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما... وذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في بيت فقير... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجه كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيدا منسيا... وصورة كبير الحراس الغدّار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جبانا ويموت منفيا.

ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد، ربما واقفا على رجليّ نحو السجن أو البيت، ربما محمولا على نعش، كما حدث لعدد لا يحصى من المساكين الذين مسكوا بالسلطة كمن يمسك بأخطر ثعبان والسؤال ليس هل سيلدغك وإنما متى.

لا شيء يعرّفك بطبيعة الآدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتصارعون على الإمساك بهذا الثعبان. كم من قصص يرويها تاريخهم الدموي عن تخلّص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه. المضحك المبكي أن الحرب الضروس التي لا تضع أوزارها أبدا، بين الطامحين للسلطة والمتمسكين بها تغطّي على حروب لا تقل ضراوة داخل الطامحين إليها وكل فرد يريدها لنفسه دون غيره من الحلفاء، وداخل الممسكين بها وكل واحد يريدها له دون سواه من الأنصار. بين هذين الفريقين الأزليين فريق ثالث من المثاليين السذّج أمثالي الحالمين بترويض الكواسر المشدودة لبعضها البعض بقيود الخوف والطمع وهم كمن يحلمون برؤية الذئاب تصبح يوما من أكلة السَّلَطة.

ثمة قراءة أخرى للمسرحية.

هي تذكير بأنّ الملوك والأمراء يتعذبون في الطابق الأعلى كالعبيد والسّوَقة في الدهاليز.

من ثوابت طاولة القمار أن تسحب للبعض الرقم الخاسر فيقضون حياتهم وخصوماتهم في الطوابق التحتية لعالم سنتصوره مبنيا على شكل عمارة. هي تعطي للبعض رقما يسمح لهم بسكنى الطوابق المتوسطة، وأعلى رقم للذين اصطفتهم دون سبب واضح ليسكنوا أعلى الطوابق.

القاعدة: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُستبطن باكرا من قِبل الجميع أنّ حدة الآلام تَخِفُّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحليّ والحلل في العليا وهيكل الآلام الذي غُطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد.

ما أسخفه من صراع أخَذ جلّ وقت رحلتي، والرهان التمتّع بالعذاب في أعلى طوابق البناية.

تعطينا التمثيلية أيضا كل المواد الضرورية لتنظيم أفقي يَعتبر الآن أسباب آلامنا هذه.

ثمة آلام الملك القتيل. ظنّ نفسه بمأمن من قانونِ أنّ كل الغنائم مَكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوما.

ثمة آلام طريقة فَقدِ ما نتوهّم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق"! المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا لهان الموتُ أمّا أن يُسلب الحياة خيانةً وبِيَد شقيق فلا ثُم لا. كأنّ خِزي الوسيلة أخزى موتا يبقى أهمّ فعل في حياتنا بعد نزولنا إلى هذا العالم الرهيب.

ثمة آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقده يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عَبّرَت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ حرام دينا أو محظور قانونا أو يزيد في الوزن.

تقول: ماذا عن آلام هاملت وأوفيليا وكل الأطفال؟ أليسوا أبرياء؟ بالتأكيد، لفترة فقط.

تذكّر دوما أن هذا عالم أخبثُ ما فيه من يدّعون البراءة والطهر.

كفى مِن هذا الأنين المقرف. الآن وقد تعاطفنا مع أنفسنا بما فيه الكفاية ما رأيك في تغيير جذري، ذلك الذي رفضه مخرج جبان وممثلون بلا إرادة؟ دعني أتصرف.

نعم كيف كنت أتصرف لو كنت المخرج؟

طبعا بمنع حفظ الأدوار والأمر بارتجالها على عين المكان، بترك كل ممثل يخترع تطورا جديدا للقصة وعلى كل واحد أن يجد مكانه في نص أصبح له أكثر من كاتب. تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. أليست قصصنا فوضى تسعى عبثا إلى إضفاء الحد الأدنى من النظام على أحداثها فلا تنجح أبدا؟ لماذا لا تكون الكتابة عنها فوضى مزيدة ومنقحة؟

إذن يمسح أبو هاملت العرَق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخّرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا. يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزر على الجيران.

– آه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقينني في النوم وفي اليقظة، آه وآه وآهات!

يتوجه إليه روزنكراتز أو ڤيلدنستارن:

– يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك. ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خَبِر الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

– أَفِق، تنفّس مليّا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!

يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

– أين، أين قابيل؟

– نسيتَ أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ مِن حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلّا غادر في منتهى القلق.

يتنفّس الملك الصعداء مصليا للعذراء أن تزيد المعركة الرُّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجهَ ربّه.

آن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسوَد الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تُخفي ضحكة الصبايا المغرمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة، والآدمي متعلق أغلب الوقت بآلامه تعلق القمل بشعر المتشرد.

عليّ من جديدٍ التدخّلُ بحزم.

ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصوَر لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذرَ وتُنبّه؟ مَن يضمن له أنّ قابيل لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأنّها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقَط في يدي والقصّة تنزلق في المجرى الذي جاهدتُ لإخراجها منه.

يا له من غبيّ. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيَهلك المسكين الذي لم يفكّر في الانقلاب إلّا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الآدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

أهمس في أذن الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمُّه تعيد عليه الحكاية التي يحبّ.

– يرضيك هذا؟ يرضيك ما فعله هذا الغبي بنفسه وبعائلته؟ ألا ترى يا "مسيو" أننا نصنع القنابل الموقوتة التي نحملها داخلنا، أنّنا نمسرحها في فضاء الخيال، ثمّ بعدها نرحّلها إلى فضاء الواقع، لأنّ فينا رغبة متواصلة في التمثيل على أنفسنا وعلى الآخرين، ربما لما نجد في التمثيل من إثارة هي كل ما نبحث عنه. لله درّكم أيّها الآدميّون!

– شت،سيلانس مون بون مسيو، سيلانس!

–ألا يثيرك يا مسيو نفاق الآدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدّعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيَتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

– أرجوك، أرجوك يا مسيو!

لماذا يرفض هذا الآدمي أن ينتبه لأخطر نظرياتي عن الآدميين؟ كل هذه المشاكل التي يفتعلونها لمجرّد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير. أليس الآدمي أفيون الآدمي وأيضا المنبّه والمنشط؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكآبتك وأن يسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها! ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أمّا أن ترمي بأمّك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيضة. وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفّذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "ألزهايمر" وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينَين. وأنتِ يا وليّة! كل هذا بسبب مَلَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذع الألم. هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل.

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبيس الآدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيافيليا قد لا يكونان من طبائعهم، وما يحرّك أغلبَهم غباءٌ بهيمي. أنظر إليهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، فاشلة، كأنْ لا دور لها غير قيادتهم بخُطًى ثابتة باتجاه الكوارث التي يَضجّون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورّث كَلَون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس التخبط. حقا كم هم مقرفون!

كل هذه النجوم التي تولد وتموت، كل هذه البراكين التي تغلي وتنفجر، كل هذه الجبال التي ترتفع وتتهاوى، كل هذه المحيطات التي تفرغ وتمتلئ، كل هذه الصحاري التي تخضرّ وتصفرّ، كل هذه الأجناس التي تنشأ وتنقرض، كل هذه الأجيال التي تأتي وتذهب، كلّ هذه الأمم الغازية التي تنتصر وتنهزم، كل هذه الحضارات التي تشعّ وتنطفئ، كل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه لبروزنا واختفائنا، كل هذه الطموحات بالغةِ الصِّغَر، كل هذه الشهوات بالغةِ التفاهة، كل هذه الرؤى بالغةِ الغرور، كل هذه المعتقدات بالغةِ السذاجة، كل هذه الخصومات بالغةِ العبث، كل هذه المشاكل سهلةِ الحلّ. تعسا لقصص الآدميين، لا يغفر لنا وجودَنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ هزلية قبل أن نكون كائناتٍ مأساوية.

كيف البقاء مستيقظا؟ طبعا بمواصلة تفحّص إمكانياتٍ لم يتجاسر عليها المخرج الجبان.

تَدخُل هاملتة تتثنّى لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيّعها صغيرة وحمّلها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصّة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنونٍ مرهقٍ ومُكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتّة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ. يموت القاتلان فتتزوّج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا. ثمة إمكانية أخرى إذا أصررتَ على أن هاملت رجلٌ وأوفيليا غير مثلية جنسيا.

تندلع مشادّة بينهما فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري:

– ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنّني بطلة آخر زمان، لم يَجدني الدهر أهلا لضرباته؟

– ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يَقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

– أقول لن أرضَى بأقلّ من القتل وتحدّثني عن خصومة بسيطة من فوق!

– طيّب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضّل التخلّص من حماتي.

– تريد قتل أمّي يا مجرم. وتدّعي أنّك تحبّني!

– يا ستّي لنقُل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردّد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة. تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستتبجّح عليها بعمق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

– طيّب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، مَن أعطاك الحقّ في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قَضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهّل يا هذا في شكّك المزمن في نواياي المبيّتة. لستُ ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه. نعم، هناك آلام حقيقية ولا أفظعَ منها تجارب، وعلينا احترامها شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطيق أي نوع من أنواع الدلال.

ليس كل شيء قابلٌ للهزل. كل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر. لكن:

– السخرية أسرع تقنيات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الغث والسمين. لذلك عليك تحمّلها وتعهّدها.

– من طبيعة كل خلل –في شيء، أو كائن، أو فكرة، أو علاقة–أن يستفزّ في الفكر هذه الطاقة المحرِّرة لكل الطاقات.

–كل ما هو قابل للسخرية يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من المنتفعين بالخلل انتفاع الجراثيم بالعفن.

– قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية، أصدق دليل على وجود الخلل.

– الحكيم والذكي مَن يضحك من نفسه والشرير والغبيّ من يضحك من الآخرين.

لم يبق إلا رفع صوت تثاؤبي عاليا وإظهار كل علامات التبرّم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري.

أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثّل آخر لا أعدهم لطول قائمة الأموات. يتقدّم الممثلون صفّا واحدا يمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا. يصفّقون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشل الآدميين! هذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوّة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على الحياة. لا يبقى عليّ إلا أن أصرخ فيهم جميعا مثل بِكَت: أفشلوا أكثر فأكثر، ربما لم نأتِ كلُّنا إلا لهذا، لتحقيق أنجح فشل ممكن.

ثلاث ساعات ثمينة من عمري كان بوُسعي استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: لن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلِم إشهارُها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والثمن الذي يدفعون للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنّون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

يستغرق الجار هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدّر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلّف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفّق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلّف من وراء البحار آدميٌّ هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومن ثم مغالبته لزهوه بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة ''د'' وصحرائها في الاتجاهات الأربع (بلقاسم الخضّار لا يُحسب له حساب شاء أم أبى هو وعشيرته.)

يشتدّ دويّ التصفيق فتَعبرني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركاكة الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق.

أخيرا يختفون عن الأنظار. تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمه الخمج الذي هو بمملكة الدنمرك، فمشكلته حبُّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "السيدا" الذي شُخّص عنده مؤخرا.

نفس الروائح والبذاءات والهموم الصغيرة لو وضعتَ أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

أيّ عالم كنّا نجرّب لو كان الذي وراء الستار هو المعروض وما نمثل على الركح هو الذي يتوارى وراء الستار؟

في آخر المطاف، ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومآسينا؟

ما هذا الذي نسميه المسرح والذي يتبارى الآدميون منذ القِدَم بوضعه في أجمل ساحات مُدنهم؟

إنه المرآة التي نتأمل فيها بعض الأدوار التي نمثل بها على أنفسنا وعلى الآخرين، المجهر الذي يمكّننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا، المختبر الذي نشرح فيه الذات والوحيد الذي يسمح بتجربة الشطط في استعراض الأحاسيس والمشاعر، ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نُعرض ولا نتعرّض لخطر، الفضاء الوحيد الذي نستطيع فيه وضع اسمٍ وصورة على كاتب السيناريو وتوهّمَ معرفة مقاصده وقد أصبح العالم أخيرا تحت السيطرة.

**

المخرجون

أغرق في المقعد الوثير، المشاهدُ الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب، قُل عن ترويض الممثلين.

تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطًى ثابتةٍ نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدتُ الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكَم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة متكلفة:

– ما هذه المشية؟ أذاهبة أنت إلى الحلاق؟ أنتِ لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهدد بغضب الله وكلكِ أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الاعتناء!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تَبرز منه كالجنّي من قمقمه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدّتان إلى الأمام كأنّها تتضرّع.

يصرخ فيها المخرج:

– ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أَعيدي.

تبقى الممثلة بين غُدوٍّ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إمّا تهرول بكيفية مضحكة أو تتباطأ ببلادة حسّ لا تطاق.

– ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلوَ الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهرولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

– أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرّد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثّلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:

– جئتك اللّيلة على عَجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيتُ من المعاصي. لَكَم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ مَن أحببتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأَت مؤشّراته تتجمّع.

ينفجر المخرج في وجهها.

– ما هذا الإلقاء؟ يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرا من أعالي شلّال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. إلقاؤك ماء بركة آسنة. أعيدي من البداية.

تبلع الممثلة ريقها:

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

– كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهانُ إنقاذه من لعنةٍ أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقاط التي تختم الجُمَل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبيرَ عن المشاعر لا التأشيرَ عليها.

تبلع المرأة ريقها، مجدّدا:

– جئتك اللّيلة على عَجَل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. و...

المخرج الآن على أُهبة الاعتداء الجسدي على الممثّلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القطّ. أيّ غرابة في الأمر وأنت لا تتعرّض لاعتداء إلا وهو مرتبطٌ بخطئك في تأدية مَقطع من دَورٍ في سيناريو ضُبطَت قواعدُه قبل دخولك مسرح الحياة.

– ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاءَ الذي يمكنكِ أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصيّة. لكنّني غير مهتمّ البتّة بمشاكلك الشخصيّة! ألفيرا وحدها التي تهمّني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنّها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تبكيت الضمير، من الشعور بالذنب لِما اقترفَت من حبّ لغير الله. أين المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين بها!

تبدأ الممثلة في الشكوى ملمّحة إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للآدمي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقررها المخرج وحده.

يفتعل المخرج نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

– يا امرأة، قلتُ لك كم من مرّة ليس هكذا!

قاعدة كل مَن سيعلّمونك الأدوار: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا.

هكذا سيلاحقك على طول الطريق المربي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون والتلميذ والناخب. كلُّهم ما عَداك يعرفون كيف يجب أن تكون الأمور وكلهم يصرخون فيك "ليس هكذا." بماذا يمتلئ فضاء الرموز؟ بفلاسفة وأنبياءَ ودعاةٍ. هُم أيضا يصرخون فيك "ليس هكذا التفكير"، ليس هكذا الشعور، ليس هكذا كل ما حاولتَ لحدّ الآن!

يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة؛ ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! يتنهّد مطوّلا، يمطّط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبتني بالقرف والغثيان، ليس هكذا!

كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وأخطر التمثيليات.

يصبّ البوليسي المكلّف بدَور البشع مخزونه من الشتائم البذيئة عليّ: قل لنا كل شيء. يحدّق فيّ زميله المكلّف بدور الطيّب بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغبيّان لا يعرفان أنني لا أكفّ عن تقييم الأدوار التي يلاعبني إياها الناس، بحسّ الناقد المجرّب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ –للأسف–فيه القليل من الابتكار.

أرفعُ الصوت وإصبعَ الاتهام.

– ما زلتم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى المكلّف بلعب دور الشرير، أُمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعمن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومَن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلّف بدور الطيّب. مؤكَّدٌ أن طرافة الوضعية جدّدت لديه الانتباه. يَفتح المكلّف بدور الشرّير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطِّيبة التي تختفي وراء ملامحه الغوري. ثم ينفجر الرجل في وجهي:

– أنا الذي ألقي الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصوَر وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجا، أنت المتهَم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلّها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعِبُ الذي لا يَرحم أحدا. برأس أمّك العَب دَورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بدّ من أن يلعب كلٌّ دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن مَن قال لهذا الممثّل الرديء إنني لستُ المكلّف بدَور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

مهما كنّا من أنصار الفوضى ومن المعجبين بها فإننا لا نقبل من ممثل أن يعتلي الركح ليقول أي شيء يخطر بباله. فالدور محدّد دوما بنص سُطّرت فيه التعليمات، لكي يقول هذا الممثل كذا ويفعل كذا، وحتى أن يشعر بهذه الكيفية أو تلك.

كم صعبة هي هذه الأدوار التي نُجبَر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظّارة!

ربما كنا ننجح في هذه الأدوار اللعينة بأقل عناء لو قُيّض لنا اختيارها. لكن في هذه الحالة، ألن يفيض المسرح بالملوك والقادة وجهابذة الفنّ والعلم، مع نقص حاد في عمال مناجم الملح والمناضلين القاعدين؟

فجأة يتضح لي أن "با" و"ما" و"ح" والذي منه كل وحشة وكل نقمة وكل نعمة وكل نشوة، أدوار قارة في مسرحيات مسترسلة تستكشف جزءا من طَيف علاقة الأبوة والبنوة، الحب والكره، التنافس والتعاضد، القوة والعجز، السعادة والشقاء. كل هذا حسَب ظروف تتحكم فيها الصدف والضرورة، فتنطلق الأحداث في كل اتجاه ترديدا وتجديدا.

تُرى هل أضفتُ شيئا لدور الابن والأب والحبيب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحِقّ وهو يصرخ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله،

يستشيط المخرج غضبا غير مفتعَل:

– كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعنيني آلامُ ألفيرا لا آلامُك أنت، أعيدي، أعيدي!

كم يتكلّف المسكين من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا، ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته؟

تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

هي الآن بصدد الإعداد لنوبة هستيريا.

– كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين –وكل واحد يريد أن يكون مخرج أدوار من حوله–نموذج ل"كيف هو الهكذا" وإنّما مقاييسُ تُنافس مقاييسَ ومقاييسُ تُشرّع لمقاييسَ هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّعها.

مما يعني أنه بوُسع أي واحد منا أن يصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج. للأسف هو الآن سيّد الموقف وعلى ضحيته المسكينة الخَيار بين الفرار أو الهجوم. ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل امرأة على وشك الإتيان بما لا يحمد عقباه.

يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المربي الهادئ العطوف.

– أحسن الممثّلين مَن يمثّل ناسيا أنّه يمثّل. لا أرى شيئا من هذا القبيل.

تهدأ المسكينة. آخر محاولة.

– جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت نوبة الطيبة عند المربي. يَجب العودةُ إلى دَور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

همُّ المخرج -على ما أفهم-اعتصارُ أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيّب والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.

- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببتِ وهو مهدَّد بالعقاب الإلهي. يجب أن يضجّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفزع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكنَ إنقاذُه لا لشيء إلّا لأنّ نبرةً ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتّخذ طريقُه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهدّج صوت.

لا يزيد الوعيُ بالأمر الممثلةَ إلا اضطرابا على اضطراب.

- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكلّف، ألم م-ط-ل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

قال أحدهم: المخرجون من نوعين: مَن يظنون أنفسهم آلهة ومَن هم على ثقة من الأمر. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقحامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه في نصّ يريد التحكّم فيه ونموذجُه المخرجُ الأكبر.

أحاول تصوّر آدميّ مُكتفٍ بذاته لا يتعلم دورا في تمثيلية ولا يحاول إخراج دوره وأدوار الغير، وبغير حاجة إلى نظّارة تتجاوب معه وتصفق استحسانا وإعجابا، فأكتشف كل مرّة استحالة الأمر. بداهة نحن لا نولد بطبيعة مكتملة الأوصاف وإنما بطبيعة أهمّ ما فيها أنها ما زالت قيد التجريب. أهذا هو الاختلاف الرئيسي مع آل نبات وبني حيوان حيث لا يُعرف عنهم أنهم يُروَّضون بمثل هذه القسوة لتعلّم كيف يكونون أشجارا أو حيوانات؟

يتوقّف رَبّ المكان عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمّص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنّه حيوان تحت سكّين الجزّار.

- جئتك اللّيلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لَكَم...

حَصلَت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخّرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدفّق الكلمات بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويَّ الماء وهو يتساقط من علو الشلّال ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الآدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمرُ بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

يخرج المخرج من التقمّص لاهثا ماسحا عرَقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:

- دور الممثّل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللّاوَعي فيكِ، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك مَن، أو ماذا؟

على فكرة، ألا تعني اللغة بالكلمة شيئين جدّ مختلفين: التمثيل بمفهوم المسرح والتمثيل بمفهوم الدبلوماسية. ثمة ممثّل مسرحية هاملت وممثّل صاحبة الجلالة في بلد صديق.

هل نمثّل بالمعنَيَين للكلمة؟

إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، السؤالُ هو لماذا لا نستطيع تحقيق غاياتنا إلا بالتمثيل المتواصل على أنفسنا وعلى الآخرين؟

إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، يصبح السؤال مَن أو ماذا نمثّل؟ خاصة ما المهمّة التي أوكلَت إلينا عندما تسلّمنا أوراق الاعتماد؟

**

الأدوار

تتصاعد من جانب قصيّ من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطبلة.

يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناعَ راهبٍ عايَشَ القصة الحقيقية بل ويعرف كل التفاصيل. يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

– سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خِلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته.

– ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

– يا ربّ البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي طويل.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

– وما الذي حملك على تكلّف هذه المشقة؟

– قدَرُ كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلّا توقّف به الطريق.

– ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟

– لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمِن الأحسن أن يبادر هو.

– كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

– الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

– لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلّا أزهقت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظارة المنبهرين:

هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجَب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون الْمَخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنّك تعرف الأسرار في العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لِما حدث بالضبط لآدميّ يحمل سرًّا لي حاجة ماسّةٌ إلى معرفته. إنّه مَلك قَتل شقيقَه واستولى على مُلكه وزوجته، فجُنّ ابن أخيه وجنّت خطيبتُه. يقال إن القاتل انتهى به الأمر هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدّعي إنه تنسّك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تَشفي غليلي! إنّني أجري وراء الرجُل منذ زمنٍ عَلّي أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محضُ افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلّاد، ربّما لجرائمه ظروفٌ تخفيف. لا بدّ أن أعلم مَن هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

– توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأني أعملتُ المفتاح المناسِب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

– اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه مِن قديم الزمان.

– هل وجدته؟

– نعم

– أين هو؟ كيف هو؟

– تمالك نفسَك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشفَ الأرقَ والحزنَ والخوف وتبكيت الضمير وكيف استحالت حياتُه جحيما وكلُّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة. كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها. هنا يتبادر الشكّ إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعَت لغيره. هل يكون صاحب المكان؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو، لا تكن سمجا، طبعا إنه هو.

يشتدّ القرع على الطبل والنفخ على الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلينا صارخا لاعنًا، متشمتا، هازئا ومحتقرا: لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. القصّة سخيفة وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيلٌ مِن أردأ صنف.

كأنه يصرخ فينا: أفيقوا، لكن إلامَ ونحن لا نفيق من حلم إلا لندخل حلما آخر.

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرّج.

مهلا أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرتَ اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلعِه لتقمّص دور آخر. تفضّل والبس أقنعةَ أهمّ الأدوار التي يعشقها الآدمي والتي تتردّد من جيل لجيل بثبات مُلفت للانتباه. أمّا أنت المكلَّف بالصراخ لا ''تصدقوا شيئا''، الزَم مكانك سنستدعيك كلّما عاد التبلّد.

أول قناع سنجعل الراهب يضعه قناعُ روبنسون كريزوي.

كيف سيواجِه الغريقُ الذي لَفظه المحيطُ وضعَه؟ طبعا بالبحث عن شبيه قد يعينه على الورطة التي وَجد نفسه فجأة يتخبّط فيها.

يخلع الراهب قناع روبنسون ليلبس قناع سيجموند.

أخيرا بعد طول التشرّد في الغاب الموحِش الخطِر، كوخٌ قد يجد فيه الآدمي المسكين ملجأً يقيهِ من الذين يركضون وراءه. تَفتح له سيجليند الباب. يتردّد لحظة في الدخول كأنه شَعُر بالذنب: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي. تتنهّد الأخت التي لا يعرف والحبيبةُ التي ستحمل قريبا طفله في أحشائها: لا عليك، دَخَله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. عالم لا مأمن فيه من الشقاء، أكنتَ خارج البيت أو داخله! يجب الفرار منه حالا وعلى وجه السرعة.

يخلع الراهب قناع سيجموند ليلبس قناع فراشة.

الفرار، لكن إلى أين؟ فالجزيرة جزء من أرخبيل تُجاوِر فيه جزيرةُ الشيطان جزيرةَ شيطان أخرى والنفيُ هو النفي والأشغال الشاقة المؤبّدة هي الأشغال الشاقة المؤبّدة. وعلى كل حال أيّ مَنفذ للآدمي وهو من البداية إلى النهاية السجينُ والسجّان والسجن؟ إذن من الأفضل الثبات والمواجهة.

يخلع الراهب قناع فراشة ليلبس قناع سيكفريد.

الآدمي الآن بطل لا يرهب لا القزمَ ميم ولا فافنر التنين ولا حتى الربّ ووطان. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار. يا للمسكين! مِن الأحسن ألا نروي له بقية القصة، وأنه بعد تحريرها من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة نفسها.
بداهة هذا عالم مبتدِئ وعلى الآدمي إتمام الشغل الذي أخفقَ في إكماله. لكن فيمَ أخفقت الآلهة بالضبط؟ طبعا في صنع الآدميين. ربما أُخرجوا من فرن الخَلق قبل أن يَنضَجوا. لا خيار للآدمي غير إتمام الإنضاج ليعرف الآدميُ ما الحق والخير والعدل، ويلتزم بهم.
يخلع الراهب قناع سيجفريد ليلبس قناع موسى حاملا وصاياه العشر.
يَثب الممثل المكلّف بالصراخ فينا ألا نصدّق ما نرى وما نسمع، فنطرده بغلظة قبل أن يكمل موسى جملته بخصوص الوصية الحادية عَشر التي حَذفَتها الرقابة.
على كل حال نحن لَسنا بحاجة إلى تنغيصه المشهد.
كلُّنا نعلم أن الذين لم تكن لهم أدنى حاجة إلى الوصايا واصلوا تلقائيا عَدم القتل والسرقة والتعدي على نسوان الإخوة وحميرهم. أما الذين كانوا بحاجة إليها فقد ضربوا بها عرض الحائط وسيواصلون أبد الدهر أفعالهم. لا يُغفَر لها وجودٌ إلا لأنها توَفِّر كَمْ من مَوطن شغل في الشرطة والقضاء والمحاماة والمؤسسة السجنية. تصوّروا ما الذي كنا سنفعله بخريجي كلية الحقوق –كما يسمونها–وماذا كنّا سنفعل بهم، ومستوى البطالة عند حاملي الشهادات العليا على ما هو عليه.
خَلاص، يئسنا من إصلاح الآدمي المكلّف بإصلاح العالم.
ماذا لو جرّبنا العبّ من لذّاتٍ يوَفّرها العالم وهو كبائع المخدّرات لا يوَفّر لنا المتعة كالطُّعم المسموم للفأر.
يخلع الراهب قناع موسى ليلبس قناع ينج–لو ليتمتع الآدمي بمطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس، وحتى ليُعبَد كما لو كان حقّا إلها. عبثا. حتى في هذا الدور غيرُ قادر على أن يملأ الفراغ الذي تعاني منه الذات، تتهاجم الآدميَ وهو في أوج سلطانه الظنونُ، تؤرقه الشكوك، تعذبه المخاوف، تعيث الأمراضُ في جسده فسادا. لمزيد السخرية منه تَضرب الصاعقة قَصره الذي أراد أن يُبهر به سفراء المنافسين، فتُحيله رمادا. نهاية محزنة لجلالة الامبراطور ابن السماء، لا تختلف كثيرا عن نهاية رعاياه الذين أَلِف ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود.
ما الحلّ؟ الانتقام. ولنبدأ بالانتقام من الذي منه كل نقمة. هو ليس فقط الآدمي في أبشع حالاته، وإنما العالم نفسُه لَبِس أبشعَ قناع.
يخلع الراهب قناع ينج–لو ليلبس قناع الكونت مونت كريستو.
لنتمتّع بشماتتنا أمام صراخ الذي منه كل نقمة وهو لا يعلم من أين تأتيه الضربات القاتلة.
لنوسّع الانتقام، نرمي العالم بكل أقنعته الأخرى بالقبح والتلوّث والاحتباس الحراري. تقول احذر، قد تنتقم منا السلطات العليا.
يا صاحبي لا تكن غبيا فقد بادرناها بانتقام يُفشل انتقامها ونحن نخترع الكفر والإلحاد. مِن أين لمن لا نؤمن بوجوده أن يؤثّر فينا؟
تصرخ فيّ أنني لم أنتبه أن الآدمي لم ينتقم إلا من نفسه تاركا العدوّ الحقيقي يضحك منه من وراء الستار.
معك حقّ. مَن هذا العدوّ؟ إبليس طبعا...
يخلع الراهب قناع مونت كريستو ليلبس قناع سوبرمان.
يتّضح أن حتى هذا البطل غير قادر على فعل الكثير والأشرارُ من ذرية إبليس كالنباتات الضارة، ما إن تستأصلها حتى تعود أقوى من أي وقت مضى. ثم إلى متى سيبقى سوبرمان يصارع الشريرين وعمرُه محدودٌ وعمرُهم غير محدود؟

آه الموت؟ أليس هو الآخر أكبر أعداء الآدميين، حتى وإن كان في نظر أمثالي صديقَهم الوحيد؟

يخلع الراهب قناع سوبرمان ليلبس قناع شرلوك هولمز.

في نصوص كونان دويل هو ذلك الرجل الذي لا أقدَرَ منه في الكشف عن قاتل اللورد أو ابنته أو كلبه. في هذا النصّ هو الذي قرّر أن يترك لهركيل بوارو وصغار المفتشين البلجيكيين والفرنسيين مهمةَ إيقاف قاتل سوبرمان وبِصِفةٍ عامّة العمل بالتفصيل على صغار القتلة. ما يهمّه تتبع القاتل الكبير الذي يزهق أرواح كلللللّ الآدميين بكلللللّ الوسائل، لا يفلت منهم واحد. ينطلق المفتّش الهُمام في شوارع لندن يرصد المارة بأم عينيه دون إغفال استعمال كاميرات المدينة المبثوثة حتى في المراحيض. ها هو يجد أولى القرائن، لكن لا بدّ من التثبّت. ذات صباح يدخل وهو في قمّة الهَيَجان على واطسون صارخا في وجه الطبيب الغارق في قراءة تفاصيل آخر جريمة: حدّدتُ هوية المجرم الأكبر...

- آه ومن هو؟

- اسمه عزرائيل!

- عجيب، أليس كذلك!

ثم يعود إلى جريدته وقهوته غير عابئ بالشرلوك وهو ينقضّ على درج المكتب يخرج منه الكلبشة مسرعا لإلقاء القبض على الجاني بعد أن عرف اسمه.

بقية القصة؟ مِن يومها اختفى شرلوك هولمز وبعد عقد من الزمن قرّر واطسون مغادرة بايكر ستريت للبحث عن شقة وحبيب آخر.

آخر محاولة لإنقاذ الآدمي المسكين مِن إبليس ومن عزرائيل.

نبعث له ابن الربّ لا غير، ليخرجه من الورطة التي أفاق فيها وأمواج العتمة ترميه عاريا، بائسا على شواطئ جزيرة الشيطان.

يضع الراهب قناعه الجديد وفوقه إكليل شَوك. يروي الراهب ظروف وصول المنقذ وكيف هبّ لاستقباله الملوك والنجوم. بدايةٌ مبشّرة بكل الخير. لكن القصّة تنزلق مرّة أخرى في الاتجاه الذي نَكرهه أشدّ الكره. مُنقذٌ آخر لم ينقذ شيئا، بل وعجز حتى عن إنقاذ نفسه.

يخلع الراهب قناع المسيح راميا بغضب الإكليل ليلبس قناع الشاعر، صارخا أنه لا أحد قادرٌ على مقارعة الدهر ولا نَصرَ عليه إلا أن تلقاه غير مكترث.

نعم، أحسن حلّ وقد استعصت كل الحلول الأخرى معاملةُ العالم بكل الممكن من عدم الاكتراث، شريطةَ أن تُغسل الروح من كل حفيظة ضدّه ليكون عدم اكتراث صافيا ومن درجة أولى، مثل الزيوت الفاخرة التي لم يغش فيها البائع بمزجها بالماء.

أمرٌ فوق طاقة الآدمي، على الأقلّ هذا الآدمي الذي يصمّ آذاننا بجعجعته الفارغة منذ قرون. إذا أردنا الاكتراث الصافي غير المغشوش فلا بدّ أن نبحث عنه في دَور آخر.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الآدمي بتنظيف شامل يكنس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقد. ها قد أصبح الآدمي في وضع يمكّنه من مواجهة ضربات القدَر لا يرفّ له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. الانتصار على الطمع والطمّاع والمطمّع، بالجملة وبالضربة القاضية.

انتصار؟ ونحن نَبتر جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذةُ الإثم مِن خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

اللعنة! لا المواجهة، لا الفرار، لا إشباع الشهوات، لا التخلّص منها، لا التنبؤ، لا التأله ولا حتى عدم الاكتراث (المفتعل منه والناجح) حَلٌّ لمشكلتنا. ما الذي يبقى؟

الدور الأخير

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المغنّي سارج قانسبورغ. ها هو يهذي أمامنا بَعد أن حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن، يستعمل نارها لتوليع سيجارته: الرحلة عبثٌ مَحض، لندمّر حياتنا بالكحول والمخدّرات إلخ.

إنه دور البطل العدمي، الآدمي الذي لم يعد ينفع فيه لا دِين ولا سياسة ولا طبّ ولا شِعر أو موسيقى.

يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا من هذا الكلام، أنا وحدي أقول لكم الحقيقة، لا مصلحة لي في الكذب، فهل تسمعوني أخيرا؟

نعطي لثقيل الظلّ الكلمة شريطة ألا يُطيل. ماذا يزمجر؟ أن الآدمي الذي يختلق قصصا يتقدم فيها كالمظلوم الكبير والضحية البريئة لمؤامرات الآلهة والطبيعةِ والدهر، هو أكبر نصّاب، أنه يمارس التعذيب والتصفية العرقية وإبادة الأشجار والحيوانات، أنه مَن اخترع جرائم الشرف، أنه من سَجن ابنته ربع قرن في سرداب تحت البيت واغتصبها يوميا وولدت له سبعة أطفال عاشوا في الظلام إلى أن اكتشفهم البوليس وهم يكادون لا يتكلمون لغة آدمية، أنه يبيع البشر ويغتصب الأطفال ويمارس التجارب على الكائنات الحيّة، لا يرفّ له جفن، أنه يأتي مِن المنكر ما يَحمرّ له وجه إبليس، أنه –خلافا لما يدّعي– ليس ضحية عالَم بشع وإنما هو البشع الذي راح ضحيتَه عالم بأسره.

لنصرخ في راهب متزايدٍ عصبيةً: وصلَت الفكرة، داهمنا الوقت، فلنكتف بهذا القدر. قلنا: داهمنا الوقت.

هنا يرمي التعيس بقناعه ويتوجه مباشرة إلى الحانة ليَقضي الليل في شرب الساكي والشجار مع الحطام الآدمي اللاجئ فيها، الهارب من فظاعة القصص التي ينسجها وتنسجه.

يرفع العالم يدَي الاستسلام. لم يعد له ما يطلب من غبي مقتنع أنه لا حلّ لمشكلته ولم يخطر بباله –على ما يدّعي من سعة العلم وعمق التفلسف–أن المشاكل التي تبدو بلا حلول، قد لا تكون مشاكل أصلا.

**

النظّارة المنتظرون

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات أدوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدّد شيئا أو أحدا.

في ركن مُنزوٍ من الركح كاتِب هذه السطور بصدد التركيز على النظارة وخربشة بعض الملاحظات من حين لآخر، على دفتره الصغير الذي لا يفارقه أبدا.

يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عَرضا في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون، والموضوعُ عنصر قارّ وإن بِنِسب متفاوتة في أغلب قصص البشر: الانتظار، انتظار الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو قدوم الحبيب، أو قدوم المخلّص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم يَفضحون بما ينتظرون الشيءَ الذي جعلوه أولوية أولوياتهم، خرجوا للبحث عنه لكنهم لم يجدوه فلم يبق لهم إلا انتظار أن تجود به الأقدار عليهم. كل هذا والعالم يسرّ فيمن يريد أن يسمع: وَهْم، وَهْم، وَهْم.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.

– طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.

نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.

– طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

لا خيار غير مواصلة الانتظار والتشبث بالأمل في قدوم الموعود يوما ما. عبثا، فلا حياة لمن تنادي. نفس المعزوفة كل ليلة.

– طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ليس من الغريب أن يتدافع النظارة إلى مثل هذه المسرحية وهي تعكس تجربتهم مع عالم لا يكفّ عن مطالبتهم بالصبر عليه قليلا حتى يعطيهم ما يريدون وفي آخر المطاف ينطلقون نحو العالم الآخر يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها.

يتأخر راعي الماعز الصغير. يتبادل الممثلان جملة تُردّد نفسَها كل ليلة بثبات مملّ.

– لم يأت، أليس كذلك؟

يواصل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يَبلغ التوتّر أقصاه على الركح. يصرخ الممثل الأوّل، لم يعد يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:

– قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:

– وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

– لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

– (بلهجة التحدّي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

– ماذا فعلنا؟ لا نضيّع وقتنا في خُطَب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللّحظة، البشريّة هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرّة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه.

هذا الجنس الذي حشرنا فيه! هل يقدّر الرجلُ خطورةَ هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه! إذن الشكل الآدمي غلاف! مَن حَشرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة:

– طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظِر الأول في المنتظِر الثاني.

– لنبتعد عن هذا المكان.

– لا نستطيع.

– لماذا؟

– لأنّنا سنضطرّ للرجوع غدا.

– لنفعل ماذا؟

– لانتظار Godot.

مَن هذا الذي لم يأت ولماذا هو يمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ وصفة السعادة الأبدية؟ الترياق الواقي من الموت؟ الظرف المختوم بالشمع الأحمر وداخله هدف المهمة التي بُعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

– فلنذهب في حال سبيلنا.

– نعم فلنذهب.

– وإذا جاء؟

– سنكون قد نجَونا.

نجونا!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدّدا السؤال سيد الأسئلة.

لمغالبة ملل بدأ يتسلّل، تَشردُ الخواطر تتفحص إمكانية حدوث قصة كهذه في عالم من بين العوالم الممكنة.

أخيرا الكوكب الأزرق الذي كان يسمى الأرض قبل بضعة ملايين من السنوات... الموطن الأصلي لجنسنا الذي استطاع الأوائلُ الفرار منه قبل أن تلتهمه الشمس. كم مؤثر أن أعود في هذا الحجّ إلى منطلق الطريق الذي قادنا نحن ذرية آدم إلى إعمار ما لا يحصى ولا يعدّ من كواكب أبعد المجرّات. ماذا أرى؟ كائنات من الحديد والأسلاك تحاكي أجسام الأوائل كما نعرفها من أقدم الصور! آه مؤكّد أنها الروبوتات التي تقول الكتبُ المقدسة إنهم تركوها وراءهم. فجأة يمسك بي ذراعٌ من حديد بدأ الصديدُ يغطّيه والرأس الغريب المثبت فوق الجذع يصرخ في اتجاه جموع من هذه الكائنات البدائية: أخيرا وصل المنقذ الذي وعدنا به إنجيل الأوائل... إنه الذي سيقول لنا مَن نحن، مَن خلقنا وماذا نفعل هنا... فلنصدح جميعا باسمه المقدس Godot. Godot. !!!!

يدخل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية لكل التي سبقتها، يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة: طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرةُ المقبلة سآتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتّى يَتلقّى واحدة منها، أو حتّى بيضة إذا كررّها ثانية.

ضرورةً التدخلُ الحازم في القصة وإنهاءُ مفعولها المدمّر للأعصاب، بدأ بالبتّ في قضية هوية اللعين. أهمس في أذن الممثل الأول بما يجب أن يصرخ به.

– أنا أقول لكم من هو. إنه عزرائيل.

أهمس في أذن الثاني بالردّ، لكنه يبادرني قبل أن أكمل الجملة.

– يا غبي هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

بدأت الأمور تفلت من يديّ.

– الغبي هو أنت. ألم تتعلّم بعد من طول مشاهدة البشر أنهم يرهبون ما يترجّون ويترجّون ما يرهبون؟

أهمس من وراء الستار في الممثلين بالاقتراح الثاني فألقى منهما الموافقة غير المشروطة.

ينظر الممثل الأوّل إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحبّ مَن لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضّل حالًا فسأتخذ ضدّك الإجراءات الضروريّة.

تنطلي الحيلة على .Godot يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين ضاحكا وممازحا:

– هلّو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!

يتسمّر الممثل الأوّل. يفتح الثاني فمه ثمّ يغلقه. ينفجران بالضحك.

– Godot زوجتك؟

– بل زوجتك أنت.

– كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوّس.

– يا رجل، إنّها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. وَيحك خرفتَ إلى هذا الحدّ، فلم تَعد تعرف حتّى زوجتك.

عرض ثالثٌ أملا في أن تفضي خصوماتكم بسببه لحرب مقدسة جديدة تقضون فيها كلكم شهداء: راعي الماعز الصغير هو Godot. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى.

ماذا؟ حسك الطبقي المرهف يرفض بكل قوة أن ينتمي المنتظر–المخلص—المنقذ من ورطة الوجود إلى الطبقات البروليتارية، خاصة لرعاة الماعز. دبّر رأسك وهات الحلّ إن كنتَ عليه من القادرين.

تقول وقد بلغ بك ضيق الصدر أشُدّه: لماذا لا نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا –والحمد للشيطان–ما يكفي من الكفاءات.

نعم، من هو Godot يا صامويل يا ابن بِكت وإلا لا تَلُم إلا نفسك. يأتي الردّ الشهير: لو كنتُ أعلم لَما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَق كائنَين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدّعي أنه لا يعرف؟

المساكين بحاجة إلى أيّ ردّ، هم كالمرضى الذين لم ينفع فيهم أي دواء والمستعدين لتصديق أي دجّال.

طيب، لنعوّل على أنفسنا ثانية. ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مني السيد Godot، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلامٍ غير معهود السواد.

هنا يدوّي صوت لمجهول: طلبَت منّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكلّ تأكيد،

(ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهمّ ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الآدمي يتمتّع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقنعتُ معافىً بالنعمة التي يتمتّع بها وأنا أردّد عليه قول الحكيم: ''الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى''. لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همّه واهتمامه منصبّان على ما لا يملك من توافه الأمور.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة مرددا: طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الآدمي لنفسه أو لتوءمه في الشقاء:

– ماذا لو تخلّينا عنه؟

– قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

– نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

– حزام البنطلون.

– إنّه قصير.

– تجذبني من القدمين.

– وأنا من يجذبني؟

أين المكلّف بالصراخ فيهم ''لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. القصّة سخيفة من الأساس وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيل بل ومن الصنف الرديء! ''

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصولGodot، وكأنّ على رؤوسهم الطير، ولا أحد طالب بتعويض ثمن التذكرة، والكل مقتنع أنه قَصّر في شيءٍ ما بالغِ الأهمية، أنّه أخلف موعدا بالغَ الخطورة لكن مع من؟

كم من الآدميين على قناعة أن وكالة الأسفار الربانية التي سفّرتهم إلى هذا العالم لا تردّ على صرخات الاستغاثة لانقطاع في شبكة الاتصالات. منهم متفائلون على ثقة أن بعثة الإنقاذ انطلقت تبحث عن التائهين، مسألة وقت فقط وبعدها يصل المنقذ. أغلبهم متشائمون على قناعة أن الوكالة أَفلست وأغلقت أبوابها من زمان. تعسا للمتشائمين والمتفائلين على حدّ السواء.

هنا أسارع إلى باب الخروج والبسمةُ الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو Godot. إنه أنا. كنت معكم طول الوقت جالسا في الظلام وراء الممثّلين وها أنا بينكم لأقول لكم: لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوهامنا والمهمة التي جئنا من أجلها "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

تقول وأنت بين شكّ وأمل من أين لك هذا؟ لا تسأل، لأن المؤتمن على عقدة القصة لا يبوح بها قبل الخاتمة المفاجئة التي ينتظرها القارئ بكل شوق.

**

معطيات المكتبة العظمى

يصبح الطفل -وقد مرّت السنوات والعقود-هو مَن يروي القصص للأطفال.

تأتيني ليلةً فكرةٌ لقصة ما قبل نوم البنتين لم تخطر على بال قَصّاص.

أليس الآدمي مصنوعا من الأفكار مثلما هو مصنوع من الدم واللحم؟ لم لا أمسخه في صورة كائن من الحروف؟

أتوجه لتفاحة تفرك عينيها ولتفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحرَ الخبيثَ فكرةُ مَسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهرَ في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!

- أشهر الساحر كلمة مقصّ.

- لنهرب جميعا، نركب كلمة زورق.

تصرخ تفيحه: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من المطبخ بوَقف الضجيج. لا أحد يحملها على محمل الجدّ. لا حتى صاحبتها. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقلّد الرقص. تحتدُّ لهجة أوامر نافدة الصبر فأنصح البنتين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخُ المتزايدُ عصبيةً من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوَشةً وقَرصًا وتجاذبا بالأيدي.

تهمس تفاحة وعلامات التآمر على وجهها: ''با'' أين سنصل بزورقنا؟

سؤال وجيه. أين يحملنا الطريق وهو في هذا البُعد من أبعاد العالم مرسومٌ بالكلمات مصنوع منها؟

طبعا إلى ''فضاء'' جبالُه نصوصٌ، غاباته نصوص، أنهاره نصوص، مستنقعاته نصوص، وجلّ المادة ما يقوله الآدميون عن الآدميين، تعلق الأمر بآلامهم، بآمالهم أو بخلافاتهم التي لا تنتهي حول كل شيء والباقي.

يتصاعد التنفس البطيء من البنتين. أغوص في الأريكة واضعا رجلَيّ على فراش البنتين، مستمعا بتنفّسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تأتيني إلا وأنا على تخوم النوم واليقظة. أخيرا المكتبة العظمى. أيضا ساحة معركة كالتي توجد في البعد الحسّي لعالم لا يتخيّله خيال خالٍ من الصراع.

''هنا'' يتناطح ''صحيح البخاري'' مع ''الإعلان الشيوعي'' وكأنهما ديكان غَيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بدايةَ تحرّك كتب الفلسفة المادية، حتى تقرّر الدفاع عن مواقعها ووَقف زحف العدوّ ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرّغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتنشِب كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجُملها المسمومة في كل اتجاه، تقصد بالأساس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية، فتُصيب خطأً الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسالم من النقد الأدبي. تفتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البنّاء مع كتب الميكانيكية النسبية، ثم تفقد أعصابها أمام صلَف العدوّ ووقاحته لترتطم الصفحات بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لكمات المجلدات. تَهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف... إلى ما لا نهاية، ولا رأي يبرزُ إلا ووَجد مَن يخالفه ويسفهّه ويهاجمه.

كأنني أسمع الصراخ المتصاعد من الوقار المتكلّف: يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلّف، يا ملحد، يا عدوّ الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أؤمن بما هو أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا نؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائيون بأساطير ساذجة واستحوَذ عليها كهنة خبثاء وملوك قُساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يَسلم إلا إذا أُريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... مَن الغبي الذي قال اعرف نفسك؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا، أيّ جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق الذوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُوِّل... أعيدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيّدا وفهمنا كيف نُحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... آه يا أوباش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن –خلافا للأغراب–نَعلم عنك كل شيء.

في هذا ''الفضاء'' صَيحاتُ آلامهم نثرا وشعرا.

''هنا'' زبدة علومهم الصحيحة والمغلوطة سحرا وتنجيما وشعوذة... معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمّة الإبداع الفني عند البشر.

''هنا'' قوانينهم التي تعكس لهم صورةَ محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين مرتشين.

''هنا'' تواريخهم، قُل أساطيرهم التي يموّهون بها على أنفسهم وعلى الآخرين.

''هنا'' مخططاتهم للسّيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

''هنا'' تواريخهم، أي روايةُ المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح مموّليهم، وآخرون يفكّكون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح مموّلين آخرين.

''هنا''رواق صور عظمائهم التي صَقلتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور. كُنْ على أتمّ الثقة أنها مصطنعة سَهرَ على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعّشون من صيتهم.

''هنا'' ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكدس كل الآدميين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم. كن على أتم الثقة أن أغلب المرميين فيها ضحايا صوَر نمطية معاكسةٍ روّجَها الأعداء ومَن يتمعشون من تواصل العداء.

ماذا عن طبيعة المعنيين بالأمر وراء ما أُلبسوا من أقنعة الجمال والقبح؟ إنه الغموض التام وقد ضاعت حقيقتهم من فرط المبالغة في التقديس أو في التدنيس. وحيث أنه لا يوجد آدمي يَختزن الخير المطلق وآخر يختزن الشر المطلق، وأن كل آدمي مزيجٌ دائم ومتحرك من الخير والشرّ، فإن بوُسعك أن تُراهن على أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقدّيسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقة للمومسات لما كان حُكمنا عليهن بالصرامة المضمِّنة في الكلمة الإهانة.

فجأة يتعالى الصراخ من كل حدب وصوب. إنه صراخ باعة المنتوج الجديد الذي لا يكفّ عن التدفّق والكُلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: مِن هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لدِين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين مَن لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجدّية على الأسئلة اللعينة... لا غشّ عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يا لتعاسة كل طِفلٍ مسكينٍ ستحكم عليه الأقدار أن يضيّع جلّ عمره في الجري وراء المعرفة طمعا في اكتشاف سرّ الوجود ليكتشف أنه لم ولن يعرف من الواقع إلا تصوّرات تراكمت على تصورات.

نهاية إقدام العقول عِقالٌ   وأكثر سَعيِ العالمين ضلال– (الإمام الرازي)

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذًى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمَعَنا قيلٌ وقالوا

على الأقلّ ''هنا'' يعيش أكثر مَن أُحبّ من الآدميين.

هل حدثتُك عن صداقتي الحميمة مع راسكولنيكوف والأمير مويشكين والمسكين إيفان كارامازوف، ولو أنني أعيب عليهم سوداويةً أخذوها من خالقٍ اسمُه دويستوفسكي أرهقه الصراع والصرع؟ هل بُحتُ لك بعشقٍ دامَ سنوات طويلة لامرأة خلقَها خالق اسمه تولستوي. آه منكِ يا ناتاشا، يا ولَهَ الصبا، كيف فضّلتِ عليّ بيار بيزوكوف وتزوّجته بدلي؟ حتى أنت، يا عزيزي بيار، ترفض هُيامي المتصدّي لكل قوانين السَّير المنظِّمة للعوالم. طيّب، سأقبل عتابك وأنت من أعزّ أصدقائي والصديق لا يخون صديقه؛ فعفوا ومعذرة. كيف يمكن لكائنات لم توجد إلا داخل الكتب أن تفعل فينا فعلها العميق، تلعب في توجيه حياتنا دورا أخطر بكثير مما يلعبه آدميون من لحم ودم؟

يقترب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتردّد، عندنا برنامج للرحلة وكيف تؤديها على أحسن وجه وبأرخص الأثمان. تعال، من هنا الصراط المستقيم. لم لا أتبعه؟ قد أعثُر أخيرا على ما بحثتُ عنه منذ إفاقتي.

إنه الركن من ''السوق'' المخصّص لبيع رواياتهم المتناقضة المتناحرة، لما يجب أن نفعل لكي نجعل من كل آدمي إنسانا.

''هنا'' سرادق الآلهة المكشرة وكهنتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دَوما: افعلوا الخير وستكافَؤون بكثير من الشوكولاتة، وإن عصيتمونا سلَخنا جلودكم دُنيًا وآخرة. لا، شكرا لستُ معنِيا بمثل هذا البرنامج.

''هنا'' سرادق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجُل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلّمنا أثمن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.

''هنا'' سرادق ديمقريط وبروتاغوراس وابيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيِّرا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبورا ونافعا! لماذا يصرّون كلهم على أن أضيّع وقتا ثمينا في مهمة بعبثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جئتُ لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي، وكأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي؟

''هنا'' الواجهة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور ونجحوا في فرض بضاعتهم. أجيل البصر أقرأ لافتاتهم الضخمة: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيضاويون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير.

هل سيجد الحالم ضالّته في الأزقة الخلفية؟ مؤكّد أنها تعجّ بمزوّري النصوص وبمهرّبيها، أنني سأجد فيها أشدّ مَن تتشوّق لهم نفسي. قد أسقُط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولةٌ جُلَّها لأن الرجُل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بِهُدًى وتَوفيقٍ من الشيطان. آه لو أمكنني ملاقاة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم –ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة–أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسبّه وأُخبِره أنني سأختم به نصّي أذِن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلّف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل –اللهم إلا إذا كان امرأة–تدبّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إماطة اللثام عن هويته(ها). كتّاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام.

قد ألاقي صاحب مخطوطة ''فوينيتش''. كم من ليالٍ لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستميتون ستة قرون لفكّ رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر. آه هذا أنت! أيّ وقاحة هذه؟ كل الذين يكتبون يفعلون ذلك لتُخلَّد أسماؤُهم وليتناقل الناس

كلامهم ويعملوا به وأنت! لا، لن أُزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.

ربما أكبر مقاول في السوق –بساحاتها الكبرى وأزقتها الملتوية–ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مزّق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوَقف عن التنفس إلى أن جاءه الموت. نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائقَ يجب أن تبقى مخفية! هل من الممكن أنّ كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثرثرة مجرّد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الآدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

كل هذا الضجيج ردودهم المتنافسة على التحدّيات التي يطرحها أمامهم هذا العالم كأنه يختبر ذكاءهم.

إن ثمة ملجأً من طوفان الكلمات التي تدمّر وتعيد تشكيل هذا الفضاء ففي عين الإعصار: المنطقة التي تنطلق منها الحركة الهوجاء الخلاقة المدمّرة... النافورة التي لا تنضب أبدا بالمشاكل المطروحة للبتّ فيها جيلا بعد جيل.

سيّد هذا الفضاء أهمّ من كل الحروف. إنه رمز له شكل مُنجلٍ ووظيفته الأولى رميُنا بالتحدي وراء التحدي لكي نبقى دَوما منتبهين نبني عالما متواصل الخَلق.

السؤال هو الساهر على سلامتنا الذهنية والأداة التي تمكّن فضاء الرموز من البقاء حيا متجددا. إنه من يذكّر أن المعرفة مثل جزيرة وسط محيط من الجهل، وكما قال أحدهم: بقدر ما تكبر الجزيرة بقدر ما يتوسع المحيط.

إنه لشيء مُطَمئن أن الآدميين كائناتٌ متسائلة لا تتوقف أبدا عن طرح السؤال وراء السؤال. قد يكون الأمر مُكلفا وهو دوما مصحوب بقلق دفين، لكنه يبقى أقوى دليل على وجود طاقة خلّاقة لا تنضب.

هل أطرح الأسئلة التي لها معنًى ولها إجابة؟ هل سأجد الردود التي أحتاجها لأبني بها الرؤيا؟

كم تعاقب من بني آدم على الوجود؟ كيف يسَعني أن أعرفهم واحدا واحدا وباسمهم الصغير، وأن أتمعّن في قصة كل فرد منهم؟ لماذا أتَوه بهذه الكثافة؟ لماذا يرفضون مغادرته على أهواله؟ هل وُجدوا قبل الوجود؟ وهل سيوجدون بعده على شكل آخر؟ هل هم حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها ''الطبيعة''؟ أم كائنات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصهم؟ هل رمت بهم الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل هم تائهون في محيط اسمه ''الكون'' ينتظرون بعثة إنقاذ لم تسمع بغرقهم ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأوا إليها؟ هل هم مستكشفون بَعثَتهم العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقدّم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفر منه إلّا بصدى صوتنا؟ ما الخَلق؟ ما الخالق؟ ما المخلوق؟ إن قُلنا إن العالم ليس بحاجة إلى خالق لأنه يتطوّر بصفة عفوية وبلا مخطط مسبق انطلاقا من مكوّنات أساسية ووفق معادلات حسابية بالغة البساطة، فمن أين أتت المكونات والمعادلات التي تتبع تعاليمها؟ لماذا تتبعها هي لا غير؟ ما هذا الكائن الذي تجسدنا فيه؟ ما هذه الأداة التي أرتحلُ بها أو من خلالها أستكشفُ عالما لا أفهمه ولا يفهمني؟ مَن هذا الذي ظعنت وارتحلت من بداية الرّحلة إلى نهايتها موثقا إليه؟ من هذا الأعمى الذي أقوده ويقودني في مسالكها؟ من هذا الذي أسمّيه ولا أعرف من هو، أوّل من قابلت من الكائنات وآخر من أودّع عند الرحيل النهائي. لماذا تعرف الذات شرخا بين علمها الواعي المحدود وعلمها غير الواعي الذي يبدو لا محدودا؟ كيف حصل الشرخ الذي قسّم ما كان وحدة صمّاء إلى ذات تشاهد الذات، وذات موضوع المشاهدة، وكأنّ المشاهد وموضوعُه عين تحاول رؤية نفسها وهي تبصر؟ لماذا أشعر بأنّني أنا ولست أنا؟ كيف يمكن لنفس الدماغ أن يتمخض عن كل هذه العبقرية وعن كل هذا الغباء؟

ما القاعدة وما الاستثناء؟ أم هل إن الخاصّيتين متلازمتان ضرورة تَلازم الأوكسيجين والهيدروجين في جزئية الماء؟ كيف يتجاور في نفس الكائن الشيطان والملاك؟ هل هو خطأ عابر ارتكبه العالم وسَيمحوه من الوجود ومِن ذاكرته كما فعل قبلنا بملايين الأجناس؟ هل نحن مثل أبقار نُسيَت في المراعي، فإذا بفيلسوف بأربع قوائم يقول لها إنها خُلقت لاستكشاف الحقل، لا لأغراض الراعي والجزّار؟ أخيرا لا آخرا هل ثمة إمكانيةٌ لعالَم مثالي فيه كائن مثل الآدمي؟

الأهمّ الأسئلة التي تتعلّق بالآلة التي تولّد الأسئلة.

ما الذي يحدث بالضبط داخل فكري عندما ألاحظ وأحلّل وأسمي وأقارن وأقيس وأستنتج وأرفض وأراجع وأقرّر وأشكّ وأفنّد وأنقد وأسخر وأجرّب وأحتار وأطمئن؟ هل التفكير انعكاس العالم في مرآة الذات؟

هل تتعرّف هذه الأخيرة عندما تفكر على أشياء رأتها قبل تعرّف الأمّ على طفلها الضائع أم هل تختلق وترسم على لوحة بيضاء ما بداخلها؟ هل هناك أفكار أزلية موجودة في الفضاء معلّقة في سطح الموجود، والتفكير هو السلّم الذي نصنع درجاته لنرقى إليها أم هل نصنع أفكارنا كما نصنع ملابسنا وأحذيتنا لقضاء الحاجة ثم نرميها في سلّة مهملات عندما تبلى؟ هل التفكير اكتشاف أثر العالم في الذات كاكتشاف آثار السارق على الرمل؟ أم هل إننا، عندما نكتب أرقى المعادلات الحسابية، نتوغّل داخل قدرات جديدة للذات ولا نكتشف شيئا خارجا عنها؟ هل يستطيع الفكر البتَّ في شرعية الأسئلة التي يطرح، بِغضّ النظر عن اكتشاف الردود؟ لماذا حُكم على كل سؤال أجيبَ عنه أن تتولّد منه رزمة من الأسئلة الجديدة؟

ماذا لو كانت كل الأسئلة التي نطرح والأجوبة التي نعطي (ومنها أننا ضحية ممتحِن قاسٍ) مرة أخرى تصوراتنا، لا أكثر؟ هل نخلق حيرتنا بأيدينا ونبني بها شقاءنا، لأن العالم لم يكن يوما لغزا للفك أو فضاء للغزو، وإنما لوحة فنية للتأمل وللرسم على حواشيها؟

السؤال هنا، أيّ فعل من هذه القائمة الطويلة جدا هو الفعل الجُذر الذي أعطانا الشجرة التي أعطتنا أغصانُها كلَّ الأفعال التي نفعلها. هل هو فعل ''وَلد'' أي أعطى الحياة ومن ثَمّ ''وُلد'' أي تلقّى هذه الحياة التي ستنطلق منها سلسلة الأفعال وآخرها ''مات''؟ لكن ما الذي فعلت الذات قبل أن تولد؟ وما الذي ستفعل بعد أن تتوفّى؟ غريب أن تبدأ قائمة الأفعال بفعل غامض وتنتهي بفعل لا يقلّ غموضا! على كل حال لا يمكن اعتبار ولد-وُلد الفعل-البذرة، لسبب آخر هو أن كل الكائنات تتشارك فيه، ونحن نريد فعلا يتميز به الآدمي عن كل الكائنات الحية ليشكّل وجوده إضافة ما ويعطينا حتى سبب هذا الوجود.

فكّر، تكلّم؟ أيّ دليل أن الكائنات الأخرى لا تفكّر أو أنّها لا تتبادل بينها المعلومات بغير الكلام؟

ما أغبايي، بذرة كل الأفعال أولها والذي بدونه لا تنطلق السلسلة هو... نعم، لا مجال لغير هذا الفعل الزاخر بكل الإمكانات.

مهلا، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أصل لأبعد نقطة ممكنة في مغامرة الاستكشاف قبل أن أنشره بين الملأ معلنا بكل ثقة أنّ فعل الأفعال بما لا يترك مجالا للشك والجدل هو...

تصرخ البنتان بالاحتجاج:

- ''باء''، لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه!

إنّها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحمّلة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٍ أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا-أمل كل المبتدئين أن تتحسّن الأحوال يوما فتفتح لك دكّانا صغيرا ثمّ أوّل مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحححححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهمّ أن تكون فاسدة الصياغة أصلا.

ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصيح مغنّيا أو أغنّي صائحا: "الرحلة"، "الرحلة"، آخر وأجمل الرؤى عن العالم وفيها تقنيات عبوره والخروج منه سالما ومظفّرا. كل من يشتري "الرحلة" نعطيه مجّانا "المدخل إلى الطبّ" شرط ألّا يستعمله للفّ السمك أو لإسناد طاولة المطبخ العرجاء.

ترى ما مستقبل هذا النصّ إن لم يغرق باكرا في طوفان النصوص؟ هل سيصدر في يوم من الأيام قرار بحرقه النص في حفل ليلي لعدم توافقه مع تصورات توصف بالمقدّسة؟ هل سيتناقله شفاهيا رواة محترفين قرونا كما فعل الهوميروديون مع ملحمتي هوميروس؟ هل سيقحمون فيه أجزاء من عندهم؟ كم من مقاطع ستسقط منه سهوا أو عمدا وهل سينتهي صدى لصدى؟

حتى الحفظة سيندثرون بمرور الزمن هم وما بقي من نسخ تناقلتها الأجيال بحرص شديد.

متى وفي أي ظروف ستختفي آخر نسخة مهرّبة من جيل لآخر؟ أي فأر سيقضم آخر صفحة من آخر كتاب يلمّ شتاته ومتى سيلقى في الزبالة بآخر قرص سُجّل عليه وبآخر حاسوب قادر على فكّ الرموز التي شفّر بها الكاتب؟

تنخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عِوض أن تصرخا: مَن لم يقرأ رحلة "با" مات غبيا، ها هي تفاحة تغنّي: تعالوا، اسمعوا قصّة بينوكيو ترويها لكم أحسن راوية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع قصّة سندريلا والأمير الجميل ترويها لكم تفيحه المشهورة.

طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الآدميين الملاعين يحرّك عضلة إلّا لحسابه الخاصّ. أمّا ما يدّعونه من أثرة وعمل لوجه "با" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسبُ ثمنَ تحريك العضلة آنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشترٍ أغشّه. إن بارَت البضاعة فما عليّ إلا تركها للفئران.

وفي حلم داخل الحلم يتوسع الفضاء المفتوح أمام المستكشف إلى آفاق تذهل كل عقل، تخرس كل لسان، تفحم كل خيال.

يدخل شبح لا شيء يوقفه الجزء من المكتبة العظمى الذي يحتفظ بأرشيف رحلات الآدميين من أول من انتصب على قدميه إلى آخر من لفظ أنفاسه منذ لحظة. يتحسس الشبح الرفوف اللامتناهية التي صففت عليها بعناية فائقة ملفات الرجال والنساء، الشيب والشباب، السادة والعبيد، العلماء والجهلة، الفقراء والأغنياء، الأغبياء والأذكياء، المجرمون والأبرياء، الجلادون والضحايا، المومسات والقديسات، الخادمات والملكات، الذين مانوا قبل سنتهم الأولى والذين ماتوا في أرذل العمر، الذين قضوا نحبهم جوعا والذين قضوا نحبهم تخمة، الذين حالفهم البخت على طول الطريق والذين زلت بهم القدم أول خطوة.

يتملكه فضول جارف لدخول كل هذه القصص المحفوظة بداهة بعناية بالغة. ترى أي إرادة تسهر على تجميع هذا السيل اللامتناهي من الرحلات ولأي غرض؟ ترى هل سيجد فيها أخيرا الردّ على سؤال طفلة في الرابعة ألقته على أبيها مذهولة أمام ركض الناس في شارع تجاري مكتظ: " با" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟ ما أن ستعد الشبح للغوص في المحيط إلا وصوت تفاحة يتعالى من عالم اليقظة: "با" أنت تشخر... أنت تشخر... أفَقتني بشخيرك وستفيق تفيحه إن واصلتَ.

يتوجه أب يفرك عينيه إلى ابنته: حتى تفاحة تروّج عني الإشاعات المغرضة، انسَيْ الألعاب التي كنتُ سأشتريها لك، اللهم إلا إذا أشَعتِ في كل مكان أن "ما" هي الوحيدة التي تشخر في العائلة. **

الجزء الثالث

العدد والتعددية

طيف طبائعهم

عندما أتفحّص ما تحفل به ذاكرتي من ملفّات عن الآدميين، يخيّل لي أنني أعرف عنهم كل شيء... وأنني لا أعرف عنهم شيئا.
قد يكون الغرور سببُ توهّم المعرفة... والتجربة سبب اليأس المتعاظم من إدراك حقيقتهم يوما.
مثل هذه الحقيقة لا تدرَك إلا بالقلب والعقل.
لا بدّ أن تكون متعاطفا مع مَن تريد فهمه، أكان حيوانا أو آدميا أو حتى شيئا. إنه شرط لم يتوفر دوما، والذاتُ باستمرار في صراع مع الذوات الأخرى، تُذيقهم وتذوق منهم الأمرّين.
هكذا تصنّف الذاتُ الآدميين إلى الذين منهم كل نعمة، والذين منهم كل نشوة، والذين منهم كل وحشة والذين منهم كل نقمة، أي حسب حاجياتها لا حسب طبيعتهم.
يبقى التعلق بوَهم الموضوعية وأنك قادرٌ على التسامي على نظرة ''السخط التي تبدي المساوئ'' وتجاهل نظرة ''الرضا التي هي عن كل عيب كليلة''.
أعطتنا هذه المحاولة تصنيفهم إلى ممثلين ومخرجين ونظارة لمسرحيات هزلية ومأساوية، هم كُتّابُ سيناريوهاتها.
عندما أتفحّص هذا التصنيف أجد فيه خللا منهجيا واضحا، إذ كيف يمكنني الحكم الموضوعي على الممثلين وأنا نفسي ممثل ومنخرط في المسرحيات التي أكتبها والتي يكتبون.
الثابت صعوبة التصنيف، للتعقيد الهائل لطبيعتهم وما فيها من تناقضات تبدو عصية على التفسير.

صغيرٌ يطلبُ الكِبرا وشيخٌ ودّ لو صَغُرا (العقاد)

وخالٍ يشتهي عملا	*وذو عملٍ به ضَجِرا*
ورب المال في تعب	*وفي تعب من افتقرا*
وذو الأولاد مهمومٌ	*وطالبهم قد انفطرا*
ومن فقد الجمال شكي	*وقد يشكو الذي بُهِرا*
ويشقى المرء منهزما	*ولا يرتاح منتصرا*
ويبغي المجد في لهفٍ	*فإن يظفر به فترا*
شُكاةٌ مالهم حَكَمٌ	*سوى الخصمين إن حضرا*
فهل حاروا مع الأقدار	*أم هم حيّروا القدرات*

لا أعرف هل حيّروا القدر، ما أعرفه أنهم حيّروني كثيرا، خاصة عندما انطلقتُ أبحث عن أحسن المؤشرات ''الموضوعية'' لتصنيفهم، على أمل أن تُبرز المحاولة أهم خصائصهم.
سأبدأ بالتصنيفات التي لا قيمة لها ومنها تصنيفهم إلى خيرين وشريرين.
لنضع من جهة، ليفيا وهي تدمّر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمّم الأقارب والأباعد، لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضّع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سَويّ. نموذج آخر كاليجولا خلفه الذي بنى إسطبلا من المرمر لحِصانه، وسماه عضوا في مجلس الشيوخ، وقتل كل من كان يطمع في ممتلكاتهم. أيضا ميسالين التي راهنت كبرى مومسات روما أنها تستطيع أن تهزمها في عدد الرجال الذين تستطيع مضاجعتهم في ليلة واحدة،

وكان النصر حليفها. حدث لا تسل عن بشر أمثال نيرون، بول-بوت وهتلر وستالين وكل من قتلوا بكل راحةِ بالٍ الملايين من البشر. كلهم نماذج للآدمي الذي تَرَكَ الحبلَ على الغارب لأغرب غرائز الجنس والعنف والتسلّط المكمونة داخل ما يُسمى الطبيعة البشرية.

وفي المواجهة، الجزء الآخر من طيف نفس الطبيعة التي أعطتنا بشرا من نوع غاندي وبوذا واشوكا والأم تيريزا ورابعة العدوية.

لستُ ضد هذا التصنيف شريطة تحسينه كالآتي. من جهة، كلُّ مَن تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بأن يكونوا مؤدّبين نظيفين متعلمين إلخ. وفي المقابل من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، إلخ.

ملاحظة بخصوص إشكالية الأخلاق: أيا كان الآمر-سمّيناه الإله أو الضمير أو القانون-الذي نعهد إليه بأن يكون مشرّعَها وضامنَها والمعاقبَ على انتهاكها والمكافئ لاحترامها، فإننا نرتطم دوما بقلةِ فعاليته، والمأمور يتعامل مع أوامره نادرا بممارستها عن صدق، وأغلبَ الوقت بافتعال الطاعة أو بضربها عرض الحائط. هل ثمة عيب هيكلي في طبيعة المأمور ومن ثَمّ ما جدوى الأوامر وحتى ما جدوى الآمر؟ هل هناك خلل في تركيبة المجتمع يمكننا بمعالجته أن نرفع العامل المعطّل لبروز أخلاقية الآدمي ''الطبيعية''؟ لكن ماذا لو اتضح أن طبيعة المجتمع لا تعكس إلا طبيعة الآدمي، وأن من طبيعة هذا الأخير أن يكون أخلاقيا-لاأخلاقيا، لأن الأخلاق واللّأخلاق -بالنسبة إليه-مجرد استراتيجيات لقضاء الحوائج وأولها البقاء، يستعملها تباعا أو بنسب مختلِفة حسب الظروف والحاجة، دون أن يضايقه في شيء تناقضُهما.

لنُضف إلى كل هذا أن الأخلاق مدوّنة المواقف والتصرفات التي تحاول السباع المشدودة إلى بعضها فرضَها بالحسنى على نفسها وعلى الجميع لتفادي التهلكة، لكن فشلها يجعلها تلجأ إلى القانون، وهو مدوّنة المواقف والتصرفات المفروضة بالقوة...

القاعدة الأولى أنه كلما ضعُفت الأخلاق كثُرت الحاجة إلى القانون، وكلما قويَت الأخلاق تناقصت ضرورته، مما يعني أن قوة القانون في أي مجتمع هي الدليل على ضعف مستواه من الأخلاق. القاعدة الثانية أنه لا قدرة للأخلاق أو القانون -غُلّفَا في شكل دِين أو أي أيديولوجيا أخرى-على استئصال الشرّ وإنما أقصى المؤمّل كبحُ جماحه وتخفيف أضراره وبكل صعوبة، في إطار صراع أزلي كلُّ نصرٍ فيه مؤقّتٌ.

داخل هذه الخانة يمكن تصنيفهم إلى أعداء وأصدقاء.

بخصوص الأعداء، لنصنّفهم إلى الذين لهم شرف -وهؤلاء للتعهّد لأن الصراعَ معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر-والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خَوض في الوحَل وصلحهم من نكد الدهر. نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم، الذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداءً.

لم لا نقسّم رفاق الرحلة إلى مَن نثق فيهم والذين نحتاط منهم، وأهمّ ما نحن بحاجة إليه أن نطمئن لرفاق الطريق.

انتبه، إن وثقتَ في الآدمي أو أَمِلتَ فيه، كنت على خطأ، وإن لم تثق فيه أو يئست منه، جانبتَ الصواب. تَظلِمُه إن ركّزت على موبقاته وتظلم ضحاياه إن ركّزت على فضائله.

أليس أسهلُ تصنيفٍ وضعُ المحبوبين في خانة والمكروهين في خانة مقابلة.

ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُحَبّ طويلا، خاصة إذا عرفته عن قرب،

ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُكرَه طويلا، خاصة إذا عرفته عن كثب،

ما تعلمه التجربة أنه لا خيار لك غير تحمّل كل ما يُغْضك له والتمتّع بما يحبّبك فيه، وفي كل الأحوال قَبول تقلّبه مثلَ قَبولك تقلّب الطقس.

إنها نفس الصعوبة إن حاولتَ تصنيفهم إلى عقلانيين ولا عقلانيين.

لنضع من جهةٍ الآدميَ اللاعقلاني الذي يرفض أنه جاهل، عاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوّة بين الرغبة في المعرفة والسيطرة، وبين تحقيقها بالصلاة والسحر؛ من جهة أخرى، الآدمي العقلاني الذي يقبل أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير نفس الهوة بالعلم والعمل. هنا يجب أن نتذكّر أن نيوتن كان يمارس السحر، أن عليك انتظار لحظةَ يُصاب أكبرُ عقلاني بمرض عضال لترى حدودَ عقلانيته وكيف سيركض نحو كل الدجالين، أن أكبر لاعقلاني يصبح –عندما يتعلق الأمر بسجلاته التجارية–من أساطنة المنطق والحساب، أن العقلانية واللاعقلانية من خصائص كل آدمي وموزّعَةٌ داخل كل واحد بالعدل والقسطاس.

ماذا لو فرقنا بين الأذكياء والأصناف الأخرى؟

عن آدمي يُدعى الخليل بن أحمد: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ فذكّروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالِب فعلّموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

في نفس السياق تصنيفٌ لا أكثر منه موضوعيةً أخذتُه عن آدمي يدعى سيبولا وقد يكون أحسن من فهم البشر.

هو قسّمنا وفق محصّلة أفعالنا كالآتي: الذين تُنتج أفعالُهم المنفعةَ لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضَرّة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

حتى ولو افترضنا أن ‘‘الأعراق’’ الأربعة متساوية عددا، فالحصيلة أن ثلاثة أرباع الآدمية تنتج أفعالا مضرّة بالآخرين، أي بك وبي وبنا جميعا. أليس هذا هو السببُ الأولُ للحالة التي عليها عالمنا اليوم والبارحة؟

وراء هذا التصنيف خبر سيء وخبر أسوأ. بأيّهما أبدأ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى هي نفسُها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكياء لا يقدِّرون خطورة هؤلاء الحمقى (خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفضالة). لكن حتى لو قدّروها ما استطاعوا فعل أي شيء والآلهة نفسها عاجزة أمام قدرتهم العجيبة على إلحاق الأذى بأنفسهم وبالآخرين.

الخبر الأسوأ أنْ لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا ‘‘الزاهر’’ والتركيبة قارّة لا تَقدر عليها تربيةٌ أو دِينٌ أو سياسة.

الذين ربح العالم رهانه عليهم والذين أضاعوا وقته وجهده؟

حسب آدميّ اسمه سان سيمون يمكن تقسيم البشر إلى صنفين: من يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة على المجتمع وحتى إلى نهايته، ومَن يؤدي اختفاؤهم إلى تواصله كأنّ شيئا لم يكن. هو يضع في الصنف الأول العلماء والفلاحين والمهندسين والبنائين وكل المهنيين من أرباب الحرف الشريفة (أودّ أن أضيف إلى القائمة الشعراء والفنانين والمهرّجين الذين يحبّهم الأطفال). أما في الصنف الثاني فيضع واحدا في المائة من الآدميين، أي الملوك والملّاكين وكلَّ الساهرين على سرقاتهم من عسكر وبوليس وجواسيس وجلّادين وقضاة ورجال دين. تصوّر حالة العالم، لو أخطأَت يدُ القدَر، فعِوَض أن تمحوَ هذا الصنف، زلّت فَمَحت مِن الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية. لاحِظ أن مثل هذا العالم قد لا يخلو من إثارة، والعسكر يصطادون البوليس بعد انقراض الجلادين، والبوليس وراء جواسيسه، والجواسيس يتبعون أثرَ القضاة المختفين داخل أنقاض الخراب، ورجال الدين يصرخون بالفتوى وراء الفتوى

أنّ أكلَ الفقهاء حرامٌ دِينا وشَرعا، فلا ينفع ذلك كثيرا والكل يعلم أنه لا أطيب من فقيه، خاصة بالبصل المشوي، شريطة أن يكتشف الصيّادون أين اختفى الفقهاء وأين أُخفي البصل.

ماذا عن تصنيفهم حسب نصيبهم من السلطة على أنفسهم وعلى الآخرين؟

يقول راوٍ اسمُه برنارد فربر إنك إذا وضعتَ ستّة فئران في دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضعية تفرز بسرعة تنظيما يتشكّل من سيّدَين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعَبدَين في خِدمتهما، ومُتمرّد، ومُتسوّلٍ يعيش على الصدَقَة وفُتات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمَعت ستّة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكَلية: سيّدان وعبدان ومتمرّد ومتسوّل. إن أخذت ستّة مستضعفين أو ستة متسوّلين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دَوما، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل –اشتمّ مني سوء النية–أن يقول إن البشر ليسوا فئرانا. ردّي أن المدهش ما تُظهره الفئران من طبائع آدمية. المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الآدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يَدعمه. مَن يستطيع إنكار توزّع الآدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمرّدين ومتسوّلين؟

مَن ينكر سرعة عَودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد أصبح فيه العبيد سادةً يسومون رفاقَهم القدامى نفس الخسف، علما أن هؤلاء لا ينتظرون غير أن تدور الدوائر للانتقام مجددا. كل ما في الأمر أنّك لا تستطيع التنبؤ بموعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصِل إلى التمرّد.

أيّ عجب بمثل هذه الاستعدادات الغريزية أن يتشكّل المجتمع دوما من ملوك وعبيد وثوار، أو أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناتُ سادةٍ ودياناتُ عبيد ودياناتُ متسوّلين وديانات متمردين، وبنفس الكيفية آدابُ وفنونُ سادةٍ وعبيدٍ ومتسولين ومتمردين؟

السؤال الآن لماذا سيّدان لا سيدٌ واحد؟

ربما اعتمدت السلطات العليا هذا الخَيار لتَحكُم على السيّد –حتى وهو في أعلى المناصب–أن يُواجَه بالمحنة والامتحان، ورمزُهما الغريمُ. فائدة في العملية والمهدَّدُ مضطرٌّ إلى الانتباه المستمرّ والمهدِّدُ مجبَرٌ على الطموح الخلّاق. بهذا يضمن التنظيمُ تَواصل الحركة وولادة القصص الطريفة للانقلابات والحروب.

لماذا اختارت أن يكون هناك عبدان لا واحدٌ. ربما لأنه يجب إعطاء بعض الحظوظ للعبيد لقلب موازين القِوى، فعبدٌ واحد لا يقدر على سيّدَين ولا بد له من حليف.

ماذا عن المتمرّد؟ هو بحاجة ليكون وحيدا للتحرك بسهولة وحتى لا يُختَرق التنظيم الثوري. أُسارع بالقول هنا إن تصنيفي لا يَقتَصر صفة المتمرّد على الإرهابيين، بل يشمل اللصوص والمحتالين والكذابين والمزوّرين والكفرة ومخترعي الفن المعاصر والموسيقى الإلكترونية، أي كل الخارجين على قوانين سَنَّها السادة تجبّرا واستكان لها العبيد جُبنا وضعفا.

والمتسوّل! ربّما اكتفى مُتعهِّدُ التجربة بواحد حتى لا يُثقل كاهلَ العبدَين وهما مُجبَران على تغذية سيّدين لا يَشبعان، إضافةً لمتمرّد غيرِ منتِج بطبيعته.

التنظيم إذن مفروضٌ على البشر والفئران على حد السواء، وممنوع تغييره بأي وسيلة من وسائل الدِّين والعِلم والسياسة.

والآن لنتفحّص وضعية الكل ليتبيّن الغُبن اللّاحق للجميع، ربما باستثناء واحد.

السيد –كما رأينا–مهدَّد طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتمرد. كل هذا يُفسد مزاجَه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقلّ وضعية العبد بؤسا وهو يعيش في خَوف يُسمِّم عيشَه؛ وفي تسميم حياة السيّد وهو خائف من تبعات خوف عبده. أما المتمرّد فكُلنا نعرف مصيرَه البائس وكيف سيُقطع رأسُه بالسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في جوانتانامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة ذروتَها وهو مَن يعذِّب ويَقطع الرؤوس، انتقاما مما لقيَه وتمهيدا لعَودة الرقّاص إلى نقطة الانطلاق.

لم يبق إلا المتسوّل. هو الوحيد الذي أنقذَ رحلتَه. تَذكّرْ كلَّ الوقت الذي يُضيعه السيّدان في معارك افتكاك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يُضيعه العبدان في العمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرّد في إعداد الثورات الفاشلة.

يُفلت المتسوّل من كل هذا وقد فهِم مِن أين تؤكل كَتِف العالَم. فمَواقفه مَبنية على حيادٍ هادئ رصينٍ يُخفي لامبالاةً بالوضع، بالمنتفعين منه وبالثائرين عليه. لذلك نادرا ما يزعجه سيّدٌ أو عبدٌ أو متمرّد، فلا أحد يطلب منه شيئا أو يلتفت إليه أصلا. حتى قطعة النقد التي تمكّنه من سدّ الرمق، تُرمى له بتفادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرّغ للشؤون الهامة، لا عمل يرهقه، لا سلطة يؤرقه همُّها ولا مؤامرة يدبّرها قد تكلّفه حياته. لهذا هو قُدوَتي لا السيّد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتّر أعصابي، والمتمرد الذي يُضحكني عبثُ ما يقول وما يفعل. قد أذيع سرّا هائلا إن قلتُ إنني أخطط لأكون متسوّلا. قد لا يحملني أحدٌ على محمَل الجدّ أو يحملوني إلى المستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أتسول قطعة خبز والابتسامةُ على محيّايَ. لا حلّ غير الفرار بعيدا ربما إلى بلاد سيتا وهي منذ القدم وطنُ أرقى أنواع المتسوّلين.

حتى المتسوّل معرّضٌ لكل أصناف المنغّصات، والحروبُ المستعرةُ على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه في فخٍّ قاتلٍ نَصبه له متسوّل خانَ السلك، ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعاءه وعن القمل الذي يرتشف دمه بِنَهَم. ممكن، لكنه على الأقلّ الآدمي الوحيد الذي لا يؤذي شيئا أو أحدا وهذا في حدّ ذاته أكبرُ نعمة داخل قطيع السباع التي شُدّت بالسلاسل لبعضها، تتعرّض فيها طول الوقت للعضّ وفي أحسن الظروف لزئير التهديد يلاحقك في النوم وفي اليقظة.

هنا ومن باب تسلسل الأفكار يمكننا إقحام تصنيفهم حسب الدرجة التي يسافرون فيها لو تخيلنا أنهم يعبرون العالم على متن أعجب قطار.

كأنّ طاولة القمار تسحب لكل قادِمٍ جديدٍ رقما يضعه إجباريا في إحدى أربع درجات، وما عليه إلا تدبّر أمره قبولا أو رفضا.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها الإناث الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة، من فرط تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وخدمة الآخرين والفسحة والرفاهة والمعرفة والاعتبار.

وراءهن في حسن الطالع رحلة الذكور الأغنياء ويعيشون أقل لبعض العادات السيئة مثل شرَه التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلّف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم لا يأكلون إلا ثمار البحر ولا يشربون إلا الشمبانيا ولا يلبسون إلا الحرير، ولا يركبون إلا الطائرات الخاصة ويموتون بأمراض التخمة ليُدفنوا في مقابر رخامية. أغلبهم لم يرَوا الحرب إلا على شاشة التلفزيون، لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام وهم مَن يعطون الأوامر ولا يتلقّونها.

إنهم مَن يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدّعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العلية الرأي بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات قافلة الرحلة التي نسافر فيها الإناثُ الفقيرات. هنا تتعقّد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبُها مَسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهن حتى هنّ من رحلة الآدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أُحدّثكم عما يعانون طوالها. القاسم المشترك بين ذكور وإناث هذا الصنف أنهم الآدميون الذين يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرد الجماعي لأسباب اقتصادية. يأكلون من فتات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقٌّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايِد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوَّر من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأديان والأخلاق والنقابات والثورات الفاشلة. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة النساء والرجال الأثرياء) بأنهم جَهلة، قذرون، لصوصٌ، مجرمون، أوباش، رعاع، عوامّ، إرهابيون ومخرِّبون.

لم لا اعتبار المزاج الغالب وهو يفرق بين من عاشوا الرحلة كنعمة ومن عاشوها كنقمة النقم؟

في هذه الحالة ثمة المتفائلون ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للآدمي الضاحك المضحِك، المرِح، الشره، النهم، السكّير، العاشق، المبذّر، الساخر، الوقِح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكول للدجاج المحمّر.

نحسب منهم كل القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بَعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

في الصنف المقابل يوجد المتشائمون (حتى من بين من حبَتهم طاولة القمار برحلة في الدرجة الأولى والثانية) ونستطيع أن نعدّ من بينهم إجزياس الذي اضطر ملك المدينة الإغريقية الصغيرة إلى منعه من إلقاء دروس فلسفةٍ كلُّها قدح في الحياة ومدح للموت، وانجرّت عنها موجة من الانتحار بين السكان. مِن هذا الصنف أيضا الذين عُرفوا تحت أسماء أبي العتاهية وكيركجارد وتشايكوفسكي. شعارُ كل هؤلاء الآدميين المثَل الصربي: ماضينا مظلِم وحاضرنا لا يُطاق، مِن حسن الحظّ أنْ ليس لنا مستقبل.

هنا سأُقحم الصنف المزاجي الآخر الذي سيجعل من ثنائيتنا البسيطة ثلاثية صلبة: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بِجود العالم، وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه في أي شيء.

في نفس السياق. ثمة الذين يريدون إجبار العالم على إعطائهم ما يريدون بالتسوّل والابتزاز عبر الصلاة والنذور والقرابين (أساسا النساء والأطفال والكهنة)، وهناك الذين يفتكّون ما يحرّك جشعهم بالحيلة والقوة والعنف وكل تقنيات العسكر والبلطجية والعلماء. ترفع عقيرتك بالاحتجاج تتهمني بمعاداة النساء والأطفال والعسكر والعلماء والبلطجية والكهنة، وكلها اتهامات لستُ بريئا منها تماما.

طريقة أخرى لمحاولة بَلورة نفس الفكرة. من جهةٍ الآدمي الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرُّ على تخليصه من القسوة والفظاعة والقبح والظلم. مِثل هذا الصنف في حربٍ عبثية لا تضَع أوزارها أبدا، لتغيير ما ليس قابلا للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من

الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلّ خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقةٍ متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّم حياة الضيف وحياة مُضيّف يَزفر غيظا من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.

على النقيض هناك الآدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه الساذجَ يبكي ويصرخ. لنقُل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مقاسه، وأنه اكتشف –بطول ممارسته له–أن الحِكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرقٌ هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرُ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يَقبل بامتنان ما يجود به عليه العالم الكريمُ ولا يُزعج العالمَ البخيلَ بالشكوى والشتم. تقول إنني أقسّم ما لا يجوز تقسيمه، إنك تتحول باستمرار من الصنف الأول إلى الثاني ومن الثاني للأوّل، كالطقس لا تدري كيف ولماذا تتلبد سحب الروح ثم تنقشع.

تصنيفي المفضّل: حسب أسلوبهم في الارتحال.

ثمة من الآدميين مَن يُخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، ثم يدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صَخب الحركة ثمّ يُخرجه من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف.

هَمُّ هذا النوع من المرتحلين رحلة بأقل الأخطار وأقل المشاكل. أغلبهم يعيشون ويتزوَّجون ويتوالدون ويعملون ويموتون في فضاء حسي حدودُه أربعون كيلومترا من نقطة الوصول. عن ضيق فضاءهم الرمزي والخيالي حَدّث ولا حرج.

لا شكّ أنه سيُكتب على ملفّهم بعد انتهاء رحلتهم من طرف القِوى المجهولة التي قد تكون وراء كل هذه القصة: للإحالة على مستودع الخردة.

يخرج الآدمي من النوع الثاني رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرجه من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاد صبر وحتى تسرّع في مغادرة الوكر. ها هو يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد، عن الأنثى، عن العلم، عن المال، عن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل" وأحيانا تصبح الإبَر أثمن من الشهد.

تجد هذا النوع من الآدميين بعيدا بآلاف الأميال عن نقطة الانطلاق. تجده على قمم الجبال الشامخة، وسط الصحاري الصفر والبيض.

إنهم غزاة عالم الماضي، أكثرهم جرأة أو جنونا، فرسان الريح الذين رَوّضوا بخشبات بسيطة أكبرَ محيط يسمونه الهادي. في نفس الخانة فرسان الجليد الذين رَوضوا قطبَين تصورا أنهما –ببردِهما القاسي وبُعدهما المحبِط–بمنأًى عن عناد الآدميين وقرارهم بالوصول إلى كل مكان يمكن الوصول إليه. حدِّث ولا تسل عن فرسان الفضاء الذين تركوا آثار أقدامهم على غبار القمر.

ولأن هذا النوع من البشر غير قابل للانقراض، فمِن المرجّح أن غزاة المستقبل لن يعدموا متطوعين لدفع الطريق باتجاه المريخ. ومن الكوكب الأحمر سيرتحلون إلى تيتان أحد أقمار زحل ليكون قاعدتهم على الطريق المؤدي إلى كواكب شبيهة بالأرض تختبئ بعيدا في عمق أجمل المجرات، يحركهم نفس الفضول والجشع الذي حرك أجدادهم وهم يخرجون من القارة المهد إلى العالم اللامتناهي.

لا شكّ أنّ مخطِّط الرحلات سيَكتبُ على هامش ملف كلّ مستكشِف من هذه الطينة: يُعيَّن لمهمّة أخرى في عالم أخطر.

لا تصنيف يرضيك. آخر محاولة وسأكتفي بالعناوين فقط.
الآدميون الذين يريدون تثبيت المتحرّك، الآدميون الذين يريدون تحريك الثابت.
الذين يبحثون عن حلول للمشاكل والذين يبحثون عن مشاكل للحلول.
الذين لا ينطقون إلا بآراء تمعّنوا فيها سنين، الذين يكتشفون أفكارهم وهم يتكلمون.
الذين يملكون كل الأجوبة، الذين ليس لديهم إلا الأسئلة.
الذين يعتقدون أنّ النجاح في السّطو والتملّك، الذين يعرفون أن النجاح أقصى البذل والعطاء.
الذين يعيشون مبادئهم ومن أجلها، والذين يتعيّشون منها.
الذين يتحكّمون في مسار حياتهم، الذين تذروهم رياح الحياة كورقة الخريف في مهبّ الريح.
الذين دينُهم طقوس بلا أخلاق والذين دينُهم أخلاق بلا طقوس.
الذين لا يملكون أدنى سلطة حتى على أجسادهم، الذين يملكون القدرة على قتل أو إحياء ملايين الأجساد.
المتأكدون من عظمتهم وهم أخطر المجانين، والجاهلون بوجود أيّ عَظَمة لديهم وهم وحدهم العظماء.
الذين يعانون من عقدة النقص والذين يعانون من عقدة التفوّق والذين صَفَّوا عقدتيَ النقص والتفوق، وهم وحدهم الأسوياء في عالم ضجّ من كثرة المرضى.
الدجالون الذين يتوهمون ويوهمون أنهم يعرفون الحقيقة والكُسالى الذين لا يريدون إلا تصديقهم.
الذين استغَلّوا ما وَضَعَه العالم فيهم من طاقات أحسنَ استغلالٍ، والذين أهدروها لا يَعون ما ضيّعوا.
الذين ربح فيهم العالم رهانه والذين خسره فيهم.
الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا، والذين يجب أن ننوح عليهم لتَواصلهم أحياء.
إلخ، إلخ...

لإضافة التعقيد للتعقيد اعتبر حدَّي أهمّ خصائصهم.
خذ آدميا وضَعهُ في أقسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتحِل.
اجعله منذ نعومة أظافره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين.
عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.
هل سيصبح قاتلا بالجملة أم قديسا أم بليدا يتحمل كلَّ مصائب الدنيا لا يَرفّ له جفن؟
اعتبر الوضعية المعاكسة.
خذ آدميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظافره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين.
هل سيصبح شيطانا أم مَلاك رحمة أم بليدا يرى فيما وَهبَته الحياةُ وحَرمَت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟
تَوقّع دوما المفاجأة وأنت تُراهن على مستقبل لهذا أو ذاك، تصيب مرة وتخطئ مرّات. ذلك لأن الآدمي ليس روبوتا تشحنه ببرنامج وتعليمات لا بدّ له أن يتصرف وفقها. هو كائن لا تضبطه برامج جينية مخزّنة في خلاياه، ولا ظروفٌ خارجية يفرضها عليه أي تنظيم مجتمعي. كأنك أمام كائن لا تتحكم فيه طبيعةٌ ثابتة وإكراهاتُ المحيط، بل هو الذي يتحكم فيها أو قُل إنه يتحكم فيها بقدر ما تتحكم فيه.

ثمة إذن شيء ما داخل الآدمي –أو قُل داخل العلاقة التي تربطه ببقية الآدميين–يتحدّى المعرفة التي نتوهّم امتلاكها عنه. هو مثل العالم الذي يُبلوره: مشروعٌ قيدَ التجريب لا مُعطًى تَحددت معالمه القارّةُ التي سننتهي يوما من جردها ووضعها في تصنيفات لا يجادل فيها اثنان.

ماذا لو كان التصنيف الموضوعي الوحيدُ –وذلك رغم كل القواسم المشتركة–هو تصنيفهم فردا فردا وكل آدمي لا يتميّز بملامح تُعرِّفُ عليه فحسب، وإنما أيضا بطَبَعٍ هو في التفاصيل داخل التفاصيل، خاصٍّ به وحده.

لكن أمَا من معنى لكل هذه الفوارق التي تميز بين الآدميين وللثوابت التي تجمعهم؟

اجمع كل ما تعرفه عنهم من مواقف وتصرفات، من أفعال وتفاعلات. ستكتشف أنها ترسم في أدقّ التفاصيل طبيعة الكائن الأصيل الذي يُشكّلون عيّنات منه تتابعا في الزمان والمكان.

مما يعني أن كل واحد منا لا يبلور طوال حياته إلا جزءا بسيطا من الطيف الواسع للمواقف والتصرفات التي تعرّف الآدمي. ثمة خبر مفرح داخل هذا التصوّر. لا تنزعج بما تحمل وما تحمّل من عيوب، داخلك يرقد كل الخير الموجود في البشر.

للأسف ثمة الخبر السيء: حتى ولو اعتبرت نفسك واعتبروك قديسا فالشيطان داخلك نائم بعين واحدة.

لن تخطئ إن كتبت قصدا وبسابق الإضمار –دون الانتباه لاحتجاج مدقّق النص–أن الآدمي كائن غَبيّذكيّ، ظالمعادل، طيّبشرّير،حزينمرح،متفائلمتشائم ، عظيمتافه،عاقلمجنون.... حتى وإن كنت لا تفهم كيف يمكنه أن يجمع داخله بين الماء والنار، فلا يتبخّر الماء ولا تنطفئ النار.

**

على هامش النصّ

في آخر المطاف ما معنى أن تكون آدميا؟ أيْ ما الخاصية أو الخصائص التي تميز الآدمي وتختزل طبيعته وتجعل تجربته الذاتية فريدة من نوعها.

للردّ على هذا السؤال ثمة الصور النمطية التي يُشيعها الآدميون عن الآدميين.

كلها أحكام مسبقة يسوّقها البشر للدعاية لأنفسهم كما يسوّق الذكوريون لصورة الرجل–السيد في المجتمعات البدوية.

ثمة ردود الفلاسفة والأدباء والفنانين على مرّ العصور.

أغلب الوقت هي غلاف لمزاج المتحدثين يُخفون وراء ما يسوّقون من أفكار تشاؤمهم أو تفاؤلهم بخصوص وضع الآدميين ومصيرهم وذلك من منطلق تجاربهم الذاتية وأزماتهم الشخصية.

للردّ على السؤال يجب اعتماد منهجيةٍ تُخرجنا من منطق التبجح ومن تقلبات المزاج عند هذا وذاك.

اعتبر كيف نحدد ما معنى أن تكون رجلا.

تَفحّص المعطيات التي تعرّف هذه الحالة وستكتشف أنها تتعلق بالاختلافات الجسدية مع المرأة، بالاختلافات النفسية الثابتة والخيالية مع المرأة، بالخصائص المنشودة في الرجل التي تنشدها المرأة، أخيرا بالوضعية الاجتماعية دوما بالنسبة للمرأة سواء في المجتمعات التي تكفهر فيها الوجوه لولادة البنات أو في المجتمعات التي تحكمها النساء.

يُضاف لهذه العوامل الموضوعية عاملان ذاتيان على قدرٍ كبير من الأهمية.

ثمة ما تعيش الذات في أعمق أعماقها من تجارب لا تُقتسَم. من أين للرجل أن يعرف ما تمرّ به المرأة من أحاسيس ومشاعر وأفكار إبان الحيض والحمل والولادة والإرضاع؟

أخيرا ثمة قَبول الدور الذي فرضته الفيزيولوجيا والثقافة، وتَقمّصه بكل سهولة وبسرور... أو عدم القبول به مع كل التبعات الموجِعة والرجلُ يريد أن يكون امرأة والمرأة تريد أن تكون رجلا: المثلية نموذجا.

وفي المحصّلة تكتشف أنك لا تفهم ما معنى أن تكون رجلا إلا في علاقة بنفس السؤال في المرآة: ما معنى أن تكون امرأة؟

لا غرابة في الأمر وقانون لاو تسو يسنّ أن الشيء لا يوجد إلا بنقيضه المكمِّل. هل ثمة وجود أصلا للنور دون الظلام، للفضيلة دون الرذيلة، للخير دون الشر؟

إذن هل أخطأنا الطريق ونحن نبحث في مرآة أشباهنا من الآدميين عمّا يجعل منا الكائنات التي نحبّ ونكره، التي نأمل منها كل الخير والتي نتوقع منها كل الشرّ؟

ألا يكمن سرّ هويتنا فيما يفرقنا عن الكائنات غير الآدمية التي تعيش على تخوم عالمنا ونعيش على تخوم عوالمها؟

طيّب، لكن أن تكون آدميا لا يُختزل في كونك لا تملك ذيل القردة وجناحي العصافير وأنياب الليث، فالاكتفاء بهذه الخصائص الظاهرة كالقَول بأن الرجل هو الكائن الذي لا يصبغ أظافره بالألوان الزاهية والمرأة الكائن الذي ليس له لحية وشارب.

ماذا عن الفوارق غير المرئية مثل القدرة على توليع النار أو قياس سرعة الضوء أو خلق وتذوق الجمال عبر كل أصناف الفنّ، ناهيك عن ازدواجية طبعه التي تجعل منه خير المخلوقات وأشرّها؟

قد يخرج عليك باحث في العلوم الطبيعية –وهو ما يحصل اليوم بصفة شبه روتينية–ليضع أمامك عُمق جهلك بحساسية الحيوانات وذكاء الأشجار وقدرات هذه الكائنات المذهِلة في صراعها من أجل البقاء.

ستكتشف آنذاك أن الخالق وَضَع في كل مخلوقاته الخصائص الأنسب التي تحتاجها للعيش في البيئة التي نشأت فيها هي، وحلّ المشاكل التي تعترضها هي، وتفضيل ما يروق لها هي على ما يعتبره الآدميون الأكثر رقيا وتطورا.

نحن إذن في ورطة: لكي نفهم ما معنى أن تكون آدميا، يجب أن نفهم ما معنى أن تكون حيوانا أو شجرة.

لكن من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساءُ بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجالُ بالكاد يفهمون كيف هي تجربة النساء؟

أضف لهذا أن سؤالنا يُحيلنا، إن تمعّنا فيه إلى أضخم إشكالية يمكن للفكر طرحها: هل ثمة ضرورة، فائدة، إضافة، غاية للوجود آدميا مقارنة بالوجود "شجريا "أو" حيوانيا "؟

ماذا يفعلون في هذا العالم ؟

يصل بي الطريق يوما إلى أرض سيتا حاجّا لقبر رجُل علّم البشرَ أن العنف ليس القوة بل الضعف في حالة هستيريا، وقَتله آدمي مُصاب بتلك الهستيريا.

أتوجّه بمنتهى الأدب لأحد سكّان المدينة المترامية الأطراف:

– سيّدي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهرة؟ لا أريد أن أجد نفسي محشورا في اضطرابات طائفية. أنا مجرّد زائر غريب مررتُ بالصدفة من هنا.

يضحك الرجل:

– هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جئت في الأعياد؟

– عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال آخر. نحيّي في بلادنا ملوّحين بالأيدي ليتبيّن أنها خالية من السلاح. نصافح الآخر نتحسس راحته للتأكد أنه لا يحمل خنجرا صغيرا ثم نُقرِؤه السلام. إلامَ ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى ''ناماستي''؟

– معناها نحيّي المقدّس الذي فيك.

يضمّ الرجُل راحتيه مبتسما ويختفي داخل الزحمة.

المقدّس الذي فيّ! أنا؟! أيسخر مني هذا الآدمي؟ اللهم إلّا...

أعود لتأمل جحافل البشر تركضُ في كل اتجاه مشدوها متزايد الحيرة.

داخل إحدى ملفات الذاكرة تصرخ تفيحه ونحن نتمشّى في شارع تجاري مكتظ: ''با''، ماذا يفعل كل الناس هنا؟

سيّد الأسئلة وهذه البنت تلقيه بنبرة: متى تأخذني إلى السيرك؟

كيف أفسّر لطفلة في هذا العمر أنها تُلقي سؤالا أبحثُ له عن ردّ منذ داهمني، لا أتذكّر في أي عمر ولا إجابة مقنعة في الأفق، وقد بلغت من العمر عتيّا. نعم، ماذا نفعل كلنا هنا؟ ماذا نفعل في عالم يبدو وكأنه يجذبنا كما النورُ الفَراشَ.

تُرى ما السبب؟ أخبار مضلّلة عن هذا العالم أو أوامر عليّة لا مردّ لها!

كأنيّ أسمع موظّفي مركز الشحن السماوي يصرخون في بعضهم البعض:

– كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيَهم إلى تحت؟

– العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمّني هذا الغبي آد3100. 2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

الفرضية المتفائلة:

– تُرى كم من رشاوٍ وتدخّلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

– العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد3100-2154879365 تأخّر وسيفوته مَوعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم –سواءً أتوه طَوعا أو كرها–يفوق طاقة استيعابه والدليل على ذلك أن ثلث الآدميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبعانين بإرهابهم وبمظاهراتهم وثوراتهم.

لهذا نشرتُ منذ مدة على موقعي في فضاء الصِّفرِ والواحد، إنذارا صادقا وإنْ بتوقيع مزيّف.
"نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار إلى أجَل غير مسمّى".
وجودي الآن وسط هذه الهريسة الآدمية هو الدليل الساطع على عدم نجاعة هذا الأسلوب.
لم يبق إلا نصحُ من أستطيع نصحَهم عَلّي أنقذ فردا على الأقل، وقد استعصى عليّ إنقاذ هذا الجنس المسكين برمّته.
أسلّط النظر على امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدّد بمولود جديد عالَما شبع من المواليد الجدد، ناهيك عن الكثرة المقرفة فيه للمواليد القدامى. أتوجه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبالغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدّقني، مِن الأحسن أن تبقى في دنيا الغَيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربّما ستنتجح العتمة في تخيّل عالم أقلّ خطرا وفظاعة، أمّا هذا! ثم هل فكّرت في ضرورة وقف هذا الزحف المهول، لمجرّد ترك الأرض تستعيد أنفاسها!
يصمت الشبح متجاهلا ما في قولي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثمّ أشعر بالجاهل يهزّ كتفيه.
يجب ألا أُحبَط وأن أواصل تحمّل مسؤولياتي والقيامَ بواجبي الإنساني: يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن. ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!
ماذا لو كان سبب العدد والتعددية أنهما ضروريان ليكون هناك أكبر عدد من الحالات، من التجارب، من القصص لاستكشاف كل ما تزخر به إمكانيات الوجود آدميا؟
ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بِذُرّيتها شرّا.
قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلا خيرا. وأنت لا تريد بي إلا شرّا! آه منكم يا أولاد حواء. قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، في هذا العمر ويعاكس النساء الحوامل، النجدة!
أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حالَ ظهور بوادر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلّم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخورة بما اقترف المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟ صدق من قال: مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمّهاتهن.
لم يبق لي إلا الإسراع في البحث عن مَنفذ أهرَب عبره من سَيل بشري لم أرَ له مثيلا من قبل.
من حسن الحظّ أن بساط الزمان السيّار يعود بكل هؤلاء الذين ضاق بهم رحب الفضاء إلى العتمة التي برزوا منها، وإلا لفاضوا مغطّين المحيطات والجبال والبراري لا يتركون شبرا من هذه الأرض لكائن حيّ آخر.
أمام الخراب الذي أحدثه الآدميون في حديقة الله لم يعد بوُسع حتى أشرس المدافعين عن وجودهم تفادي السؤال الرهيب: هل العالم مصاب بالورم الآدمي الخبيث ونحن خلايا هذا السرطان. آنذاك هل سيشفى المريض بالقضاء على الورم أو متى سيقتل الورمُ المريض؟ فرضيتان أرفض الخيار بينهما وقد داهمتني موجة من الجبن والهلع.
من حسن الحظّ أيضا أنني أبحث في فرضيتين أقل إحباطا يمكن لذهني أن يتلهّى بهما في محاولة فهم ظاهرة كثرة الآدميين في هذا العالم وتدافعهم المحموم لاحتلال كل شبر فيه.

الفرضية الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.

لا بدّ من خلق مئات ملايين النجوم ثم ملايين الكواكب التي تدور في فلكها لكي توجد حفنة من هذه الكواكب تفي بشروط ظهور الحياة.

لا بدّ من القبول بتبذير مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة.

لا مناص من وجود عشرات الملايين من البشر الذين لا يُضيفون شيئا للحياة أو للحضارة، ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ أو شاعر اسمه إيسا أو آدمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي.

إنه نفس المشكل الذي تواجهه شركات البحث عن الذهب. لا مفرّ من غربلة أطنان من التراب للحصول على شيء جد قليل من التبر.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدا في أي خانة يصنفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

تبقى الفرضية التي سأدافع عنها وهي في صالحي وصالح كل قرائي والبشر أجمعين.

المهمة التي كُلّف بها الآدمي من قِبل قوة مجهولة (أو كَلّف بها نفسَه مفتعلا أن هناك قوة مستقلّة عنه كلّفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدمي واحد ولا حتى أعداد صغيرة. لذلك كان من الضروري نسخه أكبر عدد ممكن من المرات وتجديد الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون للتقاعد عندما تخور قواهم لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق.

يصبح السؤال، ما المهمة هذه وإلى أي مدى نحن بصدد النجاح فيها؟

تُرى ما الذي تتميّز به قصة الآدمية بالنسبة لقصص الأجناس التي تتدافع على سطح هذا الكوكب، وهل هي حقا -كما يدّعي الآدميون- أرقى فصول كتاب الحياة، أم مسودّة قد تنتهي في سلة مهملاتِ كاتب فنان مبدع على الدوام لم يجد لحد الآن ما يبحث عنه وما يرضيه.

**

الكتاب الخامس: الملحمة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى ومهما حدث،
واصلوا المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة.

كونفشيوس

الملفت للانتباه في هذا المقطع من النصّ الثمن الباهظ الذي دفعَته الكائنات الغريبة لوجودها. هل الأمر نتيجة خطأ في برمجتها أم لأن التجربة صُمّمت عن قصد لاختبار أقصى طاقةِ تحمّلِ الجنس المسكين. في الحالتين نحن أمام خطأ مهني فادح يتطلب فتح تحقيق جدّي بشأنه، والقوانينُ واضحة كلَّ الوضوح بخصوص المقاييس الأخلاقية للتجارب على الأجناس البدائية؟

المعلّق

مقدمة الكتاب الخامس

حقّا إني لمسافر جدّ محظوظ وقد سَحبَت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة ولم أُبتَل كالملايين قبلي بالرحيل في أزمنة بليدة ركيكة ليس فيها ما يستحق الذكر.

هذه الليلة ستَشهد أضخمَ حفلة نظّمَتها الآدمية في تاريخها الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس والمبرّرُ الاحتفاء بليلة ترمز في رزنامة بعض المرتحلين لدخول ألفية جديدة من زمن لا فواصل فيه إلا وكانت من نسج الخيال.

تأتيني أخبار الحفل العظيم من جهاز تلفزيون صغير كأنه سعيد بما ينقل فقط وبعودته إلى الحياة وهو المغلق أغلب الوقت.

يفتتح مراسيم الاستقبال مَلِك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" توجد في أقصى شرق الفضاء الحسي. يا له من شرف أثيل أن يكون المرء أول الآدميين لاستقبال الضيف الكبير. ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيفُ تسلّله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئا فشيئا. تتصاعد الهتافات من مكان يُدعى موسكو. يواصل الشبح زحفه ليغمر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الآدميين عجوز مَهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجرّبة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مَرحة أحالت أنوارُها الليلَ نهارا. يتدافع بَشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يُرزقون.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار والصخب.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّبا وإعجابا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

أي صورة للعالم أبلَغ من هذه؟ على سبورة الوجود تَفجّر ما لا يُحصى من نقط النور ترسم ألواحا مُبهرة. كل نقطة مَلحمة كائن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر إشراقا، تَفجُّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها. أي أهمية للأمر، يكفيني شرفا أنني دُعيت يوما لأكون جزءا من العرض.

بَداهة قرّر هؤلاء القوم الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار، ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنواتٍ آخِرَ حربٍ عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟

هل كل هذا الإفراط على أمل إسقاط القرن الجديد كما كانت تَسقط الطائرات والصواريخ فيما سبق من الزمان؟ هل سأرى فجأة انطفاء الأنوار في كل مكان وإغلاق المسرح المفلس إلى الأبد؟ بداهة فشلت المؤامرة لبعض الفوضويين المصممين على الانتحار ونَحرِنا جميعا.

هكذا استطاعت الألفية الغازية مواصلة طريقها وعبور المحيط لتستقبلَها في ساحة اسمها تايمز سكوار نفسُ الحشود الآدمية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمان الجديد ببَسط ظلاله على كامل الكوكب وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسّي.

تَصمُت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسَمَته منذ الأزل فرشاة الفنّان الأعظم.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا ثم أجلس شاخصا إلى السماء.

ها أنا أناجي القرن الجديد أتملقه علّه يكون أرحم بي وبنا جميعا من الذي ولّى غير مأسوف عليه.

أكيدٌ أنك قرنٌ ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخٍ آخرُ ما نَقَصَه سفكُ الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيتَ وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية لبني حرية وآل ثبات.

لم السخرية والشكّ؟ لماذا أحمّلك أكثر مما تتحمل؟ هل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

المشكلة أن تفاؤل القوم نوعٌ من التدجيل على الذات، وأكثرُ التاريخ تكرارٌ مملّ. هل سيفيقون من الغد بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر؟

يا للمساكين! ما الذي يخبّئه لهم المستقبل؟

كيف لا يداهمني السؤال بقوة، خاصة هذه الليلة، ومستقبلي مضمّن في مستقبلهم، وقصتي لا تُفهم خارج قصتهم ورحلتي مثل قطرة من نهر صاخب متدفق لا يُعرف له منبع ولا مَصبّ، اسمه الآدمية.

اليوم 20075من الرحلة

**

صنّاع الأساطير

تصدر عن تفيحه كلمات غير مفهومة. تتنفس تفاحة بعمق وبطء ثم تستيقظ:

– "با"، لست نائمة كبنتك هذه. الليلة أريد أن تحكي لي قصة جديدة... قصة طويييييلة جدا جدا... قصة مثيييرة جدا جدا. أطول قصة وأكثرها إثارة! طبعا قصة الآدمية التي يفترض أنّ علم التاريخ أحسنَ راوٍ لها.

المشكلة أن المعطيات التي جمعتُها طيلة هذه العقود لا تسمح حتى برسم معالمها الكبرى ولأكثر من سبب.

ثمة ندرة المصادر بخصوص مقاطع هامة من القصة أو تفرقها وتناقضها.

ثمة صعوبة التوليف بين التي تصلنا وهي مثل قطع متفرقة ومتباعدة لبناية أثرية فقدنا رسمها الهندسي.

ثمة جهلُنا بالجوّ العامّ الذي وقعت فيه هذه الأحداث والحال أنك لا تفهم الجزء إلا إذا فهمت الكلّ، مما يضعنا أمام مفارقة يقفز فوقها المؤرخون المهنيون بسهولة مذهلة. فلِكي نفهم المراجع المتفرقة التي ستُضيء لنا الوضع الذي نبحث فيه، يجب أن نكون فاهمين للوضع الذي نشأت فيه، وهو ما يفترض أننا نعرف مسبقا... التاريخ الذي نبحث عنه.

أضف إلى هذا أن الوثائق التي تصلنا مكتوبة، دوما بلغة من قوانينها أن معاني نفس الكلمات تتغيّر من عصر، إلى عصر وهو ما يجعلنا دوما عرضة لأخطاء فادحة للترجمة قلّما نتفطن لها.

أخيرا وليس آخرا، ثمّة قاعدة "التاريخ رواية المنتصرين للأحداث".

نادرا ما ننتبه لمفارقة ظريفة وهي أن التاريخ بما هو صورتنا للماضي مضمَّن في... المستقبل. كم من اكتشافات ستقلِب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة بخصوص أصل الآدميين، والأمرُ مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فكّ هناك. حتى كثرة الوثائق لا تحلّ دوما المشكلة بل تزيدها تعقيدا. مَن يضمن لنا أن أهمها لم تختف بحادث أو بقرار، وأن الموجودة لا تمثل وجهة نظر مَن كانت لهم القدرة على تسجيل الأحداث وإيداعها في خزائن الذاكرة ومَن لهم مصلحة في المحافظة وإشاعتها كما هي؟

عموما يمكن القول إن التاريخ هو ميثولوجيا ودعاية بدائية، مغلّفتان بدهاء ودَور المؤرخ الفاعل فبركة أساطير كل شعب خدمة لمصالح مستخدميه، ودورُ المؤرخ الموضوعي تفكيكُ فبركتها خدمة لمصلحة خصومهم أو ليقال عنه إنه مؤرخ كبير.

بئس المواد التي تحت التصرّف. لا شيء في هذه الفوضى يمكّن من قصة فيها منفعة لراوٍ أو مستمِع.

ما الحلّ في هذه الحالة؟

الانطلاق من القيل والقال وسدِّ كل الثغرات بالخيال؟

أليس هذا ما فعل الآدميون على مرّ العصور وهم أمام عجزهم وقُل حتى أمام خوفهم من معرفة الحقيقة.

دع عنك ما يملؤون به فضاء الخيال العام من آلهة وسحرة وشياطين وأرواح شريرة وأشباح.

كلها حالاتُهم النفسية جسّدوها في مفاهيم وصور وتماثيل ومعتقدات يموتون ويقتلون من أجلها وهم في حالة هذيان تخلقه الفكريات المسمومة، تماما كما تفعل الفطريات الفتاكة.

لا يبقى عليّ إلا استكشاف الفضاء الخيالي الخاص الوحيد الذي يمكنني التوغّل فيه مفترضا –والحدسُ دليلي الوحيد– أن ما يعتمل داخل الفضاء الخيالي لكل شخص لا يبعد كثيرا عما يعتمل داخل فضاء خيالي... وأيضا أن كل الموجود فيه صور وأفلام حول محورَين قارَّين. الأول عن وجع وخوف وضغينة ومشاريع ثأر من عالم يتعامل مع الآدمي المسكين كمروّض السباع بصراخه المتواصل

وطلباته غير المفهومة وسَوطه اللاذع ومكافآته النادرة. الثاني عن أحلام وآمال ومشاريع بترويض العالم ووضعه تحت سيطرة فكر وإرادة عَبد أصبح سيّد سيّده.

لم يبق عليّ إلا تقليب الملفات التي تراكمت في أعماق فضاء خيالي، بحثا عمّا لا تجسر الألسن على الإفصاح به وتصرخ به صور تحرّرت داخل مغاراتها العميقة من كل قيد.

ها قد داهم خريفُ الحياة الآدميَ المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكآبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه يركض على حمار سيّئ المزاج أصلعُ بدينٌ. تتساءل الذات الراكبة على الحمار بسخريّة وعطف وهي تنظر إلى جزئها الراكب فوق حطام حصان:

– أما آن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. ضع حدّا لهذا التيه.

يهزّ الشيخ الكئيب كتفيه:

– عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أَخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

هذا رجل حكيم فَهِم أن خَيال الجماعة حقيقة مقدّسة وخيال الفرد جنون.

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها ''العبيثة''. تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

– لأعملنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى ''الدنيا''.

ثم يرمي بسلاحه مقرِّرا الخروج من هذيانه هو لينخرط في الهذيان الجماعي مكتسبا بالأمر صفة السويّ والواقعي، بينما يتوجّه دون كيشوت لمبارزة الطواحين مصَلّيا أن يصاب بضربة في الرأس تحمله إلى حيث الراحة الأزلية.

يتنهّد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

اللعنة، لماذا لا أكون أنا مَن يصيغ الأسرار بدل تضييع العمر في البحث لها عن أجوبة عند آخرين لا يَقلّون جهلا عني؟

كما الذات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسّي يوفّر لها الأمان والراحة ومتطلبات الجسد، هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري -الخيالي يوفر للفكر والروح ضرورياتهما، هكذا خَلقت الآدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسّي لتلبية حاجياتها المادية الحسّية،

هكذا خلقت مهندسين معماريين في الفضاء الفكري–الخيالي لتلبية حاجياتها النفسية الروحية. إنهم الذين خلقوا للآدمية أساطيرها وأديانها وفلسفاتها وآدابها وفنونها. كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي–الخيالي، لا طاقة للآدمي على سكَن نفس البنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتهالك دعاماتها أمام مطرقة الزمان، أو لتغيّر الذوق العامّ وارتفاع مقاييس الجودة عند المتساكنين، عادة لحبّ الآدميين استكشافَ وخَلقَ الجديد.

يجب الاستئناس بنصائح كبار المهندسين الذين فهموا أعمق حاجيات الآدميين وأقصر الطرق لتلبيتها.

مَن؟ طبعا فالميكي، الشاعر الذي جعل أمة كبرى تسكن إلى اليوم عالما صنعه من خياله الخصب.

هل سيعيرني الرجل اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي لَمّا أكمل خلقه للأسطورة العظمى غير مبال حتى بفيالق النمل تتسلّق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين المفتوحتين ومن المنخرين.

أخيرا ينتبه فالميكي لوجودي. يبادرني بانزعاج:

– ماذا تريد؟

أهمس بالطلب بين رجاء واستحياء فيلمع الاستنكار في نظرة باردة لا تنذر بخير.

– كيف؟ ما هذه الوقاحة!

أوّاه يا سيتا، بربّ عشق طفل تهجّى في حبك أجمل روايات القصّة المقدّسة، تدخّلي!

وقاحة! صحيح أنها لا تكاد تُذكر بجانب وقاحة الآخر: فياسا شاعر المهابهاراتا ملحمة المائة ألف بيت الذي لم يتورع بعد وضع نقطة الختام في ملحمة صاغت عالما لأمة كاملة، عن تهشيم ناب "قانيش"، الاله–الفيل ليستعمله قلما.

يتفطن فالميكي لنفاد صبري. ربما انتبه لكوني أعرف أكثر مما أريد البوح به وكلّ ما في الأمر أنني أتلطف معه وأتأدّب. مثلا: أنني أعرف ماضيه المشبوه وأنه كان في حياة ماضية قاطع طريق وبوسعي الوشاية به للسلطات وحتى اتهامه بتمويل الإرهاب الدولي.

كأني به يحاول ربح الوقت، لا يعرف هل أنا جادّ أم ساخر.

– هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

– من أمّي. هي الوحيدة التي وثقَت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكي بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم يبتسم.

– لم اخترتني من دون بقية الصنّاع؟

– أنت الوحيد الذي لا يُخفي سرا مفضوحا يتشارك الكل في ادعاء الجهل به.

يلقي عليّ فالميكي نظرة طويلة.

– قل، أقنعني.

– ليس لنا لاكتشاف سبب ومعنًى وجودنا إلا تصورات يصنعها الذهن البشري، والأمر سيتواصل إلى نهاية الملحمة البشرية.

– وماذا أيضا؟

– التقدّم في طروحاتنا حول العالم ليس اكتشاف حقيقة أزلية موجودة منذ الأزل خارجنا وفوقنا وإنما استبدال تصورات ساذجة بأخرى أكثر تعقيدا، كما الأمر عندما نطور تقنياتنا من القدرة على بناء الأكواخ إلى القدرة على تشييد ناطحات السحاب.

– وماذا أيضا؟

– لا يوجد إلا نوعان من الرؤى: التي تعترف بخَلقها الأسطورةَ المؤسِّسة والتي تتستّر على الأمر.

– وماذا أيضا؟

– لا أدلّ على ضعف تصوّر يبني أسطورة أو دينا من كونه لا يحفظ بقاءه إلا بالقضاة والجلّادين.

– وماذا أيضا؟

– أحسنُ صناع الأساطير المؤسِّسة مَن يسهّلون الحياة والموت ولا يزرعون الألغام على طريق الأجيال القادمة.

– نعم وألف نعم...

ترتسم على شاشة الذهن إجابته الصامتة وابتسامته العريضة. أكاد أرقص طربا فهذا الذي انسحب بعد أن أكمل مهمته ولم يعد يعير شيئا أو أحدا اهتماما رضي أن أكون له تلميذا.

– تعال، هذا واقع من الأزل مصنوع من الخيال، أخلق لك منه العالم الذي تريد.

الذي أريد؟ طبعا الأخطر، الأجمل، الأغرب.**

الرواية الأخرى للأسطورة الكبرى

إذن. ...كان يا ما كان يا تفاحة ويا تفيحه بطل اسمه آدم...

المشكلة الغموض الذي يحفّ بهذا الكائن المؤسِّس للقصة التي تولدت عنها قصتي وقصتك.

من آدم هذا الذي خرجت من ظلعه حواء وذريتهما الصالحة والطالحة؟

''وبعض المفسّرين يزعم أن نوحا صلّى الله عليه وسلّم، إنّما سُمِّيَ نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه وأنّ آدم سُمِّي آدم لأنّه حُذي من أديم الأرض''(الجاحظ).

طيّب، لكن كيف حُذي من هذا الأديم وماذا عن تفاصيل العملية؟

لا شيء تقريبا باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول في بعض كتاباته إن الخالق لَمّا أراد خلق آدم أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين ليسوّيه. لكن إبليس خاف أن يأخذ المخلوقُ الجديد مكانه، فاغتنم لحظة سهو الملائكة ليبول في المادة التي سنصنُع منها أنا وأنت.

كأني هنا بعتاة الملحدين ينفجرون بضحك الاستهزاء. ليكن واضحا لديهم أنني لن أسمح لهم بالسخرية من واحد من كبار مؤرخينا حَبَّرَ آلاف الصفحات بخصوص ما حدث وحتى على ما لم يحدث، وفي هذا أسطعُ دليل على سعة اطّلاعه على ماضينا. سأضيف كذلك على الماشي ودون إطالة، أن مسارعتهم بالإنكار والاستنكار أصدق دليل على أن الرجل أصاب كبد حقيقة كانوا يفضلون أن تبقى في طيّ الكتمان. ما يؤسفني شخصيا أن مؤرخنا الكبير لم يقل كل شيء من باب الرفق بمعنويات بني جلدته. حقّا لم أحضر الواقعة، لكن مَصادر عدة -لا يَسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية-أكّدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مثانته في الطين الذي تشكلنا منه، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه، وحتى أنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ ففعل الفعلة الشنيعة التي لن أتبحّر في وصفها. ربما بصقت الملائكة في العجينة لتزيد الطين بلة. ثم تستغرب بعد هذا أن تكون الطبيعة البشرية، عموما وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا، على ما هي عليه.

وكما هو متداول منذ أجيال، خلق المدعوّ آدم المدعوّة حواء من ضلع من ضلوعه، أي في آخر المطاف من نفس المادة التي صنع منها، وبعد هذا تستغرب ولع الإناث بالعطور.

تقول: أسرِع بالبقية كأنك لا تعرفها.

أجمل إخراج لانطلاق ملحمة الآدميين

''*وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)*

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وغَد بلا خطر

فجأة طُردا من الحديقة''

طردا من الحديقة!

صدًى بعيدٌ لأحداث حقيقية يتردّد من غابر الزمان في الذاكرة الجماعية؟ ألم تكن الصحراء يوما واحة غناء ترتع في أحراشها الفيلة والثيران

وتسبح التماسيح في أنهارها، لكن موجة جديدة من موجات التصحر والجفاف الدورية التي تعرفها هذه الأرض منذ مئات الملايين من السنين،

أتت مرة أخرى على الأخضر واليابس؟ أيّ تفسير أحسن وجده الأوائل لفهم الكارثة غير قول أحدهم، ذات ليلة وهم حول النار،

إن هناك قوة غيبية تتحكم في مصيرهم أثموا في حقها فعاقبتهم أفظع عقاب وأنه لا بدّ من بناء المعابد وإقامة الصلوات لها لتعيدهم إلى الجنة وتعيد الجنة إليهم.

عن أي طرد تتحدّث هذه الجاهلة؟

ثمة من يقول إن الأمر مؤكد بل وإن السبب معروفٌ إذ زيّن ثعبان خبيث لآدم وحوّاء أكل التفاحة والله لا يحبّ من يقطف ثمار أشجاره فعاقبهما بالطرد من حديقته العزيزة عليه.

بصراحة كنت أفضّل أن يجدوا أحسن من هذا.

مثلا كنت أفضّل أن تكون التهمة التدخين في المراحيض، تسأل لماذا؟

أي غرابة في معاقبة التدخين في المراحيض حيث يمكن أن يشبّ حريق يأتي على أخضر الجنة ويابسها، إن كانت جنّة أرضية، أو أن يفجّرها في الجو إذا كانت جنة طائرة. لكن عقابا بمثل هذه الخطورة لمجرّد أكل تفاحة!؟

تقول لا تهزأ. ثمة بالضرورة حكمة في اختيار تهمة أكل تفاحة وما عليك أنت إلا أن تشغّل دماغك.

لتندلع خصومات بين أهل العقل وأهل النقل؟ بين اللفظيين والمجازيين؟ بين القائلين إن التفاحة المعنية بالأمر هي الفاكهة التي نأكل، وبين المصرّين على أنها رمز لمفاهيم لا يرتقي إلى مصافها الأغبياء الذين لا يدركون من الكلمات إلا غلافها؟ هل سيتدخل في هذه القضية أشدّ من أكره من أهل الثرثرة الممسكون دوما العصا من الوسط ليفسروا بجبنهم المعتاد وعجزهم عن أخذ موقف واضح أن التفاحة هي في آن واحد الثمرة التي نعرف وأيضا أنها رمز للحكمة وأن أكل الرموز الإلهية ممنوع. أوف!

كل هذا النقاش الركيك خارج الموضوع أصلا بما أن معلوماتي الثابتة تؤكد أن آدم غادر حقا الجنة مع حواء لا مطرودا وإنما... لائذا بالفرار.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كل آدمي، حتى ولو كان الأول، لا يهرب من الجنة وإنما يهرب إليها. ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

أولا، لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع ‘‘آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة‘‘

وأنت أعلم منّي بطول باع الآدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تبقى حجّة استحالة الفرار من مكان محروس مثل الجنة.

فعلا يستحيل الفرار من مؤسسة جدّية مثل الجنة لا شكّ أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة.

لا بدّ إذن أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهم ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات اللعينة لحظة الهرب. لكن مَن؟ الملائكة؟

إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟
مِن المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تَخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث قبل أن تقع.
التفسير الوحيد إذن أن النصير المجهول كان يافيه نفسه.
صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك. أما أنا فيتزايد حماسي للفكرة وأنا أتصوّر دوافع الصدى وهو يحثّ آدم وحواء على الخروج من وجود مملّ إلى وجود مثير، من عالم كامل هما فيه جزءٌ من الديكور إلى عالم ناقص هما فيه الفنّانان.
ثم أي هدية يهديها الخالق لمخلوقة أثمنُ من الحرية والمسؤولية؟
ها قد بدأت تتجمع كل مقوّمات قصة القصص.
إذن أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واعٍ بمن أوحى له بالفكرة.
ذات ليلة صارحَ حواء بالفكرة، فمطّت شفتيها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن
وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ. لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها.
في نسخة خاصة للقصة، لكل مناضلات الحركة النسوية، يمكننا أن نجعل حواء هي التي أسرّ إليها الصدى بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها الكسول
بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبته صور آتية من أعماق المستقبل لِما ينتظر أطفاله. ثم رضخ وحوّاء تهدده بالهروب لوحدها
وما عليه إلا أن يجرّب الجِماع مع إبليس أو الثعبان.
لحظةً توَقّف أمام هَول اللحظة والآدمية المضمنة في الوالدين وذرية ما زالت تتبلور في ثنايا الزمان تتأرجح بين مصيرين. ماذا سيكون الخيار بكل تبعاته؟
يحسم الأمرَ لصالح الفرار من الجنة.
هكذا اشتعلت شاشات المراقبة –المكلفة بقراءة الأفكار–برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر:
"عاجل للغاية وسرّي جدا". وعِوَض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم يافيه بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، أخيرا قرّ قرار هذين الغبيين، مَن يدري؟ ربما هما من سأحقق بهما جزءا مما بحثت عنه دوما.
بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

"سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)
دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف
تعانقا يرتعشان من الخوف
وقد أصبحا في سجن فضاء ضيّق من الجلد
يواجهان الامتداد الموحش المخيف
ومستقبلا مرعبا لم يستعدّا له
تجاوز آدم ضغينته
مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنّه كون يتلعثم بأولى كلماته

عالم مقيّد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

عالم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلّم الموت فيه

عالم غير مفهوم

بتبذيره الرائع والمروّع

معا سيتملّكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيلدان آدمية الشرّ والجذل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما الصدى بالأمر"

تهمس تفاحة تغالب آخر محاولة للبقاء مستيقظة:

-" با"، ماذا قال الرب لآدم وحوّاء وهما يفرّان؟

- خذا معكما الشيطان، لا بد منه للتجربة.

**

وقال لهم الصدى أوكلت إليكم بأقدس المهامّ فصبرا جميلا على كل ما أكلّفكم

وراءهما الآن باب الجنّة. العالم أمامهما.

تدير حوّاء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرَها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكلّلة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تناطح أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...

يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟

صبرا قليلا وسترى الفرق.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح بعض الوقت الذي لا تستطيع تحديده بما أن الساعة ما زالت لم تُخترع: أنا جائعة ولا أكل جاهزٌ هنا.

ينتبه بطلُنا إلى التغيير الجذري وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم.

كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت بالمجان، أما هنا فهي على حسابه هو. ربما أخطأَ في حساباته.

ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمتُ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعوّل إلا على جهده، لا مكان عندي إلا لآكل ومأكول، كل آكل مأكول، كل مأكول آكل... وأنا آكل الجميع.

يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح.

تتجاهل حواء رجُلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور وككل مَن ستلد من الإناث العمليات تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، والبحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، والجبال الشاهقة لنشر الغسيل. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوّها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذًى. الستائر الملوّنة من حرير الصين على مدخل أوّل كهف يوم تغزل، لوحة ''موناليزا'' على الحائط.

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفد صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

– كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجّة أنّك جائع. هذا فِعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجليك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدّة الطبع وسرعة الانفعال:

– عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذه ''ما'' بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبّل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب عالم.

يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. آن الأوان للمرور لفصل آخر من القصة.

ذات يوم تصرخ حوّاء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي ولا ترجعوا إلا بما خرجنا نبحث عنه ولا تحدثوني عن آلامكم، إنها آلامي قبل أن تكون آلامكم.

نعم، يا أمّ الآباء والأمهات، لكن ما هذا الذي سنذهب للبحث عنه وندفع للحصول عليه الثمنَ الموعود من الآلام؟

الخلود؟ كان وضعنا في الجنة التي هربنا منها؟

العلم؟ الجمال؟ الراحة الأبدية؟ المتعة الأزلية؟ كل هذا كان متوفّرا فيها إلى درجة القرف.

ماذا إذن؟

يصرخ أحدنا: لنتّجه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ آخر: بل إلى الشمال بلدان الجليد الثلج فربما الشيء هناك وهل أحفَظُ للأشياء من الجليد.

يصرخ ثالث: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ أجبننا أو أعقلنا: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم: تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخانقة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

"الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تبتهج بملامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق"

أي شاعر عبقري أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة الجنس البشري برمّته تتغنّى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض والبحر ولا حتى عفاريت الظلام!؟

توقّف على الصورة. ألا تلحظ شيئا بخصوص هؤلاء الأوائل الذين خطَوا أول خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنّين الذين تجاوزوا الثلاثين. ماذا تقول وأنت تحرّك يدك أمام أنفك؟ آه الروائح التي تنبعث منهم. حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعا، وحتى أجداد ملكة انجلترا التي تموّه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها لأنها توقفَت عند شجرة أجدادها حيث يجب التوقف، ولو طلعت إلى أعلى لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية. لا أحد منهم يجرّ حقيبةً تُصدر صريرا مزعجا. كل هذا يدلّ على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ آه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون. تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

ها نحن لمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعا، ومِن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نؤكل ونقاتل الآدميين وقد أصبحوا أخطر الكواسر حتى لا نُقتل.

إنه عالم لم يُخلق للجبناء، عالم صارم القوانين أولها أنك تولد فيه جائعا، تعبره جائعا وتغادره جائعا، أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموتُ يتغذّى بالحياة وكل الباقي حَشوٌ وتفاصيل.

ربما لهذه القوانين مغزًى يبرّر وجودها وأسبابٌ قاهرة تبدو أمامها احتجاجاتنا كاحتجاج الطفل على أمّه وهي تلقي به أول يوم لأوّل سنوات الصراع غريبا وحيدا في ساحة مدرسة مكتظة.

يأتي يوم ليئن أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكفّ عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعُه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟ يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس! يا لهذه الصحاري البيض وخناجرها التي ثبّتت في فكّ البرد والدبّ! يا لهذه الصحاري الزرقاء تهددنا بالموت رعبا قبل أن نموت فيها غرقا! فاق الألم كل قدرة التحمّل.

تحمّل! أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل تجربة الحياة وفكرة الموت؟

لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بخوفهم وبعجزهم والتوجه لمن قد يقدر على إغاثتهم.

صلاة الآدمي. يا من بعث بنا إلى هذا العالم المبهر المرعب، حنّن علينا قلب الأرض والبحر، ضعنا في حماية الشمس والقمر، أحفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شرابا حلالا، وفّر لجوعنا اللحم والشحم، فجّر لعطشنا عيون الماء الزلال، يسّر أمامنا الصعب والوعر، ضمّد جراحنا، جدّد فينا كل فجرٍ شجاعة الأبطال.

الصدى: يا لحمي تقطّعه أنيابي، يا دمي مراقا على العشب والثلج، يا دمع دمعي، يا عرق عرقي، يا جوع جوعي، يا عطش عطشي، يا رعبي وانبهاري، يا أحلام أحلامي، يا آلام آلامي، يا آمال آمالي، يا كوابيسي، يا أفكاري، يا أخيلة خيالي، يا عنادي وإصراري... صبرا جميلا ستفهمون سبب قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.

قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في قول الصدى: نبرته. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأن وراء القول قولا مسكوتا عنه ربما يكون شيئا من هذا القبيل: ستنسَون كل آلامكم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحققون لي المهمة التي شرّفتكم بها مع مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، على كلٍّ هل لنا خيار آخر؟

المشكلة أن معنويات المرتحلين لا تبشّر بخير وأن منهم من لا ترضيه كل هذه الوعود غير المفهومة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى أمّه: تخشبت قدماي من المشي، غُصتُ إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقَت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفيّ من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفّ العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريقُ اللعينُ طريقَه دوني. خارت قوايَ. لن أتقدم خطوة أخرى.

أوّل إضراب عامّ: الإضراب عن المشي، وليفعل الآخرون ما يأمرهم به جنونهم.

ليسمح لي القارئ هنا بمشاركة المضرِب الأوّل أولَ إضراب، وقد جُبلت على دعم كل المحتجين على تجاوزات السلطة ولو كانت أعلاها.

على فكرة، كم غريب أنْ لا أحد من المفكرين الكبار والصغار انتبه إلى أن آدم وحواء أخذا قرارا ليس فقط غير مدروس وإنما غير ديمقراطي بالمرة. نعم، كان على آدم وحواء –وذلك من باب النزاهة والشفافية وروح المسؤولية العالية–تنظيم استفتاء يطرح الخيار بكيفية واضحة على كل الأجيال التي ستُبتلى بعبور هذا العالم.

كان عليهما مواجهة ذريتهما بما ينتظرهم أفرادا وجماعات في مختلف تقاطعات الزمان الطويل الذي ستدومه رحلة الآدمية.
مَثلا، ألم يكن حَريا بهما أن يواجها المسافرين في القرن العشرين بما ينتظرهم: العيش في عالم الماكدونالد والكوكاكولا والكاجيبي والبنك الدولي ومحتشدات أوشويفتز والطغاة الدمَويون والقنابل الانشطارية وبرامج "اربح المليون" ومرض ألزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال؟
نعم كان عليهما مصارحة الأفراد فردا فردا: أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جلّ أعوام الرحلة في منجم مِلح أم في معمل رخام أم في حقل أرز أم في حقل قطن أم على الرصيف بقرب محطات القطار لتغتصب ويمرّر إليك فيروس قاتل؟ ماذا تقول في قضاء جلّ عمرك في مخيّم لاجئين أو في الرحيل محشورا بين الآلاف منهم تتقيؤون على بعضكم في باخرة لها مَوعد مع جبل من جليد ومع عمق المحيط؟
وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي –ضع سطرا أحمرَ تحت الخيار–جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتخمة، بالجوع، في سريرك عائما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟
وأنت الذي تحاول الاختفاء وراء الظهور!؟ لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشاتمون والجميع –ومنهم كاتب هذه السطور– يستمطرون اللعنات على رأسك –أو ما بقي منه– لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهَقين الجائعين أمثالي. آه نسيتُ أن أقول إن عمّالا في قمة التقزّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيُعطَى أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسُّوّاق المساكين ضحايا أمثالِك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.
نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك يوم تشق الطريق على قمم الجبال وفي حضيض المستنقعات وأنت كالدابّة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزّق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعضّ... وكل ما تصلّي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.
آه لو نبّه آدمُ هابيلَ أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوَّه، المعاق، الثائر الفاشل.
تصوّر لو طَرحا لتصويتٍ حرّ نزيه وشفّاف سؤالا واحدا: نخرج أو لا نخرج؟
لا شكّ لديّ أن أنصار "لا" واضحة ومدويّة، كانوا سيحتفلون عشية الإعلان عن النتائج بانتصار باهر على "نعم" هزيلة ضامرة لحفنة من المغامرين الطائشين. لو حصل هذا لوفّرت عليك مشقة قراءة "الرحلة" ووفرّت على نفسي مشقّة كتابتها، ولكنّنا الآن نتمطّى داخل العدم وقد لفّتنا العتمة بفائق فراغها، وفي أسوئها نتثاءب بكسل تحت شجرة التفاح في جنة متعة الملل وملل المتعة، لا نطلب ولا نطالب بشيء. هيهات، هيهات، رُميَ النرد ولم يبق إلا تدبير الوضع الجديد.
متأكّد مما تقول أم فقط موجوع أكثر من العادة؟ ألم تتردّد حواء؟ ألم يحجم آدم؟ ألم يريا ما هما مقدمان عليه؟ ألم يتخذا مع هذا القرار الأخطر والأصعب وكنت دوما من أنصار هذا النوع من الخيارات؟
لا بدّ إذن للقصة أن تتواصل ولا بدّ أن أواصل السهر عليها بما أَقدرُ، لا لشيء إلا لأنها تحوي في طياتها قصتي.

أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، الآدمية بحاجة إلى إغاثة عاجلة وإلا ستفشل كل التجربة.
تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.
– ‘‘با’’ ماذا يجب أن نفعل؟
– خذا بأيديهم كما تأخذان بيديّ لتجبراني على الركض والصراخ والرقص. الآدميون في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. يستيقظ المستكشفون من الغد وبهم جذل غريب.
– جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!
– غريب. أنا أيضا!
– أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.
– لا بل أنا المختار، تسلّق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفيّ، صارخا ضاحكا ومُغنّيا أنْ أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغيّر حياتكم.
تصرخ تفاحة: القصةُ عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلًّا فلا ترتجف ‘‘ما’’ من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.
تصرخ تفيحه: أنتِ الباكية والبائلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.
ثمّ تنفجر باكية لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.
– ‘‘با’’، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.
– هذه قصة يرويها أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الآدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئاب؟
– خرج الرجل وابنته الصغرى –التي كانت المفضّلة عنده كما يعلم الجميع–إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلّا أن صلّت لله ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثمّ لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها ‘‘با’’ وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.
– يا غبيّة، وكيف استطاع ‘‘با’’ من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرّة ينتظر الرعد والبرق.
– أنت الغبية وليس لديك قصّة أحسن.
– بلى، إذن خرجَت تفاحة مع ‘‘با’’ لتدلّه على مغارةٍ اكتشفَتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميييييييييقة جدّا جدّا لا يمكن الدخول إليها إلّا زحفا على البطون. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع ‘‘با’’ أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.
– يا غبيّة، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النّار.
بعض العضّ الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصات الذرية.
مَن كان يتصوّر أن اكتشاف النار في هذا النصّ سيكون بمثل هذه الصعوبة؟

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبلَت أختُها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النّار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كبريت بحجم بيت وبجانبها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكويا.

تصرخ البنتان بالاحتجاج الصاخب أن الأمور لا تقع هكذا. أطفالٌ يفهمون قاعدة كهذه وكهل يَدّعي في العلم معرفةً وتَغيبُ عنه مثل هذه الأشياء!

- "با"، لا تغشّ.

بجدّ؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الآدميون حدود إفريقيا مَهدِ الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على البرد ناهيك عن كل المنافع المعروفة الأخرى.

كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة! ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة. ثمة طبعا قصة تدخّل بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالآدمي فتصدَّى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين مزيدا من حظوظ البقاء... وهو ما كلّفه العقاب الشهير.

هذه أيضا قصة يستحيل الاستيلاء عليها، أضف إلى هذا أن النصّ يستنكف عن استعمال قطع الغيار البالية هو الذي يدعو إلى التجديد في بناء الرؤى.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسَته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها وهي كما هو معروف موجودة جنبا لجنب مع الجنة في فضاء خيالِ جلّ الآدميين.

يتطلب هذا بالعودة إلى المناطق الخطيرة التي فرّ منها الآدمي. قد يفسّر الصدى رجوعه بالجبن والنكوص على الأعقاب. في هذه الحالة قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصّة، والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء فيها. أمّا أن تقوّلوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقرّاء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكِل الكاتبُ الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصّل الآدمي على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وأنت تتدلّل عليّ فالقصة، قصّة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولا عنها أكثر من حضرتك؟

المهمّ أن الآدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيغيّر مجرى حياتها.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتُولّيَ مُدبرة تَرتمي في أحضان ''با''. يدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدّدا من النار. ترفض تفيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن ''ما'' لتقف بجنب تفاحة تقرّب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّتا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمّدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النّار إلى أن تسقطا من التعب اللذيذ بين أحضان الوالدين.

ليلتها نام حفنةٌ من الآدميين وآدم لأول مرة ملء الجفون، أُبعدوا لبضع ساعات الخوفَ والجوعَ، والمساكينُ لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصدهم في كل منعطف.

**

وقال لهم الصدى لا ترهبوا الطريق لكن حذار عند المفترقات

وفي الليلة الموالية تصرخ البنتان:

-" با"، البقية، البقية، ماذا حصل بعد أن أصبحت النار تحمي الطفلين و" با" و"ما" من البرد والذئب؟

- نعم، يا تفاحة وتفيحه، واصلت العائلة وهي تكبر باستمرار استكشاف حديقة الله.

كانت تجد فيها ما يمنع عنها الجوع والعطش.

كانت داخلها جزءا غير نشاز تُقاسِم كلَّ المخلوقات الأخرى دفء الشمس وحنان القمر ولطف الهواء وكرم الأشجار.

لم تكن تأخذ منها أكثر مما تحتاج ولم يكن لها ما تلوّث به جَمالها المقدّس.

في كل الحالات لم تكن تتفاعل معها إلا بالكثير من الرهبة والمحبة والاحترام.

وداخل المجموعات الصغيرة التي كانت ترتحل باستمرار بحثا عن الطريف والجديد وأماكن أخصب للجني والقنص، كانت الخلافات محدودة كالتي تنشب بينكما إذ لم يكن هناك من أسباب قاهرة للصراع المتواصل.

لم تكن الحياة دوما سهلة، لكن إجمالا يمكن القول إن الآدمية كانت بخير، خاصة مقارنة بالمستقبل الذي كان يترصّد بها ترصُّد الذئب بالحمل.

قد يكون من واجبي الأبوي وقد وصلَت القصة هذا المنعطف أن أتوقف عن الكلام؟

هل ثمة فيما سيتبع من أحداثها غير الأهوال والآلام وكل الفظاعات التي سيرتكبها الآدميون في حق أنفسهم، في حق الكائنات الأخرى وفي حقّ العالم نفسه؟

من كل ما قرأت من كبار الرواة للتاريخ الآدمي،

من كل ما سمعتُ من الثقات العارفين بالشؤون وبالشجون الآدمية،

من كل الملاحظات والأفكار والأوهام التي تتابعت داخل ذهني طيلة هذه العقود،

يتضح أن لا شيء في قصة الآدمية يدعو لكثير من التفاؤل وكأن تاريخها كله سلسلة من الكوارث في "أحسن" الأحوال نتيجة صدف غبية وفي أسوئها نتيجة خيارات كارثية تتحمل الآدمية وحدها مسؤوليتها؟

إن كان اكتشاف الآدمية للنار منذ مئات الآلاف من السنين لم يجلب لها إلا الخير، فإن باقي الاكتشافات التي صَنعت تاريخها لم تأتها إلا بالسم داخل الدسم.

كيف! يصرخ فيّ القائلون بالتطوّر والتقدّم "الحتمي"، ما هذا الهراء، ما هذا الجهل؟

نعم، نعم، واصلوا التعلّق بهذه الأسطورة الجميلة فالأساطير لم تُخلق إلا لتواسينا وتحجب عنا الوضع الحقيقي.

الثابت اليوم أن الآدميين لَمّا اكتشفوا كيف يُنبتون قوتهم من الأرض مستغنين عن مخاطر الصيد ومشاقّ الجني، فتحوا باب جهنم على أنفسهم وهم لا يعلمون.

إنها المرحلة التي سيصبح فيها الآدمي لآلاف السنين المقبلة السيد-العبد للمحراث والفأس.

مع الوضع الجديد آلام الأشغال الشاقة المؤبدة في الحقول والمناجم للأجيال وراء الأجيال.

ثم المخازن أين يَحفظ المساكين محاصيلهم،

ثم المفاتيح والأبواب والأسوار للحفاظ على المخازن التي تحفظ المحاصيل،

ثم العسس لحماية المخازن من الجائعين داخل الأسوار،

ثم الدولة والملوك والسياسة لتسيير شؤون الحراسة والخزن،
ثم الجيوش للدفاع عن الأرض المغذية والاستيلاء على أراضي الآخرين أوقات المجاعة وحتى خارجها وقد بدأ التكديس والجشع.
ثم عبودية أصناف من الحيوانات وكانت من قبل هي الأخرى لا تعرف إلا الحرية.
ثم عبودية البشر بدءا بسجناء الحرب وانتهاء بالرقيق يباع ويشترى لا فرق بينه وبين الحيوان.
ثم الفوارق الطبقية والعرقية وبين الجنسين ومعها كمٌّ غير مسبوق من الظلم والعنف والشقاء والبؤس.
ثم انطلاق مسلسل الثورات والثورات المضادة المتواصل إلى اليوم،
ثم ظهور نوع جديد من الآلهة والأديان والأنبياء وكلهم يعِدون بتخليص البشر من ورطتهم،
ثم التعصب في ركاب المخلصين ومعهم كل فظاعات حروبهم ''المقدسة'' .
ثم العلم والطب لتخليصهم من أمراض حيوانات استعبدوها فانتقمت منهم شرّ انتقام بتمرير كل جراثيمها إليهم.
ويُسمُّون هذا تطورا وتقدما وحضارة!

مسكينة هذه الآدمية. هي لم تنتهِ من دفع فاتورة كارثة الوقوع في فخ الفلاحة إلا لتنخرط في كارثة أخرى فاتورتها أبهظ من كل ما دفعت.

ها هي تدخل بعد معاناة عشرة آلاف سنة المرحلة التي سيصبح فيها الآدمي لأكثر من قرنين السيد-العبد للآلة والوقود الاحفوري.

إبان هذه المرحلة أُضيفَ للوضع الكارثي للفلاحين وضعُ العمال.
استبدل البؤساء استعباد الحقول باستعباد المصانع.
وكما حدث إبان الكارثة الأولى تولدت المصائب من بعضها البعض كما تتوالد وتتفشى خلايا السرطان من الورم الأصل.

فمن المصانع خرجت مع البضائع أمراض الشغل والبروليتارية الرثة ومدن القصدير والبطالة والإضرابات وقمع الإضرابات والصراع الطبقي، مع كل ما يصحب هذه الزلازل الاجتماعية من ولادة أديان خلاص سمّوها الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية وحقوق الإنسان، جنبا لجنب مع ما تحارب وما وُلد معها من مضاعفات التصنيع سموها الرأسمالية والامبريالية والاستعمار.

حدّث ولا تسل عن جبال القاذورات التي ملأت بها هذه المصانعُ الأرضَ والبحر والسماء وحتى الفضاء القريب وقد أصبح مزبلة كبرى لأشلاء أقمار صناعية انتهت صلاحيتها أو خرجت عن السيطرة.

الذروة لسطوة هذه ''الحضارة'' الاحتباس الحراري المهدِّد لتوازن الكوكب ولوجود الكائنات التي تعيش عليه.

استغرقت الكارثة الأولى عشرة آلاف سنة ولم تأخذ الثانية إلا قرنين من الزمن لتضعنا على حافة الهاوية، أما الثالثة التي أصبح فيها الآدمي السيد-العبد للحاسوب والنقال فقد برزت في العقدين الآخرين مما ينذر بتسارع الأحداث وقرب ارتطامنا بحائط لا قفز فوقه.

لا أحد يعرف ما الأخطار الكبرى التي تحملها في طياتها تقنيات مذهلة يسمونها الذكاء الاصطناعي والروبوتات المتقدمة والكائنات نصف آدمية نصف الكترونية. هل هي نهاية البشرية كما عرفناها لحدّ الآن؟

لقائل أن يقول أنَسيت أن الفلاحين هم الذين بنوا مدن أريتاس الرابع، سوريفارمان الثاني، باتشاكوتاك وباكال وابنه شانج بالوم، أنهم هم الذين شيدوا معابد أوروك، الأهرامات، السور العظيم، جدار هادريان، الزمبابوي الكبير، معابد ماتشو بيتشو، قلعة حلب وقصر الحمراء، والقائمة أطول من أن يتحملها قارئ مهما كان صبورا. ألا ترفع القبعات لبُناة منصات إطلاق الصواريخ مثل كاب

كانيفرال وبايكنور ولا نتحدث عن المحطات الفضائية التي ستكون أولى قواعد الانطلاق نحو غزو الكواكب الأخرى. وفي المقابل قل لي أي أثر يُذكر تركه أوائلك الهمج الذين تتحسّر على أننا لم نبق أوفياء لتقنياتهم البسيطة البالية؟

نعم، ما من شكّ أنني أفضّل أن يعالجني طبيب أسنان من العصر الصناعي على مقتلع أضراس من العصر الفلاحي ومن ساحر يبصق في فمي لتخفيف أوجاعي في عصري الذهبي. لكن بيني وبينك، يا ليت الأوائل لم يتوقفوا، إذ لما توقفوا استملكوا، لما استملكوا منعوا، لما منعوا تسلحوا، لما تسلحوا ارتكبوا الموبقات التي يحمرّ لها وجه إبليس.

نعم، لا تنظرُ للروائع المعمارية الفنية المبهرة الجمالِ التي بناها البشر على سطح الأرض إلا وتساءلت كم كلّفت من استغلال، من إذلال، من خديعة، من سرقات، خاصة من دموع ومن دماء.

وبخصوص غزو الكواكب الأخرى –أي توسيع التملك من قطعة أرض صغيرة بحذو نهر عجوز إلى كوكب بأكمله–ألن يكون الأمر مثل انتقال فيروس قاتل من جسم مريض إلى جسم غير واعٍ بالكارثة التي ستضربه قريبا؟

كم أخطأ البشر وهم يخلطون بين حق التمتع بالعالم وبين الحقّ في تملكه، كأن بوسع عابر السبيل تملّك الطريق والضيف بيت ضيافته.

أيكون فعل تملّك هو أصل كل البلاء والشرّ في قصة القصص؟ أليست كل المآسي التي عاناها الآدميون وما يزالون، تبعاتِ صراعاتٍ لا تنتهي حول لمن يُسلّم طوعا وكرها بتملّك الأرض، بتملّك المياه، بتملّك المراعي، بتملّك البحار، بتملّك الغابات، بتملّك الحيوان، بتملّك البشر، بتملكّ السلطان، بتملّك الحقيقة والفضيلة والدين القويم؟

ما أغرب أن تكون جلُّ مصائب الآدميين من صنع أيديهم، قُل من تبعاتٍ لم تكن محسوبة لأنظمة إنتاج وحكم وتفكير خلقوها أملا في حلّ مشاكلهم فإذا بها هي أم المشاكل.

تعود تفاحة للصراخ: ''با''، لماذا أنت صامت؟ نريد البقية، البقية، البقية!

تهزني ''تفيحه ''من كتفي: ''با'' استيقظ، نريد بقية القصة!!

لماذا لا أروي لهم قصة طرزان البطل الذي حفظ لنا جميعا شوقنا للأدغال وأغفل كل الباقي؟ لكن من أين لي وَقف المسلسل الرهيب لقصةٍ خرجَت حتى من سيطرة الصدى؟

**

.

وقال لهم الصدى انتبهوا لما في الحرية التي وهبتها لكم من مسؤوليات جسام

هل توجد ظاهرة صاحَبت الآدميين طوال تاريخهم قدر الحرب، يتعهدونها ويطوّرونها بكل ما أوتوا من عبقرية، يقودونها في كل الفضاءات بكلّ ما يملكون من أدوات التحضّر وغرائز الهمجيّة.

أُعدّد لكم حروبهم بعد أن رأينا سببها؟

أخشى ألا يسعني ما بقي لي من زمن لجردها كلّها.

كم يدهشني أنني بلغتُ هذا العمر ولا زلت حيّا أرزق. كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الخيّالة برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مزّقت ولا تزال تمزّق كل يوم أجساد مساكين وُجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه.

ذلك اليوم خصّصَت المدينة المغبرّة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل، فاصطفّت على جانبي الطريق الجماهير كأنها متشوقة لرائحة الدم. على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولُحًى كبروا وكبرَت معهم الألعاب واللّعب.

كان كبار القوم –الذين حشرتُ بينهم خطأ– يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدرعات المكلّفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قُل على سرقاتهم.

ثمّ اختُتم الحفل بمشهد مؤثّر وأمُّ الشعب بردائها المسمى ‘‘ساري’’ وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذَرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيّتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد واعٍ آنذاك أن المرأة ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبعبع الذي تعبّدت له ذلك اليوم.

ماذا لو جعلنا الحرب مؤامرة من إبليس للتخلّص من ذرية آدم حتى لا ينافسوه في مكان ومكانة وهو الذي دفعهم وما يزال يدفعهم لاتخاذ أسوأ القرارات عند كل مفترق طريق.

تستطيع القصة أن تتواصل على هذا الأساس لا يهمّ أنه ليس لدينا دليل على صحة فرضيتنا هذه.

ماذا؟ أنا المكلّف بتحقيق غايات إبليس وسأكون مَن سيلعب على شراسة وجشع الآدميين لدفعهم لآخر معركة تريح العالم منا وتريحنا من أنفسنا وتريح الصدى نفسه من تجربة لا شيء ينبئ بأنها ستنتهي على خير.

لم يبق عليّ إلا نشر الإعلان وبعث الدعوة لجميع الأطراف التي تمتلك سلاحا: "تقرر تنظيم أم المعارك في ساحة كوروكشترا للفصل النهائي بين كل المتنازعين ماضيا وحاضرا ومستقبلا. الحضور إجباري".

يسقط الأغبياء في الفخّ المنصوب خاصة بعد أن همست فيهم أن النصر المبين سيكون حليفهم وقد قررت السلطات العليا الاصطفاف مع قضيتهم العادلة.

تتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها، ببنادقها بصواريخها العابرة للقارات، بصواريخها العابرة للمجرّات.

أصفّر لكي تبدأ أم المعارك وننهي هذا القصة التعيسة. لا يتحرّك أحد. أصفّر ثانية وثالثة ورابعة دون نتيجة.

يداهمني التعجّب فالغيظ فالهلع. يا ناس أنا صاحب هذه القصة ولا بدّ أن تتقاتلوا فيها وإلا ماذا سأقول لقرّائي؟ هل سيحملون بقية حديثي على محمل الجدّ وأنا عاجز حتّى عن التحكّم في أبطال قصّتي؟

يسرّ ليّ الوعي الباطني: إنها لحظة الاضطراب والتردّد، هل نسيتَ وصفها البليغ في رواية أخرى لقصة القصص.

إنما المعركة المقدسة، حين صفّر الربّ كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره، فبقي السيف في الغمد، مما أثار غضبه هو الآخر.

يومها قطّب جبينه وقد جاءه نفس القلق وباغته نفس السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين!؟

وفي هذه الرواية التي لا أتبناها طبعا، المحرِّض على تبادل الإفناء ليس إبليس وإنما الصدى نفسه بعد أن يئس من الآدميين.

يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلّا ساحة معركة للتجلّي: ‘‘لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي الآخرين كلّهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أيّ غنم من قتل بني دهريتاراشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين‘‘.

الآدمي واعٍ إذن أن حروبه صراع اليد اليمنى ضدّ اليد اليسرى... صراع الأسنان واللسان في الفكّ الواحد!

في تلك الرواية لقصة القصص، يرفض الربّ حُجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤيةً أخرى لما هو معقول ومطلوب.

– "أموقفٌ هذا، منكَ أنت مرعبُ الأعداء! انفض عنك هذا التخنث المخجل".

ثمّ يمرّ إلى التهديد.

– "إن لم تقاتل فستكون خائنا يقال عنه إنه جبان. إنّ ضياع الشرف للنبيل أفظع من الموت".

كيف نستغرب ألا يُدخل الهندوسُ بيوتَهم قصتَهم المقدسة مُكتفين بالقَسَم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسّك أرجونا برأيه؛ عيّره الربّ بالخوف أم لم يعيّر.

– ‘‘أرشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومنّة؟ أفضّل أن يقتلني بنو دهيرشترا وأنا أعزل بِلا مقاومة، على ارتكاب هذه الموبقة‘‘.

الرب مُجرّبا الوعود البراقة.

– ‘‘إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض‘‘.

يتمسّك أرجونا برفضه مذكرا الرب بأنه ما زال كائنا عاقلا.

– ‘‘ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمّر تراثنا؟ ‘‘

– ‘‘الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تُقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر.‘‘

موجة من الإشفاق. مجدّدا تناقضاتي.

أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته هو. إن كان سيّان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك إلى قتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ اصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

لم يبق للربّ سوى التحريض الخسيس:

– ‘‘تغتمّ لمن لا يستأهلون الغمّ‘‘.

يلتجئ إلى الجُمل الرنّانة ينافق بها ويزيّن مطلق الشرّ.

– ‘‘إنّه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة‘‘.

يتكثّف صمت أرجونا. هل ستحدث المعجزة ويؤوب الربّ بالإخفاق والآدمي بالنصر وقد أصبح أخيرا إنسانا؟

ما القوى التي تتصارع داخل أرجونا وهو بين إقدام وإحجام؟ لنختزلها في ثلاثة رئيسية.

ثمة القوة التي سنسمّيها الوضع المحدِّد. كم من قرارات بشرية آتية أحيانا من أعماق الزمان بكل ما فيها من أخطاء وخطايا لا دخل لنا فيها، تدفعنا في هذا الاتجاه أو ذاك، ترسم ممرات بالغة الضيق، علينا التحرك داخلها ونحن مثل حبة رمل وسط الزوابع والأعاصير تدفعها إرادة قاهرة غير مشخصة هي حصيلة كل الإرادات منذ وجدت الإرادة البشرية.

هناك أيضا الاستعدادات الفطرية للآدمي وتمتدّ من الشرّ المطلق إلى الخير المطلق. هذه الاستعدادات الغريزية هي التي يلعب عليها الوضع المحدِّد. من هذا المنظور ترى كريشنا في حواره مع أرجونا يحاول تشغيل "المناطق" من ذاته التي تحبّ القتل وتشلّ التي تكرهه.

أخيرا الحرية. لولاها لكنا مجرد روبوتات من لحم ودم يحركنا دوما وآليا الوضع المحدِّد في الاتجاه الذي يرسم بوعي وأغلب الوقت دون وعي. لكن الآدمي وإن كان نوعا من الروبوت المصنوع من الدم واللحم قادرٌ على الخيار. هو يستطيع اتباع أوامر الوضع المحدّد والتصدّي لها. هذا ما يجعل من المستحيل على أي منجّم –وربما حتى على الربّ نفسه–أن يقول: هذا الجندي هو الذي سيجهز على الجريح، وهذا الآخر مَن سيباده بالماء. نعم، ثمة داخل حبّة الرمل التي هي الذاتُ طاقةٌ جبّارة قادرة على عكس مسار الريح حتى وهو في أوَج الهيجان.

تعجز الحرية هذه المرة عن التصدّي لقوة الوضع المحدِّد فتتحرك عربة أرجونا إلى الأمام. ها هو الآدمي:

يدخل إلى ساحة المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

*

ينقضّ الآدميون على بعضهم بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان. تتصاعد الهتافات: المجد لأمتنا العظيمة، المجد لملكنا المفدى، المجد لدِيننا الحقيقي، المجد لي، المجد للمجد، المجد للسلاح، المجد للموت.

يَختلط صهيل الخيل بقعقعة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ.

يتعالى من مكان قَصيّ من المعركة صوت شيخ بدين مولَع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، أبارزهم بعقب السيجار، أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووسٌ آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوكوليوبسكي في جنوده، أَرشِقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوقورود، تبركا وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدها، أن الضباب لفّ المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تذرف الدموع لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة، وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها مِن فَرطِ الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات ميتته الفظيعة على الصليب عبثا والشرُّ دوما هو المنتصر.

المهمّ أنها فرصته الكبرى ليتبلور فينا بلا حياء أو مواراة لنفعل نحن أيضا بلا رادع كل الأشياء التي يحرمها التأدب والذوق السليم ومعاهدات جنيف العشرة آلاف، مثل سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف

واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات، ناهيك عن إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات؟

فعل الأفعال! طبعا قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية... فعلنا الأوّل نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أفظعها في فنون القتل.

والآن تمعّن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونسّاجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للآدمي... وانظر النتيجة! أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الآدمية... وانظر النتيجة!

بالله عليك، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه إلى الآدمية كما يخجل مَن به شمم أنه لقيط ثمرة خطيئة عاهرة وسفّاح؟ أهذا هو الجنس الذي راهن عليه الصدى؟ هل سهّل فرار الآدمية وأرفقها بإبليس لكي يتخلص منها بعيدا عن أسوار جنته، والجريمةُ على يديها لا على يديه؟

على فكرة، مَن هذا العدوّ الذي نقتل وسنواصل قتله بكل هذه ''الوحشية'' وبكل هذا الإصرار؟

يخرج الجندي من وراء أكمة يمسك بنطلونه بيديه وقد فاجأته القنابل وهو يقضي حاجته الآدمية. يقهقه أوروال رافضا أن يطلق عليه النار فرجُل يمسك ببنطلونه لا يكون عدوّا جدّيا ولا حتى عدوّا.

من يكون إذن؟

يتحصّن ثوّار كتاب ''البؤساء'' خلف المتاريس الحجَرية والمدينةُ في قمّة مخاض أجمل مولود اسمه الحرّية. خلف أكياس الرمل والحجارة التي اقتُلعت لتوها من الشوارع المبلطة، يرفع الآدميّ فوهة بندقيته ببطء صارخا في أصحابه: لن يفلت ابن الكلب. إنّه بالضبط حيث يجب أن يكون. يضغط على الزناد. فيرتجّ جسد الضابط الشاب الوسيم وكأنّ يد القدر هي التي لطمته فيهوي من علوّه. يصرخ أحد المقاومين.

– كم مؤسف أن تقتل شابا كان بوسعه أن يكون الأخ الأصغر لأيّ واحد منّا.

– لكنّه فعلا أخي فرنسوا!

أخوك! إنه أكثر من هذا يا حمار... إنه أنت.

آه، اتضحت الحقيقة المخيفة. الحرب محاولة انتحار جماعي وقد ملّ الآدميون الصراع مع عالم ندموا على خروجهم إليه؟ ثمّ بيني وبينك أليس الموت وسط الصخب المزركش والحيوية الفائقة وفي صحبة هذا العدد الهائل من الأصدقاء والأعداء، أفضلُ ألف مرة من الاحتضار وحيدا فوق سرير مستشفى؟ دوما بيني وبينك، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعمق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه من الآدميين، وهل جئنا إلى غير هذا ولو بهذا الثمن الفظيع؟

أضف لهذا، هل ثمة خَلق لا يسبقه التدمير؟ كم من عقائد وامبراطوريات وحضارات كان من الضروري تدميرها ليُبنى فوق أنقاضها الجديد والأفضل؟ ثم ما العالم إلا آلة إنتاج الحياة والموت... آلة محركها قوّتان، أو ربما قوة واحدة كعملة النقد بوجهين: التي تخلق دون توقّف لا يهمها جهد أو طول التجريب... التي تدمّر باستمرار لا يهمها فظاعة الوسيلة أو ثمنها.

طيب، ما القرار إذن؟

للأسف هو اتُّخذ بما أنك تقرأ هذا النص الذي أكتب هذه اللحظة مما يدلّ على أن الآدمية نجت من جدة أم المعارك. لم يبق لي إلا الادعاء بأنني صاحب الفضل لأنني أوصلت للصدى شفاعتين غيرتا قرار كان قد قارب اتخاذه. كيف لا نتفهم غضبه وقرفه وموجة من الإحباط داهمته وهو يرى ما فعله نارمر، الفرعون رقم واحد الذي قطع الأعضاء التناسلية لأعدائه بعد قطع رؤوسهم أو

ما فعله ''إيشا'' وهو باحث علمي من قرن متحضّر حقن آدميين مساجين بالجراثيم ثمّ ذبحهم قافزا فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم توفّر على ما يكفي من الدم الملوث لصنع قنابل بيولوجية تفتك بمزيد من البشر... ولا نتحدث عن كل الفظاعات ضدّ ما خُلق من حيوان ومن نبات.

نعم أقولها على مسؤوليتي لم يشفع لنا لدى الصدى إلا دموعُ آشوكا وضَحكُ أبي دلامة.

شفاعة آشوكا:

بعد انتهاء المعركة التي حَسمت مصير مملكة كالينجا يتجول في ساحتها الرجل الذي قتل تسعة وتسعين أخا للوصول إلى السلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك. فجأة يداهمه الفزع والغثيان والندم والحزن والشفقة وكل المشاعر التي وصلت متأخرة أمام العدد الهائل من الأجساد وملامح أقصى الرعب والألم التي ما زالت مرتسمة على الوجوه. تصرخ فيه أم منكبّة على جسد ابنها ''يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي''.

يومها قرّر آشوكا أن يتبع عقيدة بوذا وأن تصبح موريا وطن السلام إلى نهاية التاريخ. منذ ذلك التحوّل، لم يُقتل في امبراطورتيه آدمي أو يذبح فيها للأكل كائن ينبض بالحياة.

شفاعة أبي دلامة.

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا مَوجة من الرعب لفظاعتها ومن التثاؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مفتّحات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدوّ؟ المهرّج الرسمي الذي يرافقه في حلّه وترحاله! ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدوّ، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهرّجون، أو كقرار غبيّ من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه مذكّرا إيّاه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ عبثا.

آخر استعطاف: بما أنه قُدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شبعانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمّنا في قرارة نفسه قيام المهرّج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة ''الوغى''.

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدّي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه. ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبُه شاهرٌ... دجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئا يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟ الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف. هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفّ بعد؟ لا والله. هل هتكتُ لك عرضا؟ لا والله. هل قتلتُ لك أبا أو أما؟ لا والله. هل ظلمتُك يوما؟ لا والله. هل سرقتُ منك شيئا؟ لا والله. هل جاءك واش بكلام قبيح يَدّعي أنني قلته فيك؟ لا والله. *ومع هذا تريد قتلي*! يا رجل العَن الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس تتفرّج في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهم الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأدعياء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسما وروحا.

الآن وقد قبل الصدى الشفاعتين وقد تأكد أن بوسع الآدمي أن يبكي لفظاعةِ ما يَرتكب وأن يسخر من حمقه وجنونه، يمكنني أن أجد مَخرجا مقبولا لتواصل القصة.

نعم، لن أشي بالجندي المتبقي والمتظاهر بالموت وبممرضة تفتعل الإغماء، بل سأرتّب لهما موعدا وخلوة غرامية مع ما ستؤول إليه الأمور من قابيل وهابيل وبقية المصائب المتحرّكة على قدمين. أليس وجودي أنا الذي أكتب وأنت الذي يقرأ الدليل القاطع على إصرار الصدى على متابعة التجربة بالرغم من كل أسباب اليأس منها.

**

وقال لهم الصدى كم من مِحَن أخرى ستتحملون لتُبلوروا كلَّ ما وضعتُه فيكم من آمال

يتجدّد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطتين الشرستين امتحانا عسيرا لأعصابٍ لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عمليّة مسرحية لا تتواصل إلّا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقّف سريعا بغياب المتفرّجين أو بتصاعد تثاؤبهم.

حتى هذا لا ينهي الخصومة. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محميّة بالمعطف الغليظ.

– والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

– قلت لها كم من مرّة أن تنظر من نافذتها، فلها نافذة بجانبها هي الأخرى. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

– بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلّا النظر من نافذتي.

أليست أغلب المشاكل التي يحفل بها التلفزيون كل ليلة نتيجة أن الرئيس زَيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة طائرات مكتظة بصواريخ عابرة للقارات لتدمير مُدنه عقابا لأنه نظر من نافذته بدل أن يكتفي بالنظر من أكثر من نافذة في بيته، هو وحده صاحب حق النظر منها؟

– انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول مبارزة العيون خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى.

وعند فتح باب السيّارة أجد تفاحة واضعة ذراعيها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه تغتنم فرصة إدارة أختها لها الظهر لكي تخرج لها لسانها.

أخيرا الليلُ ووقت الرحيل إلى الضفة الأخرى من العالم.

تفاحة: "با"، غسلت أسناني، هيا نواصل القصة... أسرع.

– قصة؟ بعد كل ما أظهرتِه طول اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحه شريطة أن تكف عن الرقص على السرير.

– تفيحه لا تعرف شيئا، "با"، أنت من يقود القصة وأنا بعدك.

نعم سآخذ بزمام هذه القصة اللعينة أقودها إلى حيث يجب. لكن كيف وإلى أين؟

لم يعد يخفى على أحد أنني كنت أريد بالقصة شرّا من البداية. لكنني قلت لا بدّ أن وراء كل هذه الآلام العبثية سببا لا أعرفه فلأؤمن أي لأسلّم أمري لمن له كل المعطيات وكفاني وجع القلب والرأس. لكن مشاكلي المتفاقمة مع الآدميين لم تزدني إلا قرفا منهم ومن ثمّ الشكُّ في صحة قرار الصدى بتمكينهم من مواصلة التجربة. ربما بدأتُ أشك في حكمته هو نفسه وحتى في نواياه الحقيقية. قد يكون بصدد استعمالنا كما نستعمل فئران المختبرات للبحث في أمور آخرُ ما يهمها مصلحة الفئران.

إذن وفي إحدى أهمّ فصول روايتي الملحمة، يتداعى كل آلهة البشرية لاجتماع خارق للعادة بعد أن أمضى الثلثان القانونيان عريضة استدعاء المكتب السياسي للنظر في شكوى ضدّ تواصل التجربة الآدمية.

ينطلق النقاش بصرخة غاضبة من إينتي كبير آلهة الأنكا.

– يا لهذا الكاتب الغبي! كدنا أن نخلص من هذه القصة، لكن تواطؤه المخفي بمهارة مع أبناء جنسه جعله يراوغ في الإسراع بخاتمة يبدو أنه كان يترجّاها بقدر ما كان يخشاها. حتى كريشنا مصدوم من موقفه. أليس كذلك يا ربّ كريشنا أنت الذي كنت أوّل من أوصى بالحلّ النهائي لهذه المشكلة؟

– أنا أردت نهاية الآدميين! أنت متأكّد؟

– بل وقلتَ لنا مرّة إن الصدى انتبه إلى الغلطة التي ارتكبها وهو يشاهد تقدم الأدمية في ملكوته وهي ككفكٍّ رهيب بصدد التهام الجبال والصحاري والغابات، بصدد شرب مياه الأنهار والبحار والمحيطات، بصدد نهش الشموس والمجرات. قلت إنه بدأ بمراجعة حساباته خوفا من إفلات التجربة من كل تحكّم، إنه فهم أخيرا أن هذا المخلوق ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، أنّ آدم يريد تملّك الأرض ومَن عليها لحسابه الخاص.

يتدخّل زوس بقوة:

– نعم، نعم، لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الآدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظّها العاثر أن يضعها على طريقها؟ قلتها وأردّدها أكثر من أي وقت مضى: لا لهذه التجربة، الآدميُ كائنٌ لا يَصلح ولا يُصلح.

ينفجر بعل ضاحكا:

– آه الآن انتبهتم للكارثة. أما أنا فمُنتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجّرت على رؤوسهم بركان ''توبا''. للأسف قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعل:

– إذن أنت سبب تلك الكارثة العظمى التي أبادت كمّا هائلا من الأجناس البريئة وأخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة!

يصرخ أمون–رع:

– لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

– كيف؟ نسيتَ ما قلته في سهرتنا عند اللّات والعزّى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنَوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالَمٍ يريد الشفاء منهم.

يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

تعالَوا نفكّر معا ولنتكاتف جهودنا لحلٍّ نهائي هذه المرّة.

– أي حلّ؟

– إغراق الآدميين بالطوفان.

يتدخل ووطآن بعنف:

– نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار ''توبا''.

تسارع آتينا بالموافقة:

– أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

خطّة ممتازة تحظى بثقتي التامة ومباركتي وصلواتي.
المشكلة هذا اللعين إينكي. ها هو يطلب الكلمة:
[تلخيص المرافعة التعيسة]
"أيتها الآلهة والآلهات، حضرات الزميلات والزملاء: كما تعلمون، التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى-الحق في خمسة ملايين سنة القانونية. ثم إن قضينا الآن على الآدمية فبماذا نعوّضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونُعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وعلى كلٍّ أُذكّركم أن هذه تجربة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمرا بإيقافها".
يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهدّدة بالانقراض، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكّر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقّر. في الأخير يتّفق الجميع على الحسم بالتصويت. لا يحصل إينكي إلا على صوته ويتحوّل النقاش مباشرة للتفاصيل العملية. يخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تطغى على المصالح الكبرى.
على كلٍّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته.
بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تنجح خطة زملائه غير الأعزّاء.
"ولما عزمَت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان (نصّ حفريات)
أراد الإله إينكي إنقاذ الآدمية
فاختار زيوسدرا الملك
وعلّمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان
ويقيم في أرض العبور
أرض دلمون حيث تشرق الشمس".
يصرخ إينكي في الآدمي الذكر أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش يعرف أنه غير ضروري. أخيرا يصبح زيوسدرا جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من مشاكل الآدميين، بل وهي أولى ضحاياهم.
تصرخ تفاحة:" با"، هذه قصة نوح!
كيف أفسّر لبنت في هذا العمر دون أن أثير فيها غريزة السرقة -بل وأشرّعها-أن البشر لا يسطون فقط على بلدانٍ وبنوكٍ ونصوص وآثار وزوجات وأزواج بعضهم، وإنما أيضا على أساطيرهم وآلهتهم.
تصرخ تفيحه:
- "با"، ما اسم سفينة نوح؟
- يا بنت متى ستكفّين عن إلقاء أسئلة لا جواب لها؟
وبما أننا لم نعد نتوقف عن سرقة أجزاء كاملة من روايات الآخرين لتكون روايتُنا أجمل من روايتهم، فإننا سنختطف جزءا آخر من رواية مشهورة تعطي نكهة إضافية لقصتنا.
تصرخ تفاحة:
- اسمها تيتانيك، "ما" حكت لي القصّة.
- أنا أيضا حكت لي "ما" القصة وأعرف اسم السفينة وليست تفيحه وحدها التي تعرف.

– الحمد لله أنكما اتفقتما على الاسم وإلا ضيّعنا وقتا ثمينا في التخاصم حوله، بينما الآدمية المسكينة تحت الطوفان والسفينة لم تكتمل بعد لتكون قادرة على الوصول إلى برّ النجاة.

تنتهي الأشغال ويبحر كل مَن بقي على قيد الحياة وتبدأ السفينة في تسلق الموج والسقوط في هاوية تبدو بلا قرار.

جميل أن تطفو هذه السفينة والأجمل أن ترسو في مكان ما. في الأثناء كيف مقاومة الدوار وتفادي الارتطام بالسقف، والسفينة تقفز إلى السماء، وكيف تَفادي الارتطام بالقاع وهي تتهاوى إلى الأعماق. الغريب أن يطالبك الناس، وأن تطالب نفسك بتصويب الرمح نحو هدف لا يثبت على وضع، أن تلوم نفسك على كثرة الإخفاق والحالُ أن العالم لا يتوقف عن مباغتتك بحركة لم تكن في الحسبان.

لأوّل مرّة تفكّر حوّاء في الانتحار، عافت الدوار وملّت مشاكل لا ولن تنتهي واهترأت أعصابها ويئست من الوصول إلى أي برّ أمان. نعم، حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعها في اليمّ أو أن يجرّب خلق حواء أخرى من عظم الساق.

مَن أدرى مني أن هذه الأنثى تمثّل علينا وعلى نفسها، أنها ستتدبر أمرها، إن أقدمت على الأمر فعلا، لتكون العملية مجرّد انتحار خفيف لا تبعات له سوى تسميم ليلة طبيب الحراسة.

ككلّ انتحار أنثوي خفيف لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقترب منها وهي تفتعل عدم الانتباه. أصرخ فيها: هيا خلصينا، اقفزي؛ فترمقني بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّتني "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البنتان بصوت واحد متثاقل:" با"، لا نحبّك إذا واصلت هكذا. ثم تسكتان وقد رحلتا إلى الضفة الأخرى للعالم المجهول.

يمكنني أن أواصل القصة لنفسي. إذن تنفّس ‘‘إينكي’’ الصعداء وهو يشاهد تراجع حوّاء عن فكرة الانتحار وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الربان.

كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه حتى ولو فضّل البقاء وراء الستار.

المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة –ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين–إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرّد وإحالته على المحاكمة، وخاصة مواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرّت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

– مسكين إينكي، لا شكّ أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها السفينة. آه لو يعرف ماذا أعددنا له؟

ينقضّ جبل من جليد من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاة الآدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت التابوت والمحيطُ هو المقبرة.

هل يُعقل أن تموت حواء في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ وآدم المسكين الذي لا يعرف السباحة! ثم ماذا عن الحيوانات البريئة؟

أشعر بيد تفاحة على ذراعي وبضغط ينذر بتصاعد الرهبة داخل حلمها وحلمي.

يمسك آدم بشعر حواء يجرّها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟ ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشدّه؟ تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبّين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

– انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الآدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسّك، تشبّث بالحياة؟

تتضرّع حوّاء للمبهم المطلق: أعطنا فرصة أخرى. سنُنجح المهمّة هذه المرّة وسنعود لك بهذا الذي بعثتنا نبحث عنه.

إينكي على زورقه يجدف ببطء شديد متحسّسا طريقه في الظلام الدامس. تصرخ فيه تفاحة: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترفّق في جذبها وغَطِّها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس إيتي وإلّا سترفض الصعود. والآن جاء دور "با"، ثم "ما"، ثم بقية الكائنات وأنا آخر من تصعد في الزورق. ''با''، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألستُ رائعة؟

بل أنتِ أروع من رائعة يا حبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

كأنّ صبرك نفد من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة. تصرخ فيّ: يا رجل هل تريد للبشرية أن تنتهي أم أن تتواصل؟

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في أمر كهذا والآدمي منذ انبثاقه مقسّم بين إغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم.

**

وقال لهم الصدى على طول طريق المسامير والشوك سأنثر لكم أروع الواحات.

تستيقظ تفيحه باكية، تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دميتها إيتي. تسارع تفاحة تُحكِم حولها الغطاء.

-'' با''، حلمت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء وسرير مستشفى وأنت جالس حذوه تبكي... ''باء''، دثّرني.

تكفّ عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.

تتدخّل تفاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا ''كثييييير'' من اللعب والفرح.

تفيحه: نعم، أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربتُ بالقصة إلى غرفتي.

نعم، يجب أن يجد الآدميون واحات يرتاحون فيها وإلا قد يضربون عن المشي وآنذاك ستسقط كل مشاريع الصدى في الماء. لنترك تفاحة تقود القصة.

تفاحة: ووصلت العائلة إلى بلاد جميييييلة جدّا جدّا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصافير وغابات لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان بوسع الطفلتين اللعب فيها دون أن تخافا أو أن يخاف عليهما أبواهما.

تفيحه هامسة في أذن أختها: لا تنسَي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

اتفقنا جميعا على الديكور. لتعود القصة إلى مسارها في عالم ليس دوما بالقسوة التي تدّعي.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه-يدفع آدم محراثه يُخصّب الأرضَ السوداء ليحصد يوما ما زرعا، راضيا عن نفسه وعن سنابل القمح.

الأرض! الأم الحنون التي تعطي أطفالها لبَنها ممزوجا بالعسل، شريطة أن يتعهدوها بالعناية والحب... أمّ حنون! أحيانا... جلُّ الوقت زوجةُ أبٍ تُقايض القليل الذي تعطي بالأقصى من الدم والدمع والعرق... لكن لا علينا، ذلك موضوع الوجه الآخر من العالم.

ينحني آدم أمام الخبز الساخن الذي جادت به الأرض الأمّ شاكرا حامدا. يدخل إلى الإسطبل ببالغ البطء، يمسح بعطف على ظهر البقرة الوالدة يهنّئها، يشكرها ويعِدُها ألا يأكل أحدٌ لحمها ولا لحم مولودها.

وفي هذا العالم أو قُل طيلة حالته المباركة هذه تنقلب الصحراء إلى مروج خضراء.

إنها إحدى معجزات الخَلق والبراعمُ المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهُرا -وأحيانا سنينَ-رحمةَ الغيث فيمرح الأطفال بين الزهور والعشب، لأن هناك عشبا وزهورا في الصحراء، وليس فقط حَجرا ورَملا. ربما لم تَلعب صورة للعالم دَورا في تشكيل ذهن الكهل قدر صورة هذه البذور التي كان يزرعها الجَدّ وهي تقاوم كل قوى الموت متمسكة بآخر نزر من الحياة إلى لحظة الخلاص.

في العالم الآن، قُل طوال حالة هدوء عابرة، تتواصل الملحمة وقد جمع الحبّ كائنَين رقيقين يَمزجان روحهما وجسدهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعرُ كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالٍ كتمت سرّ الهوى — بالدجى لولا شموسُ الغُـرر (لسان الدين بن الخطيب)

مال نجم الكأس فيها وهوى — مستقيم السير سعد الأثر

وطرٌ ما فيه من عيب سوى — أنه مرّ كلمْحِ البصرِ

حين لذّ الأنسُ شيئاً أو كما — هجم الصبحُ هجوم الحرسِ

غارت الشهبُ بنا أو ربّما	أثّرت فينا عيون النرجس
ساحرُ المقلة معسولُ اللّمى	جال في النفس مجالَ النَّفَسِ
سدّد السهم وسمّى ورمى	ففؤادي نُهبة المفترسِ

وفي هذا العالم –بل قُل طوال حالته المباركة هذه–يتكوّر بطن حوّاء شيئا فشيئا فيتعلم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقات القلب وأذنُه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق. تأمره بإعداد القهوة لأنه يتبجح دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثمّ ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذاقتها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

تصل تفاحة وتفيحه إلى العالم وهو في حالته المباركة هذه لا يعرف غيرها، والوصولُ كلّ مرّة مثل حطِّ الفراش على عشب الصباح.

تفاحة: على ذكر الفِراش ذات صباح والشمس تطل من وراء سحاب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن، فلا بدّ من طبخ الكعكة في الفرن وأنا بحاجة إليكما. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت ‘‘ما’’: إذن خذا ‘‘با’’ معكما فهو سيزعجني إن بقي يتفرّج في إعدادي الكعكة وسيزعجني أكثر إن حاول إعانتي. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ، لا أريد أيا منكم بين رجليّ قبل أن أدعوكم إلى الحضور. آنذاك لا يتلكّأ أحد فالكعكة لا تؤكل إلا ساخنة.

تفيحه: ما هي إلا دقائق معدودة حتّى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن ‘‘با’’ رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذوَ الجدول الرقراق متّكئا على جذع شجرة يصرخ: لا تذهبا بعيدا وإلا فسنأكل الكعكة باردة وستحتجّ علينا ‘‘ما’’. "با"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

كان آدم لا يريد شيئا غير التمتّع بيوم من أيام هذا الجزء من العالم –أو قُل العالم في حالته المباركة هذه–وأن يتأمّل تفاحة وتفيحه تمرحان بين الأزهار.

كان ينظر إليهما قائلا لنفسه وهو يتثاءب بصوت عال: يا بَشرا، ذلك الوجهُ البشع للعالم، تصارعوا، تنافسوا، تصايحوا، تخانقوا، تقاتلوا، لكن رجاءً تبخّروا من وعيي ومن ذاكرتي، لا تفسدوا عليّ هذه اللحظات.

الخطأ الكبير تَوهّمنا أن هناك محطة للراحة سنضع فيها رحلنا نهائيا... والخطأ الأكبر عدم الانقضاض على ما يجود به العالم على طول الطريق من عطايا الآن وهنا.

همس تفاحة: "با"، سهوت والدور عليك. "با": ثم خرجت تفيحه من بين الأعشاب لتثب على آدم فقال لها: لا تجلسي على بطني، تقدمي قليلا إلى الأمام حتى أستطيع أن أقرصك وأدغدغك.

تفيحه: حذار وإلا دغدغتك أنا وتفاحة.

"با": لكن تفيحه لم تنتظر الردّ كعادتها فانطلقت راكضة، فقال في نفسه: لم يبق إلا التخلّص من تفاحة لمواصلة إغفاءة متقطّعة لا يزيد تقطعها إلا متعة. لكنه لم يحتج لأي حيلة وتفيحه تصرخ في أختها: هيا نتسابق ومَن تصل الأولى إلى تلك الشجرة هي الأولى في كل شيء. ذلك اليوم افتعلَت تفاحة التلكؤ لتترك تفيحه تصل الأولى الشجرة ثم ارتمت عليها تعابثها، لكن تفيحه كانت

مشغولة بالركض وراء فراشة بيضاء تصر على تقبيلها، لا تفهم أن الفراش لا يحبّذ كثيرا القُبَل. عند اكتشافها استحالة الأمر ها هي جاثية على ركبتيها تتأمّل كائنا لزجا بطيئا يستكشف هو الآخر أرض الله الواسعة.

" رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلزون " .

نعم ليتباطأ ركض هذا الزمان اللعين، لينتظم تنفسه هو الآخر، ليرتاح من التدفّق والسيلان.

ها هو آدم يترنّم لنفسه بكلمات أغنية تُعبّر أحسن تعبير عن تصالحه مع نفسه ومع العالم.

"أشجار تزهر

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

" What a wonderful world!

نعم، كم صدق أيضا ذلك الآدمي الآخر.

"ثمة شيء محبب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جئناه للموت"

في آخر المطاف هذا العالم ليس الممتحن الفظّ سيء النوايا، كل ما في الأمر أننا لا نريد القبول أنه للتعجّب والإعجاب لا للغزو والتملّك.

كم تشتكي وتقول إنّك معدم	*والأرض ملكُك والسّما والأنجم (إيليا أبو ماضي)*
هشّت لك الدّنيا فما لك واجمٌ	*وتبسّمت فعلام لا تتبسّم*
صور وآيات تفيض بشاشة	*حتّى كأنّ الله فيها يبسم*

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قَدّمْنا لحياة أعطَتنا مجانا اللمس والشم والسمع والذوق والبصر؟ ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا مجانا ليل الصحراء؟ ما الذي قدمنا لشعب أعطانا مجانا الحماية والزاد ورفاق الطريق؟ ما الذي قدّمنا لكل مَن أعطونا قصائدهم؟ رَبّاه اغفر لي نكران الجميل وتقبّل مني أحسن أفعالي على شدّة تواضع ما قدّمت.

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف: "با"، ارتفعَ شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعتُه لتفيحه. الآن أنت الذي ستَصنع لي إكليلا. هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال حتى في هذا الموضع من النص. هل من خيار آخر غير النهوض متثاقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعدّل من وضعها.

– هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.

فجأة تصرخ تفيحه وهي في قمة الجذل:

– المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أغنّي تحت المطر..."

– تغنّيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلتقط تفيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكلّ مشغول بالشمسية دفاعا عنها وافتكاكا.

تنتبه تفيحه للأوامر القادمة من بعيد.

–'' ما''، تنادينا. عجّلا.

تنتبه تفاحة لأمرٍ قد تترتّب عليه بعض العواقب المزعجة. ترفع إصبع التحذير:

– انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضر من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك'' ما''. لا داعي لتتفطن للأمر.

تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.

– سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.

الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أمّا وزوجة... حلفٌ لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.

حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه! كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. أمسك بتلابيبه كما تتمسّك تفاحة بتلابيبي عندما تريد شيئا عاجلا. دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابتسامته. ربحتُ هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُواء القطّ. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. مَن يعلم أحسن منه أن هذا الآدمي الممعن في وداعته، إنّما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجددا؟ على كل حال هذا عالم يفتعل كالآدمي البحثَ عن الاستقرار والتوازن، والحالُ أنه لا يخشى شيئا قدر وصولهما، ربما لأنه يعرف أن أكمل حالتهما ما تعرف المستنقعات والمقابر.

المهمّ أن تدوم الأُلفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الآدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الآدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا التخلّص منه.

نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجِه منعا صارما بدخول بيت نُظّف لتوّه ونحن بكل هذا البلل والوحل ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزمنة والأم الأزلية:

– لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم –وخاصة سيادة الأب–مسؤولية الزكام وما ينجرّ عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكرا على الباقة يا حبيبتي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئا بخصوص الأحذية. تُنزع كلُّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

– أَعِدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذيذة إذا بردت.

– الدلال مع ''با'' فقط، قلت: قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدّد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدّيَة الأمر واستحالة تجاهله. أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زَهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.

تحتجّ ضاحكة: كفى قُبَلا بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنّكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال!

وفي هذا العالم –بل قل: طوال حالته المباركة هذه–يعكف الطفل على كراس يضيؤُه نور المصباح. يهرش رأسه، يتثاءب ويغفو. ثم ينتبه فيعود إلى التمرين يتعلّم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثا عن الفعل الذي كان له البذرةَ الأولى. يسقط الكِتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتتقدم "ما" على أطراف الأصابع تحاذر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقلام ببالغ الرفق. تحمل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تمسح على شعره تُغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحبِّ واضعةً على جَسده النحيل كمًّا خانقا من الأغطية بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بالرشح.
تستعيد تفاحة زمام مبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.
– "با"، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلّمة، وأنت و"ما" وتفيحه التلاميذ.
– طيّب، إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تفيحه على يميني و"ما" على يساري.
تقف أمامنا تفاحة تلوّح بعصاها وعلى قسماتها علامات الأمر والنهي.
– سنبدأ الدرس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ ''با''، كفّ عن الضحك وكذلك التلميذة ''ما''. تفيحه، اكتبي في كراسك: ذهب قابيل إلى الغابة وعاد بباقة زهور إلى أمه.
تصرخ تفيحه: سيدتي، التلميذ ''با'' قرصني، قرصني، قرصني!
– بريء والله يا سيدتي بريء.
من يدري ربما أكون فعلا بريئا.
تحتجّ التلميذة ''ما'':
– أنا من قرص تفيحه؟ يا ولد يا كذّاب.
يشتعل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرّين من مساطر المعلّمين.
أصرخ آه يا أصابعي، فتأمرني تفاحة بالصمت ثم بقراءة أول صفحة من كتابها. تتبخّر الأحرف أو بالأحرى تصبح هيروغليفات لا أعرف لها نطقا. يتعثّر لساني لا أمثّل أو أفتعل. إنه رفضُ وَعيي الباطني التعرّف على الحروف، بل قُل الاعتراف بها حيث لا مكان للكتب والكتابة في عالم كهذا استعاد أخيرا عافيته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.
ينفد صبر'' سيدتي'' من تواصل قرص تفيحه ودغدغة أمها.
– تلميذ "با"، أنت تشوّش. قف ووَجهُك للحائط. معاقَب لنهاية الحصّة.
أقفُ أمام الحائط وقبعةٌ من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي لإثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيطان التي أوقفوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أقف فيه أمام الحائط أكفّر عن ذنب لم أرتكبه. هذه حالة خاصة جدا يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.
– تلميذ "با"، عد إلى مكانك ولا تقرص تفيحه مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فتنام.

تصرخ تفيحه: أنا المعلّمة. تثب على أختها تفتكّ منها العصا. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهمك تفاحة في قراءة النص الذي أُمرت بقراءته. تغتنم "ما" الفرصة للانسحاب وأغتنمها لدخول قوقعتي.
تقطع عليّ عودة الإغفاء معلومات متفرّقة عن نشوب شجار آخر بين سيدتي وتلميذتها المشاكسة، عن يد ترفض بقوّة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلّمة يستفزّها. لا شيء جدّي في هذه الخصومة فنحن في عالم لا نريد به ولا يريد بنا شرّا وإنما من الخير أقصاه.

في هذا العالم –بل قل طوال حالته المباركة هذه–يتصاعد صراخ الصبية من كل أرجاء المعمورة يَدفعون بعضَهم بشدة مفتعَلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبّون شيئا قدر شدّ شعر البنات. والله –يا سيدتي–لستُ أنا، لا بل أنت بشهادة الجميع. يكذبون علي، يا سيدتي. آه يا أذني. والآن كفّ عن الركض أصَبتني بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك. لكنها هي التي دفعتني، وأنت كفّي عن إخراج لسانك لأخيك ومزيد تهييجه، يكفي ما فيه من الهيجان.
أنا قلتُ لا أشرسَ من الآدميّ وهو طفل، لا أعنف من الآدميّ وهو طفل، لا أظلم من الآدميّ وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوبٌ في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات –خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية–والله تَقديمي كمعارضٍ بدائي للرضّع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليلُ أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بوُسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبولتا عليّ أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة –على الأقلّ هذه اللحظة–أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحِك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

وفي هذا العالم –أو قل طوال حالته المباركة هذه–يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صوره الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظِّم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذا. تبدأ المباراة بتصفيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغشّ. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

وفي هذا العالم –بل قل: طوال حالته المباركة هذه–يجلس آدم وقد هدّه تعب يوم حافل على باب الحوش مع تفاحة وتفيحه وأبناء الأعمام والأخوال والمروحة في أيديهم. إنّها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة، كم من مواضيع ستشدهم بالحديث إلى آخر هزيع من الليل وهم مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح. ووسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصِل العمات والخالات تبادل آخر قصص القرية ومَن تزوجَت ومن أنجبت ومن فطمت ويا لشقاوة الأطفال ونبوغهم المبكّر، أما الرجال فالله وكيلك، لكن "الله يخلّي لنا رجالنا".

كل الأفعال في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه-هادئة، سهلة، بسيطة بلا تكلفة أو رهان... بلا أهمية في عرف ذلك العالم الآخر الذي سنواصل التعفّف عن وصفه.

لا غرابة أن تكون القصص عن جيرانٍ وَصلوا مواعيدهم متأخرين... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطار الريح غسيلهن فجاءهن به الجيران... عن الزواج الذي تأخّر أكثر من مرّة لعدم توفّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أمرضتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلّم إرجاءه...

عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة ''الرامي'' إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان. عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

''الحياة اليومية (رانبو)

بأعمالها المتواضعة السهلة

مهمّة بامتياز

كم تتطلّب من الحبّ"

في عالمي -أو قل في حالته المباركة هذه-أمامك الكثير من الأماكن التي تستطيع فيها التقاط الأنفاس قبل مواصلة المشي.

تقول، اجعل على رأس القائمة السيرك. أَلفُ والعياذ بالله! مكان يضحك فيه الأطفال من مهرّج حزين وتُضطرّ فيه حيوانات أسيرة للقيام بحركات سخيفة مهينة خطرة عليها! كلّا ثم كلّا، لا مكان لمثل هذا المكان في العالم طوال حالته المباركة هذه.

نعم، لا وجود له في عالم تخلّص منه ومن ساحات المعارك، من السجون، من المحاكم، من المدارس، من القصر الرئاسي، من مجلس الشعب، من أكاديميات العسكر والبوليس، من إدارات الضرائب، من البورصة، من مراكز ترحيل الأجانب، من علب الستربتيز، من نوادي الملاكمة، من مواخير الأطفال ومن المجازر البلدية.

تقول، الملعب إذن. الملعب! رغم حديثي عنه سابقا بكيفية إيجابية فإنني أعتذر عن رفضي القاطع له كأفضل مكان في أفضل عالم. كيف يمكنني أن أنسى أنه الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... المكان المطوّق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم... المكان الذي تُشاهد فيه القطعانَ البشريةَ المرعوبةَ تهرول نحو باب الخروج فتتساقط الأجساد عفسا بالأقدام... المكان الذي تجمع فيه أنظمةُ الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب... الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة... الذي ينظمون فيه مسابقات الغرور... الذي يمشون فيه بخطى عسكرية حاملين أعلامهم... الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياءً يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالَما تظهر أعلام العوائل الأخرى... الذي تنتهي فيه كل الألعاب بهزيمة هذا وانتصار ذاك...

نعم سأضعه على القائمة وسأذهب إليه ومعي تفاحة وتفيحه يوم يعرضون فيه ألعابا تنتهي دوما بمنتصِر ومنتصِر.

السوق؟ بدأت مقترحاتك تَلقى صدًى في النفس. كيف لا وهو المكان الذي تتجمع فيه كل الألوان والروائح والأذواق التي نحبها للعالم... الذي يتقابل فيه الآدميون لتبادل أحسن ما عندهم منذ قديم الزمان... الذي لا صراع فيه إلا حول الأسعار... الذي لا أخرج منه إلا على أمل العودة إليه يوم السوق المقبل.

تقول، غيّرت رأيي: مسرح "الباليه". أليس المكان الذي نُخرج فيها اللسان لمن فرض علينا أجسادا للمرض والحرب والموت فجعلنا منها أدوات لاستكشاف الخفة والرشاقة والجمال؟ نحتفظ بهذه الفكرة.

تريد المرقص على رأس قائمتنا، لم لا؟ هل ثمة مكان أروع للرقص من فوهة البركان وهذا الوجه الذي نصف العالم ما قبل وما بعد الانفجار.

هنا تصرخ تفيحه أن القصة قصّتها وأنها لن تقبل إلا بمغازة لعب أطفال مركزا للعالم في حالته المباركة هذه. موافق. لنطلق داخله الصغار نضحك لانبهارهم أمام ما يزخر به من دببة ونمور وفيَلة من الصوف ودُمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواههم مفتوحة دهشةً وجشعا. كم تغفر لهم أنهم كانوا رضّعا وأنهم سيذهبون يوما إلى المدارس.

على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ السواء. ألم يصنع لنا الأمواج نسرجها ألواحا نمشي فوقها كالمسيح بلا عنت؟ ألم يخلق لها سطحا وأعماقا نسبح فيها كالدلافين نسابقهم ونبزّهم في القفز فوق تلاطم الزبد؟ ألم يشيّد لنا جبالا نتسابق مَن يَصِلها الأول ننزل منها تزحلقا على الجليد يدفعنا الريح والجذل.

ماذا لو أخذنا برأي حواء: حديقة عمومية تدفع فيها أم جميلة عربة رضيعها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار. لنضف إلى الصورة العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع إلى نصيبها من الحَب ومن الحُب.

تقول: لا تنسَ أن للرجال أيضا حقوقا. لنخصّص لهم مقهى صغيرا على الضفة الأخرى للبركة يسعدون فيه باحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهرُ مسنودٌ إلى جذع أرزة أملأ عيني من كل هذا الجمال الوديع، أتنفس ملء رئتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه.

هنا والآن لا مكان إلا لآدمي ينظر للآدمي الآخر بعين الرأفة والمودّة خارج التصنيفات المبتذلة والأحكام المعيارية القاسية.

" شاهدت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيام)

قد غطّ لنومه بلا إحساس

أصغيت له يقول في سكرته

الله لطيف بجميع الناس" .

أقولها وأتحمّل كامل مسؤولياتي: لا وجود لمكان يستأهل أن يكون مركزَ عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك الذي يعبق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف... المكان الذي تتوسطه ثلاجة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة ولّى إلى الأبد.

المطبخ؟ طبعا! المطبخ وما أدراك.

تُبدي تردّدا في الاعتراف بوجاهة خياري! بربّك أليس هو أولُ مختبر تمعّن فيه الآدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها ونتمعن في النتائج، تارة هي كوارث وتارة أخرى هي ألذّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، لكن مَن يجادل في كونه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلَتنا إلى الاستنساخ.

هنا لا يَفوت النصَّ تقديمَ بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطُررنا –مع بالغ الأسف–إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لما عَرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظّة مُعتبِرا زلّة لسان لا تُغتفر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا. بالغ الأسف أيضا على كل ما سُرق لها من بيض وما تعرّض له هذا الأخير من غلي في الماء الساخن وقلي في زيت أفظع سخونة.

كل هذا لا يمنع من القول إنه –من وجهة نظر الآدمي طبعا–كل الأفعال التي تمارَس في المطبخ حلالٌ لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأَخصُّ بالذكر منها أفعال أكل، تذوّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالمٍ عَبَره أغلبُ

المسافرين وفِعلُ جَاعَ أكثر الأفعال تصريفا. خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروص، بريك بالتن، طاجين جبن، بسيسة بزيت الزيتون والحلوى الشامية والمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بِربّك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الآدميةُ النهمةُ تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعكرونة بفواكه البحر والسوشي والكرّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيبوجن؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

مواصلةً في نفس النسق الذي قد يعتبره البعض استفزازا. ألا تفسر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟ أليس صحيحا أنه إذا مات المستهلك بالتسمم فإنه لا يتّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟ أخيرا لا آخرا، في الحالة المذكورة ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون تجرَّب بإصرار تقتل الناس وتصيبهم بالإسهال الحادّ ولا من مجال للتخلص منها ومن أصحابها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟

تصور في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف المتدينون والسياسيون كما يتصرف الطباخون.

على فكرة... كل هذا الكلام المعسول عن خروجنا لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثا عن الذات والله، تبرير نخفي وراءه أننا ما كنا نغادر حضن نسائنا لولا جشعنا للشاي والملح والقهوة والسكر واللبان والتوابل والفواكه النادرة، نبحث عنها وراء ألف محيط لا يهمنا للحصول عليها استعباد قارة أو حتى عالمٍ بأكمله.

أغتنم الفرصة هنا للتقدّم بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.

تقول، نسيتَ الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. مَن مَنعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسببَ في آلاف قتلاها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة. بجدّ من أعانك أكثر أوقات الشدّة؟ البقلاوة والمقروض والغريّبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفستق واللوز والبندق... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

وفي هذا العالم –أو قل طيلة حالته المباركة هذه–يفهم الآدميون أخيرا أنه لا حق ولا قدرة لأحد على تملك الأرض أو البحر أو السماء أو الغاب أو الحيوان أو البشر ولا حتى الجسد الذي يَسكنه... أن هذا العالم مأوى لكل الكائنات العابرة ولكل الأجيال المتتالية... أنه يسخر من كل من يدّعي تملكه، والانذارُ الموضوع على باب الدخول واضحٌ كل الوضوح: للاستعمال لا للتملّك.

ولأن وهمَ التملك ومنه تملك الحقيقة دون الآخرين تبخّرَ، تبخّرت معه أولى وأهم أسباب العنف عند الآدميين.

وفي هذا العالم –أو قل طوال حالته المباركة هذه–يخترع الجنود الإضراب عن القتل مغتنمين فرصة عيد الميلاد للخروج إلى العدوّ الغارق مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفئرانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصبّون سخطهم على أكلٍ لا أبشع منه إلا ضُباطهم

الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة فتنقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعادوا إنسانيتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضرباتُ البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى مَن هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعُها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمّرون عن سواعدهم لدفن مَن سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

وفي هذا العالم –أو قل طيلة حالته المباركة هذه في مستقبل لا نراه بعيدا–تواصل المذيعة الجميلةُ ذاتُ الشعر الأشيَب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خرير ماء السواقي ''من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علِمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفّونهم بكل ما يقدر عليه الآدميون من حب ومن عطف.
بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطفٍ غير مصطَنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصّي الموضوع صرّح لنا سُوّاق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرون وافترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رَفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمرّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان. ''

وفي هذا العالم –أو قل وهو في حالته المباركة–على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل خارجة لتوّها من ملعب لن نحمّله وزر بقية الملاعب وسنمتّعه هذه الليلة فقط بالعفو العامّ. تتدافع الجماهير بعد انتهاء مباراة لعبة يسمونها كرة القدم لتفجّر في الشوارع والساحات كل الفرح المطمور داخلها. الدافع سخيف! وهو كذلك. إنها عبقرية الآدميين في صنعهم كل هذا الفرح انطلاقا من حدث تافه يدركون تفاهته كما أدرك. إنها نفس العبقرية التي يظهرونها في توليد أعمق مشاعر التهيّب والتقديس من صور وطقوس ساذجة. لألحق بقية الركب أصرخ مع الصارخين. يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرَجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودتُ على وجودهم في الصورة بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهراواتهم الموجِعة.

بخصوص الاحتفالات التي لا تنتهي في العالم –أو قل وهو في حالته المباركة هذه–ثمة أيضا حفلٌ تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملوّنة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و''وضيع''. بداهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناسُ ترمي بعضها بعضا لا بالرصاص والغازات السامّة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسمّم حياة الآدميين وهم أخيرا سواسية صَبغت وجوهَهم وثيابَهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحُهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

الفرح! الحالة التي نخرج فيها للشارع وثبا ورقصا، تفجرت داخلنا طاقة جبّارة تَفجُّر بركانٍ طال خموده... الحالة التي يتعطّل فيها الكلام لينقلب صراخا عند الذكور وعند إناثنا زغاريد... الحالة التي تتوهّج فيها الروح وقد أصبحت شعلة من النار والنور... حالة هناء وهي تركل برجلها اليسرى كرة من المطاط راكضة وراءها تصرخ في قمة الجذل... أثمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... أَبلغُ صور الرؤيا لنجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة... نعم، الفرح هو اللحظة التي هي بِغِنًى عن كل الزمن الماضي وعن كل الزمن الآتي وقد اكتملت في اللحظة الراهنة تجربة الوجود.

ألا نجرّب أن كل ما زاد عن حدّه ولو كان الفرح يصيب بالقرف. هذا ما يقودني إلى الحديث عن أفضل الأماكن لديّ في هذا العالم أو قُل في حالته المباركة هذه. إنّه نادٍ اقتطعَه مراهقون داخل عاصفة الضجيج والصخب يُنزع فيه كل ما يشحذ الانتباهَ والفعلُ الوحيدُ المسموح به عدم الفعل. أخيرا يمكنني أن أضع رَحلي، أن استلقي على أريكة وثيرة.

لا أفكّر في شيء *(فرناندو بسّوا)*

وهذا الفراغ

لذيذ كنسيم ليل

بعد يوم قائظ الحرّ

وفي هذا العالم –أو قل طوال حالته المباركة–نهايةُ الحياة كبدايتها مجرّد انتقال من وضع إلى وضع.

يختار الشيخُ الموفورُ الصحةِ مَوقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع –كما فعل دوما–مرح قطعان السحاب. ينتبه إلى شبح شيخ منحنٍ على الأرض يعدّ بمسحاته القصيرة المعقوفة الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. يرفع الشبح رأسه يجيل حوله البصر انتباهَ لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبينا بَلّله العرق ثمّ يعود إلى مسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجع. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده مودّعا ثم يختفي.

تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع السماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم. يتضح مغزى الوصية التي حاول الطفل فكّ رموزها يوم كان واثقا أن سماء الليل سبورة الكون والنجومَ أحرفُ رسالة كَتبها له صديقه الله.

يُغمض الرجل عينيه وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكارٍ قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب.

تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء.

تصل الصلاة ذروة الجمال والجلال تتضرّع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: ''ابق معنا، ابق معنا'' كأنّ الصدى نفسه ينفخ بقوة في منديله هامسا: تطالبوني بالبقاء لا تعلمون أنني كنتُ دَوما معكم ''بين الضلوع تقلّبه الأنفاس جنبا إلى جنب.''

لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته العتمةَ والمطيةُ نغم.

على شاهدة قبر كل الذين رحلوا

لا أيأس من رحمة ربي (عمر الخيام)

مهما عظم الذنب وساءت حالي
إذا متُّ بيومي وبشرابي فغدا
يرعى بحنانه رميمي البالي

**

وقال لهم الصدى فاجئوني بما تضيفون للموجود، لم أبعثكم إلا لهذا.

لا يُقَرِّبُنا كلُّ ما جرى لحدّ الآن من فكّ لغزِ الهدفِ الذي خَرجَت من أجله الآدمية، إما مطرودة من بيت أبيها كما تدّعي الرواية السائدة أو بمحض إرادتها كما تقرّره روايتي لقصة القصص.

ما نحن متأكدون منه أن الآدمية مَشت ولا تزال تمشي على طول الطريق تُصارع كائناتٍ لها أنيابٌ وأظافرُ أطوَل من أنيابها وأظافرها وتتخاصم وتتقاتل فيما بينها بشراسة كادت تُفنيها، أن العالم ما انفكّ ينظّم لها استراحات تستعيد فيها أنفاسها ومعنوياتها حتى تُوَاصِل التمسّك بالوجود لإنجاز مهمة لا يعلم أهميتها إلا الصدى.

الليلة التي ما بعد الليلة التي...

– تفاحة وتفيحه انتبِها. بدأتُ أضيق ذرعا بهذه القصة. يجب أن نجد لها عقدة وأن نقرّر ما المهمة الخطيرة التي ستنجح العائلة في تحقيقها حتى ننهي ب"الهابي أند" ونمرّ لحكاية أخرى.

تتثاءب تفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة.

–" با" نجعل العائلة تبحث عن كنز وهذا الكنز موجود في غابة مليئة بالعفاريت، لكن تفيحه الشجاعة تهزم كللللللّ العفاريت وهي التي تجد الكنز.

مع كامل احترامي لتفيحه، العقدة ضعيفة. ألم يهربوا من جنة فيها كل الكنوز؟

اللعنة، ما الشيء الذي يستأهل أن نجعله هدف الرحلة؟

بعد تفكير مُضنٍ أخذَ مني سنوات عديدة، قرّ القرار. نعم، هذا ما خرجَت الآدمية من أجله وهذا ما جعل الصدى يُغامر بجنسٍ كهذا سَلّطه على كل مخلوقاته الحيّة، ومَن لم يعجبه خياري فما عليه إلا العودة لأساطيره البائسة أو لمؤرخيه "الموضوعيين"لينعم بمعرفة السبب "الحقيقي".

وفي أقدم الملفّات ذات الصلة بهاجس الهواجس تهمس الأم في أذن ابنها المراهق.

– بُنيّ إنك تصمّ آذانَ الجميع والجيرانُ يتذمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تَسمعُها ليلا نهارا؟ يا

– ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئني نصفَ عارٍ، منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان أقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا مَن يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.

– يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقّا بدأتُ أخشى أنك...

لوثة من الجنون؟ كلّا وإنما موجات متتابعة من الفرح الغامر والروحُ في وصال مع مستويات مجهولة من الموجود.

تخامر المراهقَ يوما فكرةٌ غريبة، الوحيدةُ التي نجحَت في إخراجه من الإدمان على نفس الأنغام الساحرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومَن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!

يتوجه المراهق لبائعة الأسطوانات:

– سيدتي، هل لك سمفونيات أخرى لبتهوفن؟

– آسفة لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي

– مَن؟ لا أريد إلا بتهوفن.

– انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيَت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.

تتّسع ابتسامة العجوز وهي تمدّ إليّ كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلّف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ.

– التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغنّي ليس بتهوفن.

تتجدّد المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى مَن يتوجّه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزءٌ من الشكر لامرأة رَحلت منذ زمن بعيد ورفضت إلى النهاية أن تُصدِّق أن صبيا بذلك العمر ومن أمّة أخرى يمكن أن يهيم حبّا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأه المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.

تمرّ السنوات ويمكن للمراهق وقد أصبح كهلا أن يحضر حفلا تُقدَّم فيه السمفونية الخالدة.

يومها تأجج الانتباه بالغا أقصى قدراته لتترسخ قناعة أنه لا شيء يبرّر وجود الآدمية ويغفر لها موبقاتها عدا قدرتها على إيجاد الموسيقى.

القاعة غارقة في صمت مَهيب والكل يحاذر من الكلام أو من السعال والعطس.

الآدميون جالسون جنبا لجنب وأيديهم خالية من كل سلاح.

كلهم انتباه، انتظار، تشوّق إلى شيء يعلمون أنه سيحرّك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجرّونه إلا نادرا.

أين تَرى تصرفات كهذه إلا في المعابد؟ ألسنا فعلا بصدد ممارسة طقس قدسي؟

تأمّل العازفين. هم خلافا للمثّلين لا يواصلون صراعات ما نسميه الواقع، لأنهم خرجوا منه وعليه.

تأمل تلك المرأة التي ستعزف على الناي. إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلة لم تَعد في هذا المكان منافسة. ستواصلان الانتباه كل واحدة لِما تفعله الأخرى وستتعاونان تعاونا وثيقا صامتا. لا وجود الآن وهنا لصراع نرجسيات. لا عازفَ ضرب أو سيضرب عازفا آخر لأنه يشوّش عليه ويسرق منه الأضواء. لا أحد خرج أو سيَخرج غاضبا بعد رمي آلته على الأرض لأنّه لم يأخذ حقّه من العزف. المهمة الآن وهنا موَزعة بكيفية مَرْضية لا تحتاج إلى قاضٍ أو محامٍ. هي مبنية على انضباطٍ حرّ، على ثقة متبادلة، على تظافر الجهود وكلُّ فرد يعلم أن نجاحه مرتبط بقدرته على التناغم مع كل الآخرين. كم هم مُدهشون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان! كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون! أين ومتى ترى شيئا كهذا في علاقات الآدميين ببعضهم بعضا؟

تأمّل الآن الآدمي الواقف مديرا ظهره للمستمعين وعصاه المرفوعة إلى الأعلى، ستَرسِم في الفضاء أوامره ونواهيه.

لا أحد سيصرخ أنه غير متفق على ما يأمر به. لن ينهض أحد ليَفتكّ عصاه بحجّة أنّه أصلحُ للقيادة. هو لا يستبدّ بقرار أو بأحد عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخرَ برفع الصوت ورابعا بخفضه. هو مُطاع لأنه يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده همُّه الوحيد مهمته الكبرى، إبرازُ المواهب والتنسيقُ بينها. إنه السيد الخادم الكفء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون نموذجَ كلِّ مَن يملك سلطةً هذا الآدميُ الذي تُنفَّذ أوامرُه ونواهيه وهو لا ينطق حرفا ولا يهدّد أحدا.

إن نظرتَ إلى طيف التنظم عند الآدميين تجد العصابة في طرف وفي الطرف الآخر الجوقة... أقصى الهمجية والفوضى، أقصى التحضّر والانضباط ووراء المعجزة الموسيقى.

فجأة يرتفع صخب يدشّن به العازفون كل حفل، ربما ليذكّروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكَرة عندما لا يَفرض عليها الآدميون الانضباط.

ثم يصمت النشاز لتتصاعد من آلاتٍ بالغة البساطة أنغامٌ لم ولن تفقد سحرَها أيا كان المكان والزمان.

عادة، نصيخ السمعَ للتأكّد من غياب خطر ما، والأصوات، أَصَدرَت من الكائنات أو من الأشياء، إنذارٌ، تهديدٌ أو طلبٌ. الآن وهنا، الأصوات المتصاعدة من الجوق لا تنذر بخطر، لا تهدّد بعقاب بل ولا تطلب شيئا وكلها قمّةُ البَذل.

تتلوّن الذات بألوان شَدوِ الأصوات والآلات، تتحرّك بنسقها، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى حيث لا يوجد إلا النور. انطلقي يا روحي إلى ما وراء الحواس، إلى ما وراء الرموز، إلى ما وراء أحلام النوم واليقظة، حلّقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترَفّعي، توهّجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق.

على أقصى طيف التجربة البشرية: صراخُ الرعب والألم المتصاعدُ من ساحات الحرب... على أقصى الطرف الآخر أنغام ساحرة تشفي أوجاع الروح والجسد من معابد الجمال والفنّ. مطلق الصراع والفشل هناك، قمّة التعاون والنجاح هنا.

هذه السمفونية، مَعلمُ ما بناه الآدمي لا من الحجر وإنما من الأصوات، بَلوَرَها من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور آخرون كاتدرائيات الحجَر من ممكن الصنع الذي تزخر به المادة الصماء. العمل الفني الآن على مستوى ما حققه الإبداع البشري في كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ ورباعيات الخيام ومعادلات ماكسويل. الفارق معدن الصنع، القاسم المشترك تَوق آدم إلى ما لا يستنفذه اسمٌ أو صفةٌ أو فعل. أي كائنات أخرى قادرة على شيء كهذا؟

يا للمهندس الألمعي الذي جَمع هذه الأصوات وفرض عليها النسق والنظام مستخرِجا من فوضاها شكلا، من تفرقها وحدة، من تنافرها تجانسا، من بلاهتها ذكاء، ومن قبحها، ما يزخر به العالم من جمال!

تقول غيرَ مقتنع، لكن ثمة بشرٌ يكرهون الموسيقى بل ويحرّمون سماعها. حتمية القانون القاضي بأنه لا يوجد شيء إلا وكان له نقيض. على العين والرأس قوانينك الرهيبة يا عالِم؛ أما بَشَرك هؤلاء فيا ليتهم ما وُجدوا.

تضيف لمواصلة حَشري في الزاوية حجّة أقوى: عقدتك لا تستقيم، ألم تكن الجنة تزخر بأرقى أنواع الموسيقى كما يُفترض أنها تزخر بكل الطيبات الأخرى؟

ردّي أنه لا وجود للموسيقى إلا في صلة بآلامنا وآمالنا، بفرحنا وبحزننا. هي لا تتفجّر إلا من ذاتٍ موجوعة جذلى تتقلب بين السعادة والشقاء، تعبّر عن الحالات التي تمرّ بها تارة بالألوان فيكون الرسم، وتارة بالكلمات فيكون الشعر، وتارة بالأصوات فتكون الموسيقى. يمكن للجنة أن توفّر كل شيء إلا الشعر والموسيقى وكلّ أنواع الفنّ وهي المكان الذي تحققت فيه كل حاجياتنا.

هذا المشاكس غير منتبه لأقوى الحجج على سذاجة الخيار: النشيد الوطني. أفظع ما تسمع من هذا النوع من الموسيقى ذلك الذي يصرخ فيه المهووسون: إلى السلاح، إلى السلاح، لنسقي أرضنا الطاهرة بدمائهم النجسة.

اللعنة، اللعنة، كيف أواصل روايتي وما الذي سأجعله إذن سببَ الخروج وبُغية البحث؟ مِن حسن حظي أنني الآدمي ابن الآدمي، القادرِ دوما على إنكار ما لا يتلاءم مع أفكاره المسبقة ومصالحه المشبوهة... ومِن حسن حظهم أنهم أخذوا مني السلطة وإلا لعرفوا أي عقاب أنزله بكل من لا يؤمن بما قررتُ –ولو مؤقتا–أنه الحقيقة والصواب.

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحِداد وأن الفرحَ عاد سيّدَ العالم، تَصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاحٌ لنجاح تجربته، راضٍ عن أدائنا وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية، انتهي الصراع بين الكلمة والنغمة تظافرت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها مِن قبلُ فكرٌ أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"تقدّموا (شلّر)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلها

تأتيكم من وراء القبة السماوية

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه... ابحثوا عنه" .

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني إني فيكم وفي كلّ مكان.

في روايتي لملحمة الآدميين لا تطيق حواء ككل أنثى فراقَ أهلها طويلا فتختلق الأعذار للعودة إلى بيت أبيها تجرّ إليه أولادها بفخر صامت ليباركهم الشيخ.

وفي روايتي هذه يتدافع الآدميون إلى مكان الموعد ليقولوا للصدى: حَققنا لك الهدف الذي أردته منّا. دفعنا في ذلك أغلى ثمن لكننا أنجزنا المهمة التي كلفتنا بها.

للعودة إليه، شَدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس، وشَدّ شعوبُ الإغريق إلى دلفت، وقبائلُ البريطانيين إلى ستونهانج–درنتون، وقبائلُ الأنكا إلى ماتشو بيتشو، وقبلهم جميعا شَدّت الرحالَ إليه قبائلُ لم يحفظ التاريخ اسمها لأماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق.

بحثا عنه اليوم، ثمة من الآدميين مَن يتدافعون نحو تلّ مربّع تائه وسط الصحاري الحمر، أو فوَهة بركان، أو جَبل يُدعى طايشان، أو بحيرة اسمها كايلاش، أو معبد على قمة اسمه بوبا أو أماكن اسمها شافين، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، كياف، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك... أو مكان يُدعى أم القرى هو الذي يشدّ الرحالَ إليه بنو قومي.

تتنهد ‘‘ما’’:

– كم أنا سعيدة أنّك ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوما.

لي فقط؟ كان الحجّ حُلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت البَوح به حياءً من أن يُعتبر طلبا وتكليفا.

كم ردّدتُ لنفسي سآخذها إلى الحج السنة المقبلة فأنا جِدُّ مشغولٍ هذه السنة. نعم، السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

– السنة المقبلة الدور عليك. هذه المرّة كلمة رجال.

– فات الأوان يا بني، فات الأوان.

– أي أوان هذا الذي فات؟

– نعم. يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهوّن عليّ والسرطان ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" الذي يختلج في صدري.

– هوّن عليك يا بنيّ... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك... لستَ مستعجلا، أليس كذلك؟

نعم، لستُ مستعجلا هذه المرة.

– قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تَعرفُ الإدارةَ وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

ربما عيّنوني للمهمّة لأتنسّك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.

– بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوما أسئلتي عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟

خجلان؟ بعض الشيء... قرفان بعض الشيء الآخر؟ أصف كل ما حدث أم أنافق أنا أيضا؟

مما بقي محفورا في الذاكرة أن السعي إلى مكان أهمّ المواعيد يبدأ بالوقوف ساعات مضنية في طابور تسوده الفوضى لتسجيل حقائب ملآنة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا.

تحشرني مضيفة الطائرة في مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها، ليواصل الشيطان –المكلّفُ بالسخرية من أحلامي– التنكيلَ بي، فالشيخ –وهو بالصدفة الجالس قرب النافذة–مُصاب بمرض البروستات ومضطرّ إلى الهرع للمرحاض كل ربع ساعة يسحقني ببطنه الضخم لا يكلّف نفسه الاعتذار أو حتى بسمة الحرج.

بعد ساعات قليلة تلفظني الطائرة المكتظة في مطار لأعاني فيه الأمرّين من الزحمة والفوضى وعنجهية صغار الموظّفين. يفتشني شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة. أُحشَر وسط التدافع الشرس داخل حافلة مكتظة تتوجه إلى أولى مدينتي الحج.

إغماض العينين. انفصال عن الصخب والحرّ والروائح. الفرار.

عميقا داخل فضاء خيالي تتداخل الأفكار وتتسارع الصور. أتحرّك المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى على ظهر ناقة بيضاء عُلّقت في عنقها الأجراس والتمائم، النوم بالنهار والسفر ليلا تحت القبّة المرصّعة بالنجوم. خُطاي في خُطى أجدادٍ كان حجّهم مغامرةَ العمر. عائد إلى وطني فهذا الطريق هو الذي أتى بهؤلاء الأجداد. رحلتي عودتهم إلى ديارهم والطريق كان أطول مما توقّعوا والزمن أقصر مما تمنوا... مدينة عريقة هي أولى المحطات قبل مكان الموعد... مارّة يتغامزون: درويش من بلاد المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق. هنا أركبوه البغل. عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح. هنا جلدوه ألف سوط وهو يردّد: أحد، أحد. هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى. هنا صلبوه. هنا انتظرَ –ودمه ينزف–إذَن الخليفة بضرب عنقه. هنا علّقوا رأسه. هنا حرقوا جسده. هنا تصاعدت روحه لتلتحق بروح الأرواح. عشية الرحيل معتكف في المسجد. ورائي ملثّم يهمس: يقول لك الشيخ هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم. نعم، صدَقَ "للنّاس حجّ ولي حجّ إلى سكني". محطّتي الثانية مدينة عريقة هي الأخرى. عشية الرحيل وأنا معتكف في المسجد يقف خلفي ملثم هامسا: يقول لك شيخنا هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم. ردّد لهم أن قلب الحكيم قابل بكل صورة له، أنه لا دين لمؤمن أين توجهت به ركائبه إلا الحبّ والإيمان. علمهم ما قصدت عندما أنشدت: عقد الناس في الإله وأنا اعتقدت كل ما اعتقدوا. أخيرا المكان المقدّس أين ضُرب لي الموعد. نهلت من النبع القدسي.

أتممت المهمة. لم يبق إلا للرجوع لأبشّر "ما" أن المنزّه عن كل صفة قبِل منّي إنسانيتي. قافلة الرجوع ستكون محملة بالهدايا لها ولكل البشر. ستكون محمّلة بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت وبعطور سقطرى. البحث عن قطّاع الطريق لإعطائهم مناهم مما تئن بحمله الإبل. على تخوم صحاري دوز سأطلق سراحها. أنا الآن داعية الشيخين أواصل جهادهما. أمامي السلاطين وفقهاء السلطان في صفوف متراصّة والشرر يتطاير من عيونهم. دمي مهدر أنا أيضا. الفرار! إلى أين والسلاطين والدهماء وفقهاء السلاطين في كل مكان.

فجأة يتوقّف الحلم اليقظان وأنا أسمع زعيق الفرامل وصراخ الرّكّاب:

– حقيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيّدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أَمرتُه بذلك وكنتُ في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أيُعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمتُ بها سنين هذه المهزلة؟ مَن هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت

غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلا على بشر أو إله. ثمة في داخلي من الغضب ما يكفي لأمسك بالحقيبة مديرا ظهري إلى الكل ومتجها نحو المطار.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلتُ من الحافلة متوجها إلى حقيبة لم تنفجر لحسن الحظ رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتُها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبةُ اللعينة تركض ورائي والقمر يحرّضها على نهش ساقي والقفز فوق كتفيّ.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدّق فيّ مطولا.

– يا بني المهمّ الوصول إلى بيت الله والعودة منه سالما وليس كيفية الذهاب والإياب.

– الطريق بالنسبة لأمثالي أهمّ من... لِنقُل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... آه يا أولى خطوات المغامرة المقدّسة والأخطارُ كامنةٌ في كل منعرج، متى تعودين... متى تعودين؟

*

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشّر لأقصَر الطرق المؤدية إليه. ومما رويتُه للمحتضرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حال وصول "المنوّرة" آخر ساعات الليل رميتُ بالحقيبة اللعينة على فراش النزل، أنني هرعت إلى المسجد أترنّح من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرُهم.

زحمة مخيفة. تَدافُع فظّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان. حملني تيار الأمواج الآدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون. فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط!

لكن هل يساس هذا الجنس اللعين بغير السوط، تلوّح به في وجوههم وتشوي به أجسادهم كلما تجاوزوا حدّا لا يحبون شيئا قدر حب تجاوزه؟ لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط يسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في شتى أصقاع الأرض قبابا وزوايا يضعون داخلها ما سرقوا وأن لصوصا سيسرقون ما سرقوا، ومزيفين سيزيّفون ما فاتهم من غنيمة. مَن يتذكر اليوم في بلدان الغرب العلماني رواج تجارة العظام المزيفة والمسامير المزيفة لصليب المسيح وكلَّ الآثار التي كانت حيازتها جزءا هاما من سلطة الدنيا؟ مَن يتذكّر أن مدينة باري بَنت مجدها طوال النهضة على الحج لرؤية رميم القديس نقولا... أو أن هذا الرميم سُرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها وأن أهل البندقية سرقوا السرّاق ليزينوا به كاتدرائيتهم وأن كل المسروق كان مزيفا؟

نعم ربما ثمة ضرورة السوط للوقوف في وجه جشع لا يشبع.

بقية الأحداث. حاذرت لأبقى بعيدا عنه لأقترب ما أمكن من مثوى الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي مَن تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعة.

يصرخ فيّ أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالَك؟ لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة. هنا يرقد من سيتسمّى باسمه الملايين عبر العصور... الإنسان الذي ستعبر كلماته الصحاري والجبال والبحار والغابات، يتردد صداها من جيل إلى جيل... الإنسان الذي طلع على الآدميين وأتاهم بالخبر اليقين، الإنسان الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعَنا وطنا اسمه لغة الضاد.

وَقيل كل نبي عند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستلم (أحمد شوقي)

خَططتَ للدين والدنيا علومهما يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم

أَحطتَ بينهما بالسر وَانكشَفت لك الخَزائن من علم ومن حِكم

أجيل البصر مطولا بين مثواه الأخير ومثوى الصدّيق الراقد جنبه.

التالي الثاني المحمود شيمته　　　وأول الناس طرا صدّق الرسلا (حسان بن ثابت)

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد　　　طاف العدو به إذ صعد الجبل

خير البرية أتقاها وأرأمها　　　بعد النبي وأدناها بما حملا

وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء... المنارة "ومن في البرية كالفاروق معدلة".

يا لهؤلاء الموتى، يعلّمون الحشود وهم صامتون، يحرّكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.

– عد إليّ... كيف كانت الساعات الأولى؟

– تواصلَت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساحر المجهول أنني عوقبتُ بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي. قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان أنني انهمكتُ في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيتُ قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرتَّل في الأثناء. كان حقّا موقفا محرجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهمّه أمري!

تتّسع ربع ابتسامة ''ما''.

– لا تقل إنّك لم تجد مَخرجا وبراعتُك في دخول الورطات براعتُك في الخروج منها.

– مَن استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيّدي محرز" وبقية الأسياد والسيدات... بركتك أنت؟ المهمّ أن ربّنا ستربي ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلٍّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرّض يكسو الشيبُ شعره. علمتُ أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. تنحنحتُ بوقار ثمّ توجّهت إلى مساعديّ قائلا: مِن شيمنا تبجيل أكبرنا سنّا، فليتقدّم فلان يؤمّ بنا هو الصلاة، لا فضل لطبيب على ممرّض إلّا بالتقوى.

لا تقوى "ما" على التماسك فتنفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

– يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

– إنها غلطة'' با'' لَمّا فرض عليّ الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلّا ما جرّني إليها بالقوّة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأُخرج له لساني. كان يتمتم بالآيات وأتمتم بالمحفوظات. اختبار قوةٍ آخرَ بين طاغية يأمر وينهَى، لا يكلّف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولَمّا ابتلعَه المجهول من جديد فسختُ كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

على فكرة، أتتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتّى ملفّات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسمٍ كان يَدّعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.

– يا بني حرام عليك. أبوك صلّى الخَمس في أوقاتها منذ رجوعه.

– شريطة أن يوجد أحد يصلّي أمامه، بل قُولي: يمثّل أمامه ولو كان القطّ.

– يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.

لم يكن لي طوال الرحلة غيره خصما ومنافسا... كلُّ من لعبوا الدور لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة. يوم خيّل لي أنني انتصرتُ عليه بالضربة القاضية اكتشفتُ أنني لم أركض إلا وراء الأهداف التي حدّدها هو ولم أحقّق إلا مطامحه هو.

من النبرة والقسمات، الأمر ليس الكفّ عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته.

حتّى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الآدميين، مهما عرفتهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت. من كانت حقا "ما"؟ من أنتِ يا ''تفاحة"؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنتِ التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنتُ أضمّ بين ذراعي؟ من أنتَ أيها الرجل الذي تَقدمت إلي دوما تحت اسم "با"؟

لا أَحَبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

– تظنين أنني أغتاب مَن هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما: كن أسدا وكُلني؟

– واصل، لا أريدك أن تسكت.

–كيف! ألا تعرفين القصة... لَمّا وصل "أين في الناس" الأراضي المقدسة...

– يا ولد...

– عفوا لما وصل زوجُك الأراضي المقدّسة.

– يا ولد!

– عفوا لما وصل زوجك وأبو أولادك الآخرين...

– يا ولد!!

– طيّب يا لَلَّة، لما وصل ''با'' الأراضي المقدّسة ونقلا عن الذين رافقوه أنه نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك –هو الذي لم تَحمِل أمّه غيره– برعاع القارّات الخمس مدّعيا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تَذكُرين كم مرّة أتى إلى البيت معلِنا أنه دخل النزع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة، وإن كان أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ربع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.

– آه يا بنيّ مِن أمراض أبيك!

– ما أحلى تلك الأيام. كأني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم. كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لَزِمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمتّعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مَرضكِ مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

– سرحتَ مجدّدا، فيم تفكّر؟

– في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن موعدا مع الذات في غرفة الحمام تواجهها مطولا أمام المرآة جدّ كاف؟

تتنهد "ما":

– لَم تَتغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنتَ المخطئ وهو المصيب.

– آه، تدافعين عنه! اعترفي أنكِ كنت دوما تحبّين هذا الرجل وما تزالين.

– هو أيضا كان يحبّك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

– وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلّف إلا الرماد... النار لا تخلّف إلا الرماد.
– وأيضا كان يردّد لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.
– بِجدّ... أَم الجُملة من اختراعكِ؟
– يا بني، لو تعرف كم كنتَ وأَخالُك لا زلت ظالما لوالدك!
مؤكّد أن الرجل ظُلم بقدر ما ظَلم ولربما أكثر... ظلمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل –كما هو الحال دوما مع الآدميين–لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم... ظلمه أيضا ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات. إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟ ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف كثيرا عند الآباء والأمهات وأنه نفسُ الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدورَ الأجمل هو نتيجة استئثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوّق مَكرهنّ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامّة. هل نجاحهنّ في تسويق صورتهنّ على حساب الذكور المغفّلين أكبرُ عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية ؟!
كرجل وكأب، وتحمّلا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لَحِقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، أما عيد الآباء فسنجعله –نكاية في الحركات النسوية–يأخذ ثلاثة أيام كاملة وخالصة الأجر، وبما أنه لا بدّ له من تاريخ فإنني أنصح باعتماد عيد ميلادي.
المرأة التي تحتضر الآن طفلة تخاف أن يَحرمها هجوم النوم من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.
– أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالةً ولا تنس حادثة.
كيف لا أتوقف طويلا عند هذا المقطع من قصة الآدمية وهو عن لحظة مفصلية في تجربتها وفي تجربة كل آدمي.
من أين لي الكلمات لأصف ما لا يَفي بحقه أو يستنفذه وصف؟
أقوام آتية من كل آفاق الفضاء الحسّي بإناثها وذكورها، بشيبها وشبابها، بأقزامها وعمالقتها، بمرضاها وأسويائها. تكاد تشعر بكثافة حضور كل من تدافعوا في هذه الساحة طوال القرون الغابرة. ربما يوجد بيننا أشباح لحُجاج من المستقبل السحيق استعجلوا الحضور لا صبر لهم على طول الفراق. التأم الشمل مُنهيا ولو للحظة حالة التشتّت والتشرذم التي عانت منها عائلة ممزقة تاهَ أفرادها عن بعضهم البعض في عالم الانبهار والرعب.
يظنون أنه له موعد مع الله داخل بيته والحال أن بيته في كل مكان، في كل شيء وفي كل كائن.
فإن رمت شرقا أنت للشرق شرقه　　　وإن رمت غربا أنت نصب عيان　　　(الحلاج)
وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه　　　وإن رمت تحتا أنت كل مكان
وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه　　　وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان
ما الذي أتى بهم إذن ؟
همس "ما":

– عد إليّ ...حدّثني... حدّثني عنها.

– أبصرتها من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ. مشهد ليس كمثله في عالم الآدميين. مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء للملايين وعليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفأ مكعب أسود، بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسّر على حاجزه وإنما تحاصره وتدور حوله لا تتوقف لحظة.

إنّه طواف الآدمي حول بيت ربّه الآن طواف الكواكب حول الشمس طواف القمر حول الأرض، طواف الشوارد حول نواة الذرّة، طواف الأحياء حول الموت وطواف الأموات حول الحياة، الحركة الدائرية التي هي أساس كل شكل هندسي كاملٍ مكتف بذاته. مَن المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

– سهوت مرة أخرى يا بني؟

هل أحدثها عن الوجه الآخر للحجّ؟ عن الذين جاؤوا لصفقة مع الآخرة دون أن يغفلوا لحظة عن صفقات الدنيا.

–كانت حياتي طوال هذا الحجّ الميمون صراعا يوميا مع الممرضين والأطباء وهم لا يفهمون لماذا أَغضبُ من تغيّبهم عن المستوصف أو أرفض لهم سيارة الإسعاف للتسوّق. كان الحج بالنسبة إلى أغلبهم سياحة تجارية تحت ستار تأدية واجب ديني لم أرَ منه إلا طقوسا قشورية كالتي عرفتها لهم دوما.

– آه يا بُني من شدتكَ على الناس!

شدّتي على الناس؟ هل أنا من قال فيهم:

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا (المعري)
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون عن غّي لمن سجدوا
والعدم أروح مما في عوالمهم وهو التكلّف إن هبوا وإن هجدوا

ثمة ما هو أخطر: تحوّل أنغام الجوقة إلى صراخ كائنات عادت إلى التوحشّ.

هذا عالم تناظري لا تكتشف فيه مُطلق الروعة إلا وداهمك بنصفه المكوّن الآخر: مطلق الفظاعة.

ها أنا لأول مرة في حياتي أتحرّك بأقدام غيري وعضلاتُ صَدري تدفع الأجسام الضاغطة بحثا عن النفس. أنا الآن في خضمّ جحافل تتدافع نحو ساحة الطقس الإجباري وهي كأمواجِ أَودية جافة انقلبت في لحظةٍ أنهارا جارفة من الماء والطمي. تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقي اليسرى معه إلى جاوا. كيف هو يوم الحشر إذن؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبّ الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟

يبدأ الطفل في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيذ منه "ما" طول الوقت. أما المراهق النائم بعين واحدة، فهو على مزاج آخر ورأي جِدّ مختلف. كيف لا يتعاطف هذا المتعطش إلى العدل والمنطق مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولِب، كما طولب آدم، وكما نطالَب دوما، بالشيء وبعكسه، وكأنّ بممتحِننا نيّة مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. فلو عصى أمرَ الله بالسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر. لو أطاع لسجد لغير الله فكان الذنب أعظم؟ ثم تحميله هو مسؤولية الشرّ! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخيرَ لهم حقّا لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لِما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لَمَا أغواهم غاوٍ.

تتدافع أفكار المراهق الساخر تتوّجه للكهل المحرَج: كفّ عن رمي هذا البريء وإن أردتَ الرمي فصوّب حجارتك إلى هؤلاء المجانين وإلى صدرك أنت بالذات. أليس إبليس كبشَ فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على فشلها، ثم بربّك هل ثمة شيطان غيرُ الآدمي. نسيت أنّ مَن تلعنُ أوّلُ معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لستُ أداة أو بوقا؟ أليس هو جدُّك الأكبر وجدّ كل الثوار على مرّ العصور؟

"رباه لو أن في طول انتظار غد — جدوى لما أسمعتك الريح شكوانا (السياب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا — طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا

النار أشهى فهاتِ النارَ تصهرنا — يوم الحساب ومتّعنا بدنيانا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها — إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا — فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ إنه الوسواس الخنّاس... هذا ما علّمني سيّدي الشيخ وما كتبتُه على لوحي في الكتّاب... ثم لماذا تلعنه ''ما'' لو كان بريئا؟

يرفض المراهق الجدل، على أتمّ قناعة أنه المصيب. لكن ما رأي الكهل؟ ما زال مبهما في هذا الموضع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها. كم هي معقّدة هندسَتها وبداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي. كم سيكون صعبا مواجهةُ الآدميين بالحقيقة المفرحة المفزعة. أيها الناس لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعتم فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجذّر فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثه عنف أو إفساد... أيها الناس لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعتم فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجذّر فيكم، أزلي، متجدد لا يصلحه فنّ أو علم أو دين.

ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف من أن تمسك أيادي فضّة بأطرافي، ترفعني في الهواء لاعنة ساخطة باصقة ليرتطم جسدي بالعمود الحجري الذي تصوّب إليه كل الضربات. لا يبقى عليّ سوى إطلاق أحدّ صراخ لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأننا لسنا هنا لشتم أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات. لا يلتفت إلى حماسي وصراخي أحد وكلٌّ مشغولٌ بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وأولوية الأولويات الآن الخروج حيّا من هذه الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرافي. وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للآدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت ''مكياج'' اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتّى إن لم تكن أنثي يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين للعجوز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأً.

مجرّد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة، آنذاك ترى لهم عيونا متجهّمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدّة للمشي فوق خدّك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

تنهار المرأة البدينة أمامي مغشيّا عليها بين أقدام، بل قل حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابط أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يئنّ بثقل الحشود المتسلقة جسده. وهو يختنق ويسحق ويمحق ويتفكّك؟ تُرى ما الذي شعرَت به وهي سجينة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع

التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟ ترنّ صرخة استغاثة إلى اليوم في أذني، والضحية تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوّح بالوداع لعالم غير مكترث. من أين للّغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

اللعنة، كانت مريضة في عهدتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجتُ منها لا أدري بأي أعجوبة حيا بل وبكل مكوناتي عدا النظارات.

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك، هذا إفطاري وكلّكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.

– هوّن عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذّب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت المسكينة.

تنظر إليّ مطوّلا وفي عينيها مرح خفيف. ها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

– ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

– نعم لثمته ثمّ... دخلت... البيت وصليت بين جدرانه.

تنتصب تفاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

– "با"، ماذا قالت جدّتي لما بحت لها بالسرّ.

– لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بَخَلَ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذات صباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. يفتح الرجل الهامّ بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين. مجددا بباب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّدا بنفس بالجدران الآدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد لا تصدّقه عيناي: دهشتك وأنت تدخل بيتك أفرغه اللصوص من كل أثاث.

الساحة مترامية الأطراف التي لا تفرغ أبدا... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

– ما الخبر؟

– يومُ غَسل الكعبة. الملك بنفسه من يقوم بالعملية. يُفرَغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرتُ أمري لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكّد من الهويّة والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

– عجّلا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفلُ-المراهقُ-الكهلُ فمه لا يكاد يصدّق ما يعيش. في أماكن الآدميين الأخرى، يعبّرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزلّفهم إليه بتشييد أعلى وأعقد المباني، بحشوها بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الإفراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب.

إلا هنا. لا شيء على أحجار الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء ولا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرّد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أَبلغُ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره؟

تنهار فجأة كل الحواجز.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الغناء، على الضحك، على الصداقة، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا. الحمد لك والشكر على هديّتي الحياة والموت.

فعل الأفعال؟ طبعا عبدٌ، صلّى، قدّس، تبتّل.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجرا: الحمد على الجراد، الحمد على القمل، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيبّ حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تَطلبُ منه شيئا!

خاصية قارّة في الآدميين. تَراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خارج الذات قوةٌ مُحبّة تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم تشمّتت دوما في كل المتسولين وهُم يعودون من حصص الاستجداء بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، وكم حسبت نفسي من غير طينتهم. أواصل افتعال التعفّف. متى تكفّفت بشرا أو إلها؟ إنما أنفتي أمام البشر وحيائي أمام الله.

يواصل الطفل صراخه وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إنني يائس إنني بائس، إنني تائه، دلّيني على الطريق.

يَعبق الفضاء باختلاجةِ امتعاض فيها من المداعبة أكثرُ مما فيها من السخرية، من العتاب أكثر مما فيها من التقريع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجديني!

يَرفع الحاجب من نبرة همسه الصارخ: أسرعا، وصل جلالة الملك، يا الله برّة، برّة.

إنه ‘‘هو‘‘ لا غيره، الذي يطردني من حضرته وعليّ القبول بأنني أستأهل الطرد.

معذرة يا مَن أعطى فلم يَبخل، يا من وهب فلم يمَنّ، يا من تَكرم فلم يتبجّح، يا من أغدق عطاياه لا يهمّه نكران أو عرفان.

كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدى بسماجة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لنَعبره سادة لا متسوّلين.

*

تستحثّني ''ما'' كما كانت تفعل تفاحة وتفيحه لمواصلة القصة، لا تتحمل مِثلَهما أن أتوقف وقد شرد مني البصر بعيدا.

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد. تتفكك اللحمة. تتفرق الأجزاء ليركض كل واحد في اتجاه. تتحرّك الشرطة بحثا عمن تخلفوا عن المغادرة لا يفهمون أن المكان نقطة عبور فقط وإلا أفرغتها العادة من كل سحر.

طبعا هم تدافعوا لهذا المكان كما يفعلون في أماكنهم المقدسة الأخرى حجا لذواتهم وشوقا للذوات الأخرى وقد شدهم الحنين إلى الأيام الخوالي حين كانت العائلة بضعة أفراد لا يغيبون عن أنظار بعضهم البعض طويلا.

– كادت طائرة الرجوع ألّا تقلع بنا لمشاكل الحمولة. ألم أقل لك إن المساكين اغتنموا فرصة الحجّ للتسوّق وفرصة التسوّق للحج. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كانت سَنة أجهزة الفيديو خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة.

– أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.

– أنا! أنا ابن'' أين في الناس'' هرّبت فيديو! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجتُ من المطار أزفر من الغيظ لا فقط لأنني دفعتُ الرسوم والغرامة ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع! من أين سمعتِ هذه الافتراءات الجديدة عليّ؟

– نسيتَ أنك جئتني بالفيديو مع اللبان والمسبحة وماء زمزم؟

– تقصدين أن شخصا يشبهني انتحل هويتي وجاءك بالشيء للتجسّس عليك وعليّ.

– ويعلم ما أحبّ الأفلام إليّ، فأتاني بشريط ''الرسالة'' لندشّن الجهاز العجيب.

– الحمد لله، اعترفتُ أخيرا وبعظم اللسان أنه كان فيديو ثقافي وليس كالذي يأتي به الآخرون لمشاهدة الأفلام الركيكة.

قد لا نجرّب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو نحن نقهقه، أَسدَلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تُسلّط عليّ ''ما'' نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.

– لستَ بحاجة إلى أن أوصيك بالناس أو بإخوتك، لكن... عِدني أن تُصالح والدَك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمٌ بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقَتها عقودا وَضعَت أخيرا أوزارها.

– اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصًا أثقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

ليكن في علم كل من يهمّه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام يوقّع عليها "با" باسم كل الآباء الطغاة وأنا باسم كل الأبناء المتمرّدين، تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوفيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثّر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن الممرضين والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

لم أكن أعلم يومها أني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي سميته دوما ''أين في الناس''، أن دمعة حارقة ستسيل على خدٍّ سَكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب. أن كل روحي ستصرخ فيه: لماذا لا تثب على رجليك صارخا

كعادتك: اغربوا عن وجهي، تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب! كم سيُخيّب الرجل ظني أنا الذي آمنتُ دوما أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجرّده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوِم ولا ينتصر.

كانوا يظنونني أسخر منه وأنا أقصد كل كلمة. أَيْ والله، أين في الناس أب مثل أبي!

تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدر ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن مَن يعلم أنها تراني لآخر مرة.

– أتَعرف لماذا قُدّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

– الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير شغلي لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذتُه عنك.

– هل كان يريد منك شيئا آخر؟ اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخشَ أحدا ما دُمتَ في خدمته وخدمة عباده.

يا لضربة الحظ التي وضعَت تحت ذمّتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه. من أين لي أن أنسى آخر نصائح ''ما'' يوم دخلت المستشفى: إياك أن تجرح كائنا، انتبه لرقة الناس وهشاشتهم، خاصة من يبدون لك أقوياء، هم أهشّ الناس قاطبة. لا تحقد ولا تنتقم؛ لا كفرَ في هذا العالم إلا الحقدُ والانتقامُ.

ها هي ترحل قائلة: ''هو'' راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح "ما" عينيها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها.

من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختُها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يتوقّف بَصرها على وجهَين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تُلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلُها الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لذاتها وإنّما تدعو فيها للباقين على قيد الحياة. ترفع الأمّ الأزلية ببطء وصعوبة يدَها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين. قبلة على يد لن ترتفع لتعمل وتبارك. شكرا على كل شيء. تنطفئ الشمعة التي احترقت من طول إضاءتها لطريق الآخرين.

"نفد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

كلّا لم يمسح الموت من شفتَي ''ما'' ابتسامة بوذا وموناليزا، بل كأنه زادها تألّقا ونورا.

كانت حياتها صراعا لم يتوقف لحظة، مع كمّ هائل من المحن تتابعت على طول الطريق، كأنها تمتحن فيها جدارتها بتجربة الحياة. أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الرمزي طقوس فرائض الحج الأكبر. تتلقى "الباتشاماما" رفات "الماما" والداخل للأحضان المفتوحة دوما سماد الحصاد المقبل. هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

ولو حفروا في درّة ما رضيتها لجسمكَ، إبقاء عليه من الدفن (المعري)

ولو أودعوكَ الجوّ خِفنا مَصيفَهُ وَمَشْتَاهُ، وازداد الضّنينُ مِن الضَّنِّ

فيا قبر واهٍ من ترابك، ليّنا عليه وآه من جنادلك الخشن

آخر حفنة من الثرى ثمّ صوتُ المرتّل: اللّهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتُردّد كل روحي: آمين.

حولي كلّهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنّا لله! ... وإنا إليه راجعون!

مَن إنّا هذا؟ ... هذا الذي هو من الله... والذي إليه يرجع؟

**

الكتاب السادس: البحث عن الذات

جبتُ مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد مسقط رأسي
ولا وجدت من يعرفني ولا يسمع بي وسأبقى غريبا
حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني.
جبران خليل جبران

الذات سطح اسمه الأنا دون سواه،

وأعماق اسمها نحن–جميعا،

وأرضية حاملة للمحيط هي الحياة بتمامها وكمالها!

من أين لنا القدرة على برمجة أبسط ذات

إن كانت بمثل هذا العمق وهذا التعقيد؟

ومع هذا...

المعلّق

مقدمة الكتاب السادس

تَلفظني أروقة قطار الأنفاق نحو الهواء الطَّلق. أخيرا الشارع الرئيسي للمدينة التي سأقضي فيها سنواتٍ أخرى من النفي، وقد قبِل الذي منه كل نقمة أن أخرج من البلاد، أتركها له ولزبانيته يعيثون فيها فسادا وظلما.

على طوله مظاهرُ الزينة، أجملُها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار. يحتفلون بقدومي؟ لا يا عبيط إنه عيد الميلاد.

على الرصيف المكتظّ السُوّاح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهروا الخَدَم بمكرماتهم الخيالية.

فجأة ألتفتُ خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجتُ أو قُل طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرَ أُلصق بَيني وظِلّي يتنفّس في عنقي.

لم أشعر كم أنا غريب إلا بين ذوي القربى. ولم أحسّ كم أنا مَنفيٌّ إلا داخل حدود بلدي. ليحلموا به هم وليُغنّوا: "سنرجع يوما إلى حيّنا". ليكتبوا الأشعار عن مفاتيح بيوتهم التي تركوها في الأندلس وليحرقهم الشوق والحنين إليها. أما أنا فوطني العالمُ كلّه لا مُجرّد قطعةٍ منه. كل مَن حَولي الآن مواطنيّ وهذه المدينة وطني وهي مَلاذُ كل الغرباء الذين استجاروا بها، سواء جاؤوها من أقرب الأرياف أو من أبعد الغابات والصحاري، سواءً وصلوها قبل ألف سنة أم البارحة مِثلي.

ورائي قَوس النصر. على مَن؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزّار الكبير الذي رَفعه، لكن مَن يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعا ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرَت رجوعَه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عَرفت أكثر حروب الآدميين وحشية وغباءً، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أَخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثّل كلَّ الذين التهمَتهم الحربُ ولم يَحفظ لهم التاريخ مأثرة أو اسما. يا لها من جائزة أحرزَها ولا عِلم له بالشرف الأثيل! أيّ قارئة فنجان كانت تتجرّأ لتقول لأمّ المولود الجديد إنه سيعيش نكِرة وسيموت أبشع مَيتة، لكنه سيصبح من المشاهير حتى ولو أنه سيظل نكِرة يقف ملايينُ الصغار والكبار إجلالا أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

ربما هو المحظوظ وقد ذهبَت جلّ قصص سكان هذه المدينة مع الريح.

يصل الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كمّ هائل من أفظع قصص الآدميين.

ثمة مَن حَسبوا كم من رأس بالضبط سَقطَ في هذه الساحة وتوَصلوا لرقم 1119 منهم مَن كان برتبة ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملِكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان المناسب!

يوم يتوقف بنا الطريق، سيبقى العالم يعجّ بأماكن لم نصل إليها، بكائنات لم نعرفها، بقصص لم نسمعها، بأسرار لم نكشفها. وهذه المدينة غيرُ عابئة بدخولنا أو بخروجنا هي صورةٌ مصغّرة منه.

انتباهٌ لاختلاجةٍ، امتعاضٌ هنا وعلامات نفاد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق في مدينة عمرها أكثر من ألفي سنة وهي دوما الغادة الرشيقة التي تتوقف لحظة عن الركض.

ليسرعوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصَبٌّ على أشباح نساء ورجال حُلقت رؤوسُهم وأيديهُم مقيّدَة إلى الخلف كُدّسوا فوق عربات مجرورة بالخيل والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أدرتُ لها ظهري هي وقوسَ النصر. أريد نسيانهما معا. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوسٍ على وَشَك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصيصا لتلقفها؟ هل تكون هذه

المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل ؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولَد ملكة، وفي غير الزمان المناسب. لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحَت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجائز والعذارى؟

كيف الإفلات من صُراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهّمة تقع على بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتَبِعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميرا ووليّ عهد ملِكٍ على وَشَك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حِكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يحصى، لا يتذكّر ولا يعبأ بكل ما عرف من المآسي. مأساة لا أهمية إلا لها بالنسبة للذات التي عاشَتها. في هاتين الخاصيتين المتناقضتين جوهر قصة كل آدمي.

مدفوعا بعادة تأصلت على مرّ السنين، والمخبرون ورائي في كل خطوة يحصون أنفاسي، ألتفتُ خلفي مرّة أخرى. لكن هذه مدينة بسطت عليّ حمايتَها يسَعني أن أمشي فيها بأمان.

على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهرٍ هو منذ نشأتها شريان يضخّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة.

وراء الواجهات المنمقة لهذه المدينة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسّس والدعارة والجريمة. هي ككل تجمعات البشر غاب وأغلب مَن فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذّر الأمر.

تصِلني كاللطمة المفاجئة على الأنف لعنةُ سكّير اتّخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعَرق. آدمي آخر لم تُحابِه أكثرَ الطاولةُ اللعينة.

هذا جبل القديسة التي حَمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا مَن يغازلها طويلا. يا سيدتي جنفياف، خففي من آلام روح الطفل ليجد العزاء أخيرا، ارحمي هذا المتشرّد، وبما أنك في مزاج رائق وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك وإلى دين ليس الذي تدينين به، لا تنسَي آلامي فقد خذلني أسياد وسيدات الأب والأم. تُبادراني فجأة صبيتان وابتسامة بلهاء على الشفتين.

– هل تعرف الربّ؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

– لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة وفيها كل المطلوب لِلَخبَطة الأمور، أما بخصوص حُبّه للبشر فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا، خاصة هذه الأيام.

أخيرا الحيّ الذي ذرعتُه سنواتِ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندَر كتاب.

لا أَحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريت، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي.

صدق مَن قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتَهم ولسعوك، إن بعُدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثتُ عنه دوما: الدفء دون لَسْع.

أعود إلى المشي.

الوجهة الآن المكتبة العظمى. على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشّدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في

الطرف الآخر للمدينة قَوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز. هذه المدينة نَصّ عظيم مكتوب بالدم، بالعرق وبالحبر، والكاتبُ التاريخ. الأمر الذي تقرأه في كل السطور: فكّرْ من خارج كل الأُطر، تمرّد على كل الصيَغ، جدِّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جوٌّ كهذا هو جرعة الأوكسجين للمختنِق ونَفحُ الطِّيب لمن عاش والنتن يملأ خياشيمه.

صخَبٌ مفاجئ على يساري. متشرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتّش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل.

مَن قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو وكل أمتعته في حقيبة مكسورة بين رجليه، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل، في أماكن بشعة يتكدس فيها مَن أفقدَتهم المصائبُ كل صواب. أي غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جانبا، ضاق ذرعا بحِملٍ ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشريّ سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية أي لغم!

الطريق ليس صعبا، *(كيركجارد)*

الصعب هو الطريق.

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كَتب الآدميون عن الآدميين. ليس أمامي الآن إلا الضواحي البعيدة ومنها التي سَتلتهم سنواتٍ من عمري في معالجة أفقر سكانها. إنهم آخِر مَن تدافعوا من أقاصي قارة منكوبة هربا من الموت وطمعا في الحياة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال ولا دليل ولا خارطة ولا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

إنهم آخر من تدافعوا على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها المرفأ والعاصفة.

لا شكّ أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الآدمي وهو تائه في الصحراء بلا ماء ولا أمل، أو غريقٌ أُنقذ آخر لحظة من براثن البحر، أو مغامرٌ يائس بائس يخترق الجبال خلسة ليلة صقيع يُمزّق أحشاءَه الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شبهَ ميّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقي جناحيّ.

هل ثمة في هذه المدينة أشجار كرز وهل فيها ربيع تزهر فيه حتى يمكننا أن نغني؟

تحت أزهار الكرز (إيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب.

نِعْم الشعور، لكن ما العمل مع الغريب الذي بداخلي؟

**

الساكن المسكون

يحدّق فيّ الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: ''بونيول''، تفه!
الوغد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أَستثمِرها في صدقة تعود عليّ بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي!
لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأنني السارق وهو المسروق.
كل شيء موجود في هذا العالم فلِمَ لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟ ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي قانونيا رسميا، ومعترفا به وليس كالغرباء الذين يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود. لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي. هم لا يملكون بطاقة هويتي الوطنية التي تسمح في بلادي باعتبارهم هم الغرباء. كم مشيتُ في شوارعهم لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهدِّد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا يُرجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.
على كل حال، توجد في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّتني بها سلطات البلد –ببالغ الامتعاض–تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدّعون أنهم ليسوا الغرباء في هذه المدينة الحافلة بالأجانب أمثالي.
قد يكون من مزايا هذه البطاقة –بجانب التي مدتني به سلطات بلدي–طمأنتي حول من أكون، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي ولَقبي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي.
لا شيء من كل هذا يجعلني معروفا لنفسي.
منذ زمن بعيد وأنا أقلب أمرَ "اعرفْ نفسَك" لأحد الحكماء متسائلا: نعم، لكن كيف؟
ومن أين أبدأ والمجهول الذي يسكن داخلي لا يبدي أيّ رغبة في الكشف؟
من هذا الذي نسميّه الأنا ولا نعرف من هو؟
نعم ألا يدهشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيّف مجهول!
"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)
عندما لا يكون الأنا؟
من يحلم داخلي عندما أحلم؟
من يوقظني على العدم؟
نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا
نشقى لمغادرتها
وكأننا كنا يوما أصحابها"
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و''هو'' يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرّد طردٍ يُسلّمه مجهول إلى مجهول. مَن قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلا؟
على طول الطريق ''هو'' الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم، ناهيك عن وجهة المسار. هو مَن يفكر ومن يتذكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم وساعة الموت.

كيف لا يتعمّق الإحساس أن داخلك أنائين (جَمعُ "أنا"، مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطيّ والكتمان.

تَكلّمْ يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء أو موافقة من صاحب المحل.

ما نَسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القربى بيننا؟

هل تَقبلُ لِذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرُها، بمثل هذه المظلمة؟

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدّث الجبل!

كم مرّة تحايلتُ على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق للبحر!

طرقنا بابه بالعلم فلم ينفع، بالتفلسف فلم ينفع، بالفنّ فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نَتيجةَ أيا كان البابُ الذي تَطرق، والشيء أطرش لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

أواصلُ مع هذا معابثتَه وتعذيبي: هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه ''هو'' الذي يبتسم ولسانُ حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعضَ الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون: جرّبت إغراقه بالخمر، إطفاء لهيبه بهذا المخدّر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثا.

ما الحلّ وقد استعصى التفاهم والتعايش؟ الطلاق طبعا، كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق.

أين القاضي الذي سيُصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضدّه هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟ ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملا بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكى.

كأني أسمعه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئا، يسمع ولا ينصت أبدا. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأنا. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أُنَظفها دوريّا فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثرا. أشير عليه فلا يسمع. أنبّهه فلا ينتبه. أعلّمه فلا يتعلّم. أهدّئه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولا أو نصحا. آمره بما هو في مصلحته فيتنطّع. أدفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيُمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلّل. ألفُ لعنة على هذا الشكل الذي قبلتُ التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّقٍ مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّ القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعا، لا طلاق ممكنا والأنا الظاهر والأنا المخفي توأمان مشدودان من عظم الصدر.

تَدخل فِراش النوم هاربا من سيّدك الوحيد فتجده يتربّص بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك. تتنكّر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليدُ التي تربط الحبلَ والرجلُ التي تدفع بالكرسي.

كم لنا من أنا إذن؟ أنا الخير، أنا الشرّ، أنا يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، أنا يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، أنا يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، أنا سيسكن فضاء الذاكرة إن قيّض له السفر بعيدا في قافلة الزمان... أنا مَخفي عن الأنظار، أنا معروض عليها للخداع أو للإبهار؟

اللعنة، ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضجّ بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفّذ صاغرا وآخر يأمر دون تَكلّف عناء التفسير، لجزء يجهل تقريبا كل شيء وجزء يعلم تقريبا كل شيء، لجزء بلا ذاكرة تُذكر وآخرُ يبدو وكأن له ذاكرة العالم بأسره؟

قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدّعي لتموّه به وتخادع، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي، أخيرا الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعمق أعماقها. محكومٌ على وعينا بذاتنا أن يكون مثل أشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر وبعض الأمتار تحته أما الأعماق فمحرّمة عليه إلى الأبد.

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللّامتناهي وبقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأملك أنت.

ولَمّا تتصوّر أنك أمسكت به كنتَ كمن تنغلق قبضته على الريح.

ومع هذا... أي خيار لك غير مواصلة الجري وراء الشبح الذي يسكنك وتسكنه.

**

الحاوي والمحتوى

أوّل تشريح كامل لمريض كان في عهدتي والطبيبُ الشرعي الذي سأعمل معه صديق قديم من بلاد الشام.

يبادرني الرجل ضاحكا وأنا أُحكم لبس القفّاز.

– اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقّك أن تعرف بماذا قتلته.

– الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. طلبتُ التشريح للتأكد.

– انظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تَقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.

كم من أطباء عُلّقوا في المشانق لأنهم ارتحلوا في عصور حرّمت البحث في جسد الآدمي وتجاوزوا المحظور وهم يشرحون في الأقبية جثثا مسروقة من المقابر. يا لبختي وأنا أشرّح هذا الجسد المسجّى على الجليز لا مشاكل لي مع شرطي وجلّاد.

– هيا يا جزّار، أرني ما تقدر عليه.

يرسم زميلي بسكينه أخدودا عميقا ينطلق من تحت الحلق إلى الصرّة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلّا بفظاظة ودفعة واحدة اللّسان والحنجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله عضلة بحجم اليد. أخلع القفّاز لأمسكها بيدي لأعرف بحاسة اللّمس هذا العضو الذي تقول قصص العصر إنّه آلة امتصاص وضخ للدم، وقصص قديمة إنه معقل الحبّ.

ننزع بغلظة كيسين من الهواء يحتلّان جانبَي قفص من العظام يمتلئان بأوّل نفس يستنشقه القادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل.

يرمقني الزميل ساخرا.

– مالَك؟ هدّئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.

كأنّ هذا الغبي يعلم... كأنّه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي!

– أتريد أن أنادي لك طبيبا؟

– ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!

يواصل الزميل هذرا يغالب به اضطرابا لا يتلاطم كأمواج السطح مثل اضطرابي وإنما كالتيارات السرية في عمق المحيط. يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:

– انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

المسكين لم يتوفّر مثلنا جميعا إلا على النسخة الوحيدة التي تفضلَت بها عليه القِوى المبهمةُ المتحكمةُ في المصائر عند الإحرام ولسانُ حالها يقول: ذنبك على جنبك إن أعطبتها باكرا أو أصابها مكر الدهر وخبث الزمان.

بداهةً ثمّة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر ليست كلها تَصنّعا واستفزازا.

– يا ولد، منظرك يَرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظةً لتتنفّس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.

– قلت لك: واصل.

نواصل ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شفتاه آها واحدة. لم يثب شاهرا في وجهنا سكاكيننا مدافعا عن حرمته الترابية. لكن، هل نحن أوّل من اعتدى عليها؟ هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفاقة ملكٌ للأبوين والمجتمع والثقافة والدولة والزوج والأطفال، للطبيب والغاسل وحافري القبر... ثم للجراثيم والدود.

السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة (عبد اللطيف الإدريسي)

كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي

الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

– انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم.

– بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

يغمزني مرافقي وكأنه فهم قصدي:

– لا يهمّك، فكبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف. لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من يديك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عربٍ لتزويد حوانيت شاورمة المدينة.

– كفى ثقل دم. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

– ترى شيئا؟ وجدت هذا الورم اللعين؟

– الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لننتظر المعلّم، إمّا يبرئك وإمّا... الويل لك من لسانه... والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتنم فرصة رَوَقان مزاجي لسياحة في أعماق المسكين.

نأخذ في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم بالإمساك بمنشار ونشر الجزء الأعلى من العظم، ثمّ اقتلاعه من القحف لنواجه أخيرا بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلّفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكّين.

ينقضّ صاحبي بحماس مفتعل على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

إذن هذا هو إذن العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل "النفس" و" الفكر" و" العقل".

كل الأشلاء بين يدي الآن.

انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. الشيء المبتذل الفريد الآن مثل كتاب مزّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيَت منها كلُّ الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقير... مثل أثمن لوحة زالت منها الأشكال والألوان ولم يبق منها إلا إطار الخشب وقطعة القماش... مثل لعبة نجح الطفلان الكبيران في فتحها وبعثرة كل مكوناتها.

ها هي مكونات الجسم مصطفّة على الجليز الأبيض ونحن أمامها كأطفال أُطلقوا على آخر كمبيوتر أَنتجته أكثر الصناعات تطورا، فهشّموا غلافه وبعثروا محتوياته لرؤية ما ينغلق عليه.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق الطبيب والمريض على حدّ السواء.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحّصها من وراء نظّاراته السميكة باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلّف الممثل. كان يقلّبها بقضيب حديدي يتأكّد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجلّيز الأبيض، أننا صفقّناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل الشكل في المحافظة على ذاته.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.

– انظر إلى هذه الحبّة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد أخصائيي العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شُخّص في الإبان... آه كم مؤسف...

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبرة التي يتفقه بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

– "مون بون مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

– يا حيوان لقد جرحت "المعلّم" وقد ينتقم مني.

هل يظن هذا البليد أنني لم أُجرح؟

– اللعنة عليك وعليه وعلى التخصّص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين!

– وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجانا بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. المعلّم لم يقصد تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

– جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصّص!

– تحسبنا لا نهتم بأناقة جثثنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.

– نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحيةً. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.

يخرج من قاعة التشريح طبيبٌ، يدًا فارغة وأخرى لا شيء فيها، والطفل الذي بداخله متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم هذا الذي خرج من جسم حسين وتركه جثة هامدة ترفض مواصلة اللعب معه.

*

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيّدي! صَرَعٌ متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجَه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقزّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى. البنت في خطر الموت. مِن حسن الحظّ أن دواء "الفاليوم" سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ.

– يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

– بالتباعد وبالغرابة. كأنني في حلم. تقول أمّي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكّر أنني مشيت. تقول إنني أتكلّم ولا أتذكر أنني تكلمت.

كيف لا تأتي الآدميين فكرةُ التقمّص وكأن الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كأن ذاتا أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متثاقل الخطى:

– سيّدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجرّاح المحنّك على الصور نظرة المهني مقيّما ما سيلقاه من صعوبات.

– المسكينة! سأحاول أن أفعل شيئا. أدخلها حالًا إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبنّجة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر. يحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شفّاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعرينها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبها أشدّ الانتباه، حذرا أشد الحذر، حاضرا بكل حواسّي، خاصّة و "المعلّم" مشهور بصرامته لا يرضى إلّا بمطلق الإتقان والانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث. كم من علماء جهلة من الماضي علّموا بكل جدّية أجيالا من الطلبة أن بطيناته معقل الروح. البطين الأوّل والثاني معقل الإحساس باللّذة وبالألم، البطين الثالث مركز الفكر والعقل. الرابع موطن الذاكرة... والحال أنها لم تكن مليئة إلا بالماء!

مسكين أيضا ذلك العالم الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعيا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدّة يتيمة تتوسّط العضو الرّخو ومنها تخرج كالهواء من بالوننا المثقوب لتذهب إلى مكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح فجأة بغير حاجة إليه.

دوما نموذج العلبة. في الرؤى غير المتقنة العالم نفسه أكبر العلب وكل كائن علبة داخله علبة على طريقة الدمى الروسية. من الطبيعي أن يضع فكر التعليب الروح داخل هذا العضو. وضعها في السابق في علبة القلب وعلبة الكبد. قد ينقلها غدا داخل علبة الخلية، فعلبة الصبغيات فعلبة شوارد الذرّة. في أي علبة سيضع أصغر العلب؟ كل هذا التفكير من بقايا تصورات بدائية. إنها ثنائية الروح والجسد، إرث السحر مرّرها إلى الفلسفة التي لوّثت بها العلم. كيف الخلاص منها بعد كل هذه القرون من الجدل العبثي؟ بالعودة إلى البديهيات. هل ثمة موسيقى دون آلة حسنة الصنع تبلور هذه الموسيقى؟ هل ثمّة فكر دون دماغ سليم؟ عندما نجعل هذا الفكر الوظيفة القصوى للدماغ وهو في أوج عطائه، تنتفي ثنائية الفكري والمادي. عندما نعتبر الروح الخاصية الأرقى والأعقد للجسد الحي -أيّ جسد حيّ-تتبخّر ثنائية السحر والروح لم تعد شيئا مضافا إلى الجسد مستقلا عنه ومن طبيعة أخرى وإنما خاصية منه وإليه لا توجد إلا بوجوده.

يلاحظ ''المعلّم''، ونحن نقترب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفظاظة فأنتبه محرجا. تتصاعد الحدّة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.
ينفصم العقل أو الانتباه أو سمّه ما تريد، إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتّرا. بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحقّ كل جهل الآدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!
كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه.
أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعرُ الحريري يُرمَى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ ''المعلم'' وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:
– اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.
– سيّدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟
– لا تتهرّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.
تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.
ألوذ بالفرار لأرمي بجسدي المرهَق على أول كرسي أصادفه في الممرّ. أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدميّ. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء ''النبيلة'' منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنتُ أنتصب لولاهما؟ هل تمتّعتُ يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صَلَف الجهلة أن القدمين معقلُ الذات؟
نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الآدمي. إن أصبحتُ من الرجال الذين تُنحَت لهم التماثيل، ليقتصر تمثالي على قدمين التحمتا بالطريق. يمكن للنحّات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّفَ في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كلُّ ما فوق... كلُّ ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.
أنتبه فجأة إلى أنه ما زال متماسكَ الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة الفكّ وتقديمه غذاء للكائنات السافلة، أنه ما زال النمرَ الذي أروِّض، الخروفَ الذي أَحمي، الحمارَ الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزيرَ الذي أمنع من التمرّغ في الوحَل، الجملَ الذي يحمل كل الأثقال بانتظار القشة التي قصمت ظهرَ كَم من بعير، النسرَ الذي أُحلّق به عاليا لأرى العالَمَ من أرفع موقع.
بينما أنا جالسٌ أواصل تدليك قدمَيّ، يمرّ أمامي عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية، لفحصٍ روتيني قبل كل عملية على الدماغ.
فجأة يتضح لي طريقٌ آخرُ لمواصلة الجَري وراء الفرس التي أركب.

**

ذاكرة "الأنا دون سواه"

من طبيعة الكوابيس –قُل من مهامّها– كشفُ أخشى ما تخشاه الذاتُ... ما تحاول عبثا رَميَه بعيدا في أعماق اللاوعي.

في أحدها، يتوجّه عجوز ذاهل نحو نافذة الغرفة ليتسمّر محدّقا في شجرة زيتون علاها الغبار. يَلتفت إلى بابٍ يُفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفتعِلة المرح:

– صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيّبة. هلّا تبعتني لمقابلة الطبيب.

مَن هذه الأنثى؟ لماذا تبتسم لي؟ مِن أين تعرفني؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ أين أنا؟

تواصل المرأة المجهولة كلاما لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئا:

– انتبه دوما إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. انظر إلى أسماء الأطبّاء والممرّضات فهي مكتوبة بوضوح على أعلى الصدر. هذا اسمي. ردّد معي: الآنسة زهور. وصلنا إلى العيادة. لن أقدّم لك بنتَيك طبعا، ستَحضُران معك الكشف للردّ على بعض أسئلة الطبيب.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر بربع ابتسامة تفضح تهكّما مزمنا يحاول إخفاءَه؟ اللهم إلا إذا كانت تتستّر على بقايا خجل قديم. مَن هذه المرأة ذات الشعر القصير الفاحم ومَن التي تمسك بذراعه كأنها تتشبّث به خوفا من غرق؟ لماذا تتفحّصانني بهذه النظرات الدامعة؟

تجيل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تَداخلَت الحدود وامّحت الفواصل في نصٍّ يرفض الالتزام بالحيَل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجيلان البصر بين الشاب الذي لم يَلدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفَت رحلتُه على الانتهاء بأفظع كيفية.

يتفحّص الطبيب الشاب المريض المرتعش مغالبا قلقا لا يَفهم تفاقمه ثمّ يستجمع شجاعته.

– هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللعنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكا وتوتّرا:

– كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخّل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

– خطيبٌ مُفوّهٌ لا يجد اليوم أبسط الكلمات، فيستشيط غضبا ويدخل في حالة من الهيجان تبثّ فينا الرعب. لا أصدّق أنه "با". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسيَ أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:

– معقول ألا يتذكّر أنه قابَلَنا البارحة! أننا نحن مَن أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:

– الشهر الماضي رأيتُه يمزّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضا.

يريدون العجوزَ مهذّبا وهو يتابع لحظةً بلحظة تسللَ الظلام وانطفاء الأنوار في فكره، وذاكرتُه تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم.

ذاتُه تعيش اللّحظة بعد اللّحظة بعد اللّحظة، ولا رابط بين اللّحظات. أصبح كلُّ فعل يمسح ما مضى من أفعال، وكل شعور يمسح الذي سبقه، لتتجمّد تجربة الوجود في جليد حاضرٍ أزلي لا يسبقه قَبلٌ ولا يتلوه بَعد. مَحَت يدٌ غيرُ مسؤولة تجربةً يتيمة فريدة لم تحصل ولن تتكرّر، على كثرة ما عَرَف العالم وجرّب من القصص. مزّقَت صفحات كتابٍ رَمَتها في كل اتجاه فإذا بالنصّ غير مفهوم لا للقارئ ولا لكاتبه. تبخّرت الحمولة من ظهر الحامِل وهو لم يصل بعدُ إلى حيث يجب أن يوضع الحِمل. هل من نهايةٍ أفظعَ لرحلةٍ ظنَّ الآدميُ أنه خَبِرَ كلَّ فظائعها؟

كابوس البعض، حالة الكثيرين: تَلاشي الذاكرة شيئا فشيئا ومعها تلاشي الذات.

في آخر المطاف ما الذاتُ دون الملفات التي أَودعَت فيها تجاربَها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعُلها معه؟ أليست هي التي تَحفظ عقد اللغة متماسكا ومعها تصوراتنا للعالم، للآخرين ولذاتنا؟ أليست هي التي تفرض الترابط والتواصل بين معطيات الحواس والفكر والخيال، ولولاها لأصبح الواقع الذي تَصنعُه مثلَ ضَوءٍ تَشتّتَت ألوان طَيفه ولم يعُد يضيء شيئا؟ أليست هي التي تنظّم هذه المعطيات وفق خطّ زمني فيه القبل والبعد، لتكون لنا قصّة ببداية وسلسلة من الأحداث وخاتمة نرجو دَوما أن تكون سعيدة؟ بَداهة هي كفعلٍ (التذكّر)، وكمَادة (المعطيات المحفوظة)، الشرط الضروري لوجود الذات حيث لا وجود لفِكرٍ أو لمفكّر في غيابها؟ والعالم... ما العالم هو الآخر دون ذاكرة جبارة تحفظ تماسكه وتواصل مكوناته عبر الزمان؟

*

يجب أن أنعزل في مكان قصيٍ من القارب، أصمُّ أذنيَّ عن صخب السّيل، عن هرج مَن هم معي على المركب، غيرَ عابئٍ بصراخ مَن ألقت به الحركة الهوجاء في الأمواج المتلاطمة، لتجنيد هذه الذاكرة في آخر جهد، علّها تشعّ بكل نورها وتضيء الأعماق التي خرجت منها قبل أن يُطفئ الموتُ فَتيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الآجال مرضٌ حقير اسمه العته.

أنا الآن ضيف ذاتي، أتوسّط ''مكتبةً'' فتحَت لي كلّ أروقتها وكل خزائنها، أدخلُها لاستعراض ما تملك من الوثائق وليس لاستدعاء هذا الملفّ أو ذاك، كما دأبتُ على الأمر منذ بداية التدوين.

''هنا'' تَحفظ القوة المجهولة معطياتٍ حان وقتُ التمعُّن فيها علّها تقول لي شيئا ذا معنًى عن الغريب الذي أتخبط داخله أو يتخبّط داخلي.

تَحضُر موَظّفة متقلة بطلباتي الأولى. تسرّ في أذني وهي تضع القهوة فوق المنضدة وترمي فوقها بحزمة من الملفات.

– التعليماتُ ألا نزعجك وأن نتركك تأخذ الوقت الذي تحتاج.

أفتح أول ملفّ فتَنفجر في وجهي جُمَلٌ أبَى النسيانُ محوَها:

لا تضع إصبعك في أنفك... قل للمعلّم: صباح الخير يا سيّدي. أغسل أسنانك قبل الذهاب إلى الفراش... أورام البطين الرابع عند الطفل تؤدّي مبكّرا إلى ظهور ارتفاع الضغط داخل القحف العظمي... لا يُخلّص هذا العالَم مسيحٌ واحد... كُلْ دون إحداث صوت، خاصّة مع كبار القوم... جئتُ لا أعلم من أين ولكنّي أتيت وسأبقى ماشيا إن شئتُ هذا أم أبيتُ... إنّما يُخلّص العالمَ كلُّ واحد منّا شريطة أن يتذكّر أنّه هو الآخر المهدي المنتظر... ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة، تسعة في تسعة يساوي واحد وثمانون... يولَد جميع الناس أحرارا وقد وُهبوا عقلا وضميرا، على الأقلّ نظريا... إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ للقيد أن ينكسر، المشكلة أنه سلّم أنه لا حياة بلا قيد... الحوامض الأمينية واحد عشرون، منها ثمانية لا بدّ أن ننهشها من لحم كائنات حيّة أخرى... كلُّ هذا غلطةُ الحجارة الكبرى التي ضَرَبَت الأرض لخمسة وستين مليون سنة خَلَت، وحَكَمَت على الديناصورات بالانقراض، مما سمح لكائنات خسيسة مثلنا بالتكاثر متسببة في كارثة لنفسها وللعالم... ما لهم كلهم مع الكذب؟ ... أليس هو الوظيفة الثانية للّغة، مثلما النسيان الوظيفة الثانية للذاكرة؟ ... أيّ عاشق أوكاهن أو طبيب لا يكذب... لا ترين الناس إلّا تجمّلا

نبا بك دهرٌ أو جَفاكَ خليلٌ... البقاء للأصلح في النظرية، وفي الواقع للجبناء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف... السمك أغنى بالفسفور من بقيّة لحوم الكائنات... انطلاق الرحلة الآدمية كان من الساحل الشرقي لإفريقيا... تُفتَح قبضة الباب من فوق إلى تحت... سرعة الضوء أعلى سرعة ممكنة... العنف مَظهر من مظاهر القَسوة عند مَن هم فوق، ومظهر من مظاهر التمرّد عند من هم تحت... خطّ البنطلون المكوي يمرّ فَوقَ وسط الركبة لا من جانبها... نبحث عن الحبيب ثلاثة أشهر، نُحبه ثلاث سنين ونتخاصم معه ثلاثين سنة، ثم يأتي دور الأطفال لتكرار السيناريو... السيّدُ مَن يُعطِي المثَل لا من يُعطي الأوامر... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازلٌ مِن موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل إن كان تنازلا من موقع الضَّعف عن الكرامة والمبادئ... معدّل السكّر في الدم غرام في كلّ لتر... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا نَجَحت... الرجال قوّامون على النساء لأسباب يعرفونها هم وحدهم... كلما اقترب العدل من قطب التعويض وابتعد عن قطب العقاب، كان راقيا... كلما ابتعد عن التعويض واختزل نفسَه في الانتقام القانوني، اتضح ما ينضح به من إرادة التنكيل، من قسوة ومن عجز عن المغفرة... اللغة هي النور الذي يضيء لنا الطريق والظلام الدامس الذي يمنعنا من الرؤية... كن ودودا وانبذ العنف مهما كان مأتاه... مَن صفَعك على خدّك الأيسر أفصِلْ رأسَه عن الجذع... الاستبداد مُصادرة أوباش لحرية ومصالح شعب، بكل وسائل العنف المادي والرمزي... هو رهان خاسر والمستبدون يحفرون دَوما قبورهم بالوسائل التي أَوجدَت مؤقتا تَسلُّطهم... الديمقراطية توهّم إمكانية انبثاق الصالح العام من الإرادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاور فيه بِنِسَبٍ مجهولة الأذكياءُ والأغبياء، المتعلمون والجهلة، الأخيار والأوباش، الأحرار والعبيد... رهان خاسر وهي تفرز أغلب الوقت خيارات تضرب الصالح العام وتهدّد الحرية... الخيار بين الرهان الخاسرِ دوما، والرهان الخاسر أغلب الوقت. تبّا له من خيار... من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟ ... أنا سرجاي بافلوفيتش، جئت من بيتي وذاهب إلى خمارة البلد... أين هذا من كفر الذي قال "لا أؤمن بالله، أؤمن بما هو أعظم"، أو استفزاز الآخر "الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهامّه". أو الذي تجاوز ألَمُه كل الخطوط الحمر "موجود أو غير موجود، الموضوع ليس هذا وإنما أنه من الأفضل له ألا يكون موجودا، من يغفر لربّ شقاء كل هذه العوالم؟ فاز باللّذة الجسور... "لا تستوحشوا المشيَ على طريق الحق لِقلّة سالكيه"... هذا عالم غير قابل للتنبؤ، للفهم، للتطويع، وكلُّ محاولة لا تزيد إلا من عصبية الفرس ومن علوّ سقطة الفارس الغبيّ... مِن الغباء محاولة تغيير البشر ومن الإجرام عدم المحاولة... لا شيء يدفعك إليه العالم بكل قوة قدرَ العمل على تغييره ولا شيء يرفضه لك بكل إصرار غير تمكينك من شيء كهذا... وجد الأوروبيون طريق قارّة قديمة اكتشفَها الآسيويون قبل عشرين ألف سنة، وسمّوها مع هذا "العالم الجديد" ... يا بُنَيّ ستكون كارثة لو كسّرت مرّة أخرى نظّاراتك... واحد زائد واحد يساوي اثنين مهما كانت سرعة الريح... العين بالعينَين والسنّ بكامل الفكّ... الحياة مرضٌ خطيرٌ والموتُ علاجُه الوحيد... الأنانية ليست أن تحب أناك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... العنف ليس قوّةً والقوّةُ ليست عنفا... حافظ على نظّاراتك لأنه ليس لي ما أشتري لك به بديلها... "لا تنسَ سوطك عندما تذهب إلى المرأة"... كُرة القدم هي اليوم أفيون الشعب... لا تستفزّ الأقوياء إن لم تعدّ لهم ما يجب من القوّة... الأسبرين دواء رائع لا يؤخذ مع قرحة في المعدة... يريدونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... في كل لحظة قد تنقلب الأمور رأسا على عقب، في الاتجاه الذي ترغب والاتجاه الذي ترهب... الماضي الذي تترك وراءك، نسيج من الأساطير... المستقبل المفتوح أمامك نسيج من الأوهام... حاضِرُكَ نقطة نور تتحرك من الضباب إلى الضباب، ووضعُك دوما أسوأ مما تعتقد وأحسن مما تظنّ... أحسنُ لونٍ لطلاء بيوتنا، الأبيض لأنّه يمتصّ أشعّة الشمس... يوجد في العنف من قوّة ما يوجد في البورنوغرافيا من حبّ... التاريخ رواية المنتصِرين... أنا السجين والعالم سجني وسجّاني... أفضل ما اخترع الآدمي الكسكسي بالسمك... يا بُنَيّ ستكون كارثة الكوارث لو كسرت مرّة أخرى نظّاراتك... مَن عرَف الدهرَ يخشى شدّاته ويرتقب... يجب على المرأة إرضاع طفلها على الأقلّ ستّة

أشهر... مَن عارض السلطان زهد في الدنيا... الخطأ الهيكلي في الدين افتراضه قابلية الآدمي للإنقاذ وكل التاريخ دَحضٌ لشيء كهذا... الديناصور كائن انقرض منذ خمسة وستين مليون سنة بضربة لحجارة من سجيل جاءت من الفضاء وأفسحت المجال للجنس الوبش الذي حُشرت في شكله... يجب أن أترك بصماتٍ لا تمحى... يجب ألّا أترك أثرا على أرض ولا حتى ظلا على حائط... الكوكب الأزرق في خطر من آلاف الأجرام التائهة حوله وهي أملنا الأخير لنرتاح ونريح... مَن قال: الملل كثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أُكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا... إذا كان قانون لا وتسو صحيحا وأن كل اسم له ليس الاسم، فمعنى هذا أن كل طريق إليه ليس الطريق ولو كان الطاو، أن الحقيقة ليست الحقيقة، أن الخطأ ليس خطأ، أن الخطيئة ليست الخطيئة أن الشيطان ليس الشيطان، أن الأنا ليس الأنا. ما الدعامة التي يمكنني إذن أن أبني عليها الرؤيا؟ ... قل الحق ولو على نفسك... كن ولدا طيبا ونطاسيا وتقدميا وثوريا ومناضلا وصادقا ومخلصا ونزيها، لتنتهي فقيرا ووحيدا... حذار من الصداع عند الأطفال فاحتمال ورم الدماغ كبير... لا هدف نَصِل إليه لأن الحياة دورةٌ في حلقة مفرغة، ولا منفذ في هذا العالم لأحد... لا تضع إصبعك في أنفك... لا عيشَ لكريم في بلد شعبُه غنم وحاكمُه ضبع... أين أضع هذا الحُبّ الذي بداخلي والذي لا يريده أحد؟... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقعة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم بطبيعته واحد-عدد، عدد-واحد... نعم الشفقة، لا شيء نستأهل أكثر... قل للمعلّم: يا سيّدي... إياك أن تكسر نظاراتك مرة أخرى... نعم كم صدق أناكرسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزّقها الكبار... إلخ.

يداهمني شعور كالذي تجربه عند الاختناق والتخمة.

خلاصة تجربتي هذه الفوضى!؟

هل من الممكن أن يَستوعب ذهني كل هذا الشلّال الصاخب من الصور والأحاسيس والمشاعر ولا ينفجر، وأن يَستخرج منها صورة متناسقة لرحلته، وأن يمكنه الردّ على السؤال سيد الأسئلة: ماذا أفعل في هذا العالم؟

كم أنا محظوظ بأن وظيفة المحو ما زالت سليمة وإلا كان مصيري كمصير أولئك المساكين الذين يُسمّونهم العباقرة المتخلفين ذهنيا. الواحد منهم قادرٌ على استرجاع أجزاءَ كاملةً من الموسوعة البريطانية بعد قراءتها مرة واحدة، أو حفظ كل أرقام الهاتف لمدينة كاملة، أو رسم شكل مدينة كاملة بعدد نوافذ عماراتها بعد المرور مرّة يتيمة فوقها بحوامة، لكنه عاجز عن ارتداء ملابسه أو تناول طعامه دون مساعدة.

تتعاظم الخشية وأنا أستعرض بقية الملفات وكأنني كالمُقْدِم طَوعا على فتح جروحٍ غائرة جاهدت سنينَ لتندمل.

*

هذا أضخم ملفّ عن مرارة الحياة وأقسى ما يُجرِّب فيها الحيّ من آلام، وأيضا عن أن كل ذات مصنوعة من قصص متباينة في التفاصيل داخل التفاصيل... وفي الجوهر دوما نفس القصة عن تجربة الحبّ.

تتدافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة... المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الآدميّ أذنيه عن كلّ نداءٍ، وقد اقتنعَ أنه لا ذكاء يبرّر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقّة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضّل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم الأزلية:

– إنّها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تُحرّك ساكنا.

دَخلَت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟
أحاول فتح مَنفذ للقلعة المغلقة.
– يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.
تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيٍّ كان.
يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:
– سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.
يَرفع الألم كل تحرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.
– طبعا البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقتُه للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميتة وموتها على حسابك وحدك.
كذبوا، من شابهَ أباه فقد ظلم. هل للرجل ما يدافع به عن نفسه؟
تنتهي تفيحه في غرفة إنعاشٍ قناعُ الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفظعُ ما في العالم لامبالاتُه لا ما يُلحقه بنا من ألم.
يا إلهي أيّ شيء جئتُ من أجله هذا العالمَ يستأهل كلَّ هذا الألم، والباقي الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟
هذه المرّة فاقت ضريبةُ الوجود قدرةَ الدفع. ليَنتَه كل شيء. لتمت تفيحه ولأمت حذوَها.
الموت! وهؤلاء الأغبياء الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه والحال أنه وليمة من الفكر واللاشعور... "شبعة" من اللاوجود... تخمة من العدم... طفرة من السلام... نهاية كوابيس النوم واليقظة... الراحة الأبدية.
لم نجن بدنيا الكرب دنيا المحنِ (عمر الخيام)
إلا غصص الروح وغم النفسِ
ما أهنأ من مات بهذا الزمنِ
ما أسعد من لم ير نور الشمسِ
أي معلّقة سأضع على باب العالم وأنا أصفّقه ورائي خَلّصني منه الموت أخيرا؟
حذار، حذار، قاس، فظّ، لئيم، بخيل، خادع، مرهِق، محبِط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك العقبة فالحاجز فالحفرة فالمستنقع فالدهاليز فالحائط الشاهق، وعلى طول الطريق إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضيّعا ما كسبتَ رغم ما دفعتَ فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار، عالم قَدَرُك فيه جوعٌ لا يُشبع، ظمأٌ لا يطفأ، حبّ لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفنُ... حذار، حذار، عالم لا يعبأ بك، لا يلتفت إليك، لا يهمّه من أمرك شيء، سيّان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، كلُّ معاركه بلا نصر وكل منتصرٍ فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزومٌ.
أقرّب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفّق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلّا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جَفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أُقدّم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حبّ عاجز.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفظع ما أعيش من آلام. على العكس حُبّيَ الآن لها لا تَسَعه السماوات والأرض.

قد يكون أحسنَ مَن فَهِم طبيعته الأعرابي الذي سُؤِل أيُّ أطفالك أَحَبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاظم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعَينا لحمايته بأثمن ما نقدر عليه: الحبّ.

حتى المعلِّم لم يدرك طبيعة مَن يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه... الحقّ ليس هشا ضعيفا مهددةً حياتُه لا ضمان لتواصله إلا حبُّنا له... اللهم إلا إذا قَبِلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذوات التي تبلور فيها طريقتُنا الوحيدة للتقرّب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.

أتوجه للراقدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تَبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كأنّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أثّر في شيء ما... غيّر وجهة المسار. أيكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمَت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيرا من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمَت أن عليها أن تجد في أعمق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلَها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

لا أصدّق أذنيّ وأنا أسمع تفيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدّد فيّ شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

– هل... هل؟

– ن.، ن.، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينين بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

– "با"، هل ستبقى معي هذه اللّيلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

– وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

– نعم

– لمواصلة المشوار؟

– لمواصلة المشوار.

– على علّاته ومصاعبه ومتطلباته؟

– على علّاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسخ الكابوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يُحصى من القصص عن آلام الآدمي المزمنة وطَيفِها الواسع. إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص المراهقين والآباء وحب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لآبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرَص تَدارُك ما مضى من أخطاء.

حقا عَرَف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتُ. لكن هذه التجربة بتفاصيلها وبالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل لم تحدث إلا لي... لي أنا فقط. مما يعني أن ما يُعطي للذّاتِ خاصيَتَها التي تميّزها عن الذات الأخرى، جملةٌ من الأفعال

والتفاعلات مع جملةٍ من مظاهرَ وكائناتٍ وحالاتِ العالَمِ لم تَحدث في تفاصيلها الدقيقة وفي تتابعها الزمني إلا لها هي. إنها الفوارق البسيطة والجذرية في آن واحد، التي تصنع تبايُن القصص، ومن ثم تباين الذاكرات، أيْ في آخر المطاف تباينُ الذوات.

ترى ماذا أضافت قصتي للعالم؟ ماذا تضيف القطرة للمحيط؟ ماذا تضيف حبة الرمل للصحراء؟ ماذا يضيف نجم يتيم للكون الشاسع؟ لا شيء ومع هذا ...هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنه؟ هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي توجدها وهل للعالم قصة خارج قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

لنُسمّ هذا المستوى من فضاء الذاكرة المكَوّن للذات: ذاكرة الأنا دون سواه... وإن استهوَتنا صورةُ الشجرة: ذاكرة ورقة الخريف.

**

ذاكرة "نحن جميعا"

عندما تتفحّص أخصّ الملفات التي تُميّز الذات، تكتشف دَوما استحالة فَصلِ قصتها عن قصص عدد غير محدّد من الآدميين. تؤدي بك كل سفرة داخل الذات ضرورةً إلى سفرة داخل الذوات الأخرى.

هكذا تَجِدني دوما أرتطم بقصة "با" لأكتشف يوما أنني لن أفهم قصتَه إن لم أربطها بقصة الشاعر الذي جَعل من قصائده الكلامَ المقدّسَ والقدوةَ والمثالَ في كل ما يقول وما يفعل.

لماذا جعل من هذه الذات بالذات قدوَته؟ هل لتَعرُّفه في آلامها على الآلام التي عذّبَته طوال حياته؟ تُرى هل سأجد مَنبع آلامي في منبع آلام دليل الدليل؟

أعود إلى قصائدَ لا تُلقى وإنما تُزمجِر، باحثا عن السبب الدفين لعربدة التفاخر والغضب.

هل ذروة مأساة الرجُل وُقوفُه اضطرارا على أبواب الملوك يَستجدي مَن يَحتقرُهم، هو الذي كانت بنفسه أَنَفَة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوّته المزعومة، أم لأنه رَفض له شهواته أو بالَغ في التقتير؟

يَنتبه للسبب أديبٌ أَعمَى عرّيف بالآلام وما تفعله بالمعذَّبين في الأرض. غريب! كيف لم يسترع انتباهي يوما أن الرجل فاخَرَ دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف... أنه بكى وأبكى الأجيال على جدّة، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن... أن ديوانه لا يبدأ بذكر حَسَبه ونسبه. ثمة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها "با" شيئا عزّز به الصلة. لكن "با" كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة.

أمّ معروفة! لم أسمع "ما" –على كثرة مدحها للناس–تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جَدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها... أخيرا لا آخرا، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خَير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته... أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفّ هذه المرأة اسم يحفّ به صمت مشبوه. تحين فرصة الحفر في سرّ قد تملك "ما" بعض مفاتيحه.

– ألا تعتقدين أنه لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يُقاسِم لَما أَفرَط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمُّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعني "ما":

– لم تُدلّله يوما أم.

تعضّ على شفتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرٌ تحريكُها. فضولي أهمُّ مِن ترفّق يحضر ويغيب.

– لم تدلّله!؟ ربما كانت مريضة أو أن مرضَها أثّر في طبعها وفي طبعه... ربما المرض سببُ عدم إنجابها لغَيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

–كلّا لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

– لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتياب ميتة. حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تَستَكينُ "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهرُه إلى الحائط ولا مصلحةَ له في مواجهة خصم مصمّم.

-كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضَت له ضيفا من عمره فَخَرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنِع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رَفضُها استقبال ضَيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدّتُها التي التصقت باسمها؟ حِرمانُه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجدّةُ التي لم أعرفها هي سببُ الوجع الذي جعل "با" طول حياته كائنا متألما مؤلما؟ كم تسبّب لي وللآخرين من أوجاع؟

- ماذا أيضا؟ تكلّمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمة شيء لا يمكن لأمّ أن تحادث فيه ابنَها... شيء ربما تهامست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال!

لأحاول الجَمعَ بين مختلف قِطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأنْ لا أحد تَخبّطَ في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤه للنساء وتنكيله بكل أنثى رماها الحظّ العاثرُ بين ذراعيه مكدِّسا الخليلات والحليلات يشبعهّن إذلالا وخيانة وطلاقا. هل محبّتي للنساء وتَرفّقي الدائم بهن مُجرّدُ ردّة فعل على ردّة فعل على رَدات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقَت؟

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جِدُّ مُستبعَدٍ. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد.

مفهومُ رجال ذلك الزمان والمكان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهمّ أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبُهم زناة، إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهامست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟ هل تقديسي للأخوّة مواصلةُ قصّة حزينة لطفل حُرم أخوةً بقيَ طول حياته لا يكف عن البحث عنهم؟ هل غضبي صدًى لغضب طفل وَجدَ نفسَه يتخبط في مشاكل لم يكن له أي دخل في وقوعها ولا ناقة لي ولا جمل فيها؟ ما أغرب أن تُشكّل أحداثٌ لا دَخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب! ما أغرب أن يقول البعضُ بحريتِه وكلُّنا مُسيَّرون بأحلام وكوابيسِ مَن سبقونا.

الاستنتاج المذهل: ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مُكوَّن من الأنا الآخر. هذا الآخر موجود خارجيٌّ حقا لكنه موجود أيضا وخاصّة داخلي، أواصِل تاريخَه وقصصَه وقد أصبحتُ تاريخي وقصصي. طبعا هذا الذي بداخلي ليس صورة طبق الأصل للآخر الذي هو خارجي والذاتُ تعمل باستمرار على ملامحه وخصائصه ومراميه حذفا وإضافة وتحويرا، سلبا وإيجابا. إنها مثل مرآة تعكس الصورة حسب خصائصها وحاجياتها هي، آخرُ همها ''موضوعية'' الآخر أو ''حقيقته''.

وفق نفس القانون فإنني آخر الآخر، مما يعني أن ذاتي ضرورةً المادةُ الخام التي يتكوّن منها نسيج كمْ من ذاتٍ تُواصلني وتُصارعني وتُقلّدني ولا تشتهي إلا ما أشتهي ومني تتعلم، وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها. وأيضا... أن أفكاري ومواقفي وتصرفاتي، كما أراها وأريد الناس أن تراها، تتحول داخل هذه الذوات إلى صوَر فاعلة مستقلة عني، منها التي في صالحي ومنها التي أُفضّلُ جهلَها.

إذن أثّرَت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبَعني بها من خلاله إلى الأبد. لكن ماذا عن الأحداث التي صَنعَت قصتَها هي وتُفسّرُها؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدّتي ''كالي''؟ ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، مَن ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي

عُرِفَت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهّم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟ الأهمّ من هذا كلّه، هل كانت اللعينة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبّب في سلسلة من المصائب لِكَمْ من نساءٍ وأطفالٍ أبرياءَ على امتداد أجيال؟

حتى لو عرفتُ تفاصيل قصة الجدة المعذَّبَة بِسرٍّ ما وبوجَع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتُها بالضرورة إلى قصة الذوات التي صَنَعَت قصتَها، مما سيحيلني على الذوات التي صنعت القصص التي صنعت الذوات التي صنعت قصتها، مما يحيلني على... إلخ.

كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي، لا البيت يعلم ولا الأشباح. تُرى أيّ أشباح لي تسكن كم من ذوات لا علم لي بتأثيري فيها ولا علم لها بمن كنت حقا!

ماذا لو كان الأنا مجرّدُ أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخلها؟ لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فهي ضرورة موزّعة داخل كم من ذات تساهم في النسيج الذي يكوّنها.

آه هذا ملفي عند ''با''، كم أسأتُ به الظن دوما! يا للدور الهائل الذي تلعبه قصتي في قصة تفاحة وتفيحه؟!كم من ذات أخرى أَوَت أو ستأوي جزءا من ذاتي لا هي ولا الأنا يعلم بالتفاعل الصامت الغريب؟

قصّتُنا إذن كقطعة نسيج نَسَجها مجهولون من مواقع جِدّ متباينة زمانا ومكانا، صَنعوها عبر ما لن نعرفه يوما من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عبثية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية... ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة.

وأيضا: نحن إذن ضحايا تصورات بيروقراطية للذات، نتخيّلها مثل بلد له حدود واضحة وعاصمة تحت حكم سلطان واحد هو الأنا المكلف بالقيادة والتنسيق والتمثيل الدبلوماسي لدى الكيانات الأخرى المبنية على نفس النموذج. كم من سذاجة وسطحية في هذا التصوّر! الذات أشبه بأمة الإغريق في العصور الكلاسيكية، واحدة، لكن موزّعة على قارة وجزر ومستعمرات مبعثرة على كم من ساحل بعيد.

*

الآن وقد أمسَكنا ببداية الخيط لا بدّ من مواصلة تتبعِه على أمل أن نفكّ كل كبّة الغزل وأن نمسك بالطرف الآخر من الخيط.

ومما أمكن اعتصاره من الخليط المبهم للروايات عن أجداد الجدّة التي رفضت أن تلد بعد '' أين في الناس'' ، أن مَلِكَ الماشينَ وراء أذناب البقر، أهل الماء والطين، أطمَعَهم يوما في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، فيها سبايا بيض البشرة لهن عيون بِلون البحر بارعات في فنون الحبّ، أن هؤلاء الأجداد افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر، أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجرّون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جدّة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمرَ اسمه من اسم الهلال جَمَعَ الجرأةَ والدهاء، أنه رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان، أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجدادُ يشقون الطريق بسيوفهم، أنهم كانوا يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فَعلوا لا يصدّقون أنّهم ما يزالون أحياء، أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة، أن السيف عاد لغمده يومَ تَبيّن أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثَمّ فكل مكان هو المكان.

كيف لا يكون ''با'' الرجل الذي لا يستقرّ في أرض وقد وُلد من كل هذا التشرّد؟ كيف لا يتواصل حبّ الرحيل داخلي أنصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكبٍ والكونُ برمته صحرائي رملُه نجومٌ وكثبانُه مجرّات؟

لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجدول الذي تشكلَت منه ذاتي.

ما تجود به ذاكرة اللغة أن أجداد الأجداد كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليجٍ يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيع في مجاهل لا يتخيّلها خيال. كم م قصص تتحدث عن إبل وخيام وصحراء مترامية الأطراف ورجال يبتهلون لآلهة اسمها ذو الخلصة وهبل واللات والعزى. كل الملفات ترنّ بقعقعة الشعر وترنّم السلاح. كل الصور لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده اللّيل، لرجال لهم وجوه كأنّها نحتت بالسكين، صورُ قومٍ إذا شجعوا تهوّروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثأروا كفروا وإذا حنّوا ذرفوا الدمع مدرارا، لا يضاهيهم بشر رقّة وتوحشّا.

ومن بين كل القصص التي عرفوا قصةَ شاعرة لا تشبهها شاعرة اسمها الخنساء.

الخنساء! لَمْ يُعطِ ''أين في الناس'' صدفة لابنةٍ له ماتت في سَنتها الأولى اسما سَقطَ منذ قرون من التداول، مثلما لم يعطني صدفةً اسم مَلك مات مَنفيا. مما يقال عن هذه الجدة الأسطورية الأخرى إنّها ظلّت تندب طول حياتها موت أخيها البطل، إنّها ظلّت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محوَ اسم صَخرٍ من ذاكرة القبيلة.

الشاعرة الأنثى الوحيدة التي قال عنها بشّار إنها غلبت الفحول.

يَقيني أنّ "با" قرأ الخنساء، أنّه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أنّ مناهج ومسالك فُتحَت داخل ذاته، أنّ أهدافا قاهِرة تحدّدت لها والشعرُ منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صُنع ذوات أطفال الصحراء.

'' يا عَينِ ما لَكِ لا تَبكينَ تَسكابا — إِذا رابَ دهرٌ وَكانَ الدهرُ رَيّابا

فابكي أخاكِ لأيتامٍ أرملةٍ — وأبكي أخاك إذا جاورتِ أجنابا

يعدو به سابحٌ، نهدٌ مَراكِلُه — مُجَلبَبٌ بسوادِ اللّيلِ جِلبابا

حتى يُصبّحَ أقواما يحاربهم — أَو يُسلَبوا دونَ صَفِّ القَومِ أَسلابا

هُوَ الفَتى الكامِلُ الحامي حَقيقَتَهُ — مَأوى الضَريكِ إِذا ما جاءَ مُنتابا

يَهدي الرَعيلَ إِذا ضاقَ السَبيلُ بِهِم — نَهدَ التَليلِ لِصَعبِ الأَمرِ رَكّابا

المجدُ حُلَّتُهُ وَالجودُ عِلَّتُهُ — وَالصِدقُ حَوزَتُهُ إِن قِرنُهُ هابا

خَطّابُ مَحفِلَةٍ فَرّاجُ مَظلَمَةٍ — إِن هابَ مُعضِلَةً سَنّى لَها بابا

حَمّالُ أَلوِيَةٍ قَطّاعُ أَودِيَةٍ — شَهّادُ أَنجِيَةٍ لِلوِترِ طَلّابا

سُمُّ العُداةِ وَفَكّاكُ العُناةِ إِذا — لاقى الوَغى لَم يَكُن لِلمَوتِ هَيّابا'' .

بداهة الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل ''با'' نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سمّ العداة وفرّاج كلّ مظلمة.

فجأة والخيال يتوغل بعيدا في عمق الزمان ينقطع الخيط الرفيع وقد أصبحَت القصة تتكلم لغات غير مفهومة.

مما يرويه بعض الثقات ممن نسميهم العلماء أن أجداد أجداد الأجداد خرجوا منذ عشرات آلاف السنين من ربوع سواحل قارة اسمها أفريقيا، أنهم ولّوا وجوههم نحو الشمال بحثا عن صيد يأكلونه وهربا من صياد يأكلهم، أنهم مشوا قرونا وقرونا يتبعون الشواطئ متوغلين من حين لآخر في أعماق الأراضي البكر، حافزُ الروح الفضولُ، وحافزُ الجسم الخوف والجوع والعطش.

أي قصّة سأنتقي لي من بين كل التي تملأ الفضاء المثير لتكون منطلَق قصتي؟ لنختر تلك التي فقد فيها جدٌّ ما من سلسلة الأجداد رِجله اليسرى في معركة مع الفهد. وهذا جده قبل أن يأكله الأسد وهو في ريعان الشباب. أين في الناس جدّ مثل جدي ذلك الصياد الذي كانت تفرّ أمامه الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رابض وراء أكمة، ووترُ القوس مشدود، ينتظر أن

يسقط الفيل في الحفرة المغطّاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة.

لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكّلت منه ذاتك وذاتي.

يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الآفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأوّل مرّة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة تَعِد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصّدها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

لا بدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

تتعطّل كل أدوات الفكر والخيال وقد استنفدا كل الوثائق واعتصرا كل ما فيها ولم يبق أمامهما إلا الإبهام داخل الغموض داخل طبقات متراكمة من ضباب التاريخ.

عن نقطة من هذا المسار وفي مفترق جديد من ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة. تقترب أنثى وَجِلة بحذر من غدير تربض التماسيح على ضفته. إنها لوسي وربما سِلام جدة كل الأجداد... تلك التي تسميها القصص حوّاء... في وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربع ابتسامة على وجهٍ هادئ وقور، وملامح ابتسامة واسعة وضحكة مرحة دائمة، كأن صاحبتها سمعت لتوها نكتة أعجبتها. وكلُّ الأحاسيس والمشاعر التي سنتوارثها جيلا بعد جيل لا نتصرف إلا في طريقة الأداء أو في تفاصيل التفاصيل.

مواصلةُ الحفر والأداةُ عملٌ جماعي تتجنّد له كل الطاقات الذهنية لخيرة المستكشفين، تواصل جمع معطياتها من كل حقول المعرفة تنقّب في صخور الجبال وفي رمال أعماق المحيط وفي الهواء المحبوس في جليد العصور الماضية وفي رميم كم من حيوان خرافي، ذاكرة تجمع قطع "بوزل" ماضٍ سحيق تخلق منها –بما تكتشف من آثار وما تتخيّل–شكلا آخر لِما حدث لَمّا وجدنا وحتى قبل هذا الوجود.

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقيا نظرات الريبة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارِضا يخافون مني، وحاكِما يخافون عليّ. يا للفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هامش اجتماع يوصَف بالهامّ وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغُ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي في الشؤون الإنسانية. لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة قبل أن أستطيع التركيز على ما يقوله الدليل. اللعنة، نسيتُ أنه لا يجوز الركض في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

– سيّدي الرئيس، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته وأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن مجرد محطة من بين كم مجهول من المحطات.

لكنني لا أريد حرمان الرجل الوطني من فخر ساذج وكلنا على نفس عيوب الأطفال.

على طول الحائط خزائن حديدية كالتي تُخبّأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها بلا ثمن وهي تحتوي على رميم أوائل اوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوما على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقٍ ستتتابع عليه أجيالُ العابرين على جسر الوجود.

كم غريب أن ترتيب الذاكرة ليس من فعل الماضي فقط وإنما من فعل المستقبل، وكلُّ اكتشاف جديد وكلُّ نقلة نوعية في خلق التصورات تقلبُ كل ما تراكم داخلها رأسا على عقب.

مهما توغّلنا في عمق الماضي، نحن لا نستطيع التوقف عند أي محطة لنقول هنا منبع السيل،فكل بداية لا تنبثق من فراغ. لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بدّ للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها ...وهكذا إلى... إلى أين ، إلى ماذا؟ إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين. ربما هما- مع كم من مفاهيم أخرى- سراب من صنع اللغة.

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة ''نحن جميعا'' أو في صورة الشجرة ذاكرة الأغصان والجذع.

**

ذاكرة "هو لا غير"

من الاتجاه المعاكس للطريق داهمتني فجأة دابّة الحديد بسرعة مرعبة. وبينما الأنا في حالة ذهول وشلل مسلِّما بنهاية الحياة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُملي على العضلات المتشنّجة أوامرَه فلا يخطئ الحساب ولا هي تتوانى عن طاعة، وقد تعرّفَت على سيّدها الحقيقي.

هي الآن تتدافع إلى عمل سريع، فعّال، منسّق، ناجع، منفذّة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

تنصاع الآلة التي كنتُ أقودها، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثمّ تتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

ليلتها تراجع الموت كالنسر، انقض على شحرور لم يلمسه إلا بجناح.

في ظلمة اللّيل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت الآلة التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيَه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر، ليتجدّد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والعجب.

كم من تجارب مع هذا الذي يعرف داخلي كل ما أجهله!

فجأة يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قيادته إلى عاصفة هوجاء تكوّنَت داخلي ترفعني مرّة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعمق هاوية. عُدتُ الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرّب لذّة دوارٍ حَضرَ هذه المرة ولا لذةَ تصحبه. إن كان لا بدّ من الموت فليكن وقوفا. هيهات، لا مجال للانتصاب والعاصفةُ الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش: تأتيني أوامر "الشيء" بالكفّ عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ به يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف. لستُ من الآن فصاعدا غير مجرّد مُشاهد يتابع قِوًى تتصارع داخله منتظرا حسمها.

شيئا فشيئا ودون تدخل أي طبّ أتى اليومُ الذي استطعتُ أن أقف فيه مجددا على قدمَي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنّحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق. كل هذا لأن شيئا داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحًا ما أفسده عطب غبي، وأنه هو صاحب القرار في موتك أو في مُهلةٍ إضافية من الحياة.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلّال من سائل أحمر لزج ساخن كريه الرّائحة يُخرج الأمّ من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. وممّا بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلّم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطّب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّني كرهتُ الرّجل لما أحدثه في "ما" من حَرج وأنّني أحببت تلك اللّحظة أن أكون مَن يعرف كيف يوقف تدفّق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامَل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفّق من أخي إلّا بعد تدخّل الغريب، والحال أنّه خرج منّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يومَ بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد دَرسَه عن السائل الأحمر وكيف يتدفّق ولماذا لا يتخثّر في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات، أصختُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

لم أحمل يوما على مَحمل الجدّ مقولة سقراط ''كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا'' لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء.

يا لهذا الحجم الهائل من المعلومات التي يختزنها أكبر جاهل فينا. هو يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف بنمو تدريجيا، كيف يشغّل بكل سهولة أعضاءه كما لو كان أعظم المهندسين، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.

ألا يختزن كل واحد منا داخله تجربة الحياة التي أخذت ملايين السنين لكي تنضج! ما أغربها وضعية والمرءُ كالجالس على كنوز قارون، يَقضِي عمره في البحث عن المفتاح والذي في جيبه لا يفتح شيئا!

لهذا عليك أن تُذكّر كل متحذلق ينشد ''يا من تدّعي في العلم معرفة إلخ'' بعمق المعرفة الهائلة التي نختزنها كلُّنا.

حتى معرفتنا الواعية على قلتها بالغة الأهمية.

ما أنا متأكد منه أن في العالم الذي أفقنا فيه ثوابتَ ومتحركاتٍ، أنه محكوم بقوانين أزلية كتواجد الأضداد، أنّ من خصائصه التعقيد، التغيّر، الخلق المتواصل، المفاجأة تلو المفاجأة تلو المفاجأة، أنه دوما أغربُ مِن أغرب تصوراتنا له، أننا نعي أننا نخطئ ونصيب. أليست هذه معارف لا تُقدّر بثمن وينتهي إليها كل واحد منا مهما كان نصيبه من المعرفة، لأننا جميعا دَرَسنا وتَخرّجنا من نفس أرقى جامعة: الحياة.

متأكد أيضا أن كلّ رؤيا للعالم نتاجُ مجموعة بشرية محددة في الزمان والمكان، أن كل رؤيا تعكس جهلها ومعرفتها مثلما تعكس مخاوفها وآمالها، أنها تبدو إلى أصحابها نهايةَ طريق البحث وهي مجرّد منعطف فيه، أنها مبوّبةٌ في أحسن الأحوال لتغييرات جذرية وفي أسوئها لدخول متحف الفكر يوما.

الأهمّ من هذا كله معرفتي بأن لي علما أوسع من كل ما أتصوّر، حتى ولو كان أغلبَ الوقت محرّما على الوعي.

بديهي أن الذات لم تعرف طريقها إلى الوجود ولم تحافظ عليه إلا لأنها تعلّمت كيف توقف النزيف وتصنع العين وتشغّل الذهن... إلا لأنها تعلّمت كيف تبقى وكيف تفنى. كل هذا يعني أن لها ذاكرةً توجد فيها كل الوصفات وكل التعليمات لتدبير حالتَي العيش والموت.

"قد كان يدور دوما في خَلَدي (عمر الخيام)

أن أخرق درع الفلك الدوار

كي أعرف معنى قلم يسطر ما

باللوح وسر جنة ونار

حتى هتف العقل بأن قد جمعت

في نفسك كل هذه الأسرار."

السؤال، مَن أو ما هذا الذي يَعلم داخلك ويمنع علمه من الوصول إلى فكرك الواعي؟

يا ما حلمت أنه فتح لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقنعه أو لأجبره على صبّ ما تعلّمه في وعيي فيعود الارتباط بين العمق والسطح. كم مرة نفد صبري لا أتحمل أن أكون الحمارَ يحمل أسفارا، إلى الصراخ العقيم ولمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وأنا أحصِلُ على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدّل. لو كنتَ ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فأُصبحَ أنا العبقري لا أنت لوحدك.

قد يكون للمجهول الذي يسكنني أسبابُه الوجيهة في إسدال ستارٍ كثيف بين مستويات الذاكرة. أيّ جدوى لذاكرة مطلقة قد تغمر وَعيَنا السطحي كما تغمر موجة التسونامي سبّاحا غير ماهر. مَن بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها على ظهره كل لحظة من السفر بحجة إمكانية احتياجه إلى هذه المعلومة أو تلك. جهلُنا الذي نشتكي منه خيارُ العلم الذي فينا... لحمايتنا؟!

إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجابا *(إيليا أبو ماضي)*

نزل السّتر عليها وأنا كُنت الحِجابا

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة ''هو لا غير'' أو في صورة الشجرة ذاكرة الجذور الملتحمة بأديم الأرض.

الذات إذن طبقات متراكمة من ذاكرة ترمي بجذورها في مجاهلَ محرّمة على الوعي تسميها الرؤيا العَتَمة، لا ندرك منها إلا ما ندرك من محيط نُبحِر على موجه والأعماقُ التي نطفو فوقها مستعصية حتى على أخصب خيال.

"لَمّا رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع"

**

الكتاب السابع: الرؤيا

لا نفع لأحد من هذه الحياة

إن غادر الدنيا

ولم يخلق عالمه الخاص.

بريهادارانياكا أوبانيشاد

ساذجة رؤيا الكائنات الغريبة للوجود؟

هل ثمة رؤًى –ومنها رؤانا–لم تبسّط المعقّد، لم تجزّئ الموحّد، لم تجمّد المتحرّك، لم تحاول استنفاذ ما لا يستنفذه فكر؟

ألا نطبخ نحن أيضا أساطيرنا وأدياننا تلبية لنَفس الحاجيات وبنفس الآليات الذهنية؟

أيُّ غرابة في الأمر ومهمّةُ كل رؤيا تَحمّلُ الواقع لا وصفُه.

يبقى أهم سؤال: ما الذي يمكن لهذا الصدى القادمِ من أعماق الماضي السحيق أن يُعلّمَنا عن وجودنا نحن؟

المعلّق

مقدمة الكتاب السابع

هذا العشاءُ الذي انتهى بسلام فرصةٌ لإلقاء سؤال لم أجسر يوما على طرحه على أيٍّ مِن البنتَين.

– تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يَكتب الزبائنُ رسالة شكرٍ بخصوصه وتَوصيةٍ أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟

تبتسم تفيحه:

– أصوّت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟

أسلّط نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:

– ادفع الفاتورة وسأقول رأيي.

تستعدّ تفاحة للنهوض وهي دوما –مثل والدها، وقَبله الذي كان أبا لأبيها– في عجلة من أمرها.

تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبر باب خروج المطعم الصغير.

– يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

– تقصدين!

– ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جَدّا في يوم من الأيام.

يا إلهي لا أصدّق أن كل هذه الأعوام مرّت وبهذه السرعة.

تمرّر تفيحه يدها أمام وجهي:

– "با"، عُد إلينا.

أتوجه إلى طفلتي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.

– تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تأريخ "ما" وقومها ل.... طيب سنرى فيما بعد... الوصول تقريبا في...

تُفلت مني الجملة.

– آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم. تتدخل تفيحه:

–كفى ضوضاء على قارعة الطريق، "با"، اترك هذه الحسابات للنساء. أنصحك بأن تغتنم الزمان الباقي لتجديد مخزونك من القصص.

تضحك تفاحة. تأخذ في تقليد صوتي:

–كانت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما عزمت عليه.

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكاك الكلمة، لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

– وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء، آخر من تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.

– اعترفا أنهما كانت قصصا مسلّية وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي كان بوسعها إعدادكما لمصاعب الحياة.

تقاطعني تفيحه:

– لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة قديمة.

– خشية في غير محلّها. لا أكرهَ عندي بعد التبلّد إلّا التكرار... أعدك سأبحث عن قصص لم تُروَ من قبل لأطفال.
تعود تفاحة لافتعال الاستفزاز:
– كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان طفل فضولي نافد الصبر خرج يوما من بيته يبحث عن فعل مجهول آمن أنه سيّد الأفعال. والآن من يقود القصّة؟
يشرد نظر تفيحه:
– كان يا ما كان، طفل همّه الأوحد الكشف عن كلللللل الأسرار وهمّه الأوحد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى الأسرار أسرارا.
– برافو يا تفيحه. آه، أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. بربك أليس أفظع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبدا أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاقّ التي تكبّدناها لكشفه... أو أنه حقّا استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل الآن بوقتنا وقد اكتشفناه. والآن كفى، يجب أن أمشي.
يمدّ الدليل يده للبقشيش. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.
تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية هذه.
طيري يا قبلة. أعبري كل الفضاءات. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في ذرّيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقّلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبّدوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحوّاء محبة وامتنانا.
تهمس تفاحة في أذني:
– "با"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.
اللعينة، كم كلّفتني! لكن هل ثمة شيء في هذا العالم له قيمة ولا يكون باهظ الثمن!
والآن أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا ساعات وفي وجهي الريح والمطر؟ لست في عجلة للرجوع و"ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي.
مسكين هذا الجسد الذي كنت أولّع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم... الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان جنتي وجهنمي، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، مؤخرة لا تغري مراهقا بقرصها، أسنان صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيهما فم نهم لرضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض همّه اكتشاف بداية سرطان.
نحن في العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستفزّ به طلبتي: وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير... العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت... العمر الذي يتسارع فيه خراب هذا الذي كان مَطيّتنا على طول الطريق. كأنّ الحياة إبحارٌ على محيط تُسلّمُنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقواربَ كَسَّر الدهرُ صواريها وتدافع الماء من ثقوبٍ حَفَرنا الكثير منها بأظافرنا.
أتمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:
"المرأة التي في فراشي
لم يعد لها من العمر عشرين
منذ زمن طويل، طويل، طويل"

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويل.
حان الوقت -أو قُل هي آخر فرصة-لأستجمع شجاعتي المزعومة. سآخذ "ح" بين ذراعيّ أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتُها لها ولنفسي عن حياء غبي: أحبّك.
كم نخلط بين الحب والشهوة، لا يتضح الفرق إلا والحبيبُ فقَد دفعة واحدة الجمالَ والصحةَ والشباب.
كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الآدمي، على فراش الولادة نسخة جديدة له... تَواصلُ مشروعٍ لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.
ماذا قالت تفاحة؟ إن ولدت بنتا ستسميها حرّة. فأل طيب، ماذا أيضا؟ يجب أن أعدّ لها أجمل قصة لم تُروَ من قبلُ لطفل؟،أي قصة؟ طبعا التي تحتوي قصتي وقصة الآدمية وقصة العالم نفسه والتي توقفتُ عن روايتها لنفسي شغلَتني عنها هموم الطريق.
على فكرة، أين تركتُ الرواية المسكينة كلّ هذه السنين، لا ألتفت لاحتجاجها الصامت وأن عليّ أن أنهيها، لا يهمّ أي نهاية لأن بقاءها معطلة وناقصةً اعتداءٌ سافر على حقوق القصص؟
آه، خرج الآدمي من الجنة طوعا لا كرها خلافا لما تدعيه الروايات المنافسة. دفع لخياره هذا ثمنا هائلا من المصاعب والآلام وخيبات الأمل. ارتحل في هذا العالم جيلا بعد جيل يبحث عن شيء غير محدد وكلُّ هدفٍ يصله يُحيله لهدف أبعد، وهكذا إلى ما لا نهاية. على طريق المسامير والشّوك كان يلتقط أنفاسه في واحات نادرة لا يُطيل فيها البقاء مواصِلا بحثا يبدو عبثيا.
نعم، أتذكّر أنني توقفتُ عند هذا الحدّ.
يجب أن تجود عليّ القريحة ببعض الأفكار لإكمال العقدة ودَفعِ القصة في اتجاه النهاية السعيدة التي يحبها الأطفال من كل الأعمار. نعم، يجب أن تكون روايتي أجمل رواية ممكنة. في كل الحالات لن أسمح أن تكون رحلتُكَ، رحلتي، رحلةُ كل الآدميين سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهَضة، من المتع العابرة، من النجاحات القليلة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبثية، ومن النهايات المحزنة.
الرواية مطالَبةٌ بالبتّ نهائيا في أهمّ المشاكل التي بقيَت معلّقة طيلة هذه السنين؟ من سيُصدّق روايتي بخصوص هروب آدم من الجنة لا طرده منها وكلُّ جهودنا منصبة على بناء شكل أو آخر منها في الدنيا والعودة إليها في الآخرة؟
أي تفسير مقنع أقدمه بخصوص تسهيل الصدى للفرار بل وتشجيعه عليه وهو أحسن مَن يعلم تكلفة النزول إلى مثل هذا العالم؟
ما الذي دفعه لمثل هذا الأمر وما الذي كان يريده من الآدمي المسكين؟
في آخر المطاف مَن هو الصدى وماذا يمثّل آدم بالنسبة إليه؟

"بنيتُ على الرمل (أدولف ستاف)
لكنّ كل شيء انهار
بنيتُ على الصخر
لكنّ كل شيء انهار
واليوم على دخان المدفئة
سأبني."

**

وقال لهم الصدى ألم تفهموا أنني أنا–أنتم، أنكم أنتم–أنا ؟

هوية بطل قصة القصص موضوعٌ شَغل عقول الأجيال وراء الأجيال وسيبقى يشغلها إلى نهاية الدنيا.
على مرّ القرون تراكمت عنه في فضاء الرموز والخيال معطيات وأفكار وصور أغلبُها بالغة السذاجة. لكن ثمة منها البالغة الذكاء والعمق منها أسطورة للإغريق وأخرى للهندوس. لم لا أستعمل ما تُوَفران من لبناتٍ وسأرى فيما بعد كيف سأنظمها مع بقية الأفكار والصور وفق تصميم بدأَت ملامحه تتضح شيئا فشيئا!

في الأسطورة الإغريقية الشهيرة يرضى الآدمي الآخر بأن يُريكَ أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل.
ترفع يدك نافد الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.
تُفاجَأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رَفَعت... فثالث فرابع فخامس فسادس.
تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تباعُد الأفق عن الراكض.
آخر قناع. تَرفعُه مرتعش اليدين خافقَ القلب. تنطلق منك صرخة العجب مكتشفا وجهك أنت لا غير.
لأتثبّت من الأمر. ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلَعُ طبقات الأقنعة التي يختفون وراءها، وفي الأخير أكتشف وجهي كل مرة.
ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر، وفي كل مرّة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما... وجهَهم لا غير.
مغزى الأسطورة؟ بسيط وبالغ الغرابة: أنت كل آدمي، كل آدمي أنت.
هذا التصوّر من ثوابت الفكر، صِيغَ في أكثرَ من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى.
أجملُ إخراجٍ الذي تجَده عند المتصوّفين والشعراء.
" وتخفق في قلبي قلوبٌ كثيرة (بدوي الجبل)
فقد كان شعبا واحدا فتشعبا"
حتى العِلم أعاد اكتشاف الفكرة الموغلة في القِدم ليُخرجها بلغته هو.
فالآدمي في رؤياه مصنوعٌ وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتابٍ –يسميه برنامج المورّثات–والاختلافُ بين الأفراد جُمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.
البرنامج الجيني أوجدَ التشابه شبه المطلق وأوجد أيضا ما يكفي من الفوارق ليكون الجمعُ باقةَ ورد، لا تجَاور روبوتات أو هريسة خلق.
أنا، أنت، هو، هي، نحن... كلنا نفس الكائن وإنْ بوُجوه مختلفة وفي ظروف وحالات متباينة!
انتبه هنا للتغيير الجذري –أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبستيمولوجية"–مع تصوّرات الرؤى غير المتقنة للذات.
هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت، أحسنها تلك التي تحَثّنا على حبّ "أخينا" الإنسان، وأردَؤُها التي تجعله العبد والأنا سيدُه مع تبادلٍ متواصل للدورين اللعينين.
بالتصوّر الجديد–القديم ينتقل التركيز من فوارق الصفحة الواحدة إلى تشابه ال 999 صفحة.
معنى هذا أنك عندما تنظر للآخر واضعا على أنفك نظارات هذا التصوّر فإنك لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق.

يجب مواصلة نزع القناع لأن هذا الآدمي الذي هو أنت-أنا-نحن قد نكون مجرد قناع لكائن أوسع.

هل ثمة وراء قصة الآدمية قصة أكبر، تَستوعبُها كفصل من فصولها كما تستوعب قصة الآدمية قصتي وقصتك وقصصنا جميعا؟

طبعا، إنها قصة كل الأجناس الحية وورائها قصة الكوكب الذي سمح بوجود هذا الكمّ الهائل من القصص المتداخلة على طريقة الدمى الروسية.

ما الخيط الرابط بينها، بعددها الهائل، بتنوع مصادرها، بتواصلها وتجددها عبر الزمان؟

القاسِم المشترَك واحد لا غير: القوة الخلّاقة المبدِعة العنيدة التي نسميها الحياة.

إنها موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الوردة وفي الزيتونة، لم تقتّر على أحد ولم تميّزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذاك تجربة هذه الاستراتيجية أو تلك. هي لا تتوزّع عند ولادة الأجيال الجديدة كما تتوزع ترِكة محدودة على كمّ هائل من الورثة. هي التركة التي يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون -ولو قسّمت ملايين المرات-كاملةً من نصيب كل وريث.

معنى هذا أنّ الآدمي لا ينطوي على نوع من أنواع الحياة، أو على جزء منها، أو على حياة خاصة به تكون أرقى وأجود أصناف الحياة. هو ينطوي على نفس الحياة التي تُحرّك جميع الأحياء، والموجودة فيهم بكامل مقوّماتها.

ما الذي يختفي وراء هذه القوة الخلاقة المبدعة؟ نحن لا نرى منها إلا ما يراه الملاحظ من جبل الجليد.

ما أصبحنا نَعيه بتقدم علمنا المتواضع جدّا أننا أمام عِلم هائل، جبار، مخيف مُتنامٍ عبر الزمان... أننا أمام عملية لا تتوقف كأنها تستعرض -عبر ما تخلق وما تدمّر من أجناس لا عدّ لها ولا حصر-طاقات خيالها وقدراتها على تحقيق المعجزات وراء المعجزات.

ما أصبحنا نقف مشدوهين أمامه اكتشافُنا المتزايد أننا أمام ''شيء''كأنّه يجرب، كأنه يتعلم من أخطائه، كأنّه يحسن من خططه، كأنه يبحث عن حالة قد تكون تلك التي تسميها لغتنا القاصرة الكمال.

لم يبق لنا إلا تعميده باسم.

قف.

نبّهَنا غاندي: ''إنما الأديان لغات ناقصة يستعملها أناس ناقصون في محاولة يائسة للتعبير عن حقيقة كاملة''. ومن ثم ما لا يُحصى ولا يعدّ من الأسماء: آمون، آتون، بعل، يافيه، راما، الله، الطبيعة، إلخ.

حَدِّث ولا تسل عن إلصاق الأوصاف الآدمية بما هو فوق وخارج كل هذه الأوصاف.

وأيضا.

نبّهنا لاوتسو لاستحالة أن يكون له اسم واحد وهو كل الأسماء، أن يكون له شكل وهو كل الأشكال، أن تكون له صفة وهو كل الصفات، أن تكون له حالة وهو كل الحالات، وحتى أن يكون كائنا وهو كل الكائنات.

مظلم وبلا قاع (لاو تسو)

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن

ورغم التحذير نرى لاوتسو يسقط في الفخ الذي حذّر منه وهو يسمي هذا الذي لا يسمّى ''الطاو''.

إنها حقا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمًّى خارج المسمِّي ، من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصةً لا تكون إلا ببطل محدّد الهويّة.

المخرَج الوحيد هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية المجهول الضروري: ''الشيء''.

بهذه الطريقة نحن نوجِد كلمةً تُمكّن من مواصلة البحث، وفي نفس الوقت نجعلها تنطق من البداية بجهلنا بهذا الذي نتحدث عنه وبأننا لا نتقدم له إلا بتصورات ناقصة ومؤقتة.

ما نحن متأكدون منه أنه –وإلى الأبد–غيرُ قابل للوصف بأي لغة آدمية وكل ما نقوله عنه يعكس رغباتنا لا رغباته، على فرض أن له رغبات.

وفي الرؤيا ''الشيء'' ليس منفصلا عن الأجناس الحية، وكلٍّ ما تفرّعَ عنها من أفراد على مرّ العصور. في مثال الشجرة ''هو''كل شجرة أيا كان المكان والزمان.'' هو''كل الجذور وكامل الجذع وكل الغصون بما تحمل من أوراق وثمار.

''هو'' العُصارة التي تمكّن الأوراق والثمار من الحياة، والتي بتوقّفها عن التدفق يكون الموت.

حتى لا نسجن خيالنا في صورة يتيمة ولو كانت بجمال وبلاغة صورة الشجرة، لنقُل إن ''الشيء'' هو أيضا مثل أخطبوطٍ له ما لا يُحصى ولا يعدّ من الأذرع، وكل ذراع هو بمثابة جنس من الكائنات الحيّة. أما الأفراد فهم خلايا كل ذراع ولا بدّ من تجديدهم باستمرار كما يفعل جلدنا ليحافظ على نضارته وطاقاته الوظيفية.

كم من صور وأفكار راكمَتها الثقافات البشرية على مرّ العصور ولا واحدةٌ تستنفذه، وكم صَدَق المعلّم وهو يوصي بعدم تضييع الوقت في المفاضلة بينها.

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان (ابن عربي)

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

كلُّ ما نظفر منه شعورُنا بوجوده الدائم فينا وحولنا.

كل ما نسمعه منه الصدى الذي يتردد في عقولنا وقلوبنا لأوامره ونواهيه.

كم يبدو بعيدا لا يدرك وفي نفس الوقت كم هو قريب. ألم يُذكّرنا المعلم الأول:

بأنّ الذي تهواه بينَ ضُلوعكم تقلّبهُ الأنفاسُ جنباً إلى جنبِ (ابن عربي)

إذن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم عليّ كأنّه يصلّي أمامي.

كان يعرف ما كنتُ أجهلُه أو كان يتذكّر ما أتناسى باستمرار.

لكن لماذا يَفتعل الرهبان البوذيون التفتيش في قُرى التّبَتْ أشهُرا وأشهرا عن طفل معيَّنٍ تَقمّصَته روحُ المستيقِظ ليجعلوا منه الدالاي لاما الجديد، والحالُ أن أيّ طفل يفي بالغرض؟

**

وقال لهم الصدى ألم تدركوا أنه لكل ثمين ثمنًا وهل ثمة أثمن من هذه التجربة؟

في أسطورة هندوسية ذائعة الصيت يَقبل كائن عُلويٌّ -اسمُه فيشنو- بالنزول إلى عالَمنا الحسي واتخاذ أشكال مؤقتة له لا يفاضل بين أحقرها وأنبلها، بين أبسطها وأكثرها تعقيدا، وهي التي تسميها الأسطورة الأفاتار. هكذا تجسّد تباعا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في إله، في بوذا... والحبل على الجرار لأن التجسّد العاشر مبرمجٌ عند نهاية العالم.طيب، لكن لماذا قبل فيشنو بالتجسد في آفاتاراته التسع دافعا الثمن الباهظ الذي نعرف لمحنة الوجود؟ تتقدم الأسطورة بإجابتها الخاصة وتتقدم الرؤيا بتفسير تراه أكثر أناقة وإقناعا لتجسّد "الشيء" فيما لا يحصى ولا يعدّ من الأفاتار.

هيّا يا بنت، اخرجي من جحرك، يكفي من هذا الانتظار المزعج ومن طول الدلال الذي فَرضتِه علينا في بداية النصّ. ماذا؟ هذه المرة لن تنفع توسلاتي ولا ضرورة للإلحاح السمج!

كأنّ الذي غامَرْنا بتسميته "بطل الأبطال" مُحجِم عن دخول الحلَبة شَلَّ حركتَه نحوَ النور خوفٌ داهم.

هل هاله الرجوع لهذا العالم الذي يذرع طولا وعرضا منذ غابر الزمان؟ هل تذكّر كيف تبلور فيه لأول مرة، تائها في فضاء أخرق الاتساع، يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين، طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة؟ ...هل تذكّر كم من جيَفٍ أكل، كم من جثث استخرج من قبورها أيام المجاعات، كم بعثر من قمامات في شوارع مظلمة لمدينة مترامية الأطراف بحثا عمّا يسدّ به الرمق؟

هل تذكّر أنه جلس في رحلات أخرى القرفصاء يبكي حبيبا خانته قواه مجبَرا على تركه جيفة للكواسر والطريقُ لا يرحم مريضا أو جريحا؟ هل تذكّر أنه كان جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياع يفتّشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما؟ هل تذكّر أنه كان لاجئا تتقاذفه الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع؟ هل تذكّر أنه كان عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة نتنة عائما في البول والبراز والقيء، يسأل الموت العجلة؟ هل تذكّر أنه كان مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم؟ هل تذكّر أنه كان مريضا يمشى بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهووسين يضربون صدورهم، أَفقدَهم حجم كارثة الوباء كلَّ صواب، يستصرخون رحمة إله يعتقدون أنه عاقَبَهم بالطاعون؟ هل تذكّر أنه كان شحّاذا على باب كم من معبدٍ لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء؟ هل تذكّر أنه كان قِبلةَ كل الأنظار والحشودُ تتشبّث بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحدٍ ولا حتى لنفسه؟ هل تذكّر أنه كان شاعرا صوفيّا معلّقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلتُه هم الكافرون؟

هل تذكّر أنه كان أيضا بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم حتى لا يلقي به الرفاق في الموج وقد نفد الغذاء والماء...أنه كان إمبراطورا مجنونا ماتت له حبيبته فرأى شبها لها في شاب من حرّاسه فأخصاه ليتزوجه...أنه كان شابا أخصاه إمبراطور مجنون وألبسه كسوة العرس عنوة ليغتصبه فوق كرسي العرش...أنه كان جارية ذبحت في ليلة ليلاء مع مئات الجواري لأن إمبراطورا مجنونا آخرَ صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين...أنه كان مملوكا وقف أمام خليفة يصرخ مَن أكلَ بطيخي ثم يبقر البطون مفتّشا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية...أنه كان مريضة عجوزا تتمتم بكلمات غير مفهومة وتأتي بحركات غريبة لا تستطيع لها دفعا، فساقوها إلى الشنق بتهمة السحر لظنّهم أنها مسكونة بالشيطان؟

هل تذكّر يوم جُدع أنفه وقُطعت أُذناه ليؤكِّد الحاكمُ المجنون لقطيع العبيد أنه السيّد... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنهِ بعد تخبّطه...يوم شُنق على غصن أول شجرة لأن له لونُ الليل...يوم جُرّ إلى أعماق الأرض ورئتاه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثمن معدن...يوم دُفع إلى مواجهة الكواسر يضحكون من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين...يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارقٌ سارقي قوتِ أطفاله...يوم ساقوه للإعدام شنقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيف...يوم عذّبه رهبانٌ مجانين يتّهمونه بالتستّر على دينه المضطهَد...يوم كُدّس الحطَب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظَن أنه عرف كل الممكن من العذاب...يوم ساقوا والده إلى المقصلة ثم أتبعوه بأمه بعد اتهامها أنها كانت تضاجعه؟

هل تذكّر كم من مرة كان جنديا يذبح ويُذبح في أفظع الظروف وهل تذكّر أنه قُتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار؟

هل تذكّر أنه كان جارية سجينة إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطلّ كل صباح على شواطئ محرّمة عليها إلى الأبد...أنه كان طفلة قال والداها أمام الشرطة –لتبرير موتها–إنها سقطت من السلّم وكلُّ الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر علقة، مات منها الجسد تحت اللطم واللكم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب... أنه كان يتيما سملوا عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسوّل المنظّم... أنه كان طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، حُراسُه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... أنه كان امرأة وُضعت في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أَوصى الراجمون بعضَهم البعض ألّا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملّوا طول زفّة الإعدام ؟

هل رأى نفسه، أصابه هذه المرة قرف لا يغالب، وهو في مثل هذا العالم دوما مرتعا للقمل وللجراثيم حيّا وعند الموت وليمة للدود؟ ربما تذكر يوم خرج مُحرَجا وهو كهلٌ يخرج من غرفةٍ يرمي لامرأة مخمورة ورقة نقد ضخمة ثمنَ أَنكر فعلة... يوم بكى وهو المرأة المخمورة التي أجبرها الفقر على المتاجرة بجسد طفلها...، يوم كتم صراخه وبكاءه وهو الطفل الذي يُغتصب... يوم ترك النص جانبا وهو الكاتبُ ليضع وجهه بين يديه يشهق بالبكاء لم يعد يتحمل مزيدا من آلام البشر.

تقول توقّف عن الكتابة هل يمكن القبول بكائن كهذا بطلا لقصتك العرجاء؟

كيف نقبل تجسّد ''الشيء'' في كائن يُعذّب ويغتصب الأطفال؟

ألا يعني هذا أنه شرّير أو غير مبال بالشرّ، أي أكثر من شرير!؟

لكن القصة يا قارئ العزيز تجعل من بطلي الكائن الذي تألم وهو الطفل، الكائن الذي تألم وهو أم الطفل، الكائن الذي تألم وهو المجرم، الكائن الذي تألم وهو كاتب النص. مِن أين لنا محاسبته وهو الذي حكم على نفسه بتحمّل آلام كل المخلوقات... بتحمّل كل التضحيات على مرّ الأجيال والأجيال حتى يوجد *عالم كعالمنا.*

حتى مثل هذا التبرير لا يجدي نفعا. تشعر كلّ آدمية حبلى بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفسُ اللطيف الذي تعوّدت عليه في أحشائها فجأة يتوقّف.

*

يجب أن أجد سببا يَرضى به القلب والعقل لتتواصل قصة كهذه ولِمَ لا إيهام القرّاء أنني صاحب الفضل في تَواصلها. كيف السبيل لإقناع القادم الجديد بمقايضة راحة العدم – الجنة الحقيقية–بتعب الوجود مع ما يتبعه ضرورةً من ظهور الجحيم؟

لأفاجئه بصور البحار والبراري والجبال المكللة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الإعجاب والعجب. يا لها من بطاقات بريدية رائعة يمكن أن يبعثها إلى نفسه تذكارا عن آخر ما جرّب من العوالم.

والآن إلى النقر على وتر ألذّ الأحاسيس: طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبلّلة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خببا عبر حقول الزيتون والعنب.

بقية الروائع: حفيف الأشجار، خرير الماء، همس النسيم، صفير الرّيح، شدو الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم.

تتّسع "الابتسامة" لتختفي بالسرعة التي ظهرَت بها. اللعنة، نسيتُ أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب... أنه يسمع بكاء الأطفال. بكاء ذلك الطفل.

لأدفع بصورته وهو طفل آخر ونفس الطفل يُضحك كلَّ مَن حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... وهو طفلة متقطعة الأنفاس تقفز بالحبل... وهو مسافر في الرابعة من العمر أنفه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضّبت هاماتها حمرة الشفق... وهو الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحبّ، المصحّح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبوة، الرفيق بأضعف الكائنات، المشيّد معابد للخير والحق والجمال.

طيب، شكرا على محاولة رفع معنوياته ومعنوياتي لكنّنا لم نربح بعدُ القضية.

اسمع يا هذا. لو قدّر لك الاختيار، أكنتَ ترضى بغير المصاعب مادة وهي التي تصنع وحدها الملاحمَ وعكسُها لا يصنع إلا أخبار الصالونات؟ ما الذي كنتَ ستشعر به لو كان الطريق سهلا والسهل هو الطريق؟

ما زالت فيه بقايا رهبة؟ لألعب ورقتي الأخيرة وبعدها لا مناص من الاعتراف بالهزيمة.

يهمس النص في ''أذنه'': تأمّل الشكل الذي سترتحل فيه... خاصة أصابع اليدين. صمّمت بدقّة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهمّ قُدرتُها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمعّن فيما ستخلق من أصوات.

تُداهم الفكرَ الممعنَ في الصمت أنغامٌ تتصاعد لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت. تتمازج أصوات العزف مع أصوات البشر لتتعالى إلى عنان السماء أناشيد كتبها ''باخ'' وموزارت. ثم تلحقها ''قوالي'' فاتح خان لتنتهي الوليمة أذانا بصوت فيروز.

[يواصل النصّ هنا التمسّك بفكرة هروبنا من الجنة بحثا عن الموسيقى وأنها الهديّة التي عادت بها حوّاء إلى الصدى. سنجعل بطل الأبطال يبتلع طُعم الكاتب... أو بالأحرى يفتعل ابتلاعه]

كأني أصبتَ المرمى. ينتبه ''الشيء'' إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه. يسرّ إلى نفسه وهو ما زال تحت وقع سحر الأنغام: ثمّة في هذا العالم ما يستحق أن...

يتبلور في فكر مبهم قرارٌ لا رجعة فيه: يسجّل متعهّدُ شؤون العتمة، أنّه قبِل بالمغامرة الجديدة، أنّه سيقمّص الشكل الآدمي لا لشيء إلا لأن فيه قدرة خلق الموسيقى.

لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركا في أعمق أعماق اللاوعي عمدا، بعض الإشارات المبهمة لتذكّره من حين لآخر أنه غير ما سيلبس من أقنعة وما سيمثّل من أدوار.

تعود الطمأنينة إلى تفاحة وكم من حبلى قلقة تشعر من جديد بحركة في أحشائها تكاد تقسم أن فيها إيقاعا لجنين يرقص.

*

كأنّي أسمع صراخ الاحتجاج يتعالى من كل حدب وصوب وفان-جوج يصيح فيَّ: أنا على هذه الأرض للرسم ولا لشيء آخر. ليُكتب لروايتي الانتشار لا بدّ أن تجد القَبول عند مَن يحبون الموسيقى ومن يكرهونها، من يرسمون ومن لا يفقهون في اللوحات شيئا، من قضَوا عمرهم في جمع طوابع البريد أو البحث عن إصلاح الدنيا.

لا بدّ أن يكون هدف الخروج مقبولا حتى من المقتنعين بأنه لا وجود لأي هدف.

عليّ العودةُ إذن لتفحّص إشكالية الهدف كما يتفحّص المرء ويقلّب ثعبانا.

المعتاد في كل الرؤى، ومنها هذه الرؤيا أن تكون الإجابة موجودة حتى قبل السؤال، لأن تحديد المهمة التي جئنا من أجلها هذا العالم ليس قضية إرضاء فضول علمي بقدر ما هي طمأنتنا بأن لآلامنا تبريرا ولحياتنا معنًى.

توضيح ضروري عن علاقة الهدف والمعنى والمفهومان جدّ متقاربان.

لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالتسوس. الخيط الرفيع الرابط بين المفهومين: نفع الشيء للآدمي. لكن هل بوسعنا ربط معنى الحياة بشيء مثل المنفعة.

إن قُلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟ نفعه لإله ما؟ ما نفع الإله؟ حتى الموسيقى... في آخر المطاف، ما نفعها؟

ثمة إذن خطأ في سحب طريقة تفكيرٍ تخصّ الأشياء ولا يمكن تعميمها.

بطل الأبطال أكبر من أن يأتي ليكون نافعا لشيء أو أحد. هو فوق هذا وذاك.

يجب أن يكون دافعُه إذن مشتقّا من فعلٍ أشمل وأوسع وأبعد أفقا من أي فعل، ولو كان نفع أو استنفع.

يجب أن يكون هذا الفعل جذر كل الأفعال التي اشتقت منها كل الأهداف التي حددناها لرحلتنا على مرّ العصور.

لا بدّ لهذا الفعل-الجذر أن يكون متقدما على كل الأفعال المذكورة، أن يكون متحكما فيها، محددا لها، مانعا ظهورها في حال غيابه، منهيا فعلها بانتهائه هو.

هو طبعا إنه فعل الأفعال الذي انطلق البحث في إحدى أثرى سهرات الجدّ واللعب مع تفاحة وتفيحه.

لا وجود لفعل كهذا إلا للذي يُوجِد الوجودَ بكل ما فيه من أفعال وتفاعلات.

هل هو فعل وُجد؟ لكن هذا الفعل يصف الانبثاق مُبقيا وراء الستار مَن أَوجدَ هذا الذي وُجد فجأة.

ماذا كتبت؟ أوجد؟ طبعا إنه الفعل الجذر الذي يجري وراءه النص منذ عقود.

أوجد!

أوجد ماذا؟ طبعا أوجد عالما... عالما آخر... عالما جديدا... العالم الآدمي!

تَفحّص قصة الآدمية وسترى أنها قصةُ استكشافها لِما تَخلُق وخَلْقِها لِما تستكشف وموضوعُ الخلق—الاستكشاف عالمٌ خاص بها لا تعرفه لا الأشجار ولا الأبقار ولا أي من الكائنات الحية الأخرى.

إنه العالم الآدمي الذي نتبلور فيه ونبلوِره، الذي يوجِدنا ونوجِده عبر أفعالٍ تَبني ظاهرَه وتفاعلات تبني باطنَه.

أنظر ما تفعلُه الحواس الآدمية الخمس بالمبهم الأصلي الذي أُسميه العتمة.

هي تبلور عالما من مظاهره البِحار والجبال والسهول والصحاري والأنهر والغابات... عالما فيه خرير السواقي ونشيد العصافير وهدير البحر... عالما بروائح الأزهار والعشب والأرضُ بَلّلَها المطر... عالما فيه طعم التين والزيتون وطيبات الأرض والبحر... عالما فيه أحاسيس البرد والحرّ، النعومة والخشونة، الجفاف والرطوبة، المتعة ولاذع الألم.

القاسم المشترك بين أفعال الحواس الخمس أنها تلقائية لا تتطلب جهدا أو تخطيطا.

ثمة الأفعال الإرادية التي لا يكون العالم الآدمي بدونها وهذه تتطلب الكثير من التعلم والجهد والتحسين المتواصل.

إنما الأفعال التي تملأ بها السواعدُ الفضاءَ الحسي بالحقول، بالقرى، بالمدن، بالمصانع، بالموانئ، بالمطارات، بناطحات السحاب، بالطرق السيارة، بمحطات إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية، بالمحتشدات، بالمستشفيات وبكل المعالم الرائعة والبشعة التي تُراكمها الأجيال وراء الأجيال.

أضِف الآن الأفعال الإرادية التي تعمّر الفضاءات غير الحسية بالأفكار، بالأحلام، بالمشاريع وبكائناتٍ لا توجد إلا في رحابها الواسعة اسمها الآلهة والشياطين والملائكة والأشباح.

تفحّص الآن تفاعلات الآدميين مع هذا العالم، أي مع كل ما فيه من ظواهر وأحداث وكائنات، ومنها الآدميون أنفسُهم.

ستكتشف آنذاك باطن العالم الآدمي وأنه تجربة لِطَيف هائلِ الاتساع من المشاعر ينطلق من أقصى الرعب إلى أقصى الانبهار، من أقصى المتعة إلى أقصى الألم مرورا بكل درجات الحزن والفرح، اليأس والأمل، الحبّ والكره، الطموح والخمول وبقية المشاعر المتناقضة التي لا يسع النصَّ تعدادُها.

أقول إن هذا الطيف من المشاعر الذي يُجرِّبُ أغلبُنا جزءا كبيرا منه، هو باطن العالم الآدمي لا غير، لأنني أفترض دون أدنى حجّة أن الأشجار لا تعرف الحيرة وهي عاكفة على سؤال: ما معنى الوجود شجريا؛ أن الأبقار لا تعرف الانبهار أمام مشهد نخيل مراكش خلفها جبال الأطلس متوجة بالثلوج، فوقها سماء صادرت لنفسها كل بهاء اللون الأزرق وحولها الأسوار الحمراء الشاهدة على أمجاد التاريخ.

طبعا لا علاقة لهذا الرأي بأي استنقاص من قَدر الأشجار والأبقار وإنما الفرضيةُ هي أن باطن العالم الشجري أحاسيس ومشاعر خاصة بالأشجار لا يمكن لنا تصورُها وكذلك الأمر بخصوص باطن العالم البَقَري، وقد وُضعت الحواجز بين العوالم كما وضعت بين الأفراد أنفسهم حتى لا تختلط التجارب وتضيع نكهتُها.

بالعودة إلى طيف التفاعلات الآدمية وعندما أتفحصه عن كثب يخيّل إليّ أن الجزء الذي نَرى عليه تتابعَ الرعب والخوف والألم والتعاسة والجهد والإرهاق واليأس وكل المشاعر السلبية، هو تكلفةُ خَلق العالم الآدمي... أن الطيف الذي نرى عليه تتابع الفرح والمتعة والتفاؤل والأمل هو المكافأة على النجاح في أصعب امتحان.

قد تكون هذه الفرضية ناجمة عن عقلية مصلحية لوّثَنا بها تفكيرُ أهل الاقتصاد وهاجسُهم أمام أي شيء أو حَدَث: ما التكلفة وما الربح؟

من البديهي أن خَلق-استكشاف العالم الآدمي لا يخضع لمنطق كهذا والدليلُ أنه ورشة جبارة لا تُغلِق أبوابها أبدا، متواصلة في كل لحظة وإلى آخر نَفَس لآخر آدمي أيا كانت الأرباح والتكاليف.

بتفحّص ملحمة الآدمية سترى أنها لا تعبأ كثيرا بمنطق الربح والخسارة. كأنّ هاجسها الحقيقي بلورةُ ما فيها من طاقات الخَلق والإبداع تُواصِل بها عملا لا يكتمل أبدا كأنّ همَّها الحقيقي بلورةُ ما فيها من طاقات الدمار حتى لا تتوقف أبدا عمليةُ الخلق والجديدُ لا يكون إلا على أنقاض قديم أُزيح -أحيانا- بكل ما في العنف من ظلم ومن قسوة.

والآن قبل تفحّص قصّتي وقصّتك داخل هذه القصّة الجماعية، أَنصِت مليا لمعزوفة ضوء القمر لبيتهوفن والعازفُ أحد الفنانين المشهورين مثل بارنباوم أو آرو أو هوروفيتز. ابحث في الفضاء الافتراضي عن عازف آخر واستمع جيدا للّقطعة الموسيقية الرائعة. ثم ابحث عن تسجيل آخر لها بأنامل عازف ثالث ورابع وخامس. يمكنك أن تتوقّف عند السادس أو السابع وقد اتضحَت لك حقيقةٌ على قدرٍ كبير من الأهمية. رغم أن المؤلِّف واحد والقطعة الموسيقية موثّقة بنفس النوتات، فإن الأداء يتباين من عازف إلى آخر في جملة من الفوارق، منها التي تتعرف عليها بسهولة كالسرعة أو التثاقل في العزف، وأغلبُها فوق وخارج كل توصيف ولو كان توصيف أكبر علماء الموسيقى.

إنها نفس الظاهرة في كيفية تأديتنا للأدوار القارة التي نَصنع منها قصصَنا، لكن على نطاق أوسع وأكثر تعقيدا.
كأنّ وراء الظاهرة أَمرُ ''الشيء'' لذواتٍ سَهرَ على أن تكون متشابهة ومختلفة: نَوّعوا، جدّدوا، ابتكروا، اتخذوا كل الممكن من المواقف، من السلوكيات، من التقاليد، من الطقوس، من الرؤى من الفنون ومن الأوضاع. عيشوا فاحش الفقر وفاحش الغنى، مطلق السلطة ومكتمل العجز، أروع تجارب السعادة وأفظع تجارب الشقاء، الإخفاقات المريعة والنجاحات الرائعة، السقوط المدويّ والنهوض الجبّار.
كأنّ وراء تَبايُن القصص والثوابتُ واحدةٌ إرادتَه لاستكشاف ما تزخر به كلُّ ذات آدمية من إمكانيات الفعل في العالم والتفاعل معه.
آه حلم الكاتب بدخول أرشيف الله، ذلك الحلم الذي أخرجه منه همس بنت تدعي أن شخيره أزعجها، ومرة ثانية ورنين هاتف غبي في نزل في أقاصي الأرض! ما الذي يمكن أن يحتويه هذا الأرشيف غير ما عاش
" الشيء" عبر ما لا يحصى ولا يعدّ من الرحالة؟ ألا يمكن أن نتصور أجيالهم المتتابعة بعثات استكشاف والمهمة المسترسلة تجربة كل أوجه كل مستويات، كل تفاصيل، كل دقائق، كل خصائص عالم غير الذي جرّب ولا يزال وهو نمل، قمل، نحل، نسر، فطر، فيروس أو شجر؟
يمكنني الآن أن أردّ على سؤال تابعني عقودا أَلقَته عليّ طفلة في الرابعة أو الخامسة ونحن نمشي في شارع مكتظّ: ''با'' ماذا يفعل كل هؤلاء الناس ''هنا ''؟
كلنا '' هنا'' ليجرّبَ '' الشيءُ'' عبر ما نُمثل من الأدوار وما نعيش من القصص كيف يكون الوجودُ آدميا...لا يبالي في استكشافه هذا أن يعيش أروع الحالات وهو المحب المحبوب،وأفضعها وهو الضحية والجلاد.
هل يعني هذا أننا مجرّد أدوات وحتى فئرانُ مختبرات؟ قطعا لا.
كما الشرارةُ لا تكون إلا بالحريق والحريقُ مجمل الشرار وألسنة اللهب... كما حبة الرمل لا تكون إلا بالصحراء والصحراء جملة الهضاب وحبات الرمل... كما القطرة لا تكون إلا بالمحيط والمحيط كل أمواجه وجملة قطراته، فإن ''الشيء'' لا يكون إلا بهذا العدد الهائل من الأجناس والأفراد وكل هذه الأجناس والأفراد هي ''الشيء'' لا غير.
ولأنه هو–نحن، ولأننا نحن–هو، فإن ''الشيء'' لا يجرب فينا إلا على ذاته، ونحن بدورنا لا نجرّب كل ما نجرب من نجاح ومن فشل، من يأس ومن أمل، من متعة ومن ألم، إلا... به وله.
لكن ماذا يريد ''الشيء'' منا ومنه ومن تجاربه التي لا تنتهي في عوالم لا تُحصى ولا تعدّ؟ لنقُل إن السؤال غيرُ قابل للردّ لأنه فاسد أصلا ولا محلّ له من الإعراب. هل ''الشيء'' بحاجة لسبب يبرر به أو يفسر به وجوده وتصرفاته؟
طبعا لا. "هو" بغير حاجة ليكون مفهوما، أو مقبولا أو معذورا، أو محمودا، أو نافعا، لا لشيء إلا لأنه ''هو'' الأصل الذي تتفرع منه كل الأشياء وكل الكائنات وكل ما تُبلوِرُه عقولُ البعض منها من مفاهيم مثل البداية والنهاية، الحيّ والميّت، النافع والمضرّ، العبثي والذي له معنى. هكذا يمكن لقصّة القصص أن تكفّ عن البحث عن هدف لبطل الأبطال، وكل الأهداف أهدافه ووجودها مثل انعدامها لا يغيّر من أمر الوجود شيئا.
ألَا نُصاب بخيبة الأمل عندما نَصل إلى الذي ركضنا وراءه ونحن نكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمّنا؟
ألَا نجعل من كل نقطةِ وصولٍ، ولو كانت قمة القمم، مُنطلَق طريقٍ جديد؟
هل هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقتحِمْ أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع؟
يحضرني الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثا عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أوهموني وأوهمتُ نفسي زمنا طويلا، إنما للكتابة نفسها لا غير.

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طُعما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيفُ الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه. كم صَدقَ من قال: عندما تحقق هدفك اعلم أيضا أنك ضيّعتَ كل الباقي.

كم من أهداف جَرينا وراءها نَحزن لعدم تحقيقها والحالُ أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماغ لمعرفة أسراره.

في روايتي لقصة القصص ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه، وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزخر به من قدرات في مجالَي الفكر والخيال.

أخيرا يمكنني أن أَجري وراء أي هدف وأنا أعرف أنه مجرّد تِعلّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعته مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصتُ من رواسب ترويضٍ ماكرٍ ودعاية خبيثة وعقدةِ ذنبٍ مغروسة بدهاء منذ نشأتي، لأكون لهم خادما لا يطلب جزاءً ولا شكورا.

الآن يمكنني أن أتنفس الصعداء ونفسي لا تطالب نفسي بشيء.

أخيرا الرحلة.

"كالموجة   (لاو تسو).
على سطح المحيط
كالريح
بلا وجهة."

**

وقال لهم الصدى لا ترهبوا الموتَ إنه مع الحياة أجملُ هداياي.

نسيانٌ أم تَناسٍ؟ لا هذا ولا ذاك وإنما موضوعٌ جِدُّ حسّاس لا يُطرح إلا في الخاتمة. إنه بالطبع موضوع الموت، الهاجس الأكبر لمرتحلين أغلبُهم لا يريدون مغادرة عالمٍ يَضجون بالشكوى منه طول الوقت. داخل ملفاتي روايةٌ محفوظة بعناية لراوٍ عبقري يكتب بالكاميرا لا بالقلم، هو أحسن من تناول جدلية الموت والخلود. يكفي أن أُقحم روايته في روايتي وأن أُدخل فيها بعض التعديلات البسيطة لكي تكتسب قصةُ القصص شكلَها النهائي والكامل.

سنة 2293.

أصبحَت التكنولوجيا قادرة على خلق جنّة اصطناعية تُوفّر كلَّ المطلوب من أي جنة تَحترم نفسها، وأساسا الخلود. هي محَميّةٌ تتحصّن منذ قرون وراء أسوار شاهقة والنعيمُ الأبدي الذي بداخلها وَقفٌ على أقلّية. أما قَدَر الأغلبية فالبقاء الصعب الأليم في عالم هو جهنم على الأرض. لا شيء يثير حفيظة هذه الأغلبية قدر هذه الجنة التي يَروها بأُم أعينهم ولا يقدرون دخولها ولا شيءَ يرغبونه أكثر من غَزوها أو تدميرها.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة –أو هكذا خُيّل له–مَنفذا للقلعة، فيدخُلها هو ومحاربوه شبهَ مقتنعٍ أن ساعة الثأر قد حانت. ينتبه سريعا أنه ثمة شيء غير طبيعي. أين قوى الدفاع، هو الذي كان يظنها ستجبره على معركة يحقّ وصفها بأم المعارك؟

المشهد الأول

الصيّاد الهمجي يتابع شيخا يتقدم نحوه باسما ممدود اليدين. شيخ! كيف؟ ألا تؤكّد الأخبار –التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم–أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في الشيخ وهو يحاول الارتماء بين ذراعيه:

– الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

– ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقَب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. يتراجع حقدُه تاركا مكانا لفضول جارف. يجب أن يَحثَّ هذا الكائن المقزّز على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعةٍ استعصَت على الأجداد.

لا حاجة إلى تهديدٍ فالشيخ لا يريد إلا هذا.

قال الشيخ: اسمع منّي القصة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبأ بالزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الآدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعددنا لها العدّة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر البشري. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خِلناها المدينة الفاضلة... الجنة، كما كان الأوائل يتخيّلونها.

يواصل الشيخ عرض أطوار القضية:

– وضَعنا في الزمردة السوداء كل التعليمات لإدارة شؤون الجنة هذه، وأن كل من يخرج عليها أو يهددها، يعاقَب بالشيخوخة الأبدية ليعيش المذنبُ إلى الأبد بكل موبقات الكِبَر لا أمل له في راحة الموت. الزمرّدة هي دعامة هذه الجنة وضمان وجودنا. هي حارسة خلودها وخلودنا. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسيّر كل شيء، وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هَولا مِن أفظعِ ميتة.

غريب! الخطاب يأمر بشيء. ما وراء الخطاب يحثّ على العكس.

الصياد الهمجي محادثا نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ، وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربّة القبيلة.

كأن المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه –هكذا دائما بمجرد الصدفة–فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

– مِن هنا أيها المنقذ.

المنقذ؟ لماذا أطلقَت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا رنّة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوتُ الساحرُ: تعالَ أيها المنقذ الذي فَرَغَ الصبرُ من طول انتظاره كلَّ هذه القرون. اتبَعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول للحرم من هنا. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنجح.

تنطلق الفتاة تقود البطل في الدهاليز الغريبة ووراءها من بعيد ذكورٌ وإناث يرفلون في الحلي والحلل، لا يُخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلقا. من أول خطوة أحسّ بألم لا يُطاق ينهش لحمه وقوى الدفاع المجهولة تنصب له الفخ بعد الفخ. ضاع هو والدليل الجميل أكثر من مرّة. ثم وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدّة آلام فظيعة لم يجرّبها من قبل. كانت تضمّه كل مرة إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وأصبح لك زوجة. عند اجتياز عقبات لا تدركها كانت تضحك كأنها تتشفّى من عدوّ ستنتقم منه ألذّ انتقام.

من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجه مِن خِلفِ ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرها عقل.

– قولي لي من نحارب؟

– قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفرج أساريرها: من هنا.

حتى في الجنة مؤامرات ومتآمرون! مَن هذه المرأة؟ مَن هؤلاء الذين يدلّونها حين تختلط عليها الطرق، وما دوره في كل هذا؟

قالت له بعد أن قطعا شوطا طويلا: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعك في شيء. هنا حَرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا لا يدخلونه. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها الآن. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.

ها هي الزمرّدة أخيرا في قبضته. علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده! رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته! لحظة تردّد. ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل الزمردة لمصلحته ولمصلحة قومه؟ لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المخنثين.

يطبق براحته على الزمردة فتنطفئ كل الأنوار. تتهاوى الأسوار ليقتحم الزمان المحميةَ كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

يسمع الصيّاد الهمجي صراخا غريبا يتعالى من كل الأرجاء: صراخ اللذة أم صراخ الرعب والألم؟ يهرول نحو مصدر الضجيج. آه، إنهم رجاله تدفقوا للقتل والنهب والسبي.

غريب! إنه لا يعرف أزياءهم وجُلّ أسلحتهم وإنْ تَعرّفَ على السيوف. كم عقودا مرّت عليه وهو في هذا المكان؟

يَشدُّه منظر الخالدين وهم... يركضون باتجاه الغزاة.
الخيل تفرّ منهم فيجرون وراءها، يتدافعون تحت سنابكها وهم يتضرعون إلى الفرسان: أنا، من فضلك! ... الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد... الغانيات يمزقن القميص ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلّال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضَحك سمِعَه يوما. إنه تعجُّبُ مَن يرى غزالا يركض صوب الأسد أو حَمَلا وراء الذئب.
يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة شاهدها آدمي.
– بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.
– ستتكلم قبل ذلك. مَن أنت؟ مَن هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟
– هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأَدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية. اسمع مني أغرَبَ قصص الآدمية المجنونة. نسينا لماذا خرجنا، لم نفهم ما المطلوب منا. قررنا أننا لم نأت العالمَ إلا للتمتع به وحَكَمنا بالموت على الموت. كانت الجنةُ حقا مكانا مُثيرا في البداية. غرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة وموسيقى. ثم اكتشفنا الفخّ الذي نصبناه لأنفسنا واستحالة الخروج منه. كنّا كالأطفال الذين يحلمون بأكبر مصّاصة ممكنة. لَمّا صنعنا المصاصة اكتشفنا أنها مسمومة. لم يطُل بنا الوقت قبل أن نكتشف أننا لَما ألغينا الألم، لم يعد للذة معنًى، أنه لم يبق للجمال قيمةٌ بما أننا قضَينا على القبح، أن الحكمة اختفت بما أننا صفّينا الغباء. أن الخير أصبح كلمة فارغة من أي معنًى وقد انقرض الشر. لم تعد بنا حاجة إلى الشعر والموسيقى ونحن لم نعد نعرف لوعة الأسى. ما الذي سنسعى لمعرفته وقد عرفنا كل شيء، ثم بماذا سنملأ الوقت المتوقّف الممتد أمامنا إلى ما لا نهاية، وقد جَعلنا من نهر الزمان بِركة آسنة لم تلبث أن تصاعدت منها الروائح العفنة.
يواصل الشيخ: كنت أولَ من قال يَجب إنهاء هذه الموبقة. كَذَّبوا آذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا ادرس أكثر، اسمع الموسيقى أكثر، مارس الجنس أكثر وتعبّد أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بَلادةِ حسّ متزايدةِ العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ في آذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أفظع عقاب لرفضنا أول قوانين العالم السويّ؟
هكذا حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنتُ أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبّد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يطاق. شيئا فشيئا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت.
كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟
بصفتي أول متحرّر عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة وبالضرورة من خارج المحمية.
كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذاك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلتُ يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقدا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندلّه على مَكمن الداء. كنتَ يا زاردوز آخرَ حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. كم تطلّبت من جهد حتى تكون جاهزا. ها قد نجحت حيث أخفق قبلك كم مِن مُغامر صنديد. بوركت، بوركت أيها المنقذ.
تعديل النص لنفس الرواية

وبصفتي أول متحرّر، عهد إليّ بالبحث عن حلّ. ما العمل وأنا أكتشف في آخر رحلة تفقدية أن الآدمية انتحرت على أسوار الجنة وانقرضت كليا. لم يبق غير البحث عن حلّ داخلنا. لم يكن الأمر سهلا والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذات يوم واجهته، هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفتُ أنه يخطط للفرار للعودة إلى حيث الزمان، قلتُ لا بدّ أن أُعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية فهي أيضا من نفس الطينة. إنهما أملُنا الأخير في ولادة آدمية جديدة تعطينا ولو بعد آلاف من الأجيال المنقذَ الذي ننتظر... أنت.

مواصلة الرواية الأصلية

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاد صبرٍ دامَ كم مِن أبدية:

– هلمّ، خلّصني من كابوس هذا الخلود اللعين. هنا الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقاب. تمهّل لأشعر ببرودة النصل وهو يغوص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا حُرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لَزِجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطِعةً الشيخ برقّة ويدُها على ذراع المنقذ: أنا التي قُدته داخل الهيكل. نصلُه لي قبل كل واحد منكم.

يتردّد المنقذ ثم يأخذ قراره. يغرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلفظ المتمرّد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع. يلتفت آدم لحواء ليعلمها أنه يفضل أن تعيش معه تجربة حياة معفاة من الخلود. تتردّد حواء في قبول مواصلة البقاء. ثم تنتبه إلى أن الزمان الحبيس سيعود للتدفق وأنها ستعرف تتابع الحلو والمرّ إلى آخر العمر. تأخذ بيد حبيبها وتخرج إلى عالم استعاد توازنه لتعيش إلى العمر الذي يصبغ الشعر ببياض المهابة والجلال، لتعرف اللحظة المهابة المهيبة وهي ترحل كما رحل الآدميون بين فرح الراحة الموعودة ورهبة القفز في المجهول.

ولأنه لا بدّ لكل قصة من عظة، فعظة هذه القصة أنه إذا اعترضَك بائع لبق يريد بيعكَ الخلودَ في الجنّة بآخر درهم لك. فكّر مليّا. مؤكّد أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير.

لماذا!؟

حَبّر على الورق ما يَخطرُ ببالك من أوصاف الحياة: غريبة، عجيبة، مرهِقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، خادعة، مكلفة، متغيرة، معجزة المعجزات. ستكتب بالضرورة أنها م.ح.د.و.د.ة.

الموت إذن ليس حالةً مناقِضةً للحياة وإنما خاصية من خصائصها الإجبارية.

كيف يكون جزءٌ من طبائع الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟ حاوِل أن تتمرّد على القوانين السرمدية التي تُسيّر العالم والنتيجة هي التي تعرّضَت لها اسطورة زاردوز.

نعم لكن الذات تكره أغلب الوقت محدوديتها هذه كرهَ الأحدب لحدبته!

الخلل في هذه الرواية لقصة القصص، أنها لم تأخذ بعين الاعتبار إلا الجزء من الذات الراغب في راحة العدم.

مِن أين لنا إنكار أهمية الجزء الراغب في تواصل الحياة؟

أن يكون الخلود الذي توفره الجنة سُمّا في الدسم، لا يُفنّد قوة ودوام حاجة الخلود عند الآدمي.

كيف يمكن للرؤيا إذن تجاهلُ حاجةٍ بمثل هذا العمق وإن تبدو لا–منطقية؟

روايتي أمام تَحدٍّ جديد: كيف ستستطيع أن تضمن للذات الخلودَ والفناءَ في آن واحد؟

وفي روايتي لقصة القصص ثمة حلٌّ لا يتعسف على قوانين العالم ولا على رغباتنا المتناقضة التي كانت دوما محرّك كل القصص. يخصّص الصدى للذات المرهَقة الموجوعة جناح الانتفاء النهائي. على بابه توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدّد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد".

أين سيحقّق الصدى حاجة الخلود، خاصة كيف؟

لنذكّر بالمواد–المعطيات–التي تَصنع بها الرؤيا بنايتنا الرمزية الخيالية، وأن الشجرة من أحسن الصور لتوضيح الفكرة التي تشكل حجر الزاوية في هذه البناية.

ردَّدنا أكثر من مرة أن الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة هي مجرد وعاء مؤقّت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تَضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

مبتدأ الخبر ومنتهاه أن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق، وهي السيل المتدفق الذي يضمن الحياة لكل الشجرة ولا ينتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقَطع هذا الغصن أو ذاك.

كذلك الذات. أهمّ ما فيها ليس الغلاف الجسدي وإنما ''عصارة''الحياة، بما هي علم هائل هو واحد فيها وفي كل الذوات، وإرادة لا تلين هي واحدة فيها وفي كل الذوات، ومشروع جبار هو واحد فيها وفي كل الذوات.

هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق.

من جهة لا ثبات لنفس الورقة على الغصن، وهذا يمكّن من احترام محدودية حياة كل ذات.

من جهة أخرى ثمة تواصلها لا في غلافها –الذي تتخلص منه تخلّص الجلد من قشرته السطحية–وإنما في أهم مكون لها، ألا وهو هذه العصارة التي ستواصِلُ ضخَّ طاقتها تغذي أوراقا جديدة تشكل منطلق قصص أخرى.

لقائل أن يقول، لكن البشر ليسوا أوراق شجرة وكل كائن فريدٌ متميز يُضيّع الموتُ طرافته!

ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظَت على نفس الأشكال، نفس الحالات، نفس الأجساد؟ بل ما الذي كنتَ ستجني أنت مِن مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات الحياة وضرورة حياة جديرة بأن تُعاش؟

انظر الآن كيف يتحقق –دون التعسف على منطقٍ–كلُّ ما تريدُه الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهَق –أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف–وقد جفّت فيها العصارة... التجدّد والتواصل للأوراق التي تغذيها نفس العصارة وكل ذات هي نفس الذات الأزلية وفي نفس الوقت ذات جديدة أخرى.

"أنا في الزمان كموجة في زاخر *(إيليا أبو ماضي)*
أنا فيه إن يزبد وإن لم يزبد
مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي
أو مخرجي منه ولا بمبدّدي"

**

على هامش النص

اكتملت إذن أشغال بيت الروح الذي أبنيه لنفسي منذ عقود.

أعود للتصميم أبحث عن آخر نقص يمكن تداركه. كل شيء تمام: هوية الآدمي، سبب وجوده، طبيعة عالمه، ترويض خوفه من الموت.

هل للقارئ ما يطالبني به بعد هذا كلّه والرؤيا تُرضي جلّ حاجيات الآدمي؟

بِجدّ، أليست بنايةً فكرية تستأهل أن يسكنها أصحاب الذوق الرفيع والمنطق السليم. ما الأفضل بالنسبة لك؟ أن تكون "عبدا" لسيّد ولو كان أحسن الأسياد، حيوانا شقيّا تائها على حبة رمل في صحراء الكون أو أن تكون الشكل-اللحظة الذي تبلورت فيه ذات الذوات؟ أليس رائعا أن طاولة القمار تُرجع لنا خسائرنا وتسمح بمعاودة اللعب ولا حدّ للمرات أو للمَبالغ التي نستطيع الرهان عليها؟ أليس مُنعشا للأمل أن يعيد لك الزمان كل مرة عقارب الساعة إلى الصفر الأول؟

أتترك كل هذا لتسكن بالبيوت المغشوشة التي تزيد من أوجاع الروح بدل التخفيف منها! ماذا تريدني أن أفعل لك أكثر مما فعلتُ وقد أهديتك أجمل الهدايا. والآن يمكنني غلق ورشة الأشغال أخيرا وتسليمك مفاتيح البيت.

وداعا.

مؤكّد أنني نسيتُ شيئا والأمرُ حتمي في كل عمل آدمي... ما اللبنة الناقصة التي لم ينتبه لها الزبون؟ طبعا تبرير وتفسير صعوبة الرحلة. ما الذي كنتَ ستشعر به لو كان الطريق سهلا والسهل هو الطريق؟ طبعا أن العالم يستصغرك، إذن لماذا تشتكي؟ ليس هذا ما يريد لساني النطق به. ماذا إذن؟ لحظة! هذا ما كان على طرف اللسان. أَصدقُ رؤيا ليست التي تمتصّ من العالم كل أسراره، إنما التي تضيف للأسرار أسرارا.

ماذا تقول؟ إنني خدعتك منذ البداية وأنا أتكلّف الانتباه لحاجياتك، والحال أنني لا أستمع إلا لهواجسي. يا مسكين، هذا موضوع انتهينا منه، والرؤيا تثبت أنك أنا وأنني أنت، ومن ثم هواجسي هواجسُك وحاجاتُك حاجاتي.

تُضيف، نصفَ مقتنع بما تقول إنما لمجرّد التأكّد مما أنت واثق منه، أنني لعبتُ معكَ منذ البداية دور الباحث الذي افتعل كل معاناة البحث وهو يعرف النتيجة التي يريد الوصول إليها. خطأ. تدافعت الأفكار في فوضى موجعة واستقامت بالكتابة وكانت دهشتي من تشكلها لا تقلّ عن دهشتك وأنتَ تطالعها.

تُودّعني مداعبا ومواسيا: والآن ماذا ستفعل بعد أن أنهيتَ كل الأشغال الأولية والتي لا أشك أنك ستعود إليها مرارا وتكرارا؟

قد تتصوّر أنني سأعتكف في زاوية مسجد أو مغارةٍ لأزهد في الدنيا وأتنسّك منتظرا نهايةَ الحياة وبسمةُ بوذا على الشفتين! يا هذا، متى ستكفُّ عن إساءة الظن بي والحالُ أنه لا دخل لي من قريب أو بعيد بهذه السيناريوهات؟ اختَر لمثل هذه النهاية مَن فرّوا من الحياة كالجنود الجبناء مِن ساحة المعركة وقد سمحوا لأنفسهم بالحقّ في السعادة النهائية -لو كانت ممكنة-وبقيّة الآدمية تتخبط في الشقاء.

وبالمناسبة سَل هؤلاء المعتكفين في الأديرة وفي أبراجهم العاجية وقد حضنوا حقيقتهم الأزلية كالدجاجة بيضتَها، هل وجدوا في ترديد نفس التصورات غير الروتين والملل؟ تريدني أن أقايض تَواصل الانتباه بتبلّد القناعات المطلقة وبلاهة السعادة المزمنة؟ وخلافا لهم سأواصل المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة، لا أشيحُ ببصري هربا من قُبح أو ألم، لا أبحث عن سعادة أو "ساتوري" أو "نيرفانا" إلا كتجربة عابرة، تُضاف لكل تجاربي الأخرى، مُنساقا مع حركة العالم، منخرطا فيها إلى آخر نفس.

المهم بالنسبة لك عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، أن الرؤيا -خلافا لبيتي في الفضاء الحسي-بيت مفتوح الأبواب طول الوقت، وكلُّ آدمي مُرحَّب به فيه متى شاء وللفترة التي يريد.

لكن إن أردت أن تبني بيتك الخاص فخذ بهذه النصائح.

اترك الأفكار الجديدة تنضج ببالغ البطء والحذر.

لا تعجل عليها وإلا فرّت نحو الأعماق تُعابثك وتعاقبك على نفاد صبرك بالاختفاء طويلا.

لا تتوقّف عن تفحّص مقترحات وعيك الباطني.

إن تماشت مع العقل والفؤاد وإن لم تكذّبها التجربة، اقبَلها مَرحليا.

إن ناقضتها، اتركها غير مأسوف عليها.

احذر من أفكارك قبل الحذر من أفكار الآخرين.

استعمل أذهانهم كمطرقة لتفحص متانة آرائك،

للمراجعة تلك التي يتّضح ضعفها،

الفاسدةُ لِسلة المهملات غيرَ مأسوف عليها

والتي تصمد لأشرس نقد في ملف القناعات المؤقتة.

النتيجة دوما تصورات تُحَوصل كل ما تعرف وكل ما تجهل.

تَساءل: هل بوُسع التي أنشرُ بين الناس أن تقلّل من معاناة الكائنات.

إن كانت الإجابة بنعم، تعهّدها بالسقي كما لو كانت أندر الأزهار.

اجتثها كالشَّوك بلا تردّد إن كان الرّد بالنفي.

كن دَوما تلميذَ نفسِك النجيبَ، أُستاذَها العطوفَ، وممتحِنها الصارم،

كن عاقلا لا ناقلا، مبدِعا لا مُعلّقا، مجدّدا لا مُردّدا.

**

كان يا ما كان

يتعالى صوتُ الأم الأزلية من وراء باب الغرفة ضاحكا نافد الصبر، تصرخ بأوامر لا يعيرها أحدٌ اهتماما ولا حتى صاحبتها. أهمس في أذن البنت:

– حبيبتي حرّة، انتبهي، ستدلف علينا ‘‘ما’’ معلِنة حَظر التجوّل. على فكرة، ماذا لو توقفتِ عن الصراخ، قد توقظي هناء، لا تَغتَري بعمق نومها!

– جَدّي! هناء شرّيرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و.

– نعم، نعم، وفي السيارة تنظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها.

– جدّي! أريد أن تروي لي أطططططول وأجججججمل قصة.

– عندي لكِ قصة أروع من قصة الجارية وشهرزاد. عندي لكِ قصة القصص أُعدُّها لكِ منذ سنوات. سأروي لكِ أوّل فصل منها هذه الليلة، لكن شريطة أن تتوَقّفي عن الصراخ والقفزِ على هذا السرير المسكين.

– جدّي، جدّي، جدّي! هّيا، عجّل.

– طيّب، خذي في حضنك دميتَك "إيتي" لتسمع هي أيضا. شيء بداخلي يقول لي إنها متلهفةٌ أكثرَ منك لسماعها. ربما تتجسّس علينا منذ كانت بحضن أمّك. على كل حال ليس لدينا ما نُخفيه. إذن...

يُعاد من جديد خلط كل الأوراق.

– جدّي! جدّي أنا أروي القصة، أنا، أنا، أنا!

– مِن أين لطفلة صغيرة أن...؟

– لا، لا، أنا، أنا، أنا!

– يا بنت استحيي، عُمُرٌ كامل وأنا... وأنت تريدين بأعوامك الثمانية أن...

تعود حرّة إلى القفز فوق السرير تغنّي صارخة: أنا، أنا! أنا أروي كلللللللّ أحداث القصة.

– لكنكِ لا تعرفين حتى مَن هو آدم ولماذا هرب من الجنّة!

– أنا أعرف، أنا أعرف، أنا أروي القصة لا أنت!

لم لا؟ أليست كلُّ تصوراتنا للعالم قصصا يرويها أطفال مِن كل الأعمار لأطفال من كل الأعمار.

ما الذي يدعوني إلى الاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟

لأَسمعها، ربما لديها أفكارٌ أستولي عليها لتحسين التي أؤلّفها منذ عقود.

– إن أيقظتِ هناء تتحملين وحدَك مسؤولية تدخّلها المتواصل. الكلمة الآن لأميرتي الجميلة. تفضلي. الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلللللللّ الوقت.

تهمس حرة في أذني وقد اكتسبت ملامحُها جدّيَةً مفاجِئة.

– جدّي لا أريد أن تموت أبدا... أبدا... أبدا!

– يا بنت، ماذا فعلتُ لك لكي تطلبي مني شيئا كهذا. على كل حال ما زال أمامي ما يكفي من الوقت لسماع روايتك. انتبهي، قواعد اللعبة واسألي أمكّ ،أن أَفتكَّها منك إن أخذتِها في اتجاهٍ لا يُعجبني. يا الله، كلّي آذان صاغية.

تُسلّط حرّة نظرة أخيرة على أخت مغمضة العينين. تتنفّس الصعداء وقد تأكدت أنه لا شبح ابتسامة على محيّاها يفضح تظاهرها بالنوم. تضع رأس إيتي على المخدّة بكثير من العناية.

تحدّق فيّ مبتسمة ثم تهمس:

-كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل اسمه آدم...

**

المنعطف المهيب

لا أحد يتذكّر كيف كانت آخر اللحظات قبل أن يلفظه الرحم، ولا أحاسيسَه ومشاعرَه وهو يعبر النفق الرابط بين العوالم، أو ما عاشَه الأشهرَ الأولى عند ارتطامه بهذا العالم.

كذلك لا أحد أَبقَى لنا أبلغَ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت وهو في وضعٍ آخرُ همّه إملاءُ كلماته الأخيرة على كاتبة جالسة حذوَ فراشه وهو يحتضر. وأيضا لا أحد عاد من العالم الآخر ليصف كيف هو النفق المعاكس وما الذي يحطّ عليه المرتحل بعد أن يلفظه هذا النفق.

لا يبقى عليَّ إذن إلا استباق الأحداث والاستنجاد بالخيال لوصف نهاية الرحلة، لا يهمّ مدى قربها وابتعادها مما يسمونه الحقيقية. فدَعامة النص قناعةٌ ثابتة أن هذا عالمٌ واقعه خيالٌ وخياله واقع، وأن الأغبياء وحدهم مَن يضعون الحدود التي لا تخترق.

إذن، والتزاما إلى آخر نفس بخطها التحريري، فإن الرواية ستُنهي رحلةَ الآدمي في هذا العالم على أحسن حال. لا تُحَدّثوني عمّن قضَوا نحبهم صعقا وحرقا وشنقا وغرقا وذبحا وجوعا وعطشا وإجهادا وانتحارا. لنقُل إنها بعض مبالغات "الشيء" في نزعته التجريبية، وعلى كل حال هو لم يجرّب إلا على نفسه.

ما يهمّني هو أن نجعل الآدمي، خاصة إذا كان صاحب النصّ، يغادر العالم دون مزيد من المشاكل له ولغيره، وأن ينصرف بالحدّ الأدنى من الامتنان لِما غرف من روائع العالم وبأقل قدر من الاحتجاجات العبثية.

يتصاعد من مكبّر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالًا إلى بوابة المغادرة.

ينهض المسافرون من مقاعدهم متوجهين إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا يَنجحون في إخفائه.

كلهم يَجرّون حقائب مثقلة بالذكريات وربما بأشياء يريدون تهريبها، لكنّ الموظفين سيصادرونها بحزم، لا يقبلون رشوة ولا يستثنون أحدا.

ابشروا، السفر في رحلتي المقبلة سيكون دون عفش، وأول عفش سنتخلّى عنه الجسد.

أَغرقُ في مَقعدي وقد وجدتُ مركزا جديدا للملاحظة، أتابع بالبصر وبالخيال هؤلاء المسافرين الذين وصل بهم الطريق -هُم أيضا- لآخر مفترق في هذا العالم. كَم أودّ أن أسألهم واحدا واحدا: ما تقييمك للتجربة؟ أَستقبَل بالعودة لو عُرض عليك الأمر؟ هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌّ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدّد الأزلي؟

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق لمفترق الوداع الأخير، هلّا أشبعتَ فضولي بالرد على سؤال تابعني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوما على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل هي رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدتَ نفسك فيها وهل هي حقًا -كما أردتُ- في التفاصيل سيرةُ ذاتٍ وفي الثوابت سيرةُ كلّ ذات؟

يعود الصوت المخملي إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيصٍ يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء: الرجاء من السيّد غريب التقدُّمَ لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد مَن؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أُواصِل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفاتي المبعثرة.

فجأة يتجدّد النداء بحدّة تنمّ عن توتّر عصبي لحسن الحظّ في بدايته: المطلوب من المدعوّ غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

تُرى ما سببُ عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافدة الصبر.

قد يكون آدميا لم يُكمِل بحثه ولم ينته من تدبيج تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. بِربّك أيُّ تقرير جدّيٍّ يمكنكَ كتابتُه وهذا عالمٌ عَبرتَه كَمَن يزور مدينةً سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... عالم مثل فيلم نَدخله بعد بداية العرض، يُطلب منا الخروج قبل نهايته ولا يُعطَى لنا حتى الوقتُ الكافي لاكتشاف أحسن وضعٍ للجلوس.

نعم، ما زال هناك أَمامي الكثير من العمل لإنضاج وصَقل تصوراتي عن هذا المبهم الأصلي الذي أسميه ''الشيء''، عن مخيلته التي لا يستنفذها وصف والتي أسميها العتمة، عن تبلوره فيما لا يحصى من الأجناس الحية، اللاحَيّة، الواعية، اللاواعية، عن خَلقه-استكشافه لعوالم لا تُعدّ ولا تحصى واضعا بينها حدودا لا تُخترق ليبقى لكل عالم طرافته، عن تجسّده في كائن-عالَم اسمه الآدمي، عن وضعه في هذا الكيان الخاصيةَ ونقيضَها لبلورة أوسعِ وأعمقِ طَيفٍ من الأحاسيس والمشاعر والقصص. ماذا ؟ ألم تردّد دوما لنفسك أن أفضل رؤيا ليست التي تكشف كلللللّ الأسرار وإنما التي تعمّقها، ليست التي تقول ما "الشيء" وإنما التي ترفع الجهل به إلى أعلى مستويات الخيال.

يتصاعد من البوق صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالًا فسترى ماذا سنفعل بك.

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبنا، حتى والنداءُ يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار يا ابن الكلب، وبعدها تتحمّل مسؤولياتك.

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرعَ مما كنتُ أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراضي بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد منها لم يتبخر بمحاولة إيهامه أنني لستُ أنا المعنيُّ بأعراضه المزعجة. كل القصص عن نهاية الرحلة إذن جدّية؟ كنت أظنها إشاعات لا تعنيني.

تفتّ فؤادك الأيام فتّا وتنحت جسمك الساعات نحتا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاحِ أنت من أريد أنتا

يصرخ ذَكَرٌ يبدو أنه أخذ الملفّ على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطلّع روحك. يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشتمه.

ثم ينفجر بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة: أنه مِن قَوم حاوَل نبيُّهم أن يُعلّمهم أنه لا أَكْل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع يوما وها هو الآن لا يريد ترك المأدبة.

الكلب ابن الكلب، بعد نهاية الدوام سيعود هو وكم من غبيّ آخر إلى بيته وأنا من سَيَقضي ليلته الأولى في القبر.

مهما صرخوا لن أتحرّك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع.

صراخ متفاقم الحدّة وبدايةُ تجمُّعٍ حولي.

كم مرّةً يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبّر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمّك طلّعت روحنا.
نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الآدميين وقد حافظ جلّهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من تسليط الضوء عليها ربما لأنني لم أُحبّهم بما فيه الكفاية.
لا أنتَ ولا أحدٌ من الواقفين في الطابور مُهتمّ بمشاكلي، خاصة في هذا الظرف وفي هذا المكان.
مَن هذا الغبي المنتصِب أمامي؟ الغبيّ المعني بالشتيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الحاج الأستاذ الدكتور ولا داعي إلى إجبارنا على استعمال القوّة.
تقول صارخا أنت الآخَر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو مَلاك خبيثِ النوايا، لَبِنَةٌ مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف تريدني أن آخذك على محمل الجدّ؟
ما لكم كلّكم معي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟
ربما جاءت الرؤيا متأخرة لتخلّصني من بقايا سموم رؤًى سقطتُ فيها باكرا كالذبابة في شبكة العنكبوت. يا رؤيا، حان وقتك. ألم أعدّك طيلة هذه السنين لهذه اللحظة. لا تخذليني.
هنا أسلّط عليكَ نظرة أتكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلتَ إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طردة تركله عند الباب في مؤخرته العظمية. آنذاك تَدبّر أمرك معه وحاول تكذيبي إن تَرك لك الوقت.
كل هذا الكلام لا يؤخّر ولا يقدّم. عليّ الإسراعُ بإتمام وصيتي والتأكدُ من خلوّها من الأغلاط.
وصيّة؟ كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح! كم أريق من حبر على أوراق بريئةٍ والنتيجةُ حالة العالم الذي أغادر!
ردّدتُ دوما: لا أنصح أحدا، كلهم يعرفون كيف يخطئون دون حاجة لناصح. لكن، ألم أجد عند كبار الرحالة ما وفّر عليّ كم من مَشاق وما هداني إلى كم من معلم كنت أموت غمّا لو لم ينبهني أحدٌ منهم إلى وجوده.
ليكن، سأترك لهم وصية، أرفقها بالتحذير الضروري: هذه ليست وصفة جاهزة لهداية بالجملة. هذه تجربة حياة، خذ منها ما يلائمك واترك الباقي. أخذتَ أو تركتَ، لا أهمية للأمر وكل التجارب تَجاربُ "الشيء".
في هذه الحالة وبالشروط المذكورة أعلاه، لا مانع لديّ أن أترك لهم وصيّة أعلقها على باب الرحيل.

خَلاص، فرغنا من كتابة الأسطر الأخيرة، لم يبق سوى الاستئذان.
الخيار بين روايتين لِما حدث أمام آخر مفترق طريقَي هذا العالم.
[الأولى التي يجب أن يكذّبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضتُ من مقعدي خائفا مرتبكا ،أنني أدرتُ البصر باحثا عن مَهرب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقي، أنني أَفلتُّ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه مَلّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا آه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جرّا من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقي وأنا الممسك بخناقه، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو

الباب الدوّار وأنني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شُغلُهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الورقة، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تَفضّل فأنت المدعوُّ الشرفي، فتفضلتُ قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدِّق أنني لم أعضّه كما كان يَتوقع، هو الذي صدَّقَ -مثل الكثيرين-كلَّ الإشاعات عني، أنني غافلته لألصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى فاتحا ذراعيّ لما سيأتي.

لم الأسف وأنا أغادر الوليمة -خِلافا لما اعتقدوا-شبعانا، نِلتُ من الحياة كلَّ ما بوُسعها بَذله.

"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوباتِ لأقوَى

طلبتُ العِلم

فأعطاني مشاكلَ للحلّ

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلاتٍ للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عَقَبات أتسلقها

طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهبَ

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج".

العالَم الآن يرمي في وجهي قُفّاز التحدّي الأخير: بعد نجاحكَ لا -أدري كيف-في مواجهة صعوبات الحياة، ها هي صعوبة مواجهة الموت، أَرِني براعتك.

المشهد الأخير

طبيب شاب أمام فراش شيخ محتضِرٍ، يَسمعه يهمس لنفسه: اللهم لك الحمد والشكر وقد تمت الرحلة على خير.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محدّقا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ آن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثّره، تَتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرَّر.

الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مَهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجِنّة في رحم الخيال. يهمس شبحٌ: لا تَخَف، الجسم مهيأ للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهّل العبور. وسط النفق الرابط بين العوالم ألف طريق وطريق. تتدافع الكائنات المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لستِ الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى" هنا"، على كل حال برافو، أحببتُ أداءك. مَن منكم رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملفّه غاضبا وشتم الموظفين

واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرّة العقرب. آه، هذا أنت من لاعبني دور " ح"! لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد. ولو. والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك. رأيتَ في مرآة ذاتك أجملَ صوَر ذاتي، وأجمل صور الآدمي أصبح إنسانا. تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم. لمَ لا يكون لنا لقاءٌ جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة. خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك، رجاء لا عودة إلى التدخين، وجملةً إنها سيجارتي الأخيرة. آه، هذا أنت، يا مَن كنتَ لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران. غفرتُ لك أنك كنتَ أول من بثّ فيَ هاجسَ الموت. حظًّا سعيدا في رحلاتك المقبلة وحذارِ من حصباء العوالم المجهولة. أنت "هنا"! كنتُ أظنك ما تزال تناضل. ما زلت على عداوتك لي؟ آه كنتَ تمثّل! طبعا وأنا أيضا. كلّنا كنا نمثل على أنفسنا مع بعضنا البعض. كم كنتَ لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتَني على أن أستلّ من أعماقي كلَّ طاقاتي لمواجهة ضرباتك الموجِعة. وأنا أيضا أوجَعتُك كثيرا! شكرا على الثناء. وأنت، مَن أنت، لا أتذكّرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكْلَ كبدك ونحن نشرحُك؟ كنتَ تسمعنا! حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتُك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخيّبتُ ظنّك لَما فررتُ أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتَ تريدني أن أفعل بخرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهامّ! على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريدتك أو أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عُنقه الأسد، أمرٌ مفهوم. لكن ما الذي دهاك لتُجرّب شيئا بغباء الوجود خروفا؟ آه، لم يكن ذلك مشروعك الأخرق الوحيد. سأفتعل عدم فهم التلميح. تتنهّد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في ثمنها لِملاحمَ أكثر إثارة وخطرا. موافق، موافق، موافق، خاصة أكثرها خطرا. لا شيء أَحبُّ لديّ من الأخطار. بالمناسبة تهانيّ الحارة لك وأنت تلك السلحفاة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والطيورُ الجائعة تنقض عليك لتخطف حياةً في أُولى بداياتها. يا مَا أظهرت من شجاعة تلك الليلة ثم بقيةَ العمر وأنت تصارع محيطا كاملا للبقاء. أنجحُ أدوارك على الإطلاق. ما مِن شكّ لديّ أن أروع أشكالك وأجمل تجلياتك وأنبغ اكتشافاتك ما زالت كالأجنة تنضج في رحم الزمان.

حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكّك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها اليدُ الخفيةُ خَلط الأوراق ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل، لتنتظم الحروف في نصوص تجدّد القصص، لتتجمّع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرَها ذاتٌ.

يتسارع التوغّل داخل أعماق ذاتٍ بصدد إطفاء الأنوار داخلها. شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات المطر وهي ترتطم بزجاج النافذة.

يتوقف عازف البيانو عن النقر.

يبهتُ تدريجيا بريق النجوم.

يتلاشى ربع ابتسامة خجول من الأفق.

يتعمّق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف كالأمواج لَمّا يأتيها الأمر من القمر. انتهى العالَم المنتهي من جمع أشيائه وكلِّ أدوات الإغراء.

يزداد استرخاء شيخ به الآن شُبه نَفاد صبرِ مَن يعرف أنه في آخر خطوة لملاقاة الموعود.

الذاتُ الآن كقطرة عَبَرت السماءَ سحابا عَرَفَت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل زَخَم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيع وتتجدّد في أوسع ذاتٍ، في الذات الأوسع.

دمعة حارقة تسيل على خدٍّ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تذرفها أصعبُ بنت على أصعب أب. لم نعد بحاجة للمشي على خدّ والحبيبُ لا يشاء إلا ما شاء المحبوب، والمحبوب لا يشاء إلا ما شاء الحبيب.

آخِرُ الصوَر التي تَعبُر ذِهنا بصدد إغلاق آخر ملفٍّ شَبَح شيخٍ مُنحَنٍ على الأرض يَضرب بمسحاته القصيرة الأرضَ ببالغ اللطف، كأنه يخشى عليها من الوَجَع، يَعِدُ الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر.

افتحي باب شساعتكِ يا عَتَمة، إنني جاهز ويا قِوى الدمار تَرفّقي بأناتي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطِها شجاعةَ المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البحّار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمان.

"ما أن جذبت كفني على عيني (هايكو مهدى لروح إيسا)
حتى تصاعد صراخي من ألف ألف حنجرة
وأنا كل مولود جديد"

**

عالم الآدميين، 350.000 جيلا بعد طوماي، 75حولا بعد هيروشيما.

مُعلَّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالَم شكلٌ-حالةٌ-لحظةٌ من "الشيء"،
"الشيءُ" هو كل شيء، أيُّ شيء هو "الشيء"،
مَثله كمَثل دَوحة ولّادة يَبلى الزمانُ ولا تَبلى،
أغصانُها ما لا يُحصى ولا يُعدّ من كائناتٍ-عوالِمٍ،
نَمْلٌ، نَحْلٌ، قَمْل، فِطر، شَجر، بَشر،
كلّها تتبارى غرابةً وإعجازا، تتساوى قيمةً وقداسة،
أمامها تُحنى الهامات تهيّبا واحتراما،
عَبْرَها ، كالفنّان في أوَج الخلق ، كالطفل في غَمرة اللّعب،
يستكشفُ "الشيءُ" الطّيفَ اللّامتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا بلورَ من وحي ابداعه عالَمَنا هذا،
أقطعه طرفا من المكان ، أجازه قبسا من الزمان،
سَنَّ له قوانين هي خِبرتُه وإرادتُه،
فلا وجود فيه لكائن أو كيان دون نقيضه اللدود،
لا حراك إلا وهو صراعُ-تعاضدُ الأضداد،
لا سكون إلا تأهُّبا للكرّ والفرّ،
الكلّ آكلٌ ومأكول، الكلّ فريسةٌ وصيّاد،
البِناء والهدم مِن الأزَل، الإعمار والدمار إلى الأزل،
على أسوأ وَضعٍ ودواليبُه تعاني شتّى أصناف الخلل،
على أحسن حالٍ ودواليبُه تُعدِّل كلَّ نقص بذكاء عجيب،
على الدوام جحيمٌ وسطَ الجنّة، جنّةٌ وسطَ الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
جيلا بعد جيل ، من المهد إلى اللحد،
على طول طريق الوعيد والوعد،
والبشريةُ الفاعلُ، المفعولُ بها والفِعل،
جَرَّب "الشيءُ" وهو كلُّ ممثِّل، كلُّ مُخرج وكلُّ دَور،
مِن الأحاسيس والمشاعر، مِن الأفكار، من الأعمال،
من قصص الأفراد ومن ملحمات الأمم،
ما لم يَعش في أيٍّ من عوالمه الأخرى،
وفيكَ، كما لو كنتَ محاوَلَتَه الأولى،
كما لو كنتَ رهانَه الأخير،
يواصل سَبر أغوار حُلوِ ومُرِّ الوجود إنسانا.

هكذا انبثقت في عالمِ الرعب والانبهار هذا،
إلى الأبد المفاجأةُ أسلوبه، خاصيتُه الإعجاز،
لتستكشفَ ما فيه من ثراء لا يَستنفذه دِين أو علم،
لتنتبه لغرابته إن لم يطفئ فيك التبلّد الإعجاب والعجب،
لتتأمّله، طفلا، رسّاما، موسيقيا، وشاعرا،
لتذرَعه مغامِرا تُوِّجَت هامتُه بإكليل الغار وإكليل الشَّوك،
لتتحمّل من الأعمال الأشقَّ والأخطرَ، تكلفةً لمواصَلة الخَلق،
لتجرّب النجاح والفشل ، القدرة والعجز ، اليأس والأمل،
لتعرف الخيرَ والشرّ، الحبَّ والبغض، الجمال والقبح،
سيّان عنده المتعةُ والألم، السعادةُ والشقاء، الأفراح والأتراح،
وكلُّها تَجاربُ لا مناص منها، تأتي كالكابوس تمضي كالحُلُم،

لا هدف للوجود إلّا الوجود، عبثٌ البحثُ له عن مَنفعة أو معنًى.
لا غاية للرحلة إلا الرحلة، عبثٌ تقييمُها بالنجاح والفشل.
الإنسان شيء كَلَا شيء لأنه الجزء في الكلّ،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكلّ في الجزء،
الموتُ فاصلٌ لتفكيك القديمِ وبِنَفس اللبناتِ تركيبِ الجديد،
عند وصولك هذا المنعطف من الطريقِ،
ارحل بلا حسرة على ما مضى،
بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتمَمتَ مهمّتَك على أحسن وجه ،
أوجدتَ عالَما طريفا ارتحلتَ بين أهواله وروائعه،
وأنت خَيالُ "الشيءِ" يمشي على قدمَين.

الآن وقد أتممنا معالجة النص ونجحنا في استعمال كل معطياته لبعث العالَم الرميم، كيف سيواجِه الراوي صدمة إفاقة جديدة؟

هل سيُصدِّق –حتى وإن كان من المدركين بأن الموجود دَوما أغربُ من أغرب تصوراته له–أننا لسنا آلهة أساطير بني جنسه وإنما علماء من مستقبله البعيد، أصبح بوسعهم إعادة تركيب كائنٍ من مقاطعَ متفرّقةٍ لنصّ أو لصوَر أو لرميمٍ له ملايينُ السنين.

كيف سنُقنعه أن مِهنتنا ترميمُ العوالم المندثرة وبيعُها لعشاق الآثار سعيا لتحسين ميزان المبادلات التجارية للعشّ المقدّس الذي باركَتهُ من بين كل الأعشاش مَلِكةُ النمل؟

خاصة هل سيَقبَل اعتذارنا لإخراجه من راحة العدم؟

ولأنه بالطبع الذي نعرف، إلى أيّ مدى يمكنه تشكيل تهديد للأمن الروحي وللنظام العام للمملكة وما الاحتياطات التي يجب اتخاذها من الآن تحسبا لكل احتمال؟

المعلّق

الكاتب

أستاذ سابق في الطب الاجتماعي بِكُلّيتَي طب سوسة وباريس (1982-2003)
حقوقي تَرأس منظمات حقوقية تونسية وعربية وإفريقية (1989-2002)
كاتب له عديد الكتب في مجالات الطب والفكر والأدب بالعربية والفرنسية.
سياسي عارَضَ الاستبداد في تونس والعالم العربي. رئيس جمهورية تونس (2011-2014)

الكتاب

"تأتي يوما رغبة التدوين للرحلة، بمفهوم المعرّي طبعا، لا بمفهوم ابن بطوطة.
يتّضح لي من البداية ما الذي سيكون مطلوبا لِعمل كهذا.
يجب أن أتفحّص كلَّ ما تراكم في الذاكرة طيلة هذه العقود التي لم انتبه لمرورها السريع.
يجب تنظيم هذه المعطيات التي تُشكل عصارة تجربتي في ملفات كبرى: التي تتعلق بأهمّ الأحداث التي حدّدت مساري، التي تتعلق بالمواضيع التي شغلت العقلَ ولا تزال.
يجب أن أتمعّن في المتغيّرات التي تُميّز قصّتي عن كل القصص، وأن اكتشف وراءها الثوابت التي تجعلها تنويعة على نغم قارّ.
كل هذا لِفصل الزبد عن الزبدة، لعلّ المعنى ينبثق من كل الحيرة التي صاحبَتني طوال الحياة.
أهزّ الكتفين، مستخفّا بنفسي مشفقا عليها، أُحبط الفكرة لمجرّد، تخيّل ما يَتطلّبه مشروع كهذا.
من أين للسرد أن يتجدّد في رواية قِصةٍ كُتبَت قبلي بألف لغة وألف أسلوب؟
من أين للوصف أن يصف المستعصي على أدقّ وصف؟
من أين للتعليق أن يأتي بكلام ذي قيمة في عالَم سفّه كل ما قيل فيه من آراء؟"